تأليف

الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

المغول في التاريخ



الجزء الأول ١٩٨٠

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت ص . ب ٧٤٩

المغول في التاريخ

تأليف

الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

الأستاذ المساعد بجامعة عين شمس
وجامعة بيروت العربية

الجزء الأول

١٩٨٠

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى جامعة بيروت العربية في عيدها العاشر
إلى هذه الجامعة التي تسير قدماً إلى الأمام
ممثلة في أساتذتها الأجلاء من صفوة العلماء
وطلبتها الذين هم مناط الأمل وموضع كل رجاء
أُهدي هذا الكتاب

كيفية نطق الحروف الفارسية

المستعملة في هذا الكتاب

(١) الحرف الفارسي (پ) ينطق مثل حرف (P) في اللغة الإنجليزية

(٢) 〃 〃 (چ) 〃 〃 〃 (Ch) 〃 〃 〃

(٣) 〃 〃 (ژ) 〃 〃 〃 (J) 〃 〃 〃

(٤) 〃 〃 (گ) 〃 〃 〃 (G) 〃 〃 〃

في كلمات : (Big — Gun — Garden) أو مثل الجيم المصرية في اللهجة الدارجة .

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

ترجع صلة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد بتاريخ المغول إلى زمن بعيد. وقد كان مدخله إلى هذه الدراسة، دراسته للغة الفارسية ونصوصها من أدب وتاريخ. وهو نِعْم المدخل؛ فإن دراسة النصوص الأدبية توضح كثيراً من جوانب التاريخ، وخاصة أن تاريخنا الإسلامي مرتبط كل الارتباط بالآداب الإسلامية من عربية وفارسية وغيرها.

وكنت أعلم اهتمام الدكتور الصياد بالمغول، ومؤرخهم الكبير «رشيد الدين» مما حفزني على أن أطلب من الصديق الدكتور الصياد أن يؤلف كتاباً موجزاً في تاريخ المغول. فاستجاب لدعوتي، ونشرنا الكتاب بعنوان «المغول في التاريخ»، القاهرة ١٩٦٠ في مجموعة «المكتبة التاريخية» التي كانت تصدر في ذلك الوقت.

وقد اُستقبل الكتاب استقبالاً طيباً من الباحثين والطلاب في مصر وغيرها من أقطار المشرق العربي، ونفدت طبعته في زمن قصير.

وفي هذه السنوات العشر التي مضت منذ أن صدر كتاب «المغول في التاريخ»، ثابر الزميل الدكتور فؤاد الصياد على اهتمامه بأصول التاريخ

المغولي، منفرداً حيناً ، ومشاركاً بعض زملائه حيناً آخر . ومن ذلك ترجمة الجزأين : الأول والثاني من كتاب« جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله الهمذاني ، وكتاب« راحة الصدور في تاريخ السلاجقة » لمحمد بن سليمان الراوندي ، وهو متصل أيضاً بتاريخ المسرح الكبير الذي عمل فيه المغول ، وهو الشرق الإسلامي . كما نشر كتابه الذي ألفه عن « مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمذاني » .

ولا شك أن الدكتور الصياد بما ألّف وما ترجم في تاريخ المغول وآدابهم ، قد استكمل الأداة التي يستطيع استخدامها في إعادة كتابة تاريخ المغول . ثم كان تدريسه لهذه المادة في جامعة بيروت العربية ، مع ما أشرنا إليه من نفاد الطبعة الأولى من كتاب « المغول في التاريخ » ، كان هذا حافزاً للدكتور الصياد لتأليف هذا الكتاب في تاريخ المغول الذي يسرني أن أقدمه اليوم إلى جمهور القراء بعد أن كان لي حظ تقديم كتابه الأول .

وإذا كان الدكتور الصياد قد التزم — أوكاد — برؤوس الموضوعات التي عالجها في كتابه الأول ، فإن هذا أمر طبيعي ؛ إذ يتناول الكتابان بالدراسة موضوعاً كبيراً واحداً هو تاريخ المغول على أيام حاكميْهم الكبيريْن : چنگيزخان وهولاگوخان . على أن قارىء الكتاب الذي نقدمه اليوم ، يلحظ إفادة مؤلفه من الدراسات التي قام بها في السنوات العشر الماضية ، وهي التي أشرنا إليها من أصول التاريخ المغولي .

وهكذا جاء كتاب اليوم أوسع أفقاً وأكثر تفصيلاً من كتاب الأمس . وإني إذ أهنىء الصديق الدكتور فؤاد الصياد بصدور كتابه الجديد في تاريخ المغول ، أرجو أن تتاح له الفرصة قريباً ليتوفر على دراسة التاريخ المغولي بعد هولاگو ، وهي مرحلة هامة من تاريخ المغول ، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بأحداث الشرق الإسلامي ، وظهرت في خلالها شخصية قائد كبير آخر هو تيمورلنگ .

وأنا أعلم أن الدكتور الصياد يعد الجزء الثاني من تاريخ المغول فنرجو أن يشمل دراسة هذه المرحلة من تاريخهم . وبذلك يكون للدكتور الصياد فضل كتابة تاريخ المغول منذ ظهورهم على مسرح التاريخ ، معتمداً — في الدرجة الأولى — على أصول هذا التاريخ في الآداب والروايات التي دونت باللغة الفارسية . وهذه — فيما نقدر — الميزة الأولى التي يتمتع بها كتاب الزميل الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد على غيره من المؤلفات التي عالجت نفس الموضوع .

وعلى الله قصد السبيل .

أحمد عزت عبد الكريم

بيروت — آذار (مارس) ١٩٧٠

مقدمة المؤلف

تعد حملات المغول على مراكز الحضارة الإسلامية ، ونشوء دولتهم الكبرى التي كانت تضم الصين وإيران ، وما بين النهرين وآسيا الصغرى ، وشرق أوربا أهم حوادث التاريخ في القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) . ومع أن غارات البدو على البلاد المتحضرة أمر مألوف ، إلا أننا لم نر قوماً آخرين غير المغول — قد استطاعوا أن يغزوا في مدة قصيرة مثل هذه الأقطار التي كانت قد بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والمدنية .

ولا شك أن استيلاء المغول على هذه الرقعة الفسيحة من العالم ، وما تبع ذلك من ضروب القسوة البالغة التي أدت إلى انقراض دول ، وذهاب عروش ، وتقتيل آلاف عديدة من السكان ، وتخريب أمهات البلاد — لما يجلب أنظار المؤرخين ويشجعهم على تأريخ تلك الفترة .

أجل !... كانت هذه الأحداث وأشباهها خير حافز للمؤرخين والكتاب على تأريخ تلك الواقعة التي لم يسبق لها مثيل في فظاعتها وقسوتها وخطورة نتائجها . ولا غرو فليس هناك فترة من فترات التاريخ ، تقدم مثل هذه السلسلة الهائلة المتتابعة الحلقات ، المتلاحقة العرى من الكوارث المتنوعة المروعة ، أو مثل هذه المجموعة من الفتوح التي تشبه الأساطير ، والتي لا تدانيها فتوح

الإسكندر ، وفتوح الرومان ، أو هذا التجمع الغريب لضروب الإفراط من كل نوع ما بين أعمال وحشية ، وفظائع تثير القلب والعقل ، تصحبها أعمال ناصعة البطولة وأفعال ملأى بالشجاعة والرجولة والنبل ، وانتصارات تشبه المعجزات . يذكر المؤرخ رشيد الدين في مقدمة كتابه جامع التواريخ أنه بواسطة التاريخ يعلم ابتداء كل ملة ، وأول كل دولة ، وأن ظهور دولة جنكيزخان ، كانت أعظم حادثة في هذا الزمان . لهذا كانت جديرة بالتأريخ ؛ إذ أنه في زمان يسير فتح بلاداً كثيرة ، وقهر الجبابرة وكسرهم بأيدي بطشه ، وداسهم بأقدام قدرته ، وأورثها أولاده وأحفاده . وكان من عادة العلماء ورسم الحكماء أن يؤرخوا معظمات الوقائع من خيرها وشرها في كل زمان حتى يعتبر بها أولادهم وعقبهم ونسلهم ، ويعلموا أحوال الأدوار في القرون الماضية ، ويسمعوا تذكير السلاطين المقدمة والأكاسرة الأول ، ويبقى ذكرهم مخلداً على صفحات الأيام والليالي في بطون الأوراق[1] .

ولم يكن بد إذن من أن يُكْتَب شيء عن المغول في كل البلاد التي فتحوها . ومن هنا كانت المصادر التاريخية أحفل بالمعلومات عن عهد المغول منها بالمعلومات عن العهود الأخرى .

ففي البيئات العلمية بغرب أوربا فاق الاهتمام بتاريخ دولة المغول ، الاهتمام بكل الدول الشرقية في العصور الوسطى[2] .

وعلى العكس نرى أن فترة الحكم المغولي في وطننا العربي ، لم تحظ لدينا بالعناية الكافية ، إذ قلت الكتب المؤلفة بالعربية في هذا الموضوع . مع أن كل محاولة للإقدام على دراسة هذه الفترة وبيان ما نجم عنها من نتائج سوف تكون

---

(١) انظر رشيد الدين : تاريخ الغازاني ، صور شمسية ، دار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٨٨٩ ، ورقة ٢١ .

(٢) انظر بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ١٤٩ .

ـــ بلا ريب ـــ شيقة ومثمرة ؛ خصوصاً وأنه كان لنا ـــ نحن العرب ـــ دور مشرف في إنقاذ الحضارة البشرية من خطر هؤلاء القوم . فلقد استطعنا بفضل اتحادنا وتضامننا أن نجابه هذا العدو الشرس في ثبات وعزم وثقة ، وانتصرنا عليه نصراً مبيناً .

وإذن فهذا النضال الرائع هو جزء لا يتجزأ من تاريخنا الحي ، ينبغي أن نذكره على الدوام ، ونعتز بأمجاده ، ونستلهم منه العظات والعبر ، خصوصاً في هذه الآونة التي نسير فيها للجهاد ؛ لكي نقضي على أطماع الصهيونيين ودسائس المستعمرين .

كذلك يخطىء من يظن أن المغول كانوا مجرد شعب همجي بربري مغير . وإذا كانت فترة الغزو المغولي على يد جنگيزخان وخلفائه للبلاد الإسلامية في بادىء الأمر فترة عصيبة عانى فيها المسلمون القتل والتعذيب، وحل ببلادهم الخراب والدمار ، فإن هذه العاصفة الهوجاء صارت تهدأ تدريجياً حتى جاء الوقت الذي تأثر فيه المغول بحضارة المغلوبين، واعتنقوا دينهم ، وشرعوا يصلحون ما أفسده آباؤهم ، وأقبلوا يساهمون بنصيبهم في إنهاض الحضارة الإسلامية في شتى مظاهرها .

لقد اهتم المغول كل الاهتمام بتشجيع العلوم ذات الخطورة العملية كالطب لحفظ الأبدان ، والرياضة والهيئة لاختيار الأوقات . فنحن نعرف أن هولاگو بعد أن فتح بغداد وخرّبها ، أقام مرصداً كبيراً في مدينة مراغة بأذربيجان أعده بأدق الأجهزة المعروفة في زمانه، وأن العالم الفلكي نصير الدين الطوسي الذي كان يشرف على هذا المرصد ، قد ألحق به مكتبة كبيرة تحوي نحو ٤٠٠ ألف مجلد . كذلك أقام قوبيلاي جامعة في خان باليغ (پكين) بعد الاستيلاء على أقاليم الصين الشمالية .

ولكن على الرغم من ذلك لم يتوقف التأليف في العلوم الأخرى والآداب، بل ظل سائراً في طريقه ، إذ أنه من المحال أن يضيع كل هذا التراث الإسلامي

المجيد دفعة واحدة ، وتنطفىء مشاعل العلم والأدب نتيجة لحملات المغول مهما كانت عنيفة قاسية ؛ ذلك لأن تمسك الناس بالأمور المعنوية كان لا يزال قوياً محكماً ، كما أن علاقتهم بالثقافة والمعارف لم تكن قد انقطعت بعد . وعلى أثر سقوط بغداد في أيدي المغول ، انتقل مركز الدراسات الإنسانية إلى مصر . وفي نفس الوقت تفرق العلماء والأدباء في أنحاء العالم الإسلامي ، فزاد ذلك من قوة الجامعات والمدارس بالجهات التي حلوا بها . يضاف إلى ذلك أن انتقال مركز النشاط العلمي من بغداد إلى القاهرة ، هيّأ للعالم الغربي أن يحصل على ثقافة الشرق وعلومه . وإذا كان چنگيزخان نفسه غازياً مخيفاً ، سفاحاً سفاكاً ، فإنه يجب ألا ننسى أنه هو الذي حطم حواجز العصور المظلمة ، ووصل بين أقاصي آسيا وأوربا المسيحية ، فظهرت قارة أوراسيا لأول مرة في التاريخ حقيقة ملموسة أمام البشرية .

كل هذه العوامل كانت خير مشجع لي على أن أكتب في تاريخ المغول ، فألفتُ كتابي الأول « المغول في التاريخ » ، وهو كتاب موجز ، نشر في مجموعة « المكتبة التاريخية » ، القاهرة ١٩٦٠ بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم . ولقد استقبل القراء والمتخصصون هذا الكتاب أحسن استقبال ، ونفدت طبعته في مدة قصيرة .

ثم نشرتُ رسالة الدكتوراه بعنوان « مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمذاني » ، القاهرة ١٩٦٧ . وهي الرسالة التي كانت في الحقيقة مفتاحاً لدراسة العصر المغولي دراسة مستفيضة ، والإحاطة بزواياه وخباياه ، والتي أدت أيضاً إلى ترجمة بعض الأجزاء من كتاب جامع التواريخ إلى العربية بإشراف الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب . والمعروف أن هذا الكتاب هو أهم موسوعة ألفت باللغة الفارسية في تاريخ المغول في العصور الوسطى .

وفي هذا العام عهدتْ إليّ جامعة بيروت العربية بتدريس مقرر « تاريخ المغول » فسنحت الفرصة لكي أعيد النظر في كتابي الأول إعادة شاملة ،

فأضفتُ إليه إضافات كثيرة ، وصححتُ ما اقتضت البحوث العلمية الحديثة تصحيحه ، معتمداً أولاً على المادة الحية الخصبة ، والتفصيلات الكثيرة المفيدة التي اشتملت عليها المصادر الفارسية .

وهكذا أخرجتُ كتاب « المغول في التاريخ » إخراجاً جديداً آخر على النحو الذي أضعه الآن بين أيدي القراء ، وآمل أن يحوز رضاهم .

أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فسوف أخصصه — بمشيئة الله — لتاريخ الإيلخانيين أو مغول إيران الذين يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بأحداث الشرق الإسلامي .

وقبل أن أختم هذه المقدمة أتوجه بخالص الشكر إلى العالم المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم » لتفضله بتقديم هذا الكتاب ، وإلى الزميل الدكتور « حسن أبو العينين » مدرس الجغرافيا بجامعة بيروت العربية لتفضله بإعداد الخرائط .

كذلك لا يفوتني في هذا المقام أن أنوه بالجهود التي بذلها الأستاذ « مصطفى كريدية » صاحب دار النهضة العربية للطباعة والنشر ببيروت في سبيل إخراج هذا الكتاب في ثوبه الأنيق من دقة الطبع وحسن التنسيق . فله مني الشكر والثناء الحسن الجميل .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما كتبت . وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

فؤاد عبد المعطي الصياد

بيروت — آذار (مارس) ١٩٧٠

الفصل الأول

قبائل الترك والمغول في القرن السادس

الفصل الأول

قبائل الترك والمغول في القرن السادس الهجري

لا شك أنه من السهل اليسير علينا أن نتحدث عن الدول المتحضرة التي كانت تقوم في القــارة الأسيوية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، تلك الدول التي شاءت لها الأقدار أن ترتبط فترة من تاريخها بتاريخ المغول .

ولكننا إذا أردنا أن نبحث عن طوائف الأتراك والمغول التي تسكن أيضاً تلك القارة في ذلك الوقت ، فإنه يصعب علينا أن نصل إلى حقائق ثابتة في هذا الموضوع ؛ إذ أن سيرة القبائل البدوية تبدو كأنها لن تنسق أو تنتظم ، فإن أحداث تاريخها بلغت من شدة الاضطراب ، ما يجعل من المستحيل التماس خيط واحد يضم هذه القبائل بأسرها . فالأحداث الداخلية ، والحروب التي نشبت دائماً بين القبائل ، والتي لا بد للباحث أن يتتبعها حتى يقف على ما يجري بين هذه القبائل من مخالفات ، كانت من العوامل التي تعوق المؤرخ وتعطله عن المضي في دراسته[1] . وهناك مصادر كثيرة كتبت عن تاريخ المغول ، ولكنها لا تمدنا بمعلومات كافية عن أصل القبائل المغولية والتركية ، ولا أجناس الأمراء والشخصيات الأخرى البارزة .

---

(١) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ٢١ .

وتصادفنا أيضاً هذه العقبات إذا ما رحنا نبحث عن التاريخ المبكر للمغول . حقاً هناك مصادر قليلة تناولت تلك الفترة من تاريخ المغول ، ولكنها كانت تعرض سلسلة من المعلومات الناقصة التي تعوزها الدقة في نفس الوقت .

ومعنى هذا أن التاريخ البدائي للمغول ، لا زال يكتنفه الغموض ، ويخيم عليه الظلام ، وتختلط به الخرافات والأساطير . يقول المؤرخ رشيد الدين[1] : « وحيث أن الأقوام الموسومين باسم الترك مقامهم وسكنهم في البلاد البعيدة التي طولها وعرضها من ابتداء طرف ماء جيحون وسيحون إلى انتهاء حدود بلاد الشرق وانتهاء صحراء قبجاق إلى غاية نواحي جورجية والختاي ، ويسكنون الجبال والوهاد والآجام، ولم يعتادوا السكنى في القرى والبلاد — كانوا بعيدين عن بلاد ايران ، لم يكن في تواريخ المتقدمين من أحوالهم ذكر مستوفي » .

« نعم قد ورد في بعض الكتب شيء يسير من ذكرهم ، ولم يجدوا من أرباب الحقيقة أحداً يتحقق أحوال أخبارهم ، ويتفحص من آثارهم وحكاياتهم كما ينبغي مشروحاً ومبسوطاً ، ومع أن الأتراك والمغول وشعبهم يتشابهون ، ولغتهم في الأصل واحدة ، فإن المغول صنف من الأتراك وبينهم تفاوت كثير واختلاف سنشرحه في مواضعه إن شاء الله تعالى . وهذا الاختلاف أيضاً إنما وقع بسبب أن تواريخهم المحققة لم تقع في هذه الديار » .

يمكننا أن نفهم من هذا أن الحاجة كانت ماسة إلى كتاب يعرض تاريخ المغول عرضاً حسناً خصوصاً فيما يتعلق بالأزمنة القديمة والفتوحات الأولى إذ أن الباحث يهمه عندما يتناول التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية أن يستطيع التمييز بين الحقائق التاريخية المقبولة وبين الأساطير . ثم إن المعلومات عن المغول الأول تبدو جوهرية للطالب الذي يريد أن يتناول بإحكام علاقتهم

---

(١) رشيد الدين : تاريخ الغازاني ، صور شمسية، دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٨٩ تاريخ .

الخارجية فيبرز تأثيرهم في الجنس البشري خارج حدودهم[1] .

ومن الإنصاف أن نقول إن الكتاب الوحيد الذي تدارك هذا النقص ، وشمل معلومات قيمة مدعمة بالوثائق والسجلات عن المغول هو كتاب «جامع التواريخ» الذي كتبه باللغة الفارسية في عام ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) المؤرخ الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، فلولا هذا الكتاب لجهلنا الشيء الكثير عن تشعب القبائل التركية والمغولية . ولهذا كان أكثر اعتمادنا في كتابة هذا الفصل على الكتاب المذكور .

ومهما يكن من أمر ، فإنه في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كانت القارة الأسيوية بوجه عام تضم الدول والقبائل التالية :

١ ــ الصين وكانت مقسمة بين أسرتين حاكمتين :

(ا) أسرة «كين» Kin الذين كانوا يرأسون طوائف من الجنس الأصفر ، ويسيطرون على ممالك الخطا أي الصين الشمالية . هذا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في منشوريا ومنغوليا . وقد اتخذوا مدينة پكين عاصمة لهم ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مدينة «كاي فونج» Cai Fong ، وجعلوها العاصمة بدلاً من پكين . وكان المغول يطلقون على حكام هذه الأسرة لقب « التون خان » .

(ب) أسرة «سونج» Soung ، وكانوا يسيطرون على أقاليم الصين الجنوبية وقد اتخذوا مدينة « هانج تشو » Hang Tcheo عاصمة لهم .

٢ ــ الأتراك الأويغوريون ، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال شرقي تركستان الحالية . وتذكر الروايات أن أوغوز أبا الأتراك كان يؤمن بالله ، ويدين بالوحدانية ، ولكن أباه وأعمامه كانوا كفاراً فنازعوه عقيدته ، وقاموا ضده ، وأرادوا القضاء عليه ، فانضم إليه بعض من أقاربه ، وانحازوا إلى

---

(١) انظر The Cambridge Medieval History, Vol. IV, P. 627.

جانبه ، وصاروا يساندونه ويعاونونه . فأطلق عليهم اسم «أويغور» فغلب عليهم هذا الاسم . و « أويغور » كلمة تركية تأتي بمعنى الارتباط والتعاون[1] . أما البعض الآخر فقد أخذ جانب أبيه وأعمامه وإخوته . ثم قامت الحرب بين الفريقين فانتصر أوغوز وأتباعه . ومن هذه الجماعة تناسل جميع أقوام الأويغور .

والمعروف عن الأويغوريين أنهم ظلوا مدة طويلة دون أن يكون لهم ملك أو رئيس . وكل ما في الأمر أنه كلما ظهر شخص قوي بين إحدى الطوائف ، يصير أميراً عليها . فلما تشاورت تلك الطوائف في شئونها المضطربة قالوا : لا مفر لنا من ملك نافذ الرأي ينزل الجميع على حكمه » . فوقع اختيارهم على شخص يدعى « منكو باى » ولقبوه بلقب « ايل ايلتربر » . ثم اختاروا شخصاً آخر عرف بمقدرته وكفاءته من قوم « أورقندر » ، ولقبوه بلقب «كول ايركين» ، ونصبوا الاثنين ملكين على جميع الأقوام . وقد استمر أعقابهما يحكمون مدة مائة سنة .

وفي النهاية اصطلح الأويغور على تسمية ملكهم باسم « ايدي قوت » يعني رئيس الدولة[2] . والمعروف عن هؤلاء الأوريغوريين أنهم كانوا أكثر الأقوام التركية تمدنا ، وكانت ديانتهم مانوية وبوذية ومسيحية .

٣ ــ الأتراك القراخطائيون ، وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولي ، وتقع ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق . وكان شاطىء نهر سيحون يكوّن حداً فاصلاً بين ممالك القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية .

وأصل هؤلاء القراخطائيين من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين . وقد ورد اسم هذه القبائل في المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادي ، أي

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٣ ، طبع طهران

(٢) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٣٣ .

قبل ظهور الإسلام بزمن طويل ، وهم خليط من المغول والتانجوت . وقد حدث في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أن ظهر من بينهم زعيم قوي أخضع هذه القبائل لسلطته ، ونصب نفسه إمبراطوراً عليهم من سنة ٣٠٤ — ٣١٥ هـ (٩١٦ — ٩٢٧ م) ، وسمى نفسه « تاي تسو » T'ai tsu ، واستطاع خلفه أن يخضع شمال بلاد الصين ، ثم منح أسرته لقب « لياؤو » Liao نسبة إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم . وقد استمرت هـذه الأسرة تحكم من سنة ٣٠٤ — ٥١٩ هـ (٩١٦ — ١١٢٥ م) أي حوالي قرنين من الزمان[١] .

ويرجع سبب هجرة هذه القبائل من موطنهم الأصلي في شمال بلاد الصين إلى اضطراب الأحوال السياسية في النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فساروا إلى أن نزلوا بإقليم التركستان ؛ ذلك لأن أقاليم الصين في ذلك الوقت تعرضت لموجة من الاضطراب وعدم الاستقرار بحيث أنه تعاقب على حكمها عدة أسرات كانت تقضي الواحدة منها على الأخرى منتهزة فترة ضعفها وانحلالها . ومن أمثلة هذه الفترات ما حدث في تاريخ هذه البلاد بين سنتي ٢٩٥ ، ٣٤٩ هـ (٩٠٧، ٩٦٠م) فقد كانت فترة أشبه ما تكون بالعصر الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى ، ثم توحدت هذه البلاد على يد إحدى الأسرات القوية وهي أسرة « سونج » ٣٤٩—٥٢١ هـ (٩٦٠—١١٢٧م) ، وكانت تجاورها في الشمال قبائل الخطا في جنوب منشوريا في الإقليم المعروف باسم إقليم « لياؤو » . وكان هؤلاء الخطا من القوة بحيث استطاعوا أن يفرضوا على أسرة سونج جزية سنوية ، كانت تدفعها درءاً لشرهم .

كذلك كانت قبائل الخطا تسيطر على أقاليم الصين الشمالية . غير أنه

---

(١) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources , Vol. I, PP. 208-209 .

حدث لهذه الأسرة ما حدث لكل شعب محارب بطبيعته عندما يخلد إلى الدعة ، وينغمس في تيار المدنية ؛ فلقد بهرت هؤلاء الخطا الحضارة الصينية ، وما كانت عليه من بذخ وترف ، فتأثروا بهذه الحضارة تأثراً شديداً ، الأمر الذي أفقدهم روحهم الحربية ، وجعل الضعف يتطرق إليهم تدريجياً ، فانتهز هذه الفرصة جماعة « كين » الذين كانوا يسكنون أحد أقاليم منشوريا ، وكانوا تابعين للخطا ، فحارب هؤلاء ساداتهم الذين عجزوا عن مقاومتهم ، فانهارت دولتهم في الصين الشمالية سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م)[1] .

٤ ــ الخوارزميون : وكانوا يقيمون دولة تشمل كل منطقة ماوراء النهر وايران تقريباً . وهم من أصل تركي ، ويدينون بالإسلام ، وكانوا ذوي ثقافة عربية وفارسية .

٥ ــ بقية بلدان آسيا الإسلامية : تقع هذه المناطق غرب بلاد الدولة الخوارزمية . وهي مقسمة بين طائفة الإسماعيلية في ألَـمُـوت ، وكانت ثقافتهم فارسية ، وبين الخلفاء العباسيين في بغداد ، وكانت ثقافتهم عربية ، وبين سلاطين الأيوبيين ، وهم من أصل كردي ، وذوي ثقافة عربية . وكان مقرهم في سورية ومصر ، وبين سلاجقة الروم ، وهم من أصل تركي ، ومغرمون جداً بالثقافة الفارسية[2] ، وكان مقرهم آسيا الصغرى .

تلك أهم الدول الأسيوية المتحضرة . ولكن هناك في أقصى الشمال أي على حدود سيبريا المغولية ، وفي إقليم السهوب شمال صحراء جوبى نحو جبال « التاي » Altai و « خانجاي » Khangai و « كنتاي » بقيت مجموعة كبيرة هي أشبه ما تكون بخلية النحل من حيث تعدد قبائلها وكثرة حركاتها وتنقلاتها من مكان إلى مكان .

---

(١) انظر حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٤٨ .

(٢) انظر محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ، ع ــ ص من المقدمة .

وإن التاريخ الداخلي للاستبس لهو تاريخ جموع الترك والمغول الذين تنازعوا وتخاصموا من أجل الحصول على المراعي الغزيرة ، واجتازوا ــ أثناء حركتهم المستمرة لتوفير الأغنام لقطعانهم ــ المساحات الشاسعة التي هيأت للفرسان منهم كل ما يلائمهم من تركيب جثماني ونوع خاص من الحياة .

هذه القبائل من البدو الرحالة التابعين للفروع الثلاثة : الأتراك والمغول والتونغوز[1] وجميعهم من الجنس الآلتائي . وبالرغم من وجود اختلاف في لغات هذه القبائل إلا أن غالبيتهم كانوا من البدو الذين يقطنون الأقاليم العليا من آسيا ، وكانت حياتهم تجري على نظام واحد ، ويعيشون في جو واحد ، متقاربي الشبه والخلقة . وقد لاحظ ذلك الرحالة الأوروبيون والمؤرخون الصينيون . فنحن نعلم من أقوالهم أن سكان هذه المناطق ، كانوا يتمتعون بصفات بدنية تناسب البيئة التي نشأوا فيها كل المناسبة ، إذ كانت وجوههم عريضة ، ورؤوسهم كبيرة ، وأنوفهم فطساء ، وخدودهم بارزة ، وعيونهم صغيرة غائرة ذات جفون مسترخية ، وشفاههم غليظة ، وذقونهم جرداء ، وشعورهم سوداء خشنة ، وجلودهم سمراء تميل إلى السواد ، قد لفحتها الشمس وأثرت فيها الرياح والثلوج . وهم قصيرو القامة ذوو أجسام ممتلئة كالكتل ، وأفخاذهم قوية العضلات . وهذا طبيعي جداً لأن مثل هذه المناطق الشاسعة التي تجتاحها الرياح الثلجية في الشتاء ، والملتهبة الحرارة خلال عدة أسابيع في الصيف ، تستلزم أجناساً قوية لتكافح ضد هذه الطبيعة بنفس القوة والعنف.

ولا شك في أن تحديد المواقع الجغرافية لهذه القبائل جميعها ، أمر عسير . ولكننا يمكننا بصفة عامة وبطريقة تقريبية أن نحدد أماكن الاستقرار لأشهر هذه القبائل .

١ ــ قبائل التتار : كانوا يقطنون المنطقة التي تحد شمالاً بنهرى أرقون

---

(١) قسم من تاتار المانچو . وقد أطلق عليهم الروس هذا الاسم (تونغوز) ، ويسمون أحياناً (صولون) ومعناها بلغة المانچو : الصيادون والرماة .

وسلنجا Selenga ومملكة القرغيز ، وشرقاً بإقليم الخطا (الصين الشمالية) ، وغرباً بممالك الأويغور ، وجنوباً بإقليم التبت ، ومملكة التانجوت . كانت هذه القبائل من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً في أقاليم آسيا الشمالية . وهم يتشعبون إلى شعب كثيرة . ريذكر رشيد الدين أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعماً ، وأنهم كانوا أثرياء[1] .

وهؤلاء التتار كانوا في أغلب الأوقات مطيعين وخاضعين للملوك الخطا . ولكن من آن لآخر ، كانوا يثورون على الخطا ، فيسرع هــؤلاء لمقاومتهم وإجبارهم على الخضوع مرّة أخرى .

وكما ذكرنا عرف هؤلاء التتار بشدة البأس والجبروت ، وكانوا يعيشون في صراع دائم مع بعضهم البعض . وكانت الحروب تنشب بينهم لأتفه الأسباب. وقد تستمر المعارك الناشبة بينهم عدة سنوات . وقد اشتهروا بالطعان والنزال ، ولم يكن لهم قانون يحكمهم أو شريعة يسيرون عليها . وعلى حد تعبير رشيد الدين[2] : لو كان يسود هؤلاء الأقوام الوئام ، ويؤلف بين قلوبهم الاتحاد لما استطاعت أقوام الخطا ولا غيرهم التغلب عليهم أو النيل منهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن هؤلاء التتار استطاعوا أن يخضعوا أغلب القبائل ، وكانوا يتمتعون بشهرة ذائعة وشوكة كبيرة ؛ بحيث أن قبائل الأتراك الأخرى على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم كانوا يتسمون باسمهم ؛ فأطلــق على الجميع اسم « تاتار » أو « تتر » . يقول رشيد الدين : « إنه لهذا السبب لا زال للآن في بلاد الخطا والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغيز والكلار والباشغر وصحراء القبچاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم « تاتار » على أقوام الأتراك »[3] .

---

(١) جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٦١ ، طبع طهران .
(٢) نفس المصدر ، ٥٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

ولم يهدأ صراع هؤلاء التتار مع بعضهم البعض حتى ظهر چنگيزخان. ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ، ويناصرون القبائل الثائرة عليهم ، كان چنگيزخان ينظر إليهم على أنهم ألد أعدائه وأعداء آبائه وأجداده . فبعد أن انتهى من القضاء على القبائل المناوئة له ، تفرغ للتتار. وكان مدفوعاً بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم ؛ فقام مع جنوده بالإجهاز عليهم واستئصال شأفتهم ، وأصدر أمراً قاطعاً بألا يُتْرك واحد منهم على قيد الحياة . وتنفيذاً لهذا القرار الرهيب ، صار جنود المغول يقتلون حتى النساء والأطفال ، ويشقون بطون الحبالى ، لأنه تأكد لدى المغول أن التتار هم سبب الفتنة وأس الفساد . ولم يقف چنگيزخان عند هذا الحد ، بل إنه لم يترك فرصة لأي شخص لكي يقوم بحماية هؤلاء التتار أو يحاول إخفاءهم . ولكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار ، وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم[١] .

ومما سبق يتضح أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول . ولكن من الغريب أنه على أثر انتصار چنگيزخان على التتار ، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه . وفي بدء هجوم المغول على الممالك الإسلامية كانوا يعرفون بالتتار . كما أطلق عليهم أيضاً اسم « المغول » ، فاشتهروا في التاريخ بهذين الاسمين .

٢ ــ قوم كرايت : Kérait موطنهم الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي ، وجنوب بحيرة بايكال Baikal حتى سور الصين . وهم من المغول[٢] . أما « جروسيه » فيذكر أنه لا يعلم على وجه الدقة ما إذا كان هؤلاء من المغول أم من الأتراك . ولكن المعروف أن كثيراً من رؤسائهم كانوا أتراكاً[٣] . وكان هؤلاء القوم يدينون بالمسيحية . ومنذ أن اعتنق ملكهم الدين المسيحي في سنة

---

(١) انظر جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٦٢–٦٣ ، طبع طهران .
(٢) انظر نفس المصدر ، ص ٨٧ .
(٣) Grousset : L'Empire des Steppes, P. 245.

٣٩٨ هـ (١٠٠٧م) ، ذاع أمره في أوربا ، وراجت الأساطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم .

وقد ظلت قبائل الكرايت منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) أقوى أقوام المغول ، لأنهم استطاعوا أن يخضعوا أغلب الطوائف في الأطراف ، وأجبروهم على الدخول في دائرة نفوذهم . وكان « طغرل » Toghril من أشهر ملوكهم ؛ إذ تغلب على عمه « گورخان » الذي كان ينافسه على العرش ، ونجح في طرده بمساعدة رئيس مغولي هو « يسوكاى » والد چنگيزخان . كذلك استطاع أن يهزم التتار تلبية لرغبة بلاط كين . وبهذا صار طغرل أقوى ملك في منغوليا . وقد منحه إمبراطور كين — تقديراً له على أعماله — اللقب الصيني للملك ، وهو « وانج » Wang ، وعرف في التاريخ بلقبيه الملكيين الصيني والتركي وهما : « وانج خان »[1] .

ويذكر رشيد الدين[2] أن الكرايت كانوا يعادون جمعاً كبيراً من الأقوام الأخرى لا سيما قوم النايمان .

وفي عهد چنگيزخان كان « أونك خان » ملكاً على قبائل الكرايت . وفي بادىء الأمر كانت تربطهما مودة وصداقة . وكان چنگيز خان في سلوكه هذا يقتدي بأبيه « يسوكاى بهادر » الذي كانت علاقته بأونك خان على خير ما يرام . غير أن هذه الصداقة لم تدم طويلاً ؛ إذ اضطر چنگيزخان إلى محاربة اونك خان والقضاء عليه .

٣ — قوم مركيت : Markit ، ويطلق عليهم أيضاً اسم « مكريت »[3] وهم يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكرايت على مجرى نهر سلنجا ، وجنوب بحيرة بايكال ، وكان لهم جيش قوي ذو بأس شديد في الحروب ،

---

(١) انظر Grousset ; L'Empire des Steppes, P, 246.

(٢) جامع التواريخ : ج ١ ، ص ٨٧ ، طبع طهران .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧١ .

ويعدون أصلاً من جنس المغول ، ولكنهم قاموا بعدة حروب ضد چنگيزخان واونك خان .

وقد عرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن . ولهذا شن عليهم چنگيزخان حرباً شعواء مستعملاً أقسى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة . ولم يقف عند هذا الحد ، بل أصدر أمره بالقضاء عليهم جميعاً ، فلم ينج من سيوفهم إلا بعض الهاربين أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم ، أو من كانوا لا يزالون أجنة في بطون أمهاتهم[1] .

٤ – قبائل اويرات Oirat أو اويراد Oyirad ، وهم من أصل مغولي ، إلا أن لغتهم تفترق قليلاً عن لغة القبائل المغولية الأخرى[2] ، وكانوا يقيمون في المنطقة الواقعة ما بين نهر اونن Onon وبحيرة بايكال، وكان عددهم كبيراً . وقد تشعبوا إلى عدة شعب. وكان لهم ملك يأتمرون بأمره . ولما جاء چنگيزخان، خالفوه بعض الشيء ، إلا أنهم سرعان ما قدموا له الخضوع والطاعة ، وتم ذلك على خير وجه . وقد صاهرهم چنگيزخان .

٥ – قبيلة نايمان : من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي ، وهم يقطنون الحوض الأعلى لنهر أرخن ، ومنحدرات جبال التـــاى ، وحول البحيرات الواقعة في تلك المناطق ، وهم يدينون بالمسيحية مثل قبيلة كرايت ، ولكنهم كانوا في نزاع وشقاق مع تلك الطائفة . وقد استعار النايمان مبادىء ثقافتهم من الأويغوريين جيرانهم في الجنوب . وكان هؤلاء النايمان بدوا رحالة يقيم بعضهم في مناطق الجبال الوعرة ، ويقيم البعض في الصحارى .

كان لهؤلاء النايمان ملوك مشهورون وأقوياء ، ولهم جيوش عديدة . وكانت تقاليدهم وعاداتهم تشبه عادات المغول . وفي قديم الزمان كان يطلق على ملوكهم

---

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٧٣ ، طبع طهران .

(٢) انظر نفس المصدر ، ص ٧٧ .

اسم «كوشلوك خان» أو «بويروق خان» . ومعنى كوشلوك : ملك عظيم وقوي . أما بويروق فمعناه معطي الأمر[1] . ولكن مع هذا كان لكل ملك اسم أصلي آخر يختاره له أبواه .

وفي عهد چنگيزخان ، كان ملكهم يدعى «تايانك خان» . وقد حاربه چنگيزخان عندما علم بسوء نيته وتآمره عليه .

٦ – أتراك «قرلق» : وتقع بلادهم جنوب مملكة الأويغور ، وكانت تشمل كل الحوض الأسفل لنهر تاريم . وهؤلاء الأتراك كانوا يعرفون في الشعر الفارسي باسم «خلُّخ» ، ويوصفون باستقامة القامة وجمال الوجه[2] .

٧ – قبائل القرغيز : هم من الترك أيضاً ، كانوا ينزلون في أعالي نهر ينيسي ، واتخذ أميرهم لقب خاقان في القرن الثامن (نقش ارخون) . على أنهم لم يشتهروا من الناحية السياسية إلا حوالي سنة ٢٢٦ هـ ، (٨٤٠ م) ، حينما انتزعوا أراضي الأويغور في منغوليا ، وامتدت بلادهم حتى المحيط . ولم يلبث الخطا أن طردوهم من منغوليا في أوائل القرن العاشر الميلادي ، بينما احتفظ الجانب الأكبر منهم بمنازلهم في أعالي نهر ينيسي ؛ ولذا كان على الخطا أثناء طردهم من منغوليا وسيرهم نحو الغرب أن يقاتلوا القرغيز الذين احترفوا الزراعة، ثم خضعوا للمغول زمن چنگيزخان سنة ٦١٥ هـ ، ١٢١٨ م[3] .

٨ – المغول : نشأ المغول الأصليون إذا التزمنا المعنى التاريخي الدقيق لهذه الكلمة ، والذين قدر لچنگيزخان أن يولد بينهم – في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي ، وهي تمتد في أواسط آسيا جنوبي سيبريا وشمال التبت وغربي منشوريا ، وشرقي التركستان بين جبال التاي غرباً وجبال

---

(١) جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٩٦ ، طبع طهران .
(٢) انظر عباس اقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ٨ .
(٣) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ٢٩ .

خنجان شرقاً .

ويمكن تقسيم منغوليا إلى قسمين : قسم شمالي غربي مرتفع به جبال كثيرة توجد بينها هضاب ووديان تغطيها الحصباء ، وقسم جنوبي شرقي منخفض يشمل صحراء جوبي أو شامو التي ليست إلا سهلاً متسعاً مسطحاً أو متموجاً تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة ، قد جردتها الرياح من المواد الدقيقة من الطين والرمل ، ومن تحتها تظهر في بعض الجهات مساحات من الصخور كالجزائر في البحار ، وتنساب من بين جبال المنطقة الشمالية الغربية ، الفروع العليا لأنهار أوبي وينيسى ولينا ، بينما المنطقة الجنوبية لا يوجد بها أنهار إلا على الحافات فقط ، وتسير من جبال خنجان بعض نهيرات لا تلبث أن تجف حتى تصل إلى جوبي . وبالإضافة إلى ذلك يوجد بمنغوليا قليل من البحيرات ، كما تتفجر بعض الينابيع ، لكن المسافر رغم ذلك لا يعدم الماء لأنه إذا حفر وجده قريباً من سطح الأرض .

في هذه المنطقة كانت تعيش قبائل المغول مستقلاً بعضها عن بعض ، وكانت تتقاتل فيما بينها . كما كانت تتقاتل مع جيرانها وخاصة مع التتار . وبين هذه القبائل كانت هناك طائفة صغيرة اسمها « قيات » وتعرف باسم « بُورُجقين » . هذه الطائفة بعينها هي التي نشأ فيها جنگيزخان مؤسس أعظم إمبراطورية رآها العالم .

أما عن مناخ هذه المنطقة فيكفي أن نعلم أنه كان يمتاز بشتاء طويل قاسي البرودة ، تهطل فيه الأمطار ، وتنخفض درجة الحرارة إلى أبعد حد ، إذ تصل في بعض الجهات إلى ٥٨ درجة تحت الصفر ، فتتجمد المياه ، ويرى الجليد حتى على أواني الشرب . فإذا ما حل الصيف القصير اشتدت الحرارة فتصل أحياناً إلى ٦٠ درجة .

ولكن قسوة المناخ لا تقف عند هذا الحد ، بل هناك أيضاً الرياح الشديدة التي تهب في معظم أيام السنة ، فتحمل الحصى ، وترسله إلى مسافات بعيدة ،

وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة ، وأحياناً تتحول إلى أعاصير عاتية لدرجة يصعب معها بقاء الرجل في سرجه . ثم إن هذا المناخ لا يثبت على حال واحدة حتى ولو كان الوقت صيفاً .

وأما عن نوع الحياة التي كان يحياها المغول ، فإنه يمكن تقسيم القبائل المغولية في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) إلى قبائل رعاة في جوار المراعي ، وإلى قبائل صيادين يصيدون السمك من الأنهار والحيوانات من الغابات . وكان الصيادون من المغول يزاولون مهنة الصيد في صور مختلفة : فهناك فئة تعكف على صيد الأسماك ، وأخرى من سكان الغابات تركب الزحافات من الخشب أو من العظم ، وتطارد الحيوانات ذوات الفراء كالسمور ، وتتجر في فرائها ، وفئة ثالثة من رعاة الحيوان تطارد الظباء بواسطة الحبال أو النبال .

وفي الواقع يلاحظ على السكان المغول أنهم على الحدود المغولية السيبيرية كانوا مُقسمين بين منطقة المراعي التي صارت بعد ذلك صحاري ، وبين منطقة الغابات في الشمال والجنوب . ويرى بعض المؤرخين أن أصل المغول لا يثبت أنهم كانوا جنساً من سكان المراعي ، ولكنهم كانوا شعباً يسكن الجبال المكسوة بالغابات . والدليل على أنهم كانوا من سكان المناطق الخشبية هو استعمالهم الواسع لعربات اليد الخشبية[1] .

ومن المعلومات أن القبائل التي تسكن مناطق السهوب هي قبائل رحالة بصفة خاصة ، تنتقل في فترات متتابعة طلباً للمراعي ، وخلال رحلاتهم كانوا ينصبون خيامهم المصنوعة من اللباد ، بينما كانت القبائل التي تسكن الغابات ، تقطن أكواخاً مصنوعة من ألياف الأشجار .

ولكن هذا التقسيم كان تقسيماً نظرياً فقط ، لأنه تبعاً لحياة القبائل التي تحيا حياة بدوية ، كانت أية قبيلة تستطيع أن تنتقل من لون إلى آخر من ألوان

---

(١) انظر Grousset ; L'Empire des Steppes, P. 249.

الحياة ، فچنگيزخان ينتسب إلى قبيلة من الرعاة ؛ غير أنه اضطر في شبابه بعد أن اغتصب منه أقاربه وعشيرته القطعان — إلى أن ينضم إلى أمه وإخوته في حياة بائسة هي حياة صيادي الحيوانات وصيادي السمك ، وذلك قبل أن يتمكن من إعداد ثروته من الخيل والأغنام .

ويلاحظ بصفة عامة أن القبائل التي تقطن الغابات كانت تبدو أكثر بدائية وأكثر توحشاً ، وليست لهم علاقة بالحياة المتمدينة إلا عن طريق القبائل الرحالة . أما هؤلاء الرحالة فإنهم كانوا يستفيدون من جوارهم للأويغور في منطقة جوبى أو من إمبراطورية كين في پكين . ولم تكن لهم مدن ، لكنهم أثناء ترحالهم كانوا يضربون مجموعات من الخيام والأكواخ المصنوعة من اللباد ، والمقامة على عربات ذات عجل لكي يسهل نقلها من مكان إلى آخر . وأثناء تجمعهم في أماكنهم المؤقتة كانوا يضعون البذور لمدن المستقبل . ويسجل علماء الأجناس التقدم الذي حدث بالانتقال من الكوخ الحقير للمغول سكان الغابات إلى كوخ من اللباد يسهل طيه وتركيبه عند الرحالة . هذا الكوخ هو بعينه الذي تطور بعد ذلك في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) على يد كبار الخانات من أسرة چنگيزخان ، فصار شيئاً فشيئاً متسعاً مريحاً مغطى بالفراء والسجاد ، إلى أن تحول في النهاية إلى قصر منيف .

ويمكننا أن نقول إن بيئة الأقاليم الشرقية من آسيا قد فرضت على طوائف الأتراك والمغول أن يعيشوا عيشة بدوية كلها نزاع وصراع بسبب تنازع البقاء . وكانوا لا يؤمنون بدين ولا بشريعة ، ولا يعرفون حلالاً أو حراماً(١) .

وقد استلزمت هذه الحياة كثرة الهجرة والانتقال من مكان إلى مكان ، جرياً وراء المراعي والأعشاب حيث يطيب لهؤلاء الناس العيش ، وتتوفر لهم موارد الرزق . وكان المغول من هذه القبائل ، لا يدركون معنى للحضارة ، ولا يفقهون معنى للاستقرار ، وإنما يقضون حياتهم في التنازع والتنافس ،

---

(١) انظر حمد الله المستوفي القزويني : تاريخ گزيده ، ص ٥٦٤ ، طبع طهران .

لا منطق بينهم إلا للقوة ، ولا حكم إلا للسيف .

ونحن نعلم أنه يرجع الأصل في هجرة القبائل والشعوب المعروفة في التاريخ ، وانتقالها من مكان إلى آخر ، إلى عوامل كثيرة متعددة . فقد تحدث الهجرة بسبب جدب وقحط يصيب الموطن الذي تسكنه هذه القبائل ، فتهاجر إلى مكان أكثر خصباً وأوفر ثروة . وقد يزدحم إقليم بساكنيه ، فلا يعود يقوى على احتمال هذا العدد الكبير من سكانه . فيضطرون إلى البحث عن مكان آخر يطيب لهم المقام فيه ، وقد تكون العوامل السياسية في إقليم ما سبباً في هجرة بعض القبائل من مكان إلى آخر ، كأن يغتصب مغتصب أملاك دولة أخرى فيضطر قادة الدولة المهزومة — وقد ضاق أمامهم سبيل العيش في بلدهم الأصلي — إلى البحث عن مكان أكثر أمناً وطمأنينة ، ويتبع هؤلاء القادةَ أنصارُهم المخلصون . ولا بد أن يتوافر في الإقليم الذي ينزح إليه هؤلاء ما يجذبهم إليه ، ويشجعهم على الإقامة فيه ، كأن يكون هذا الإقليم على شيء كبير من الثروة ووفرة العيش ، أو يكون ذا تاريخ وحضارة تبهر أبصار المهاجرين فيلذ لهم المقام فيه[1] .

وفي الواقع أنه لو اقتصر تاريخ الجموع التركية والمغولية على ما يشنونه من غارات ، وعلى ما يحدث أثناء انتقالاتهم وهجراتهم من منازعات وهجمات ، لما حوى إلا شيئاً قليلاً . فالحقيقة الأساسية في تاريخ البشرية ، هي ما كانت تمارسه هذه الأقوام البدوية من ضغط على الإمبراطوريات المتمدينة الواقعة على الجنوب منها . وهذا الضغط تطور من اعتداءات انتقامية إلى غارات للفتح والتوسع . ذلك أن هبوط الرعاة من منازلهم وارتحالهم ، كان قاعدة تكاد تكون طبيعية ، أملتها الحياة في الاستبس . ولا شك أن أولئك الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات حول بحيرة بايكال ونهر عامور ، ظلوا متبربرين ، يعيشون على الصيد في الغابات وصيد السمك من الأنهار والغدران حتى زمن

---

(١) انظر حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٤٧–٤٨ .

چنگيزخان[1] .

وقد ذكر أحد الجنود الرومان كيف أن أهالي الاستبس الرحل في آسيا ، كانوا يدخلون الرعب في النفوس ، وهم على ظهور جيادهم . وكتب يقول : « تصل بهم الدرجة إلى أن يناموا ، وقد أمالوا رؤوسهم على أعناق دوابهم . ولا يزرعون حقلاً أو يحرثون أرضاً . بل هم في تجوال دائم . وهم صغار الأجسام إذا ما وقفوا على أقدامهم ، ولكنهم عمالقة عظـام ، إذا ما امتطوا ظهور جيادهم »[2] .

وهكذا استدعت حياة القبائل التركية المغولية ضرورة الإغارة على الممالك المتمدينة في الصين ، وما وراء النهر وايران . ورغم الضربات الشديدة التي كان ينزلها حكام هذه الممالك بهؤلاء المتبربرين من وقت لآخر ؛ فإنهم كانوا لا يكفون عن الإغارة عليها ، وإنزال كثير من المحن والبلايا بها . ولعل هذه الغارات هي السبب في إقامة سور الصين العظيم الذي شيده أهل الجنوب في العصور الأولى من التاريخ قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف لمنع غارات القبائل المتبربرة في الأقاليم الشمالية الشرقية من القارة الأسيوية .

يذكر رشيد الدين أن مجموع أقوام الأتراك والمغول لم يكن لهم مطلقاً ملك قهار جبار يستطيع أن يحكم هذه الطوائف ، فكـان أفرادها يتنازعون ويتصارعون ، ويحارب بعضهم بعضاً . وبالرغم من أنه كان لكل قبيلة ملك أو أمير ، فإن أفراد هذه القبيلة كانوا لا يخضعون له ، ولا يأتمرون بأمره .

ولما كان أهل الخطا يجاورون هذه القبائل ، ويتعرضون – من آن لآخر – لغاراتهم ، كانوا يعيشون دائماً في فزع منهم ، ويبذلون من الجهود والاحتياطات ما يدرأون به شر هذه القبائل المتبربرة ، فأقاموا سداً مثل سد الإسكندر يفصل

---

(١) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٢ .
(٢) هارولد لام : چنگيز خان وجحافل المغول ، ترجمة متري أمين ، ص ٣٩ .

بين ولاية الخطا وبين تلك الأقوام[1] .

كذلك كان الصراع محتدماً بين أفراد كل قبيلة ، تقوم بينهم المنازعات والمشاحنات لأتفه الأسباب ، ويتنافسون على موارد الرزق القليل من العشب أو من الصيد ، واتخذوا أيضاً الغارة والسلب وسيلة أخرى لمعيشتهم ، فكانوا يغيرون على قبيلة معادية ، ويغتصبون حيواناتهم ، ويسبون نساءهم وأولادهم ، فتتحين القبيلة الأخرى الفرصة ، وتنتقم لنفسها . وهكذا تستمر حياتهم في صراع وصدام . ومن أجل هذا ، كانت القبيلة التي ضعفت ، تضطر إلى الاحتماء بقبيلة قوية تذود عنها . ولا شك أن هذا الصراع يرجع أول ما يرجع إلى طبيعة البيئة المجدبة القاسية . يقول هورث : وكان المغول القدماء كالعرب في الجاهلية ، والهنود الحمر الآن ، يقضون معظم أوقاتهم في المنازعات القبلية »[2] .

هذه الحالة من الفوضى الاجتماعية والسياسية التي كانت عليها القبائل المغولية لا بد وأن تتمخض في النهاية عن وجود شخصية قوية توحد شتات هذه القبائل ، وتجبر سائر الطوائف على الخضوع لها ، وتكون من الجميع دولة واحدة . وقد شاء القدر أن تتمثل هذه الشخصية في شاب مغولي اسمه « تموچين » وهو بعينه چنگيز خان الذي هز بفتوحاته أركان الدول جميعاً فيما بين الصين شرقاً ، والبحر الإدرياتي غرباً في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

---

(١) انظر جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، طبع طهران .
(٢) Howorh : History of the Mongols, Vol. IV, P. 30.

الفصل الثاني

ظهور جنكيزخان

الفصل الثاني

ظهور چنكيزخـــان

كان اسمه أول الأمر تموچين . ولد في منغوليا عام ٥٤٩ ﻫ (١١٥٥ م) على الضفة اليمنى لنهر الاونون في منطقة « دولون بولداق » Dulun - Boldaq . ويلاحظ أن هذه المنطقة توجد اليوم في الأراضي الروسية على خط طول ١١٥ شرقي جرينتش[١] .

كان أبوه « يسوكاي بهادر بن برتان بهادر » رئيساً لقبيلة « قيات » مـــن القبائل المغولية ، وكان جميع أعمامه وأبناء أعمامه مطيعين وخاضعين له ، وهم الذين اختاروه رئيساً عليهم . وكان متصفاً بمزيد من الشجاعة والبسالة ، وكثيراً ما حارب أقوام التتار والخطا . وقد ذاعت شهرته في الآفاق ، وصار محترماً مهاباً من الجميع .

ولقد كان أجداد چنكيزخان والطوائف الخاضعين لهم ، يدفعون الخراج لأباطرة الصين الشمالية منذ زمن بعيد . أما أبوه يسوكاى بهادر فكان رجلاً حازماً ونشيطاً . استطاع أن يخضع بعض القبائل المغولية التي كانت تجاوره ؛ ولهذا نرى إمبراطور الصين يخشى اتساع نفوذه ، فيرسل إليه جماعة لصده والقضاء عليه ، ولكنه تغلب عليهم ، بل أخضعهم لسلطته خضوعاً تاماً ،

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ص ١٢٦ .

وبذلك رسم لابنه چنگيزخان الخطة لتشييد دولته على أساس محكم .

تزوج يسوكاى بهادر من نساء كثيرات من شتى الأقوام ، ولكن أكبر نسائه وأشهرهن كانت « أولون فوجين »[1] ، وكانت تدعى أيضاً « أولون أيكه » من قوم « اولقونت » .

أنجبت هذه السيدة أربعة أولاد مشهورين ، ولم تنجب بنات قط . وهؤلاء الأولاد الأربعة هم :

١ ــ تموچين : أول أولاده وأكبرهم وأفضلهم . عندما صار ملكاً على المغول ، وبلغت سنة الواحدة والخمسين ، وقتل ملك النايمان ، لقب بلقب جنكيزخان .

٢ ــ جوجي قسار[2] : كان يتمتع بقوة لا حد لها . تذكر الروايات انه كان يمسك شخصاً بكلتا يديه ، فلا يتركه حتى يقصم ظهره . وفي أكثر الأوقات كان متفقاً ومتحداً مع أخيه چنگيزخان ، ولكنه انفصل عنه عندما كان يحارب اونك خان . كذلك آثر العزلة عنه في ظروف أخرى ، كان يعتبرها من بين أخطائه التي تردى فيها . لكن عندما حارب چنگيزخان عدوه « تايانك خان » أمر بأن يكون أخوه « جوجي قسار » على قلب الجيش ، فأبدى شجاعة فائقة ، فأعزه چنگيزخان ، ورفع قدره على سائر إخوته وأبناء إخوته .

٣ ــ قاجيون : نال منزلة كبيرة لدى اوكتاي ومنگو وقوبيلاي ، وكانوا يستشيرونه في مهام الأمور .

---

(١) كلمة خطائية ، تأتي بمعنى سيدة ، ولما كان المغول يعيشون على مقربة من ولاية الخطا ، استعملوا بعض اصطلاحاتهم (انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، طبع طهران) .

(٢) جوجى : اسم وقسار معناها سبع . سمى بهذا الاسم لما اتصف به من قوة خارقة ، وبطش وعنف (انظر نفس المصدر ونفس الصفحة) .

٤ — « تمو اتجكن »(١) : اشتهر ايضاً باسم « أوتجي نويان » ، وتزوج من سيدة كانت تمت بصلة القربى إلى والدة چنگيزخان . ولهذا السبب نال منزلة كبيرة ، وكان معظماً ومحترماً بين أفراد أسرته . وقد اشتهر من بين المغول بميله الشديد إلى العمارة والتشييد ، فحيثما حل كان يقيم القصور والحدائق ، وكان چنگيزخان يحبه كثيراً .

كذلك كان ليسوكاي ابن خامس من زوجة أخرى اسمه « بلكوتي نويان » ، وكان دائماً ملازماً لأخيه چنگيزخان .

وتذكر الروايات أنه في وقت ولادة چنگيزخان ، سار أبوه يسوكاي بهادر لمحاربة التتار . وقد واتاه الحظ فانتصر عليهم ، وقضى على ملكهم تموچين ، واستولى على أمواله وأملاكه . ولما عاد إلى المنزل ، علم بنبأ ولادة ابنه ، فتفاءل بتلك المناسبة ، وسمى ابنه « تموچين » . ويقال إنه عندما ولد وجدت إحدى يديه قابضة على قطعة متجمدة من الدم . فلما تداول الحاضرون الحديث في غرابة ذلك ، قال أحدهم : إن هذا الطفل سوف يكون ملكاً عظيماً ، وسوف تظهر على صفحة جبينه آثار الغزو والسيطرة . وتبدو على محياه أنوار السعادة والتوفيق ، ويستدل آخرون بهذه الواقعة على استعداد ذلك المولود ، وجرؤته على سفك الدماء(٢) .

وعندما توفي يسوكاي بهادر كان ابنه تموچين في الثالثة عشرة من عمره ، فانفض عنه أكثر الأقارب والأتباع ، واستغلت قبيلته صغر سنه . ورمته بالضعف ، ورفضت أن تطيعه ، وأعلنت التمرد والعصيان . ورغم نشاط أمه « اولون ايكه » ، ورجاحة عقلها وبعد نظرها فقد تخلى عنه أيضاً من بقي من أتباع أبيه وحملوا معهم قطعانهم ، وانضموا إلى قبائل التايجوت . وفي قسوة

---

(١) تمو : اسم . وأما كلمة اتجكن فمعناها رب النار . وكانت عادة المغول أن ينادوا الابن الأصغر باسم اتجكن . (انظر رشيد الدين : جامع التواريخ : ج ١ ، ص ٢٠٧ ، طبع طهران)

(٢) انظر خوندمير : حبيب السير ، ج ٣ ، ص ١٦ .

بالغة قال أحدهم : « لا حاجة للقوم إلى امرأة ضعيفة وأطفال مساكين » .

وفي النهاية كان هذا هو قرارهم : « إن الرباط القوي الذي كان يمنح القوة والمنعة قد ذهب ، والصخرة التي كنا نحتمي وراءها قد تحطمت . و يبقَ غير المرأة وأطفالها ، فما بالنا وإياهم » .

وأخذت عرباتهم المحملة تتدحرج خارجة من المخيم ؛ فقد خشوا أ يتركوا مصائرهم ومصائر أسرهم بين أيدي امرأة وصبي غير محنك مث تموچين [1] .

وهكذا بقي ذلك الشاب المراهق وحيداً مع أمه ومع إخوته ؛ فاضطر هذه المجموعة الصغيرة التي انحدرت إلى البؤس — أن تعيش على صيد الحيوا والأسماك ؛ فكان تموچين يشترك مع إخوته الذين يصغرونه سناً في صي الحيوانات الصغيرة التي توجد في المراعي القريبة ، مثل السمور أو الفأر البر أو الثعلب الأسود . وكانوا يأكلون لحومها ، ويدخرون الأوتار والجلد .

وكان في استطاعة تموچين أن يبقى ثلاثة أو أربعة أيام بدون طعام . وكثير ما كان يشعر بألم الجوع قبل أن يعثر على طعام جديد . وفي بعض الأحيان كا يخرج سكيناً ويقطع وريداً من أوردة فرسه الذي يركبه ، ويشرب قليلاً م دمه ، ثم يسد الوريد ، ويواصل طريقه . وحدث أن سرق من تموچين عصفو وسمكة ، وكان المتهم بالسرقة أخاً له من أمه ، فأقدم تموچين على قتله دو أن تأخذه في ذلك شفقة أو رحمة . وهذه الحادثة الأليمة إن دلت على شي فإنما تدل على ما كانت تعانيه هذه الأسرة البائسة من شظف العيش ، وما كان تكابده من آلام الجوع والحرمان .

ولما كان تموچين هو الابن الأكبر ، فقد كان عليه أن يقرر ماذا ينبغي أ تفعل الأسرة . ولبرهة جلس مطرقاً حزيناً إلى جوار الجمرة المتقدة بين أحجا

(١) هارولد لام : چنكيزخان وجحافل المغول ، ترجمة متري أمين ، ص ١٦ .

الموقد . وخلف الموقد بسطت فروة جلـــد فرس أبيض ، حيث كان يجلس الخان .

وبعد قليل أنبأ تموچين أمه أنه قرر أن يأخذ مكان الخان ، وأن تبقى الأسرة بقطعانها وممتلكاتها في موطنها حيث المراعي إلى جوار النهرين(١) .

وكان معنى هذا القرار أن على الأسرة أن تدافع عن نفسها ضد أعداء الزعيم الراحل الذين كانوا لا يتورعون عن الثأر من الأطفال . وهذا ما حدث بالفعل ؛ فرغم ما كانت تنصب على رأس تموچين من مصائب ونكبات ينوء بها كاهله الصغير ، فإن قبائل التايجوت التي كانت تناصبه العداء لم تتركه وشأنه ، بل كانت تشن عليه الحرب تلو الحرب ، وتأسره وتمعن في إذلاله . ولكنه بدهائه وذكائه ، كان يستطيع الخلاص ، ونفسه ممتلئة بالحقد والكراهية على هذه الطائفة ، وكله عزم وتصميم على الصبر والمثابرة حتى تسنح له الفرصة للانتقام من الأعداء .

كذلك استمر أتباعه ينفضون من حوله واحداً بعد الآخر . ولكن عز عليه كثيراً أن يتخلى عنه أيضاً شخص كبير ، يجله الجميع ويحترمونه اسمه « توداون قمورجي » . فما كان من چنگيزخان إلا أن ذهب إليه بنفسه ، وحاول في مسكنة وتواضع أن يثنيه عن عزمه . ولكن هذا الشخص لم يستجب لندائه ، ورد عليه قائلاً : « لقد صممت على الرحيل ، ومجال التوقف محال »(٢) . ثم تركه وانصرف .

ولقد خرجت والدة چنگيزخان بنفسها في نفر ضئيل ممن قبل البقاء مع ابنها ، يحاولون إجبار المنشقين من الأتباع على العودة إلى قبيلتهم ، فلما تقابل الفريقان نشبت الحرب بينهما . وكان يشترك في تلك الحرب رجل هرم مجرب يناصر چنگيزخان اسمه « جرقه ابوكان » ، وكان أحد الأمراء الكبار ، فأصيب

---

(١) هارولد لام : چنگيز خان وجحافل المغول ، ترجمة مترى أمين ، ص ١٦ .
(٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، طبع طهران .

بطعنة في ظهره . ولكنه تحامل على نفسه ، وعاد من الحرب ، فأسرع إليه چنگيزخان يستفسر منه عن حقيقة الأوضاع . فقال له «جرقه» : «بعد وفاة أبيك الصالح ، شقت الأقوام والجنود عصا الطاعة ، وأعرضوا عنك ، فأردت أن أمنعهم ، ولكن القضاء كان لي بالمرصاد ففجأة أصبت بطعنة نجلاء» . فلما رأى چنگيزخان أن جرحه كان بليغاً ، وشاهد سوء حاله ، بكى عليه بكاء مراً . وعندما خرج ، فاضت روح ذلك الرجل[1] .

ولكن التقلبات التي صادفها چنگيزخان في شبابه ، والتجارب والمحن التي مر بها في حياته ، ومقاومته للمناخ القاسي ، وما فيه من برد قارس وحرارة خانقة ، ومقدرته على تحمل آلام الجوع والحرمان لعدة أيام ، وعدم اهتمامه بما يصيبه من جروح وآلام ، أو بسوء معاملته في أوقات الضعف والهزيمة ، كل ذلك قد أكسبه قوة على تحمل الشدائد والصعوبات ، وصنع منه رجلاً رجلاً صلباً حديدياً أدهش العالم . يصنف المؤرخ الفارسي «الجوزجاني»[2] چنگيزخان فيقول : «عندما جاء إلى خراسان ، كان رجلاً طويل القامة ، قوي البنية ، ضخم الجثة ، له عينان كعيني القط ، وهو في غاية الجلد والذكاء والعقل والدهاء والهيبة . وكان محارباً عادلاً حازماً شديد الوطأة على عدوه ، شجاعاً سفاكاً متعطشاً للدماء» . وبمثل هذه الأوصاف وصفه أيضاً المؤرخ الصيني «منجهونج» Meng Hung الذي كان في سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م) سفيراً لدى المغول من قبل أباطرة الصين في الجنوب ، وميزه بأنه كان ضخم الجثة ، عريض الجبهة ، طويل اللحية[3] .

وفي ظل هذه الحياة القاسية ، بدأ يظهر جبروت چنگيزخان وبطشه . ولقد أجاد فن الرماية ، ومهر في الصيد ، واشترك في حلبات سباق الخيل ،

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، طبع طهران .
(٢) طبقات ناصرى ، ص ٣٧٣ .
(٣) Barthold ; Turkestan Down to the Mongol Invasion, P. 459.

وأتقن المصارعة ، وتفوق على أقرانه ، وبالرغم من أنه كان يميل إلى النحافة فإنه كان في استطاعته أن يتغلب على أقوى الصبيان المصارعين . كما كان سريع الحركة ، شديد المكر كالثعلب . كذلك برع في رسم الخطط وتدبير الأمور ، وآمن بعقيدة راسخة تتلخص في أن البقاء للأقوى . يروى أنه عندما ابتسم له الحظ ، بلغت ثروته تسعة من الخيول ، سرق منها قطاع الطرق ثمانية . ولكنه استطاع أن يستردها بمساعدة صديقه « بو أورتچو » Bo' Ortchou ، وهو ابن أحد الرؤساء ، فصار منذ ذلك الوقت ، أخلص ملازم لتموچين ، وأصبح في أيام عظمته واحداً من خيرة قواده .

ولما تأكد تموچين من نهاية بؤسه ، تقدم ليتزوج من ابنــة أحد رؤساء القنقرات ، فطلب منه أبوها مهراً لها هو عبارة عن فرو سمور أسود .

وهكذا بعد أن كان هذا الفتى شريداً طريداً ، تتلقفه أيدي من يشفق عليه من أصدقاء أبيه ، بدأ نجمه يلمع ، حتى إذا ما بلغ السابعة عشرة من عمره ، استطاع بفضل ذكائه وحنكته وشجاعته وصبره ، أن يجتذب إليــه كبار الشخصيات من قبيلته ، وأن يخضع المناوئين له في هذه القبيلة حتى تمت له السيطرة التامة عليها .

يروي صاحب حبيب السير[1] ، أن تموچين رأى ذات ليلة في منامه أن يديه امتدتا ، وكان يمسك سيفاً في كلتا يديه بحيث أن طرف أحدهما كان متصلاً بالمشرق ، وطرف الآخر متصلاً بالمغرب . فلما أصبح الصباح ، قص رؤياه على أمه ، فقالت له : « أنت سوف تستولي على العالم شرقيه وغربيه ، وسوف يصل أثر سيفك المضرج بالدماء إلى بلاد المشرق والمغرب » .

بعد ذلك نظر تموچين إلى ما جاوره من القبائل ، وصمم على إخضاعها ، فانتصر على قبيلة التايجوت التي لقي من زعيمها الهوان والعذاب ، وبهذا بسط

---

(١) خوندمير : حبيب السير ، ج ٣ ، ص ١٦–١٧ .

سيطرته على منطقة شاسعة تمتد شمال صحراء جوبي حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار . ثم عمل على إخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى ، وذلك وفق سياسة محكمة عبر عنها أصدق تعبير فقال : «كان الرجال الحكماء المسنون يعلموننا دائماً أن القلوب والعقول المتباينة ، لا يمكن أن تكون في جسد واحد ، ولكنني أريد أن أثبت أن ذلك ممكن عملياً ، فسوف أبسط نفوذي على جميع جيراننا »[1] .

تموچين وقبيلة كرايت :

سبق ان ذكرنا أن قبيلة كرايت كانت تمتاز على غيرها من القبائل المغولية بالقوة والشوكة ، وتتفوق عليها في العدد والعدة . وكان اونك خان — الذي كان يدين بالمسيحية — رئيساً لهذه القبيلة . وهو الذي عرفناه من قبل صديقاً حميماً ليسوكاي بهادر والد چنگيز خان .

وفي بادىء الأمر استمر اونك خان أيضاً على وفائه للابن تموچين ، وغمره بعطفه ، وتوطدت بينهما أواصر الود والصداقة ، ورفض التعرض له ومقاومته حين استعداه عليه إمبراطور الصين . ولما رأى في چنگيز خان الشجاعة والإقدام وبعد النظر ، أعجب به وبالغ في إعزازه وتكريمه .

ولكن أبناء اونك خان وإخوته وخاصته والمقربين إليه صاروا يحسدون تموچين على ما بلغه من جاه ومنزلة ، فعملوا على الإيقاع به عند اونك خان ، وكانوا دائماً يُحَذّرونه منه ، ويوحون إليه بأن في بقائه خطراً على دولته . وهكذا دأبوا على وشاياتهم وسعاياتهم حتى تغير موقف اونك خان من تموچين ، وصار يخشاه ، ويعمل على الخلاص منه[2] .

ولكن اونك خان وجد أنه من المتعذر أن يقوم تموچين علناً ، ففكر في

---

(١) هارولد لام : چنگيز خان وجحافل المغول ، ترجمة مترى أمين ، ص ٤٦ .
(٢) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٢٧ .

حيلة للقضاء عليه سراً ، واستقر رأيه على مهاجمته في وقت السحر . غير أن حظ تموچين كان مواتياً ، إذ هرب غلامان من أتباع اونك خان ، وأطلعاه على تفاصيل المؤامرة التي تحاك ضده ، فاتخذ تموچين حذره ، واستطاع أن ينجو بأهله وأتباعه في الوقت المناسب .

وفي وقت السحر هاجم جنود اونك خان منازل تموچين فوجدوها خالية ، فجدوا في طلبه . وعندما التقى الفريقان ، دارت بينهما حرب طاحنة ، أسفرت عن انتصار تموچين وقتل خصمه ، وغنم غنائم كثيرة . وكان هذا في شهور سنة ٥٩٩ ﻫ (١٢٠٢ م) .

وفي يوم النصر ، رفع تموچين قدر الغلامين ، ومنحهما لقب «ترخان» وهو يخول لصاحبه أن يتمتع بالإعفاء من جميع المؤن والتكاليف ، وأن تسلم له ما يغنمه في الحرب ، وله أن يدخل على تموچين دون استئذان . كذلك أمدهما بالجند والرجال ، وأعطاهما من الدواب والمتاع الشيء الكثير ، وأمر بألا يؤاخذا على ما يقترفانه من ذنوب مهما كثرت . وقد استمرا يلازمان تموچين إلى أن كبرا وتناسلا ، وانتشر أولادهما وأحفادهما في جميع الممالك ، والتحقوا بخدمة ملوك المغول ، وكانوا معززين مكرمين[1] .

زادت تلك الموقعة من شوكة تموچين ، وأوقعت الرعب في نفوس الجميع ، فأسرعت القبائل التي كانت مترددة إلى تقديم فروض الخضوع والطاعة . وعندما أرسل الرسل إلى قبائل الاويرات والقنقورات يطلب إليهم الدخول في طاعته ، قبلوا على الفور ، فخصهم بالإنعام والرعاية .

تموچين وقبيلة النايمان :

بعد أن تغلب تموچين على قبيلة كرايت ، تأكد تايانك خان رئيس قبيلة النايمان أن تموچين سوف يهاجمه ، ويقضي عليه كما فعل بأونك خان ،

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٢٧–٢٨ .

فاستنجد بملك قبيلة الانكوت ، وطلب أن ينضم إليه في حربه ضد تموچين ، غير أن هذا الحاكم أرسل إلى تموچين رسولاً يطلعه على ما عرضه عليه تايانك خان ؛ فاستعد تموچين لمحاربته . ولكن تايانك خان كان قد اتخذ الأهبة للقتال ، وجمع جيشاً جراراً ، وانضم إليه كثير من رؤساء القبائل الأخرى . ودارت الحرب بين الفريقين في سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) ، فتغلب تموچين على خصمه وقتله ، وأسرت زوجته ، وسيقت إلى تموچين فتزوج منها[1] .

بعد ذلك شرع تموچين يؤلب القبائل الواحدة منها على الأخرى ، ويتحالف مع القوى منها على الضعيف . وبهذه الوسائل استطاع التغلب على أقوام المغول الذين ينزلون في منطقة التبت وشرقي تركستان .

وفي تلك السنة ، وبعد أن ظهرت شجاعته ومقدرته ، اجتمع حشد كبير من القبائل على حدود نهر أونن ، وأقيم حفل عظيم ، وأجمع الحاضرون على انتخاب تموچين امبراطوراً عليهم ، وسموه « چنگيز خان » ومعناه أعظم الحكام أو إمبراطور البشر .

تذكر الرواية أنه عند تتويجه ، قال رعاياه : « إذا أصبحت حاكماً علينا ، فإنا سنتقدم الصفوف في كل قتال تشنه على أعداء لا حصر لهم ، وإنا سنقدم إليك كل ما تغنمه من نساء جميلات وفتيات وجياد كريمة . وسوف نبز الأقران جميعاً في ميدان الصيد ، ونسلم إليك كل ما نصيده من حيوان[2] » . ولا شك أن الناظر إلى هذا العهد الذي قطعه أتباع چنگيز خان على أنفسهم ليبدو له لأول وهلة ، بدائية هذه الآراء وبساطتها .

ومهما يكن من أمر ، فإن سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) تعتبر بدء دولة

---

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٩٧ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ص ١٢٨ .

چنگيز خان ، ولو أنه لم يحصل على لقب «خان»[1] إلا في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦) م حين أصدر دستوره الشهير المعروف بالياسا .

وبعد أن جلس چنگيز خان على عرش القبائل المغولية ، شرع يوسع دولته على حساب الأقاليم المجاورة ، فتغلب على طوائف القرغيز .

دخول الأويغوريين في طاعة چنگيزخان :

سبق أن ذكرنا أن الأويغوريين كانوا أكثر الأقوام التركية تمدنا. وفضلاً عن ذلك ، كانوا واسطة الارتباط بين الأقوام المتمدينة من الايرانيين والصينيين والهنود . وقد عرفوا الديانات المختلفة من مانوية[2] وبوذية ومسيحية . يقول بارتولد[3] : « كان لدخول الترك في ديانة مانى أهمية كبيرة في تاريخهم ؛ إذ ليس لدينا ما يثبت — مهما يكن توفيق المبشرين — أن البوذية أو المسيحية أصبحت ديناً لشعب كامل من الترك لا في القرن الثامن، ولا قبل ذلك » .

« ولكن المانوية كانت أول دين دخله الترك بوصفهم شعباً ، بعد الديانة الشامانية ، وكانت أول دين ذى أسس أخلاقية يعتنقه الترك ، فبينما ترى الديانة الشامانية ، أن قتل الإنسان يفيد يوم القيامة ، فإن ديانة مانى لا تكتفي بتحريم قتل الإنسان ، بل تحرم أكل الحيوان » .

سكن الأويغوريون المناطق الواقعة شمال شرقي تركستان، وشمال نهر

---

(١) « خان » لقب أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الإمبراطورية المغولية، وهو يختلف عن لقب « خاقان » الذي أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ، ومعناه الخان الأعظم . وقد استعمل المغول لقب « خان » أيضاً بمعنى «خاقان » . وربما كان ذلك من باب الرغبة في الاختصار . (انظر المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ق٢ ، ص ٣٠٧ ، حاشية ٤) .

(٢) انظر كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب ، ص ١٩١ .

(٣) تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ٤٨ .

تاريم . وأهم مدنهم : تورفان وبيش باليــغ وبرْقول وقره شهر وآلماليغ . وقد اتخذوا مدينة بيش باليغ عاصمة لهم . ويذكر بارتولد أن العرب ظلوا – بتأثــير المصادر المكتوبة – يطلقون على سكان هذا الإقليم « التغزغز » ، وكانت أخبار هؤلاء الأويغور الواردة في المصادر العربيــة جزئية مقتضبة[1] » .

وفي أواسط القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ارتفع شأنالأويغوريين فاستولوا على الأقاليم الواقعة شمال منغوليا ، ونقلوا عاصمتهم إلى مدينة قره بلغاسون[2] ، واستمروا يسيطرون على إقليم منغوليا مدة مائة عام .

ولكن في سنة ٢٢٦ هـ (٨٤٠ م) حاربهم قوم القرغيز الذين كــانوا يسكنون الجزء الغربي من سيبريا ، وانتصروا عليهم ، وأجلوهم عن قره بلغاسون ، وانتزعوا منهم أرخن ، وبذلك عادت دولة الأويغوريين إلى الانكماش في حدودها الأولى[3] .

وعندما تغلب القراخطائيون على بلاد ما وراء النهر وتركستان ، دخل في طاعتهم الأويغوريون ، وعلى رأسهم ملكهم « ايدى قوت » ، وقبلوا أن يدفعوا لهم الخراج . وقد أرسل گورخان ملك القراخطائيين إلى الأويغوريين شحنة من قبله ، سلك فيهم طريق الظلم والعسف ، وكان يشق عليهــم في طلب الأموال بغير حق ، فتضايقوا جداً من صنيع القراخطائيين ، وبرموا بحكمهم ، وودوا لو تخلصوا منهم .

في ذلك الوقت علم الأويغوريون بأنباء انتصارات چنكيز خان واستيلائه على بلاد الخطا ، وسيطرته على كافة القبائل المغولية ، وكانت تصل إليهم تباعاً أخبار بطشه وجبروته ، فاستغل ايدى قوت ملك الأويغوريين هــذه

---

(١) تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، الترجمة العربية ، ص ٥٣ .

(٢) كانت تجاور المنطقة التى بنيت فيها بعد ذلك قراقورم عاصمة المغول .

(٣) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ١٧ .

الفرصة ، وأعلن الثورة على القراخطائيين، وقتل شحنتهم . ثم أرسل رسله إلى چنگيز خان ليقدموا له فروض الخضوع . ولم يقف أمره عند هذا الحد ، بل سار بنفسه في سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) لزيارة چنگيز خان ، وأتحفه بجملة من الهدايا الفاخرة . فرحب به الخان ، وأكرم وفادته[١] . ومنذ ذلك التاريخ صار الأويغوريون من أتباع چنگيز خان ومناصريه .

ونتيجة لاختلاط المغول بالاويغوريين ، شاع الخط الأويغوري بين چنگيز خان وأتباعه ، وأقبل المغول على تعلم الخط الأويغوري . وصاروا يدونون به سجلاتهم وكتاباتهم .

سيطرة چنگيز خان على مناطق الصين الشمالية :

ذكرنا سابقاً أن طوائف الأتراك والمغول كانوا ينقسمون إلى قبائل متعددة . ولكن إبان ظهور چنگيز خان كان بعضها تابعاً لأسرة كين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الشمالي من بلاد الصين بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في منشوريا . وكانت القبائل التي تقطن الجهات الشرقية خاضعة لملك قبيلة كرايت . وأما القبائل الموجودة في غرب منغوليا ، فقد كانت تخضع لگورخان ملك القراخطائيين .

وقد استطاع چنگيز خان أن يبسط سيطرته على جميع القبائل المغولية . ويكون منها حكومة واحدة . ثم تلفت حوله فرأى حكام إمبراطورية كين في الصين الشمالية ، لا يكفون عن تحريض القبائل ، الواحدة منها ضد الأخرى لكي يظلوا هم سادة الموقف ، وليأمنوا شر الغارات التي تشنها عليهم هذه القبائل ؛ فأراد چنگيز خان ــ عندما وثق بنفسه وبقوة جيشه ــ أن يضع حداً لتدخل أفراد هذه الأسرة في شئون القبائل ، وصمم على محاربتهم خصوصاً وأنه كان يريد الانتقام منهم بسبب ما لقيه آباؤه وأجداده من معاملة سيئة

---

(١) انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٩٩ .

على أيدي هؤلاء الحكام .

ولما كان جنكيز خان يعلم الشيء الكثير عن الأوضاع الداخلية في الصين ، ومدى ما بلغته هذه البلاد من حضارة ، وما كانت عليه من غنى وثروة ، أقدم على تنفيذ خطته دون تردد ، واستعد لحرب طويلة الأمد ، وحشد لها معظم قواته . ثم خرج بنفسه على رأس هذه القوات ؛ فاشتبك مع الصينيين لأول مرة عام ٦٠٨ ﻫ (١٢١١ م) . ثم تابع حملاتـــه ، واستطاع أن يحرز جملة انتصارات ، وخضعت له البلاد الواقعة في داخل سور الصين الكبير .

هذه الانتصارات شجعت جنكيز خان على المضي قدماً إلى الأمام لإتمام الغزو والفتح في هذه البلاد المترامية الأطراف . ففي سنة ٦١٠ ﻫ (١٢١٣ م) تحركت ثلاثة جيوش جرارة ، كان على رأس الجيش الرئيسي منها جنكيزخان نفسه ، وكان معه أصغر أبنائه تُولى ، وقاد أبناؤه الثلاثة الآخرون : جوجى وجغتاى واوگــتاى قيادة الجيش الثاني ، ليشكلوا الجناح الأيمن لجيش أبيهم . ثم سارت هذه الحملة متجهة نحو الجنوب . أما الجيش الثالث فقد تحرك – بقيادة إخوته – إلى الشرق في اتجاه المحيط . هذه القوة الجبارة الهائلة مكنت جنكيزخان من أن يواصل فتوحاته في يسر وسهولة أول الأمر ، لكنه اضطر إلى التوقف عند مرتفعات شانتونج عندما شعر بالإعياء والتعب نتيجة للمقاومة الباسلة التي أبداها الصينيون في الدفاع عن وطنهم .

ولما كان جنكيزخان يرى ضرورة العودة إلى منغوليا ، أرسل في سنة ٦١١ ﻫ (١٢١٤ م) رسالة إلى إمبراطور الصين يعرض عليه الصلح ، يقول فيها : « كل ما تمتلكه في شانتونج من أراضي ، وكل ما يقع شمال النهر الأصفر من بلاد يعتبر ملكاً لي ، فيما عدا پكين . فما أصبحتَ فيه مـــن الضعف ، يقابله ما توافر لي من القوة . غير أنني أحب أن أتوقف عن المضي في القتال والفتح ، إنما لا يتم ذلك إلا بشرط واحد ، وهو أن تبذل مـــن

الضيافات والهبات لقادتي ورجالي ما يجعلهم يخلدون إلى الهدوء والسلام »[1].

ولما تأكد إمبراطور الصين المسمى « واي وانج » Wai Wang من حرج موقفه ، وافق على الصلح ، وأرسل إلى چنگيزخان بعض الهدايا ، منها خمسمائة من الغلمان والجواري ، وثلاثة آلاف فرس . كما بعث إليه بأميرة صينية من أسرته لتكون زوجة له . ولكن هذا الملك عاد فعدل عن فكرة الصلح ، وربما كان مدفوعاً في ذلك بعدم اطمئنانه إلى المغول . فلم يكد چنگيزخان يجتاز السور الكبير ، حتى نقل إمبراطور كين مقر ملكه من پكين إلى مدينة «كاي فونج » في الجنوب ، لكي لا يكون قريباً من الحدود المغولية . وفي بادىء الأمر ، ترك لابنه مهمة الدفاع عن پكين . ثم عاد فاستدعاه وكلف أحد قواده بأن يحل محله . وقد ترتب على ذلك حدوث انقسام في صفوف الجيش الصيني ، فاستغل چنگيزخان هذه الفرصة ، والتحم مع الصينيين في معركة فاصلة سقطت على أثرها مدينة پكين في أيدي المغول عام ٦١٢ ﻫ (١٢١٥ م) .

وبسقوط هذه العاصمة الكبيرة في يد چنگيز خان ، غنم غنائم كثيرة ، واستولى على مزيد من الكنوز والنفائس مما كان له أكبر الأثر في ترقية حياة المغول ، إذ أصبحوا يصنعون خيامهم من الحرير ، ويرصعون سيوفهم بالجواهر . كذلك أخذوا عن الصينيين استعمال البارود[2] .

ولقد أحدث نبأ انتصار چنگيزخان على الصينيين واستيلائه على پكين دوياً هائلاً في الممالك الإسلامية فزادت هيبته في نفوس الجميع . وكان الغازي المغولي يود أن يكمل فتوحاته في هذه البلاد ، غير أنه فضل العودة إلى منغوليا عام ٦١٣ ﻫ (١٢١٦ م) استعداداً لتعقب أعدائه الذين هربو إلى الممالك الغربية . وبعد رحيل چنگيزخان من الصين ، استعادت أسرة كين كثيراً من أملاكها

---

(١) انظر الدكتور الباز العريني ، المغول ، ص ٦٦ .

(٢) انظر حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١١٣ .

المفقودة . واستمرت إمبراطوريتهم قائمة إلى أن قُضي عليها نهائياً في عهد اوكتاي بن چنگيز خان .

قضاء چنگيز خان على كوچلك خان ومجاورته أملاك الدولة الخوارزمية :

بعد أن هزم چنگيز خان قبائل النايمان ، وقضى على ملكهم «تايانك خان» ، فر ابنه كوچلك خان ، مع جمع كثير من أتباعه . وقد تعرض أثناء فراره وجولاته لمتاعب عديدة ، ووقع في الضيق والعوز ، وتفرق الجمع الذي كان يصاحبه . ويقال إن الجنود القراخطائيين اعتقلوه وحملوه إلى ملكهم گورخان . وتقول رواية أخرى أن كوچلك لجأ إلى گورخان ، وصار محتجزاً عنده مدة من الزمن[1] .

ولما شق السلطان علاء الدين خوارزمشاه عصا الطاعة على گورخان ، ورفض أن يدفع له الجزية ، انتهز كوچلك خان هذه الفرصة ، وأدخل في روع گورخان أنه يستطيع أن يجمع أتباعه المشتتين في نواحي إيميل وقياليغ وبيش باليغ ، ويكون جيشاً كبيراً ، يقف إلى جانب گورخان ضد مطامع خوارزمشاه ، وأنه يتعهد لگورخان بأن يظل وفياً له ، ولا يعصي له أمراً ؛ فانطلت هذه الحيلة على گورخان ، وشمل كوچلك بعطفه ورعايته ، ومنحه كثيراً من التحف والهدايا ، وسمح له بتنفيذ هذه الخطة .

وهكذا استطاع هذا الزعيم الفار أن يجمع جنوده ، ويعيد تنظيم قواته ، وانضم إليه بعض من أتباع گورخان . كما لحق به « توق تغان » حاكم قبيلة المركيت ، الذي كان قد فر هو الآخر خوفاً من بطش چنگيز خان . ومنذ ذلك الوقت ، صار كوچلك يبدو في ثوب التابع المخلص لگورخان ، حتى إذا لمس منه ضعفاً ، لبس جلد النمر ، وصمم على الغدر بولي نعمته والقضاء عليه .

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٤٦ .

وقد انتهز كوچلك فرصة العداء الشديد بين الخوارزميين والقراخطائيين . واتفق مع السلطان محمد خوارزمشاه على إزالة هذه الدولة ، واقتسامها بينهما ؛ فصادف ذلك هوى في نفس السلطان محمد ، ووافق على التدخل ، عندما رأى رجحان كفة كوچلك الذي سارع إلى محاربة گورخان ، فاستطاع أن ينتصر عليه ويأسره ، ويزج به في السجن ، حيث توفي بعد عامين . وقد تزوج كوچلك من ابنة گورخان ، فاستطاعت أن تقنع زوجها بالارتداد عن المسيحية ، واعتناق البوذية التي كانت تدين بها[1] . ولما رأى السلطان علاء الدين محمد ما لحق بالقراخطائيين ، أعمل السيف في رقاب البقية الباقية منهم ، وبذلك شارك في تحطيم دولتهم[2] .

وبعد هزيمة القراخطائيين ، أخذ كوچلك يوسع دولته ، فأخضع كثيراً من القبائل المجاورة ، ومد سلطانه من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية ، دون أن يعوقه عائق ، وبذلك نجح في تأسيس دولة قوية ، تقوم على حدود البلاد الإسلامية .

وكان السكان في مناطق كاشغر وختن من بلاد القراخطائيين قد تمردوا عليه ، فأرسل جيوشه أولاً إلى كاشغر في وقت حصاد الغلات ، فكان جنوده يستولون على المحصول ، ويأكلون ويحرقون وينهبون ، ويعيثون في الأرض فساداً ، فارتفعت أثمان الحاجيات ، وتعذرت الأقوات ، وحدثت مجاعة هلك بسببها كثير من الأهالي . ولكن الغاصب المحتل كان يغدق على السكان البوذيين المشركين ، ويعطيهم كل ما يطلبون ، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من هذا الظلم الصارخ والتفرقة غير المشروعة في المعاملة .

بعد ذلك توجه كوچلك إلى منطقة « ختن » ، وأخضعها في قسوة بالغة ، وارتكب هناك الموبقات ، وسام الأهالي سوء العذاب . ولم تقف شروره عند

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٤٨ .
(٢) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٩٥ ، نشر المكتبة التجارية بالقاهرة.

هذا الحد ، بل أجبر المسلمين على الارتداد عن دينهم ، واعتناق إحدى الديانتين : المسيحية أو البوذية . وإذا لم يقبلوا ذلك فعليهم أن يتزيوا بزي الخطائيين . فكان المسلمون يرتضون الحل الأخير مضطرين ، لأنه أهون عليهم من أن يرتدوا عن دينهم . ونتيجة لهذا الاستبداد ، انقطع الأذان ، وحيل بين المسلمين وبين أداء شعائرهم الدينية . فكان هذا أول اضطهاد ديني لاقاه المسلمون في آسيا الوسطى .

وأدهى وأمر من كل هذا أجبر الأئمة وكبار رجال الدين من المسلمين على الخروج إلى الصحراء ، وبدأ يناظرهم في شئون الأديان والعقائد . ونظراً لجهله بآداب المناظرة ، كان يسفه آراءهم ، ويحقر دينهم ، ويتحداهم في غطرسة وعجرفة . فما كان من الإمام علاء الدين محمد الختني إلا أن انبرى له في شجاعة منقطعة النظير ، وصار يجادل هذا الأحمق ، ويبين له زيف مذهبه ، ويقيم الحجج والبراهين على صحة العقيدة الإسلامية فلما رأى كوچلك أنه قد خذل ، لجأ إلى حيلة العاجز من السباب والشتائم ، وجن جنونه فأمر بصلب هذا الإمام الجليل الشهيد على باب إحدى المدارس في ختن[1] .

ولم يكن چنگيزخان بالشخص الغافل عن عدوه اللدود كوچلك ، فيتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه للأخذ بثأر أبيه. وإذا كان قد صبر عليه بعض الوقت ، فما ذلك إلا لأنه كان مشغولاً بحروبه في الصين . فلما فرغ سارع ، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة أحد قواده المشهورين ، وكان يدعى « جبّه نويان » الذي سار إلى كاشغر ، واستولى عليها بسهولة ، وفر كوچلك هائماً على وجهه ، ولم يحاول أن يواجه المغول في معركة من المعارك . وكان أول ما فعله « جبه » أن أطلق الحرية الدينية للجميع ، فتنفس المسلمون الصعداء ، إذ أنه بهذا الإجراء خلصهم مما كانوا يعانونه من ضيق وحرج على يد كوچلك

---

(١) انظر تفصيل هذه المأساة في كتاب الجويني : تاريخ جهانگشای ، ج ١ ، ص ٥٢ ومابعدها.

في نواحي كاشغر وختن . فلا غرو أن راحوا يستقبلون المغول كمحررين لهذه البلاد .

فر كوچلك قاصداً « بدخشان » حيث اعتقله بعض الصيادين ، وسلموه للمغول الذين كانوا يجدون في إثره ، فقتلوه على الفور ، وأرسلوا رأسه إلى چنگيزخان في منغوليا ، ثم أعملوا سيوفهم في كل من وجدوه من طائفة النايمان حتى قضوا عليهم جميعاً في سنة ٦١٥ ه (١٢١٨ م) .

أما « توق تغان » ، الهارب الآخر من وجه چنگيزخان ، فقد تعقبه توشى (جوجى) بين چنگيزخان على رأس جيش كبير ، فلاذ بالفرار ، غير أن المغول تمكنوا من العثور عليه ، والخلاص منه كما استأصلوا شأفة جميع أتباعه .

وبهذا الانتصار تمت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية التي كانت تخضع للقراخطائيين ، كما احتلوا المناطق الأخرى التي كان كوچلكخان قد ضمها إلى دولته . وبوقوع هذه المناطق فيأيدي المغول ، صاروا يجاورون أملاك الخوارزميين .

وفي الحقيقة أراد چنگيزخان أول الأمر أن يكون على علاقة طيبة بالسلطان محمد خوارزمشاه ، ولكن تطور العلاقات بينهما من سيء الى أسوأ ، جعلته يترك سياسة المهادنة ، ويسير بجيوشه الجرارة إلى البلاد الإسلامية .

فهل يا ترى كان في مقدور هذه الأقطار أن تقف فيوجه الغزاة المغول ، وتصد غاراتهم ، وتحول دون وقوع الكارثة التي حلت بهم ، أم أن هذا المصير المخيف كان شيئاً محتوماً ومتوقعاً نتيجة الانقسامات والخلافات التي دبت في صفوف الحكام المسيطرين على العالم الإسلامي ؟! ...

هذا ما سوف نعالجه في الفصل التالي من الكتاب .

الفصل الثالث

الشرق الاسلامي ابان غزوات المغول

الفصل الثالث

الشرق الإسلامي إبـــان غزوات المغول

كان الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول في حالة شديدة من الضعف والتخاذل ، تضمه مناطق تسودها الفتن والدسائس ، وتتنازعها الأهواء والأغراض، وتصطرع فيها المذاهب والآراء ، ويسيطر عليها حكام متنازعون متباغضون ، يؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح أوطانهم العليا ، متناسين تلك الحكمة الخالدة التي تقول : « الاتحاد قوة والتفرق ضعف » .

كان أهم الدول التي تمثل الشرق الإسلامي في ذلك الوقت ، تقوم في ايران والعراق والشام ومصر .

أما ايران فكانت تقوم فيها الدولة الخوارزمية التي تنسب إلى مؤسسها « نوشتگين » . كان أول أمره عبداً اشتراه أحد أمراء السلاجقة من غرجستان ، ثم شغل منصب « الطشتدار »[1] إلى أن نصب حاكماً على إقليم خوارزم ، وتلقب بلقب « خوارزمشاه » سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) .

---

(١) الطشتدار هو أحد الموظفين الذين يعملون في « الطشت خانه » أى المكان الذى يحوى الطشت الذى تغسل فيه الأيدي ، والطشت الذي تغسل فيه الأقمشة . وكان الطشت خانه يحوي ملابس السلطان وكذا المقاعد والمخاد والسجاد الذي يصلي عليه السلطان ويعرف بعض الصبيان الذين يعملون في هذا المكان بالطشت دارية ، ويعرف بعضهم الآخر بالرختوانية . (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠–١١).

ومنذ ذلك الوقت كان يهدف خلفاء نوشتكين إلى الاستقلال عن الدولة السلجوقية عندما شعروا بضعفها ، بل عملوا على القضاء عليها ليحلوا محلها . وقد تم لهم ما أرادوا إذ توفي السلطان سنجر[1] السلجوقي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧م) فدخلت ممتلكات السلاجقة في فارس وخراسان في حوزة الدولة الخوارزمية .

ولما اعتلى السلطان تكش ٥٦٨ – ٥٩٦ هـ (١١٧٢ – ١١٩٩ م) عرش الخوارزميين ، سنحت له الفرصة لكي يضم إلى دولته أراضي جديدة ، ويوطد نفوذه في البلاد الواقعة تحت سيطرته ، فقد حاول طغرل الثالث آخر السلاطين السلاجقة في العراق ، أن يستعيد سلطته على حساب الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فاستنجد هذا بالسلطان تكش للقضاء نهائياً على السلاجقة ، ووعده أن يقطعه ما بيده من البلاد إذا أنجز هذا الأمر[2] فانتهز تكش هذه الفرصة وسارع من نيسابور إلى الرى على رأس جيش كبير ، واشتبك مع السلطان طغرل في معركة عنيفة بالقرب من الرى ، أسفرت عن هزيمة طغرل ، وسقوطه عن جواده وقتله . وقد نقلت جثته ، وأحضرت أمام السلطان تكش . فلما رأى عدوه بهذا الوضع ، ترجل عن جواده ، وسجد لله شكراً . ثم أرسل رأسه إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله[3] ، وكان ذلك في سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) .

ولم يمكث السلطان طويلاً في الرى ، بل غادرها إلى همذان . وفي وقت قصير استولى على إقليم العراق العجمي ، وتقلد حكم هذه البلاد رسمياً من الخليفة العباسي .

ولكن أطماع تكش لم تقف عند هذا الحد ، بل رأى أنه لا بد أن يحتل

---

(١) انظر الدكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ١٣٧-١٣٩ .
(٢) انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ، ص ٩٤ .
(٣) الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، طبع ليدن .

المكانة التي كانت للسلاجقة في بغداد ، فطلب إلى الخليفة الناصر أن يعترف به سلطاناً في هذه العاصمة ، وأن يذكر اسمه في الخطبة . ولكن هذا الطلب كان يتعارض مع رغبات الخليفة العباسي الذي تنفس الصعداء بزوال كابوس السلاجقة . ولدرء الخطر الذي يتهدده من جانب تكش ، صار يحرض ضده حكام البلاد المجاورة . وفي مقدمتهم الغوريون . وكان معنى هذا أن تكش أصبح عدواً للخليفة وللجماعات السنية . غير أن الظروف اضطرته إلى تحسين علاقته بالخلافة العباسية وبالغوريين تاركاً لابنه مهمة تحقيق أهداف سلاطين هذه الدولة في التوسع والفتح .

كذلك نرى تكش يقوى علاقته ـ بصفة خاصة ـ مع القراخطائيين ، بل ويعمل على المحافظة على دولتهم الواقعة شرقي بلاده ، ويتعهد لهم بدفع جزية معينة ، ولم ينس أن يوصي ابنه باتباع هذه السياسة ، بعد أن تبين له أن هذه الدولة بمثابة الحاجز بين الدولة الخوارزمية والقبائل الهمجية في الشرق .

وهكذا صارت الدولة الخوارزمية تتسع شيئاً فشيئاً على حساب الأقاليم المجاورة حتى بلغت أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ٥٩٦ ـ ٦١٧ هـ (١١٩٩ ـ ١٢١٩ م) الذي كان يلقب بلقب قطب الدين قبل موت أبيه تكش . والسلطان محمد هو الذي كان يعاصر چنگيزخان ، وكان شخصاً طموحاً شرهاً ، تقوم سياسته مع الأمم الإسلامية المجاورة على الشقاق والنزاع ، ومحاولة التهام هذه الدول الواحدة بعد الأخرى على هذا النحو الذي نراه الآن :

السلطان محمد والدولة الغورية :

عند جلوس السلطان علاء الدين محمد على عرش السلطنة ، كان سلاطين الغوريين يحكمون قسماً من أفغانستان الحالية وغرب الهند . وكان يعاصر السلطان محمد من ملوك هذه الأسرة ، الأخوان غياث الدين وشهاب الدين ، وهما اللذان كانا يسيطران على هراة وغزنين وبلخ وكابل وسجستان وكرمان ،

كما أنهما تغلبا على القسم الذي يقع شرقي خراسان . وحين رقى السلطان محمد عرش الخوارزميين ، ظن الأخوان أنه ضعيف لا يقوى على مقاومتهما فأخذا يغيران على منطقة خراسان ، واستطاعا الاستيلاء على بعض المدن ، وأرسلا حكاماً من قبلهما ، ساموا الرعايا الخوارزميين سوء العذاب ، وأنزلوا بهم كثيراً من المتاعب والنكبات ، فاستغل السلطان محمد ذلك الموقف ، وصمم على محاربة الغوريين وطردهم نهائياً من هذه المنطقة . وقد ساعدته الظروف إذ توفي أحد الأخوين ، وهو غياث الدين الذي كان يعرف بشجاعته ودهائه ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) . وما أن حلت سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) حتى كان محمد قد استعاد كل أملاكه في خراسان .

ولكن شهاب الدين الذي كان غائباً في الهند ، رجع على الفور ، وقصد إقليم خوارزم على رأس جيش كبير ، فاستمر غازياً منتصراً حتى وصل إلى العاصمة « جرجانية » فحاصرها ، غير أن الأهالي قاموا قومة رجل واحد للدفاع عن المدينة[1] ، وأسرع السلطان محمد فاستنجد بالقراخطائيين وعثمان خان سلطان سمرقند ، فتقهقر الغوريون سريعاً ، وتبعهم محمد حتى أدركهم في « هزار اسب » حيث أوقع بهم الهزيمة ، ثم عاد الى عاصمته ليحتفل بنصره .

أما القراخطائيون فقد استمروا في زحفهم وهزموا شهاب الدين هزيمة منكرة ، ولم ينقذه منهم سوى تدخل عثمان سلطان سمرقند ، لأنه لم يرض أن يهلك سلطان مسلم على يد الكفار .

ومنذ ذلك الوقت لجأ شهاب الدين إلى الهند لعله يستطيع إعادة تنظيم قواته قبل الإقدام على محاربة القراخطائيين للانتقام منهم ، ولكنه قتل في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) ، واقتسم الأمراء أملاكه ، واستقل كل منهم بقسمه ،

---

(١) انظر ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ ، طبع طهران .

فآل القسم الذي كان يشتمل على هراة وفيروز كوه (شمال أفغانستان) إلى الأمير محمود ابن السلطان غياث الدين . ولما كان رجلاً مستهتراً ومولعاً بالشراب ، فقد انفض أتباعه من حوله ، واختلت بذلك شئون الدولة ، وسرعان ما قتل في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ، فحل محله أخو السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي كان يدعى « تاج الدين عليشاه » ، وكان قد لجأ إلى الأمير محمود فاختاره عظماء الدولة ليكون ملكاً عليهم بعد محمود . ولكن السلطان علاء الدين نجح في قتله على يد رسول أرسله إليه ، وبذلك ضم فيروزكوه وهراة إلى أملاكه . وفي سنة ٦١١هـ (١٢١٤م) استولى على غزنين ، ومد حدود بلاده إلى الهند من ناحية الشرق .

السلطان محمد والقراخطائيون :

سبق أن ذكرنا أنه في النصف الأول من القرن السادس الهجري نزحت قبائل الخطا من موطنهم الأصلي في شمال الصين ، على أثر الاضطراب الذي ساد هذه المنطقة ، واستقروا غرب إقليم التركستان حيث كونوا دولة في ولاية كاشغر وختن ، عرفت باسم « القراخطائيين »[1] . وقد استطاع ملوك هذه الدولة الذين كان يلقب كل واحد منهم بلقب « گورخان » (أي ملك الملوك) – توسيع مملكتهم الجديدة شرقاً وغرباً حتى امتدت حدودها من صحراء جوبى إلى نهر سيحون ، ومن هضبة التبت إلى سيبريا .

وكان تكوين هذه الدولة ومجاورتها للبلاد الإسلامية من الأمور التي شغلت الحكام المسلمين في ذلك الوقت ، خصوصاً وأن القراخطائيين كانوا يدينون بالبوذية .

وهؤلاء القراخطائيون هم الذين تغلبوا على السلطان سنجر بتحريض من تسز خوارزمشاه ، وذلك في موقعة قطوان (موضع من محال سمرقند) في

---

١) « قره » لفظ تركي بمعنى أسود ، ويبدو أن المغول هم الذين أضافوا هذا اللفظ إلى قبائل الخطا للتعبير عن عدائهم وكراهيتهم لهم .

سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م). وقد قتل في هذه المعركة ما يقرب من مائة ألف من عساكر المسلمين، منهم اثنا عشر ألفاً من أصحاب العمائم، ووقعت زوجة السلطان سنجر أسيرة في أيديهم، وولى هو الأدبار(١). وبذلك استقرت دولة القراخطائيين في بلاد ما وراء النهر، واستمروا يحكمونها حوالي ٨٩ سنة. كذلك أخضعوا البلاد التي كانت في أيدي أعقاب الايلك خان الذين كانوا يكونون في منطقة ما وراء النهر دولة عرفت في التاريخ باسم الأفراسيابية أو الخانية أو الايلك خانية وهي الأسرة التي حكمت هذه البلاد أكثر من مائتي سنة بعد السامانيين وقبل المغول(٢).

ولكن لما كانت هذه الأسرة من الأتراك المسلمين، فإن القراخطائيين أبقوا عليهم، واكتفوا بأخذ الخراج منهم، ونصبوا شحنة من قبلهم في بلاطهم. وكان نصرة الدين عثمان خان بن إبراهيم ٦٠٠-٦٠٩ هـ (١٢٠٣-١٢١٢ م) هو آخر ملوكهم، وقد اختار الإقامة في سمرقند، وتلقب بلقب سلطان السلاطين.

ونتج عن استيلاء القراخطائيين على منطقة ما وراء النهر، أنهم أصبحوا يجاورون ممالك الدولة الخوارزمية، وكان السلطان أتسز خوارزمشاه يتجنبهم، ويخشى الاحتكاك بهم، فقبل أن يدفع لهم جزية سنوية مقدارها ٣٠٠٠٠ دينار من الذهب، حتى لا يتعرضوا له بسوء. وقد ظل هذا الإجراء متبعاً حتى عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه.

ولكن هذا السلطان لم يكن بالشخص الذي تقف أطماعه عند حد. وقد نظر فوجد أنه استولى على ممالك كثيرة، وأحس بأنه يحط من قدره، ويلحق به العار، إذا استمر على سياسة الخضوع لمشيئة ملك بوذى، يدين له بالتبعية التي تتمثل فيما يدفعه له من جزية فادحة. وقد شجعه على انتهاج سياسة

---

(١) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٤.

(٢) انظر النظامى العروضى السمرقندى: چهار مقاله (المقالات الأربع) ترجمة الأستاذين الدكتورين عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، ص ١٠٨، ١٤١.

الشدة إزاء هؤلاء القوم ، ما كان يصله من عثمان خان صاحب سمرقند من رسائل تحضه على مهاجمة القراخطائيين ، وفيها تعهد صريح من عثمان بأن يكون حليفاً أميناً لخوارزمشاه ، وتابعاً مخلصاً له ، وبأن يدفع له الجزية التي كان يدفعها للخطا ، بل ويسك السكة باسمه ، ويدعو له على منابر سمرقند وبخاري كما يتبين ذلك من هذه الرسالة : « إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة المال وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار ، وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال والأبشار . ونحن نتفق معكم على محاربة الخطا ، ونحمل إليك ما نحمله إليهم ، ونذكر اسمك في الخطبة والسكة »[1] .

وعلى هذا تشجع السلطان علاء الدين ، وامتنع عن دفع المبالغ المستحقة عليه لمدة ثلاث سنوات ، فاغتاظ القراخطائيون من هذا التصرف ، وكان معنى هذا اشتعال الحرب بين الفريقين . وقد استغل كوچلك خان الذي كان يجاور ممالك القراخطائيين من جهة الشرق . هذه الفرصة ، فأرسل رسالة سرية إلى السلطان محمد ينبئه فيها أنه من ناحية الشرق ، وخوارزمشاه من ناحية الغرب يمكنهما القضاء نهائياً على ممالك القراخطائيين واستئصال شأفتهم واقتسام أملاكهم . وهكذا انتهى الأمر بإزالة هذه الدولة في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) .

وفي الحقيقة كان إزالة هذه الدولة خطأ فاحشاً ارتكبه السلطان محمد ، فقد كان ملوك القراخطائيين سداً سديداً بين بلاد المسلمين ، وغيرهم من الكفار الآخرين ومن بينهم المغول . فحين هزمهم علاء الدين محمد خوارزمشاه ، لم يقض عليهم فحسب ، إنما طوح بما بين الكفار والمسلمين من سد منيع ، وأصبح هو نفسه عاجزاً عن حماية هذه البلاد ، فلما أغار التتار لم يحل دونهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٩١ .

حائل ، فساروا حتى أقصى بلاد المسلمين[1] .

والعجيب في الأمر أن سياسة أبيه تكش كانت تقضي بالمحافظة على تلك الدولة كما ذكرنا من قبل . كذلك كان هذا هو رأي خانات التركستان ، ورأي المجربين من ساسة هذا العصر . يقول محمد بن علي الشبانكاري في كتابه مجمع الأنساب : « قصد خوارزمشاه » الخطا ، مع أن جملة الملوك والوزراء وخانات التركستان حذروه من ذلك وقالوا له : إن جيش الخطا والختن لم يحركه أحد قط . كذلك قال له المجربون : لقد سمعنا من آبائنا أنه وراء جيش الخطا ، توجد خلية نحل حيث ترابط جيوش يأجوج ويقصدون بهم المغول ، فلا تحرك هذه الخلية . ولكن دوافع الطمع في التملك وحب السيطرة قد أصمت أذن السلطان عن استماع هذه النصائح الصادقة ، فذهب وهزم خان الخطا ، واستولى على بلاده »[2] .

ومهما يكن من أمر فإن السلطان محمد بتصرفه هذا أتاح لكوچلك خان أن يجاوره . وقد عرفنا هذا الرجل عدواً خطيراً لچنكيز خان ، وأن هذا الأخير قد سار غرباً ، وأخضع عدوه كوچلك خان ، وحل محله ، فأصبح بذلك يجاور البلاد الإسلامية ، وصار يهدد تلك الرقعة الواسعة من غرب آسيـــا ، وفي مقدمتها الدولة الخوارزمية .

---

(١) انظر چهار مقاله (المقالات الأربع) ، الترجمة العربية ، ص ١٠٨ .

(٢) خوارزمشاه قصد خطا كرد ، جمله' ملوك ووزراء وخانان تركستان با وى بگفتند كه لشكر خطا وختن را هرگز هيچكس نجنبانيده است ، وپيران با او گفتند كه ما از پدران شنيده ايم كه پس لشكر خطا زنبور خانه ايست كه لشكر يأجوج آنجاست ، وبدين لشكر ، مغول را ميخواستند ، واين زنبور خانه‌را ميا شور . بواعث طمع جهاندارى ، سلطان را ازا استماع اين نصايح مشفقانه كر ساخت ، تابرفت وخان خطارا بشكست ، وخطارا بگرفت .

السلطان محمد والخليفة العباسي :

العراق :

إلى جانب الدولة الخوارزمية ، كانت تقوم الدولة العباسية في بغداد . وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو الناصر لدين الله ٥٧٥ – ٦٢٢ هـ (١١٧٩ – ١٢٢٥ م) ، وجد أن الدولة العباسية قد صارت ضعيفة هزيلة من الناحية السياسية ، بحيث أنها أصبحت منحصرة في العراق العربي وخوزستان ، ولم تعد قادرة على أن تبسط سلطانها على ما جاورها من الأقاليم ، ولم يبق لها إلا النفوذ الروحي فقط . ولكن الناصر كان يظن أنه يستطيع النهوض بدولته ، والعمل على اتساع رقعتها بمجرد أن شعر بضعف السلاجقة وانقسام دولتهم ، فوضع كل أمله في حكام الدولة الخوارزمية ليزيح من طريقه دولة السلاجقة . ولكن سرعان ما اتضح له أنه كان واهماً في ظنه ، إذ تكشفت له الحقيقة المرة ، وهي أن الخوارزميين لهم مطامع في إقليمه ، وأنهم لا يقلون خطراً على دولته من السلاجقة .

ولكن الخطر الذي كان يتهدد العباسيين من جانب الخوارزميين قد تمثل بوضوح في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي حاول أن تكون له المنزلة الأولى في بغداد ، فلما عجز عن تحقيق هدفه بالطرق الودية ، لم يجد بداً من استعمال القوة ، فصمم على غزو بغداد . وذلك للأسباب الآتية :

١ – كان يرغب في أن يأتمر الخليفة بأمره ، وأن تذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد ، كما كان الوضع في عهد السلاجقة والبويهيين من قبلهم .

٢ – شعر السلطان محمد بأن الخليفة يحتقره ، ويعامله معاملة سيئة ؛ إذ أنه أهان رسله عندما قدموا له العلم والهدايا التي أهداها إلى الحجاج ، في حين أنه قبل العلم والهدايا التي وصلت إليه من جلال الدين حسن الإسماعيلي المشهور بـ « نومسلمان » من خلفاء الحسن بن الصباح ، ورحب برسله ،

وقدم هذه الهدايا على هدايا خوارزمشاه[1] .

٣ ـ عندما استولى خوارزمشاه على غزنة عاصمة الغوريين ، سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) ، ووضع يده على خزائن شهاب الدين الغوري ، عثر على رسائل رسمية من الخليفة يحثه فيها على مهاجمة السلطان محمد والقضاء عليه .

٤ ـ تبين لعلاء الدين محمد أن الخليفة مستمر في تحريك الممالك المجاورة ضده ، وتدبير المكائد والدسائس له ؛ فقد حرض القراخطائيين ، وأبدى استعداده للتحالف معهم ، ووعدهم بتأييد سلطانهم على البلاد التي يستولون عليها ، وأثار عليه أتابكة فارس وأذربيجان ، وزين لهم الاستيلاء على العراق العجمي وانتزاعه من الخوارزميين . وأدهى وأمر من كل هذا تحالف مع الإسماعيلية للغرض نفسه ، بل إنه راح يحتضن عدة أشخاص من فدائييهم ، ويحركهم ضد الخوارزميين ، فقتلوا « أغلمش » نائب الخوارزميين في العراق العجمي[2] .

٥ ـ في رأي السلطان علاء الدين محمد أن الخلفاء العباسيين قد تقاعدوا وتكاسلوا عن القيام بالغزوات ، وتركوا الجهاد في سبيل الله . كذلك تغافلوا ـ رغم استطاعتهم ـ عن المحافظة على الثغور ، وقمع أرباب البدع والضلالات ، مع أن هذا من أوجب الواجبات على أولي الأمر[3] .

وعلى هذا كان السلطان علاء الدين محمد يرى في الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، خطراً يتهدد دولته بسبب ما يدبره ضده من دسائس ومكائد ، فرأى أن يزيحه من طريقه ، ويستولي على العراق العربي وخوزستان . وشرع في اتخاذ الوسائل التي يراها كفيلة بتحقيق أغراضه ، فاعتنق مبادىء الشيعة ، وصرح بأن الغرض من إزالة الخلافة العباسية هو إقامة خلافة علوية . وكان

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٢) انظر النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٥٢ .

(٣) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ٢ ، ص ٩٦-٩٧ .

يهدف من وراء ذلك إلى أن يكسب عمله صفة شرعية ، وليستميل أهالي تلك البلاد ؛ إذ أن أكثرهم كانوا يدينون بمذهب الشيعة ، فيكون هذا حافزاً لهم على الانضمام إليه لمحاربة الخليفة . وتنفيذاً لهذه الخطة ، جمع الفقهاء وأئمة الدين في دولته ، وحصل منهم على فتوى صريحة مؤداها أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من العلويين أصحاب الحق الشرعي فيها . فينبغي أن يختار لهذا المنصب رجل من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب ، لا سيما وأن الخليفة الناصر قد ارتكب عدة مخالفات توجب على كل مسلم مقاومته .

وبناء على هذا ، أصدر السلطان علاء الدين أمراً بعزل الخليفة ، وأسقط اسمه من السكة والخطبة ، ووقع اختياره على رجل علوي من مدينة ترمذ اسمه « علاء الملك[1] » ، فنادى به خليفة للمسلمين ، وخطب له على المنابر ، وضرب النقود باسمه .

وعلى هذا التصميم ، قاد السلطان محمد جيشه قاصداً بغداد في سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وفي العراق العجمي التحم بالأتابك سعد بن زنكي الذي كان قد توجه إلى تلك الديار ، بقصد الاستيلاء عليها ، بعد أن أطمعه فيها الخليفة . ولكن خوارزمشاه انتصر عليه وأسره . وأخيراً أطلق سراحه ، بعد أن قبل الدخول في طاعته ، وتعهد بأن يتنازل له عن ثلث خراج إقليم فارس سنوياً وإعطائه بعض الامتيازات الأخرى[2] .

كذلك أوقع خوارزمشاه الهزيمة بأوزبك بن البهلوان ، أتابك أذربيجان الذي جاء هو الآخر بتحريض الخليفة العباسي . ولكن خوارزمشاه أمنه — بعد ذلك — على حياته بعد أن دان له بالطاعة ، وضرب السكة وقرأ الخطبة باسمه ، وأرسل إليه الرسل ، يحملون التحف والهدايا[3] .

---

(١) انظر الجويني ، ج ٢ ، ص ٩٧ .
(٢) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٣١٣ ؛ النسوى ، ص ٦٢ .
(٣) انظر الجويني ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

ولما وجد الخليفة أن كل القوى التي اعتمد عليها في محاربة خوارزمشاه ضعيفة منحلة ، لم تستطع أن تقف في وجه هذا العدو القوي ، وتأكد من إصرار السلطان محمد خوارزمشاه على غزو بغداد ، وأنه لا قبل له بمقاومته ، لم يجد مفراً من أن يلجأ إلى چنگيزخان قائد المغول الأكبر ، والذي كان صيته قد ذاع وانتشر في شرق آسيا وغربها ، فرأى فيه الخليفة الرجل الوحيد الذي يستطيع أن ينقذه من تلك الورطة ، ويوقف خوارزمشاه عند حده . وقد أشار ابن الأثير إلى هذه الحقيقة فقال : « وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد ، وراسلهم في ذلك ، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[1] » . كذلك أيد المقريزي هذه الرواية فقال : « وفي خلافته (أي الناصر) خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همذان ، وكان هو السبب في ذلك ، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، لما هم بالاستيلاء على بغداد ، وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية »[2] .

وبعد أن اطمأن خوارزمشاه على سلامة موقفه ، بتغلبه على كل القوات المحيطة به ، استعد للمسير إلى بغداد . وعلى مقربة من همذان ، قدم لمقابلته « شهاب الدين السهروردى[3] » رسولاً من قبل الخليفة ، ليعرض عليه الصلح ، وليثنيه عن عزمه على فتح بغداد . وفي هذا اللقاء يصف «السهروردي»

---

(١) الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٦١ .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٢١٨ .

(٣) كان من كبار الصوفية . وبالإضافة إلى هذا كان يمتاز بصحة الرأى وصدق الحكم . أهم مؤلفاته كتابان : « عوارف المعارف » و « رشف النصائح » . وقد ترجم له ابن خلكان ، وروى بعضاً من أشعاره العربية . ومن المعروف عنه أيضاً أنه كان أستاذاً للشاعر الفارسي الكبير سعدى الشيرازى . توفي السهروردي في سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) . انظر براون : تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي إلى السعدى ، ترجمة المرحوم الدكتور ابراهيم أمين الشواربي ، ص ٦٣١ . ٦٣٢) .

مشاهداته ، وحديثه مع السلطان علاء الدين فيقول : « استدعاني ، فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر في الدنيا مثله ، والدهليز والشقة أطلس والأطناب حرير ، وفي الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم : صاحب همذان وإصبهان والري ، وغيرهم . فدخلنا إلى خيمة أخرى إبريسم ، وفي دهليزها ملوك خراسان : مرو ونيسابور وبلخ وغيرهم . ثم دخلنا خيمة أخرى ، وملوك ما وراء النهر في دهليزها . كذلك ثلاث خيام . ثم دخلنا عليه وهو في خركاة عظيمة من ذهب ، وعليها سجاف مرصع بالجواهر . وهو صبي له شعرات ، قاعد على تخت ساذج ، وعليه قباء بخارى يساوي خمسة دراهم ، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهماً ، فسلمتُ عليه ، فلم يرد ، ولا أمرني بالجلوس . فشرعت فخطبت خطبة بليغة ، ذكرت فيها فضل بني العباس ، ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين . والترجمان يعيد عليه قولي . فلما فرغت ، قال للترجمان : قل له هذا الذي وصفته ما هو في بغداد ؟ ... قلت نعم . قال : أنا أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف . ثم ردنا بغير جواب[1] » .

بعد ذلك توجه علاء الدين من همذان قاصداً بغداد ، وكان الفصل خريفاً . فلما وصل إلى « أسد آباد » ، هبت عواصف ثلجية شديدة ، فأهلك البرد كثيراً من جنوده وعتاده ودوابه ، وتعرض الجنود الباقون لغارات الأتراك والأكراد . وهكذا كانت ثورة الطبيعة سبباً في تشتت شمل الجيوش الخوارزمية. وأخيراً وجد السلطان علاء الدين نفسه مضطراً إلى العودة إلى بلاده في نفـــر ضئيل هم البقية الباقية ممن كتبت لهم النجاة من جنوده .

وعلى أثر ذلك شاعت تلك الخرافة المشهورة التي تقول إن ما حدث لم يكن إلا غضباً من الله انتقاماً من السلطان محمد لتجرئه وتطاوله على خليفة المسلمين ، ومحاولته إزالة بيت بني العباس المؤيد من السماء ، بل إن ذلك

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢١٩-٢٢٠ .

جاء صراحة على ألسنة بعض خواصه إذ قالوا له : « إن ذلك غضب من الله حيث قصدت بيت الخلافة[1] » .

ومهما يكن من أمر فقد أدى النزاع بين خوارزمشاه والخليفة العباسي ، إلى استنزاف القوى في كلتا الدولتين ، بحيث أنه سهل على المغول اكتساحهما بعد ذلك .

والحقيقة أنه منذ تلك الحملة الفاشلة على بغداد والكوارث تتوالى على السلطان علاء الدين محمد الواحدة بعد الأخرى ؛ فقد عاد ليرى الخطر المغولي ماثلاً أمامه ، يتهدده بالتدمير والفناء .

الإسماعيلية :

في إيران أيضاً ، كانت طائفة الإسماعيلية تقوم في الشمال الغربي بالنسبة للدولة الخوارزمية . وقد سميت بالإسماعيلية لأن أتباعها كانوا ينادون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ؛ إذ كان لجعفر أربعة أولاد أكبرهم إسماعيل الذي كان حفيداً للحسن من جهة أمه . وقد عهد إليه أبوه بالإمامة من بعده ، ولكنه كان يعاقر الخمر ، فأنكر عليه جعفر ذلك ، وقال : « إن إسماعيل ليس ابني ، لكنه شيطان ظهر في صورته » . ونقلوا عنه أيضاً أنه قال : «بدا[2] لله في أمر إسماعيل » ، ونص على أن يكون ابنه الآخر موسى إماماً من بعده . ولكن المؤيدين لإسماعيل أصروا على أن الأصل هو النص الأول ، ولا يجوز البداء على الله . وكل من يعرف باطن الشريعة ، لا يعاقب إذا ما أغفل الظاهر ، وكل ما يأتيه الإمام من قول أو فعل فهو حق ؛ إذ لم يتطرق خلل أو نقصان إلى إسماعيل من جراء شرب الخمر ، فسموا بالإسماعيلية ،

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٤٩ ، طبع المكتبة التجارية بالقاهرة .

(٢) « البداء » يعني أن الله تعالى يريد الشيء ويعزم عليه ، ثم يبدو له فلا يفعله (انظر ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٢).

وتميزوا بهذا الاسم عن بقية الشيعة[1] .

كما عرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون . وكانوا يقولون : إن للشريعة باطناً وظاهراً ، والأصل هو الباطن . فإذا كان الناس عالمين بباطن الشرع ، فلا خلل يحدث إذا استهانوا بالظاهر .

واشتهر الإسماعيلية عند خصومهم باسم الملاحدة ؛ لأنهم غيروا وبدلوا في أركان الدين ، ودعموا آراءهم بالأقوال التي وصلت إليهم عن فلاسفة اليونان . كما اقتبسوا بعض المبادىء من مذاهب المجوس[2] .

كذلك أطلق عليهم أيضاً لفظ الحشاشين أو الحشيشية ؛ لأنهم كانوا يستعينون بالحشيش في الترويج لمذهبهم ، وفي حوادث الاغتيال السياسي .

ولقد كان هناك دعاة أول ، مهدوا لهذه الدعوة ، وأعطوها الطابع المميز الذي اختصت به طائفة الإسماعيلية فيما بعد . والقارىء كتاب « سياست نامه »[3] ، يلاحظ أن مؤلفه الخواجه « نظام الملك[4] » قد تحدث عن تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة الإسماعيلية في إيران ، واهتم بتزويدنا ببعض المعلومات عن هؤلاء الدعاة الذين استطاعوا أن يحرزوا انتصارات سياسية بارزة في الشمال الغربي من ايران . ولكن أبحاث المستشرق الروسي «ايڤانوف» التي تضمنها كتابه « دراسات في العقائد الإسماعيلية المبكرة في ايران[5] » . وكذلك مقالة المستشرق الانجليزي « سترن » التي نشرها بعنوان « دعاة

---

(١) انظر الجويني : ج ٣ ، ص ١٤٥-١٤٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٣ ، ١٧٩ .

(٣) انظر نظام الملك : سياست نامه ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٤) للوقوف على معلومات مفصلة عن هذه الشخصية الكبيرة انظر الخواجه نظام الملك ، ترجمة الدكتور أحمد ناجي القيسي ، ص ٩ وما بعدها .

(٥) Ivanow : Studies in Early Persian Ismailism, Leiden, 1948.

الإسماعيلية المبكرين في ايران : في الشمال الغربي وخراسان وما وراء النهر[1] ، قد كشفت النقاب عن نشاط هؤلاء الدعاة ، وبينت ما كان لهم من تأثير كبير في تطوير العقائد المذهبية والسياسية والنظم الاجتماعية التي اكتملت أدواتها على يد الحسن بن الصباح وخلفائه .

ولقد رأى دعاة الإسماعيلية سوء الحالة الاجتماعية، واضطراب الشئون الاقتصادية في بلاد المشرق في ذلك الوقت ، فضلاً عن التباين الواضح في توزيع الثروة بين مختلف الطبقات في المجتمع الإسلامي ؛ فبينما رؤوس الأموال مكدسة لدى فئة قليلة من الرأسماليين ، كانت طبقة العامة وأصحاب الحرف ، ترزح تحت براثن الفقر المدقع ، وتعاني ويلات العرى والحرمان والفاقة ؛ فاستغل هؤلاء الدعاة تلك الفرصة ، وتكتلوا فيما بينهم ، وأعلنوا الثورة على طبقة الرأسماليين والحكام[2] ، واتصلوا بأرباب الحرف والصناعات ، وغيرهم من الطبقات الكادحة ، واستخدموهم أداة طيعة لنظامهم ودعوتهم . يضاف إلى هذا أن القبائل العربية التي كانت تنزل على أطراف الشام والجزيرة ؛ أقبلت هي الأخرى على اعتناق الدعوة الإسماعيلية ؛ وذلك بعد أن فقدت في القرن التاسع الميلادي ، ما كان لها من سلطان ونفوذ وتفوق في الدولة الإسلامية[3] .

وكان جميع أفراد هذه الطائفة متفقين على أن الزمان لا يخلو من إمام يمكن به معرفة الله ، ولا سبيل إلى معرفة الله بدون معرفة الإمام . وإلى هذا الإمام أشار الرسل في كافة العصور[4] . وكانوا يعتقدون في المهدي باعتباره

---

(1) Stern : The Early Ismaili Missionaries in North - West Persia, and in Khursan: and Transoxania, B. S. O. A. S. , 1960.

(2) انظر حافظ حمدى : الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ٧٠ .

(3) Setton : History of the Crusades, Vol. I, PP. 99 - 128.

(4) الجوينى : ج ٣ ، ص ١٥٢ .

إماماً ثائراً ينتظر اللحظة التي يظهر فيها ، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

ولقد تحقق للدعوة الإسماعيلية آخر الأمر غرضها بقيام الدولة الفاطمية بشمال أفريقية سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) ، وظهور الإمام المستتر ، ثم انتقال مقر الخلافة إلى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، وما تلا ذلك من اتساع أملاك الفاطميين ، وامتداد نفوذهم إلى الجهات التي كان يسيطر عليها العباسيون ، وتهديدهم بغداد .

وما أن أقام الفاطميون دولتهم ، حتى أخذوا يروجون للمذهب الشيعي في الشرق الإسلامي ، واضعين نصب أعينهم إضعاف الخلافة العباسية ، تمهيداً للقضاء عليها . ولقد كان لمدارس الدعوة الشيعية في القاهرة أثر فعال في نشر مذهب الإسماعيلية في ايران ، إذ نجح الحسن بن الصباح في تكوين قوة هائلة ، عجز عن مقاومتها أقوى الحكام والسلاطين .

وعلى هذا النحو ، ظل الفاطميون يتزعمون الحزب الإسماعيلي حتى عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ٤٢٧ – ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) الذي دان له الإسماعيلية جميعاً بالطاعة ، واعترفوا بإمامته في الشرق والغرب . وكان المستنصر قد أوصى بأن يكون ابنه الأكبر « نزار » ولياً لعهده . غير أنه حدث بعد وفاته أن تقرر خلع نزار وتولية أخيه « المستعلي » عرش الخلافة الفاطمية ؛ فكان هذا سبباً في انقسام الحزب الإسماعيلي إلى فرقتين متعارضتين : إحداهما تناصر المستعلي والأخرى تناصر نزاراً . وكانت الفرقة الأولى تتمثل في الفرع الغربي الذي كان يقوم في مصر وسورية وشمال أفريقية . وأما الفرقة الثانية فكانت تتمثل في الفرع الشرقي الذي انتشر في ايران ، ومد نفوذه فيما بعد إلى الشام . وهذا الفرع هو الذي كان يضم طائفة الإسماعيلية ، بزعامة الحسن بن الصباح ، وكان يقال لهم « النزارية » ، وإليهم آلت زعامة الحركة الإسماعيلية في مختلف الأقطار الإسلامية بعد سقوط الدولة الفاطمية في

سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) .

ويعتبر الحسن بن الصباح[١] المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة في ايران ؛ اذ أخذ في الاستيلاء على كثير من البلاد والقلاع المجاورة في قوهستان ، كانت أهمها قلعة « ألموت » التي استولى عليها في سنة ٤٨٣ (١٠٩٠ م) فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة لملكهم . ولم يقف أمر ابن الصباح عند هذا الحد ، بل استطاع — بمعاونة أتباعه — أن يستولي على المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين بأكملها .

والعجيب في الأمر ، أن هذا كله تم في عهد السلاجقة الأقوياء والمتعصبين أشد التعصب لمذهب السنة . ويعتبر السلطان ألب أرسلان السلجوقي مسئولاً إلى حد ما عن نجاح هذه الدعوة ؛ لأنه ألغى نظام البريد الذي كان يزود الحكام والسلاطين بالأخبار عن كل ما يجري في دولهم ، فأدى العدول عن هذا النظام إلى أن يخفى عن السلاجقة أمر الحسن بن الصباح ، فأخذ في هدوء واطمئنان يبث دعوته ، ويثبت أقدامه ، وينظم أتباعه استعداداً لمناوأة كل من يتصدى له . وإلى هذه الحقيقة يشير البنداري[٢] في عبارته التي يقول فيها :

« وكان منهم رجل من أهل الري (يقصد الحسن بن الصباح) ، وساح في العالم ، وكانت صناعته الكتابة ، فخفى أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة ، واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة . وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة ، وخفيت عن الناس أحوالهم ، ودامت حتى استتبت على استتار بسبب أن لم يكن للدولة أصحاب أخبار . وكان الرسم في أيام الديلم ، ومن قبلهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانباً من صاحب خبر وبريد ، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصي والأداني ، وحال الطائع والعاصي ،

---

(١) انظر سيرته وأعماله في الجويني ، ج ٣ ، ص ١٨٦ وما بعدها .
(٢) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢-٦٣ .

حتى ولي في الدولة السلجقية ، ألب أرسلان محمد بن داود ، ففاوضه نظام الملك في هذا الأمر ، فأجابه أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر ، فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء ؛ فإذا نقل إلينا صاحب الخبر ، وكان له غرض ، أخرج الصديق في صورة العدو ، والعدو في صورة الصديق . فأسقط السلطان هذا الرسم لأجل وقع له من الوهم . فلم يشعر إلا بظهور القوم ، وقد استحكمت قواعدهم ، واستوثقت معاقدهم ، وأخافوا السبل ، وأجالوا على الأكابر الأجل » .

ولا شك أن استيلاء الحسن بن الصباح على قلعة ألموت المحكمة ، كان بمثابة خطوة كبيرة في سبيل نجاح الدعوة الإسماعيلية في ايران ، وثباتها في وجه كل محاولة خارجية للقضاء عليها .وقد اتضحت هذه الحقيقة ــ بصفة خاصة ــ بعد أن عجز السلطان ملكشاه نفسه عن استرداد هذه القلعة المرة تلو الأخرى .

ونتيجة للصراع الدموي بين أفراد الأسرة السلجوقية ، بسبب تنازعهم على تولي العرش ، واشتراك الأمراء والوزراء والولاة في هذه المحنة ــ قويت الحركة الإسماعيلية في ايران ، واشتد ساعد الحسن بن الصباح ، فأخذ يوطد حكمه ، وينشر دعوته في المناطق المجاورة .

كذلك استغل أحمد بن عبد الملك بن عطاش رئيس الإسماعيلية في إصفهان فرصة النزاع الذي وقع على عرش السلاجقة بين بركيارق ابن السلطان ملكشاه وأخيه محمود ، فاستولى على قلعة « شاهدز » تلك القلعة الشامخة المنيعة التي كانت تشرف على مدينة إصفهان ، وتم هذا في سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .

ولقد كان استيلاء الإسماعيلية على هذه القلعة من الأحداث الخطيرة التي هددت سلامة الدولة السلجوقية وأمنها ؛ فقد جمع أحمد بن عبد الملك هذا ، الأسلحة والأمتعة والغلمان ، وتحصن داخل القلعة . ثم بنى بجــوار المدينة أيضاً داراً للدعوة ، وأخذ يدعو الناس لاتباع المذهب الإسماعيلي ،

فاستجاب لدعوته عدد كبير[1] .

ولكن جهود الإسماعيلية في إصفهان وما جاورها سرعان ما تحطمت وانهارت عندما حمل عليهم السلطان محمد السلجوقي ٤٩٨ — ٥١١ هـ (١١٠٥— ١١١٨ م) حملة موفقة ، وهاجمهم في عقر دارهم « شاهدز » سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ، واستطاع أن يقضي على زعيمهم أحمد بن عبد الملك ، كما استأصل شأفة من بقي منهم في هذه القلعة .

وإن الرسالة التي أرسلها السلطان محمد إلى عماله بالأقاليم على أثر استيلائه على هذه القلعة ، لتكشف لنا في جلاء الخطر الذي استشرى في البلاد الإسلامية ، بسبب وجود هذه الطائفة ، كما تطلعنا على الجرائم والآثام التي اقترفها ضد زعماء المسلمين ، وكبار الشخصيات منهم ، وتدلنا أيضاً على تنبه السلاجقة إلى العواقب الوخيمة المترتبة على التهاون في مقاومة هذه الجماعة . يقول السلطان محمد في هذه الرسالة :

« الحمد لله على ما يسر لنا من إعزاز الدين ، ورفع عماده ، وقمع أضداده ، ، واستئصال شأفة الباطنية لعناده ، الذين استركوا العقول الفاسدة ، فاستغووها بأباطيلهم ، واستهدوها بأضاليلهم ، واتخذوا دين الله هزواً ولعباً ، بما لفقوه من زخارف أقاويلهم ، سيما ما سنى الله من فتح الفتوح ، وهيأ أسبابه من النصر الممنوح بأخذ قلعة « شاه دز » التي شمخ بها الجبل وبذخ ، وكان الباطل باض فيها وفرخ . وكان فيها ابن عطاش الذي طار عقلـــه في مدرج الضلال وطاش . وكان يستبيح دماء المسلمين هدراً ، ويستحل أموالهم غرراً ؛ فكم من دماء سفكت ، وحرم انتهكت ، وأموال استهلكت ، وترات تجرعتها النفوس فما استدركت . ولو لم يكن منهم إلا ما كان عند حدثان أمرهم بإصفهان من اقتناص الناس غيلة ، واستدراجهم خديعة ،

---

(١) الدكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ٩٨-٩٩ .

وقتلهم إياهم بأنواع العقوبات قتلة شنيعة ، ثم فتكهم عوداً على بدء ، بأعيان الحشم وخيار العلماء ، وإراقتهم ما لا يعد ولا يحصى من محرمات الدماء ، إلى غير ذلك من هنات يمتعض الإسلام لها أي امتعاض. وما الله عن المسلم — أن يتميز لها — براض ؛ لكان حقاً علينا أن نناضل عن حمى الدين ، ونركب الصعب والذلول في مجاهدتها ، ولو إلى الصين . وهذه القلعة كانت من أمهات القلاع التي انقطع إليها رؤوس الباطنية كل الانقطاع ، فكان تبث الحبائل منها إلى سائر الجهات والأقطار ، وترجع إليها نتائج الفساد رجوع الطير إلى الأوكار[1] » .

وليس هناك شك في أن المسلمين خسروا بموت السلطان محمد أكبر مناهض لهذه الطائفة ؛ إذ لو شاء الله ومد في أجله عدة سنوات أخرى ، لجاز أن تتاح له فرصة الاستيلاء على « ألموت » ، وأن يسبق المغول في القضاء على هذه الطائفة في عقر دارها[2] .

ولكن مما يؤسف له أنه على أثر وفاة السلطان محمد ، عاد الصراع بين أفراد الأسرة السلجوقية ، حول تقسيم مناطق النفوذ . وفي ظل هذا التطاحن ، استطاع الإسماعيلية أن يستعيدوا قوتهم ، ويواصلوا نشاطهم ، فلم تخمد فتنتهم نهائياً ، بل عادت تطل برأسها بين آونة وأخرى[3] .

ولقد اشتهر الإسماعيلية في التاريخ بأنهم قوم محاربون أشداء ، بثوا الرعب في النفوس ، وعاثوا في الأرض فساداً ، وقاوموا سلاطين السلاجقة ، واهتزت بسببهم السلطنة والخلافة ؛ فلا غرو أن كان العداء شديداً بينهم وبين سائر المسلمين .

كان لهم جهاز رهيب ، وتنظيم سري يتكون من طائفة من الشبان المغامرين

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٣ .
(٢) حافظ حمدي : الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص ٨٠ .
(٣) الدكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٠١–١٠٢ .

الشجعان ، الممتلئين قوة وحماسة ، وتضحية وتفانياً في الدفاع عن عقيدتهم . وكان هؤلاء الفدائيون يجيدون فن التخفي ، وساعدهم على هذا طبيعة الدعوة الإسماعيلية التي كانت تجري في سرية تامة ؛ بحيث أنه كان يتعذر على المرء أن يميز الشخص الباطني من غيره . وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في سن مبكرة ، ويدربون تدريبات شاقة مضنية على استعمال السلاح وأساليب القتال ، وطرق الاغتيال وسفك الدماء .

وكانت القاعدة عندهم ، أنه إذا ظهر حاكم قوي في البلاد الإسلامية المجاورة ، أسرع الفدائيون منهم إلى اغتياله ليأمنوا جانبه . وكان هدفهم الأول من وراء ذلك ، هو بث الرعب والفزع في نفوس الجميع ، ونشر الاضطرابات والفتن ، وإذاعة التوتر وإشاعة الفوضى في صفوف المعادين لمذهبهم ، فراح ضحيتهم كبار الشخصيات في الدولة السلجوقية حتى جردوها من قوتها الفعالة ، وعقولها المدبرة ، مما أدى بها إلى نهايتها المؤسفة [١] ؛ فلقد قتلوا أعظم وزراء السلاجقة على الإطلاق ، وأكبر عقلية مفكرة في دولتهم ، ألا وهو الخواجه « نظام الملك » ، وكان ذلك بأن تقدم إليه أحد الفدائيين من هذه الطائفة على هيئة رجل صوفي ، وطعنه بخنجره طعنة نجلاء ، خر على أثرها صريعاً في سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، فكان أول شخصية كبيرة تروح ضحية هذه الطائفة [٢] .

ومنذ ذلك الوقت ، ذاع أمر هؤلاء الفدائيين في كل البلاد الإسلامية ، وأصبح الجميع يخشونهم ، ولم يعد أحد يأمن على نفسه منهم ، حتى الملوك والسلاطين ، لم يجدوا في حفظ أنفسهم منهم حيلة [٣] .

---

(١) Sanaullah, Mawlaui Fadil : The Decline of the Saljuquid Empire, P. 61.

(٢) الجويني : ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

(٣) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٣ .

كذلك هددوا السلطان سنجر نفسه ، حتى كف عن التعرض لهم ، بل وأجبروه على مسالمتهم والتودد لهم . يروي الجويني[1] أنه لما استقر الملك للسلطان سنجر ، بدأ بإرسال الجند إلى قهستان لمهاجمة الإسماعيلية والقضاء عليهم واستمر الوضع على هذه الحال من التوتر والنزاع لعدة سنوات . وكان الحسن بن الصباح يرسل الرسل إلى السلطان سنجر ، يطلب الصلح ، وإحلال الوئام محل الخصام ، ولكن دون جدوى . وأخيراً استطاع الحسن بوسائل التأثير والإغراء أن يتصل بأحد الخدم في حاشية السلطان ، ومنحه مبلغاً كبيراً من المال ، لكي يساعد على تنفيذ الخطة التي يزمع ابن الصباح تدبيرها . ثم أرسل خنجراً ، غُرس في أرض الحجرة التي كان السلطان نائماً فيها . فلما استيقظ ووقع بصره على هذا الخنجر ، فزع وقلق ، وأمر بإجراء تحقيق لم يسفر عن توجيه التهمة إلى شخص معين ، فأشار بكتمان السر المتعلق بهذه الواقعة .

بعد ذلك أرسل الحسن بن الصباح رسولاً إلى السلطان ، يحمل إليه رسالة مضمونها : « لو لم تكن إرادة الخير بالسلطان قائمة ، لكان ذلك الخنجر الذي غرس ليلاً في الأرض الصلبة ، قد استقر في صدر السلطان اللين » . فخاف السلطان ، ومال إلى مصالحتهم .

وقصارى القول أن السلطان كف عن مهاجمتهم ، فقوى نفوذهم في عهده ، وأمر لهم بإدرار قدره ثلاثة آلاف دينار من خراج أملاكهم في ناحية قومس ، كما أجاز لهم الحراسة في منطقة گردكوه ، وجباية قليل من الخراج من أبناء السبيل .

وأخيراً يؤيد الجويني وجهة نظره — فيما يتعلق بسلوك السلطان معهم — بدليل مادي فيقول « لقد رأيت مجموعة من المنشورات السنجرية ، بقصد

---

(١) تاريخ جهانگشای ، ج ٣ ، ص ٢١٣—٢١٤ .

استمالتهم وتملقهم. وهذه المنشورات كانت قد بقيت محفوظة في مكتبتهم، ومنها استدللتُ على توفر إغضاء السلطان وإغماضه عنهم، ومسالمته لهم. وخلاصة القول أنهم ظلوا في عهده مستريحين مرفهين[1] ».

ومما يؤسف له حقاً أن الولاة والحكام أنفسهم، كانوا يجدون في أفراد هذه الطائفة سلاحاً رهيباً يسلطونه على خصومهم؛ فعندما قام الصراع بين الخلفاء والسلاجقة على مراكز السيطرة والسلطان، اتهم السلطان مسعود بأنه هو الذي أوعز إلى جماعة من الفدائيين على الخلاص من الخليفة المسترشد[2]، فقتلوه سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م)، ومثلوا به أشنع تمثيل؛ إذ أنهم قطعوا أنفه وأذنيه[3] وتركوه عرياناً. كذلك قتلوا ابنه الراشد بمدينة إصفهان سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م)؛ لأن ذلك كان يتفق مع سياستهم التي ترمي أيضاً إلى مناوأة الخلفاء العباسيين، والعمل على القضاء عليهم.

وسبق أن عرفنا أن الفدائيين من الإسماعيلية، قتلوا «أغلمش» نائب الخوارزميين في العراق العجمي، بإيعاز من الخليفة الناصر؛ ولهذا لم يتوان الخوارزميون أيضاً عن محاربة الإسماعيلية، والعمل على الحد من نشاطهم الهدام. ولكن أفراد هذه الطائفة لم يقفوا مكتوفي الأيدي، بل صاروا يغيرون على أملاك الدولة الخوارزمية من وقت لآخر، وينزلون بهم الخسائر، ويسببون لحكامها المتاعب. وعندما أحسوا بقوة الخوارزميين، بدأوا يتصلون بالمغول، يستعدونهم على خصومهم، فقد راسل جلال الدين حسن زعيم الإسماعيلية، الغازي المغولي چنگيزخان، بقصد التقرب إليه وحثه على مناهضة الدولة الخوارزمية.

---

(١) تاريخ جهانگشاى، ج ٣، ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٤٣٣.

(٣) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠٤، بيروت ١٩٥٨؛ الديار بكرى: تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٦٢.

وهكذا درج زعماء الإسماعيلية على انتهاج سياسة التطرف ، والخروج على قواعد الدين ، إلى أن تولى زمام أمورهم جلال الدين حسن ٦٠٧–٦١٨هـ (١٢١٠–١٢٢١م) ، فأظهر الإسلام بعد توليه الحكم مباشرة ، وحمل أتباعه على التزام قواعد الإسلام ، واتباع رسوم الشرع . ثم أرسل الرسل إلى خليفة بغداد ، وإلى حكام المسلمين يبلغهم هذه التغييرات ، فوثقوا به ، وصدقوا كلامه ، وأفتى الخليفة العباسي وأئمة المسلمين بإسلامه ، وأجازوا مواصلته ومصاهرته . وقد اشتهر اسمه بجلال الدين « نو مسلمان » (أي المسلم الجديد) . كذلك قام جلال الدين بتعمير المساجد في ولاياته ، وطلب الفقهاء من أطراف خراسان والعراق ليتولوا شئون القضاء والخطابة .

ولكن هذا السلوك كان بمثابة وميض لم يلبث أن اختفى ؛ إذ عادت هذه الطائفة سيرتها الأولى من التطرف والإباحية ، والارهاب والاغتيال ، وذلك منذ عهد علاء الدين محمد بن جلال الدين إلى أن قضى عليهم قضاء مبرماً هو لاكوخان عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

ومما سبق يتبين أن القوى الإسلامية كلها عجزت عن القضاء على جماعة الإسماعيلية . ولقد بلغ الضعف منتهاه عندما رأينا واحداً من ملوك السلاجقة العظام يترك سياسة الجهاد ضد الإسماعيلية ، ويعمل على استمالتهم ، والتودد لهم ؛ وذلك خشية بأسهم وتجنباً لشرهم . والنتيجة الحتمية لهذا ، طغيان طائفة الإسماعيلية طغياناً لا حد له ؛ بحيث أنها أصبحت تتحكم في مصائر القوى الإسلامية ، وترسم الخطط التي تتفق مع أهدافها دون حسيب أو رقيب .

وأدهى وأمر من كل هذا ، رأينا سلاطين السلاجقة من جهة والخلفاء العباسيين من جهة أخرى يتسابقون في خطب ود هذه الجماعة ، ويستعينون بهم للخلاص من الأشخاص المعادين لهم ، مع أن هؤلاء وهؤلاء ، يعلمون تمام العلم ، أن الإسماعيلية هم ألد أعدائهم ، وأنهم يهدفون أولاً وأخيراً إلى الإطاحة بهم جميعاً . وبالطبع كان هذا التحالف يتم لمنفعة هذه الطائفة أولاً ، وعلى حساب النظام والقانون والأخلاق ثانياً .

والخلاصة أن طائفة الإسماعيلية ، كانت هي الأخرى عاملاً فعالاً من عوامل إضعاف المسلمين ، وعنصراً خطراً أدى إلى زيادة التفرقة والانقسام بين الدول الإسلامية ، وسار بها أخيراً إلى التدهور الكامل ، الأمر الذي سهل على المغول مهمتهم عندما شرعوا في مهاجمة الدولة الخوارزمية .

الشام ومصر :

إذا تركنا ايران والعراق نجد الشام ومصر في يد سلاطين الأيوبيين أعقاب صلاح الدين ، وكان هؤلاء منقسمين على أنفسهم ينافس بعضهم بعضاً ، ويحقد الواحد منهم على الآخر ، ليس لهم رابطة تجمعهم ، ولا هدف يهدفون إليه . زد على ذلك أنهم كانوا مشغولين بالكفاح ضد الصليبيين .

فنحن نعلم أن صلاح الدين الأيوبي كان شخصية بارزة ، ومثلاً أعلى للطموح ، وكان قائداً محنكاً وسياسياً بارعاً . رأى في الوحدة العربية ملجأ وملاذاً ، وشرطاً أساسياً للانتصار على الصليبيين ، وانتزاع بيت المقدس من أيديهم ؛ فكتب إلى الخليفة العباسي المستضيء رسالته الخالدة التي تعبر عن هذه الحقيقة بأجلى بيان : « ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة ، لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ، ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة ، فإذا صح التدبير ، لم يحتمل في اللقاء إلا العدة[1] » .

وتنفيذاً لهذه السياسة ، قضى صلاح الدين خمسة عشر عاماً ، يعمل على جمع الشمل ، وتوحيد الأجزاء المتفرقة ، واستطاع أخيراً أن يكون جبهة عربية متحدة ، تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً[2] .

---

(١) أبو شامه : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

(٢) الدكتور أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى في مصر ، ص ٨٥ .

وفي ظل هذه الوحدة الوطيدة ، وبهذه الروح القوية الوثابة ، استطاع صلاح الدين أن يحوز نصراً مؤزراً على أعدائه في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وأن يأسر عدداً كبيراً منهم حتى قال المؤرخ المعاصر ابن الأثير : « وكان من يرى القتلى ، يحسب أن ليس هناك أسرى ، ومن كان يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى[1] » .

ولقد فتح هذا النصر الطريق إلى انتزاع بقية الممتلكات الصليبية . وأخيراً وج انتصاراته الخالدة ، باحتلال بيت المقدس في نفس العام .

ولكن ما أن توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) حتى تعرضت تلك الإمبراطورية للضعف والتفكك . وإن حوادث الخلف والمنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي – حول تقسيم التركة التي خلفها صلاح الدين – لتملأ معظم تاريخ الدولة الأيوبية . ويرجع ذلك إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثاً خاصاً يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك . كما يرجع إلى صلاح الدين نفسه ، الذي فضل أبناءه ، وآثرهم على أخيه العادل على الرغم من أنه أقدر القادرين على امتلاك ناصية الدولة بعده ، فبينما حرص صلاح الدين على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه ، عين أخاه العادل على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك . على أن عوامل الانقسام والشقاق ما لبثت أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم ، بحيث أنهم لم يكفوا عن النزاع والمهاترة لحظة واحدة .

ولقد انتهز العادل تلك الفرصة ، ورأى أن يجمع هذا الشتات تحت إمرته ، فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى جانب أملاكه في الشام . وهكذا لم يمض على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات ، حتى طوى العادل معظم أولئك الأبناء ، فحل محلهم في دولة موحدة[2] . وقد سلك العادل في سبيل

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٤ .

(٢) الدكتور أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ٨٨.

تحقيق هذا الهدف الطرق المشروعة وغير المشروعة ، ولم يعدم وسيلة إلا اتخذها ، ما دامت توصله إلى مأربه ؛ من ذلك أنه أخذ يوقع بين الإخوة ، ويستعين بالواحد ضد الآخر ، حتى إذا ما حل بهم الضعف ، كانت لــه الغلبة في النهاية . وتظهر لنا سياسته الميكيافيلية بوضوح في تصريحه الخطير الذي ألقاه على من حوله من أمراء الدولة الأيوبية بمصر ، مبرراً خلعه الملك منصور بن العزيز بن صلاح الدين : « إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب »[1]. ومع هذا لم يستطع العادل أن يسيطر على كل ما تركه صلاح الدين ، بل ظلت الدولة منقسمة إلى سبعة أقسام رئيسية ، استقل بعضها استقلالاً تاماً عن مصر ، وخضع لها البعض الآخر خضوعاً اسمياً[2] . وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد ، فيستعين الواحد منهم بالآخر على عدو ثالث ، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على أعدائهم من الأيوبيين[3] .

وكان من الطبيعي أن يغتنم الصليبيون تلك الفرصة ، فيحاولوا الاستيلاء على مصر التي كانت بمثابة القلب لدولة المسلمين في ذلك الوقت ؛ إذ كانت الفكرة السائدة في أوربا المسيحية منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، أنه ما دامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس ، فإن مشاريع الصليبيين في الشام فاشلة لا محالة ، ولا بد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة[4] . ولكن باءت كل محاولاتهم بالفشل الذريع[5] . أما في الشام فقد استطاعوا أن يقتطعوا بعض أجزاء من هذا الإقليم ، وأن ينتزعوا بيت المقدس

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) حافظ حمدي : الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص ١٣٠ .

(٣) Hitti : History of the Arabs, P, 654.

(٤) Lane Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, P. 218 .

(٥) انظر الدكتور أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٠١ وما بعدها .

من المسلمين ، نتيجة التنافس والنزاع الذي كان يسود أفراد الأسرة الأيوبية .

وعلى هذا لم يكن الشام ومصر بأحسن حالاً من ايران والعراق ؛ فقد لحق الضعف الشديد أيضاً بهذه المنطقة ، وأصبحت في حالة يرثى لها بسبب الحزازات والانقسامات من جهة ، ونتيجة للإعياء الذي أصابها على أثر مقاومتها للصليبيين ، وصد حملاتهم المتكررة من جهة أخرى . فلما شن المغول غاراتهم المدمرة على الشرق الإسلامي ، كان من الطبيعي أن يقف حكام هذه المنطقة في حالة عجز تام عن مد يد المعونة إلى إخوانهم في الشرق . وكل ما فعلوه أنهم وقفوا يرقبون المعركة في غير اهتمام ولا بعد نظر منتظرين ما سيحل بهم .

أما آسيا الصغرى فكانت تقوم فيها دولة يحكمها « سلاجقة الروم [1] » ، ومؤسسها هو سليمان بن قطلمش بن أرسلان سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م). وهذه الدولة هي أول ما اصطدم بالحملة الصليبية الأولى من القوى الإسلامية . وقد نقلت عاصمتها من نيقية إلى قونية على أثر سقوط نيقية في أيدي الصليبيين سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧م). وعلى الرغم من هذا ، ظلت تلعب دوراً هاماً في مصائر الصليبيين عامة ، بل أفادت مما كان بين الصليبيين والدولة البيزنطية من كره متبادل ، فحافظت بذلك على كيانها وقوتها حتى أواسط القرن السابع الهجري . وكان حكام هذه الدولة في نزاع مستمر مع غيرهم من سلاطين المسلمين ، كما كان لهم منافسون من الروم أو البيزنطيين ينازعونهم

---

(١) انظر محمد فؤاد كوپريلي: قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، ص ٤٧ وما بعدها .

في الأناضول .

هذه هي أهم الدول التي كانت تقوم في الشرق الإسلامي قبيل غزوات المغول ، وهي على هذا النحو الذي رأيناه من النزاع والشقاق والتفكك والانحلال . ومن الطبيعي أنه في مثل هذه الظروف تصير الدول الإسلامية مهددة من كل ناحية بهجوم المغيرين الأجانب ؛ إذ أنه ليس هناك ملك واحد قوي ، أو حاكم مدبر يستطيع أن يحول دون هذا السيل الجارف ، ولا يترك هذه الممالك تطؤها أقدام القبائل المتبربرة .

قد يقال إن الدولة الخوارزمية قبيل غزوات المغول كانت تبدو أقوى الدول الإسلامية ، وهذا صحيح إذا وقفنا فقط عند ظواهر الأمور . أما إذا تعمقنا المسائل ، ونظرنا إلى بواطنها ، فإنه يتبين لنا بوضوح أن هذه الدولة ، كانت في الحقيقة تحمل هي الأخرى عوامل الضعف والانحلال ؛ إذ كانت طبقة العسكريين وعلى رأسها والدة السلطان محمد التي تدعى «تركان خاتون» تناصب ابنها ـــ صاحب السلطة العليا ـــ العداء الصريح ، وتتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة . ولم يكن رجال الدين ليغفروا للسلطان مقتل مجد الدين البغدادي[1] أحد كبار المتصوفين في ذلك العصر ، والذي كان من تلاميذ إمام المتصوفين « نجم الدين كُبْرَى[2] » مؤسس الطائفة الكبراوية الصوفية ، ولم يكن من السهل على رجال الدين أيضاً اغتصاب الفتوى منهم ضد الخليفة ، كما أن الشعوب الإسلامية التي كان السلطان محمد قد حررها من حكم الكفار ، قد ثاروا على محرريهم نتيجة سوء تصرف جنوده وأتباعه ،

(١) انظر براون : تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي إلى السعدي ، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ، ص ٦٢٩—٦٣٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٢٥ وما بعدها .

ولم يستطع السلطان إخضاع هذه الشعوب إلا بإراقة أنهار من الدماء مما أوغر صدورهم عليه ، وكرههم في حكمه . وكذلك لم يكن في مقدور السلطان محمد أن يعتمد على عنصر واحد سليم من العناصر التي تكون جهاز الحكم ، أو على طبقة واحدة من طبقات الشعب . ومن هنا يمكننا أن نفهم النتيجة الحتمية للنضال الذي سوف ينشب بين هذه القوة ، وبين قوات البدو الجديدة التي اتحدت في ذلك الحين تحت قيادة واحدة من أعظم القواد الموهوبين قدرة على التنظيم هو چنگيزخان[1] .

(1) Barthold ; Turkestan Down to the Mongol Invasion, P. 380 .

الفصل الرابع

تطور العلاقات بين الدولة الخوارزمية

والمغول قبل هجوم چنگيزخان

الفصل الرابع

تطور العلاقات بين الدولة الخوارزمية
والمغول قبل هجوم چنگيزخان

ذكرنا سابقاً أن قوات چنگيزخان، جاورت أملاك الدولة الخوارزمية على أثر القضاء على كوچلك خان في سنة ٦١٥هـ (١٢١٨ م). وقبل ذلك بنحو ثلاث سنوات، حدثت مناوشات حربية بين المغول، وبين قوات السلطان محمد خوارزمشاه؛ ففي سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ – ١٢١٦ م) ترك هذا السلطان مدينة «جَنْد» (بالقرب من نهر سيحون)، وسار بجيوشه شمالاً ليحارب المركيت الذين كانوا قد فروا من منغوليا بزعامة «توق طغان»، خوفاً من بطش چنگيزخان، ونزلوا في القبچاق حيث كانوا يعيشون في وادي القرغيز.

ولقد اتفق في ذلك الوقت أن كانت جيوش جوجى بن چنگيزخان تتعقب هؤلاء المركيت بغية القضاء عليهم. وعندما تأكد السلطان محمد من صحة هذا الخبر، عاد إلى سمرقند، حيث جمع ما تبقى لديه من قوات، ثم تقدم إلى جند على رأس جيش أقوى كثيراً من ذي قبل. وكان يأمل أن يستطيع التخلص من عدوين بضربة واحدة. أو على حد تعبير عطا ملك الجويني «كان يظن أنه سوف يصطاد فريستين بسهم واحد»[1].

---

(١) «مى پنداشت كه بيك تير، دونخچير خواهد انداخت». (تاريخ جهانگشاى، ج ٢، ص ١٢٠).

ولكن جيوش المغول كانت أسرع من السلطان محمد في القضاء على قوات المركيت ، فصمم على الالتحام بالمغول أنفسهم . ولما لم يكن يدور بخلد هؤلاء المغول أن يحاربوا المسلمين في ذلك الوقت ، أرسلوا رسالة إلى السلطان محمد مؤداها أنهم قدموا فقط من قبل خان التتار ، يريدون دفع الثوار والهاربين ، وأنهم لم يتلقوا منه الأوامر إلا بقتال المركيت فقط . غير أن السلطان محمد ركبه الغرور ، وأجاب بأن جميع الكفار في نظره سواء ، ويعتبرون أعداء المسلمين . ثم اشتبك بقواته مع المغول ، واضطرهم إلى خوض المعركة دفاعاً عن أنفسهم . ولكن هذه المعركة لم تنته إلى نتيجة حاسمة ؛ إذ هزم الجناح الأيمن لكل من الجيشين ، الجناح الأيسر لجيش العدو . وكان الجناح الأيمن لجيش المسلمين تحت قيادة جلال الدين منكبرتي ، أكبر أبناء خوارزمشاه ، وهو الذي أنقذت شجاعته المسلمين من الهزيمة[1] . وكانت النية متجهة إلى استئناف القتال في اليوم التالي ؛ غير أن المغول انسحبوا في جنح الظلام ، بعد أن تركوا النيران مشتعلة ، وخدعوا بذلك المسلمين الذين علموا فقط عند طلوع النهار أن المغول قد هجروا معسكراتهم .

وكانت هذه الموقعة أول موقعة دارت بين الطرفين . ومع أنها لم تأخذ صفة الحرب الرسمية ، ولم تؤد إلى نتائج حاسمة ، فقد أطلعت السلطان محمد على مدى مقدرة الجنود المغول على خوض غمار الحروب . ولا شك أنها تركت تأثيراً قوياً في نفسه ؛ بحيث أنه عندما جد الجد ، وهجم المغول على أملاكه ، صار يتقهقر أمامهم بغير انتظام ، وفقد المقدرة على مواجهتهم ومنازلتهم في ميدان واسع[2] . يقول النسوي : « وتمكن في قلب السلطان من الرعب والاعتقاد ببسالتهم ما إذا ذكروا في مجلسه يقول : لم يُرَ كرجالهم إقداماً وثباتاً على مضض الحرب ، وخبرة بقوانين الطعن والضرب »[3] .

---

(١) تاريخ جهانگشاى، ج ١ ، ص ٥٢ ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) Barthold ; Turkestan Down to the Mongol Invasion, P. 372 .

(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٤٨ .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الاشتباك لم يؤثر في الصلات القائمة بين الدولتين . ولعل كلا الفريقين قد عد هذا القتال نتيجة خطأ يؤسف له . وإن جنگيزخان نفسه عندما جاور الدولة الخوارزمية ، لم يشأ أن يجاهر سلطانها بالعداء : بل حرص أول الأمر على أن يسالمه ، ويكون معه على وفاق ووئام . وكان يهدف إلى أن يبرم معه معاهدة تجارية ، ويتبادل معه الرسل والسفراء .

في ذلك الوقت ، كان قد وصل إلى سمع السلطان محمد خوارزمشاه نبأ فتوحات جنگيزخان في بلاد الأويغور والتبت . كما علم أن خان المغول هذا ، قد أحرز نصراً حاسماً في الصين ، واستولى في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥م) على عاصمتها پكين ، فتملكه الحزن الشديد ، وأراد أن يتحقق من صحة هذه الأخبار ، وأن يطلع على مدى استعداد جيوش المغول ؛ فأرسل سفارة إلى الصين ، كان على رأسها السيد الأجل بهاء الدين الرازي الذي استمد منه المؤرخ الفارسي الجوزجاني روايته عما شاهده من مظاهر الخراب والدمار ، والمذابح الرهيبة ، والنهب والسلب في كل مكان توجه إليه بالصين . وقد اجتاز هؤلاء السفراء تركستان الشرقية ، ووصلوا إلى أطراف پكين .

يذكر الجوزجاني أن السيد الأجل بهاء الدين الرازي وصحبه عندما وصلوا إلى حدود طمغاج ، واقتربوا من عاصمة « التون خان »[1] ، بدت لهم على مسافة بعيدة أكمة عالية بيضاء ، ظنوها جبلاً تكسوه الثلوج ؛ فسألوا المرشدين، وأهالي المنطقة عن سر هذا المكان ، فأخبروهم أنها عظام الناس الذين قتلهم المغول . ولما تقدموا مرحلة أخرى ، وجدوا الأرض لزجة سوداء ، بسبب ما اختلط بها من دماء الآدميين . وهكذا واصلوا السير حتى قصدوا أرضاً جافة حيث صادفهم الكثيرون ممن لحقهم المرض ، أو هلكوا بسبب عفونة الهواء الذي نتج عن كثرة القتلى . وعندما انتهى بهم المطاف عند طمغاج ، شاهدوا أسفل برج القلعة عظاماً كثيرة ، قيل إن المدينة عندما سقطت في

(١) اللقب الذي كان يلقب به ملوك أسرة كين التي كانت تحكم في الصين في ذلك الوقت .

أيدي المغول ، ألقى المحاصرون في القلعة بعشرين ألف فتاة عذراء متعمدين قتلهن حتى لا يقعن أسرى في أيدي المغول . فهذه العظام الملقاة على الأرض هي رفات تلك الفتيات (١) .

وعندما وصل هؤلاء الرسل إلى معسكر جنگيزخان ، استقبلهم الغازي المغولي بأبلغ مظاهر الحفاوة والتكريم ، وحملهم رسالة ليبلغوها إلى السلطان مؤداها أن جنگيزخان كما يعتبر نفسه ملك الشرق ، فإن خوارزمشاه يعد أيضاً ملك الغرب ، وأن جنگيز يميل إلى أن تكون العلاقة بين الطرفين علاقة صلح ووفاق ، وأن تستمر قوافل التجار تروح وتجيء بين ممالك خوارزمشاه وجنگيز ، وهي تحمل الأمتعة والبضائع ليتبادلها الطرفان في حرية وأمن .

والواقع أن جنگيزخان كان يهدف إلى تعزيز أواصر الصداقة بين البلدين ، وكان يهمه بصفة خاصة حريه التجارة وتبادلها بين الشرق والغرب على أوسع نطاق ، وأن يتهيأ للتجار الحرية في الانتقال من إقليم إلى آخر ، ولم يكن يفكر على الإطلاق في ذلك الوقت في فتح أقاليم الدولة الخوارزمية . وإذن فليس ثمة ما يدعو إلى الارتياب في هذه العبارات . والمعروف أن ممالك الرعـاة ، كالهون والترك ، لم تمتد إلى الغرب إلا بعد طرد هؤلاء من منغوليا . وإن للتجارة مع الشعوب المستقرة أهمية بالغة عند هؤلاء البدو . وحدث في أعقاب حملات جنگيزخان على شمال الصين ، وما ترتب عليها من الخراب والدمار ، أن كانت الحبوب ترد إلى منغوليا ، من شواطىء نهر ينيسى ، حيث كثرت المدن والقرى . وتولى نقل هذه المحصولات ، تجار قادمون من الغرب ، ينتمون إلى الأويغور والمسلمين . وبذا اتفقت المصالح التجارية عند كل من جنگيزخان والتجار المسلمين (٢) .

---

(١) عباس اقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ٢١ نقلا عن الجوزجاني في كتابه طبقات ناصري .

(٢) الدكتور السيد الباز العريني : المغول ، ص ١١٦ .

وتنفيذاً لهذه السياسة التي رأى چنگيزخان انتهاجها مع السلطان محمد خوارزمشاه ، أوفد من قبله ثلاثة من التجار المسلمين هم : محمود الخوارزمي[١] وعلي خواجه البخاري ، ويوسف كنكا الأتراري . وقد حملهم بالهدايا الثمينة التي كان من بينها سبائك من الفضة وبعض الطيور والأحجار الكريمة والمنسوجات الصوفية . وفي ربيع سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وصل هؤلاء التجار إلى بلاط السلطان في مدينة بخاري بعد عودته منخذلاً من العراق على أثر فشل حملته التي جردها للقضاء على الخلافة العباسية . وقد سلم هؤلاء الرسل الرسالة التي وجهها چنگيزخان والتي جاء فيها : « ليس يخفى علي عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطانك . وقد علمتُ بسطة ملكك وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض . وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات . وأنت عندي مثل أعز أولادي . وغير خاف عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنتْ لي قبائلهم . وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة ، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها . فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد[٢] » .

وعندما تلا السلطان هذه الرسالة ، اشتد غضبه لأنها تحمل في طياتها طابع التهديد والوعيد ؛ إذ أن چنگيزخان قد أهانه حين اعتبره في منزلة الابن ، ومعناه التبعية للخان المغولي ؛ فمن المعروف أن العلاقة بين الابن وأبيه ، وبين الأخ الصغير والأخ الكبير ، وبين العم وابن الأخ ، إنما تدل على أنواع مختلفة من التبعية ، كانت تكتب في المعاهدات بين أمراء آسيا ، الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التي تقوم على المساواة بين الطرفين المتحالفين[٣]

---

(١) من المحتمل أن يكون هو نفس « محمود يلواج » أي السفير محمود الذي كان والياً على پكين في العهد المغولي ، والذي كان ابنه مسعود بك يحكم البلاد المتحضرة بآسيا الوسطى (انظر بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ١٤٥).

(٢) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٣–٨٤ .

(٣) D' Ohsson : Hitoire Des Mongols, V, I. PP. 202 - 3.

ويقول « اشپولر » Spuler : « كان هذا الصنيع سمة من سمات التعبير اللغوي في هذا العصر ، وهو يعبر عن صلة الحاكم بالمحكوم [١] » . كذلك حرص چنگيزخان على لفت نظر السلطان إلى ما حدث للعناصر التركيـــة . وإخضاعها لمشيئته .

وفي الواقع كانت هذه الرسالة أول صدمة حقيقية صدمت سياسة السلطان محمد الخارجية ، فبعد أن كان صوته يجلجل ويدوي كالرعد بين أمـــراء المسلمين وحكامهم ، وبعد أن كان مسموع الكلمة ، مرهوب الجانب ، غير مطموع فيه ، أصبح بين يوم وليلة عرضة لتهديد العاهل المغولي في أقصى الشرق[٢] .

وبعد أن وقف السلطان على ما جاء بهذه الرسالة ، استدعى ليلاً محمود الخوارزمي بوصفه أحد رعايا خوارزمشاه ؛ إذ أنه ولد في خوارزم[٣] ، ومنّاه بشتى الوعود ، بل منحه جوهرة نفيسة دليلاً على الوفاء بما وعده . وطلب إليه أن يكون عيناً للخوارزميين على چنگيزخان ؛ فلم يسعه إلا الموافقة خوفاً ورهبة من السلطان حتى يهدىء من ثورته ، ويتجنب نقمته . ثم قال له السلطان : اصدقني فيما يقول چنگيزخان إنه ملك الصين ، واستولى على مدينة طمغاج . أصادق فيما يقول ، أم كاذب ؟! ... فقال : بل صادق . ومثل هذا الأمر المعظم ليس يخفى حاله ، وعن قريب يتحقق السلطان ذلك . فقال : أنت تعرف ممالكي وبسطتها ، وعساكري وكثرتها . فمن هذا اللعين حتى يخاطبني بالولد ؟!... ما مقدار ما معه من العساكر ؟!.. فلما شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ ، وتبدل لطف الكلام بالخصام ، أعرض عن النصح ومال إلى الاسترحام ، خلاصاً من الموقف الحرج المتأزم ، الذي قد

(١) Spuler : Die Mongolen in Iran, P. 42.

(٢) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٦٨ .

(٣) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، الترجمة العربية ، ص ١٥٩ .

يودي بحياته ، إن لم يتصنع الكياسة واللباقة ، فقال : ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم ، والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل ، أو دخان في جنح ليل[1] .

وهكذا كانت لباقة محمود الخوارزمي مبعوث چنگيزخان ، كفيلة بإعادة السلطان إلى حالته الطبيعية من الهدوء والاتزان ، فقبل أن يبرم معاهدة تحالف وصداقة مع چنگيزخان ، وأعاد الرسل إلى بلاط الخان المغولي يحملون الرد بقبول الاتفاق .

يقول بارتولد[2] : « إنه من المشكوك فيه كثيراً أن يكون چنگيزخان قد دبر ذلك - كما يقال - لإسخاط خوارزمشاه ، بحيث يجعل الحرب بينهما أمراً لا مفر منه . ومهما يكن من شيء فإن القطيعة بين هذين الحاكمين لم تكن بسبب هذا الحادث . ويقال إن محمداً خوارزمشاه كظم غيظه خلال مقابلته للوفد الذي أرسله الخان ، ولم يبح بذلك إلا في الليلة التالية لرسول من الرسل . وقد تلقى منه تفسيراً مرضياً لهذه الأمر . ثم صرف الرسل بعد أن رد عليهم رداً حسناً » .

وربما كان الدافع الذي حمل السلطان . على إبرام هذه المعاهدة ، هو ما وصل إليه من أخبار عن قوة چنگيزخان الذي كان قد بلغ نفوذه الحد الأقصى في ذلك الوقت ، خصوصاً بعد أن تغلب على كوچلك خان ، وقضى على البقية الباقية من قبيلة النايمان .

وكان للقضاء على كوچلك خان ، ومنح الحرية الدينية للمسلمين من جانب أتباع چنگيزخان ، رنة فرح وسرور بين مسلمي كاشغر وختن لدرجة أنهم كانوا يعدون المغول رحمة الهية لإنقاذهم من شرور هذا الطاغية[3] .

---

(١) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٦٨-٦٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة چنگيز خان ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ص ١٣٥-١٣٦ .

(٣) الجويني : ج ١ ، ص ٥٠ .

فكان هذا الموقف أيضاً شديد الوطأة على السلطان محمد الذي كان يدعى أنه حامي المسلمين ، والذي أخذ على عاتقه أن يقوم بدور المحرر لهم . لهذا لم ير السلطان بدآ من الإذعان لمشيئة چنگيزخان، فأبرم معه هذه الاتفاقية التجارية .

وعلى أثر عقد هذه الاتفاقية ، عمل چنگيزخان كل ما في وسعه على تأمين التجارة بين شرق آسيا وغربها ، وتوسيع نطاقها ، وإخضاع القبائل التي كانت تقطع الطريق على التجار وتسلبهم ما معهم ، وتزويد الطرق الرئيسية بحراس من قبله يسمون « قراقجية » أي مستحفظين ، وإصدار الأوامر إليهم بحراسة التجار الأجانب ، ومرافقتهم سالمين إلى معسكرات المغول[1] .

وفي ظل هذه الحالة من الهدوء والأمن ، قام ثلاثة من التجار الخوارزميين من سكان بخاري برحلة إلى ممالك المغول ، وكانوا يحملون معهم البضائع من الثياب الحريرية الموشاة بالذهب و « الكرباس »[2] ، فقادهم حراس الطرق إلى بلاط چنگيزخان ، خصوصاً عندما تأكدوا أن ثالثهم يحمل ثياباً فاخرة تليق بزعيمهم . فلما مثل هذا الرجل أمام چنگيزخان ، وعرض عليه بضاعته . سأله الخان عن ثمنها ، فطلب ثمناً مرتفعاً لها ، مما أغضب الخان ، وجعله يأمر أتباعه باغتصابها ، والقبض على هذا التاجر الجشع . ولما جاء دور التاجرين الآخرين ، عرضا ما معهما على چنگيزخان . وعندما سئلا عن الثمن ، امتنعا عن تقدير ثمن لها ، وقالا : لقد أحضرنا هذه الثياب هدية باسم الخان . فوقع كلامهما من چنگيزخان موقع القبول ، ونقدهما الذهب والفضة . ثم استدعى زميلهما ، وعفا عنه ، وأعطاه ثمناً مجزياً لما كان يحمله ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أعز التجار الثلاثة وأكرمهم[3] .

---

(١) الجويني ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٩ .
(٢) الكرباس ، لفظ فارسي معرب ، ومعناه الثوب الخشن .
(٣) الجويني ، ج ١ ، ص ٦٠ .

ولما عزم هؤلاء التجار على الرحيل ، رأى الخان أن يختار كل أمـــير مغولي ، وكل قائد من قواده ، واحداً أو اثنين من أتباعه لتكوين قافلة تحمل الأمتعة المختلفة ، وتصحب هؤلاء التجار الخوارزميين إلى ممالك السلطـــان لتبادل التجارة هناك . وبهذا تكوّن وفد مغولي كبير بلغ عدد أفراده ٤٥٠ رجلاً كانوا كلهم مسلمين . وهؤلاء التجار ، كانوا يحملون أصنافاً كثيرة وأمتعة فاخرة من الذهب والفضة والحرير والأقمشة القيمة والمسك والأحجار الكريمة . ولا بد أن ما معهم كان شيئاً كثيراً ؛ إذ كانت القافلة تتكون من خمسمائة من الإبل . وقد كلف چنگيزخان أحد هؤلاء التجار بحمل رسالة خاصة إلى السلطان قال فيها : « إن التجار وصلوا إلينا ، وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين . وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا مـــن طرائف تلك الأطراف ، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين ، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين »(١) .

سارت القافلة متجهة نحو ممالك السلطان حتى وصلت إلى مدينة « أترار » على الساحل الغربي لنهر سيحون ، وهي أول بلدة تقع في مناطق نفوذ السلطان ، وتأتي أهميتها على وجه الخصوص من الناحية التجارية ؛ إذ أنها ملتقى طرق التجارة بين شرق آسيا وغربها ، فضلاً عن أنها تعتبر مفتاحاً لإقليم ما وراء النهر . وكان يحكم المدينة في ذلك الوقت رجل يدعى « ينال خان » (٢) وكان شخصاً متعجرفاً مغروراً معتمداً على قرابته من والدة السلطان ونفوذها الذي لا حد له . وقد عرفنا من النسوى(٣) أن « ينال خـــان » هذا كان ابن خال السلطان .

عندما وقع بصر « ينال خان » على ما كان يحمله التجار المغول من

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٠ .
(٢) نجد هذا الاسم في (الجويني ، ج ١ ، ص ٦٠) « اينال جق » ، ولقبه « غاير خان » .
(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٥ .

نفائس . شرهت نفسه . وطمع في أموالهم . فما كان منه إلا أن كاتب السلطان ؛ وأدخل في روعه أن هؤلاء الناس ما هم إلا جواسيس في زي التجار ، قدموا بغرض الاستطلاع وجمع الأخبار عن قوة الخوارزميين تمهيداً لمهاجمتهم ؛ فصدقه السلطان ، وطلب إليه أن يراقبهم ، ويأخذ منهم حذره حتى يرى فيهم رأيه . ولكن ينال خان لم يقف عند هذا الحد ، بل قتل هؤلاء التجار ، واستولى على أمتعتهم[1] . غير أن شخصاً واحداً استطاع أن يفر من هذه المذبحة ، ويحمل نبأ تلك الحادثة المشئومة إلى چنگيزخان . ويقرر الجويني أن « غاير خان » أرسل رسولاً إلى السلطان ، يخبره بأنباء هؤلاء التجار ، فأمر أيضاً — دون تفكر — بإباحة دمهم واغتصاب أموالهم[2] . أما ابن الأثير [3] فيذكر أن السلطان محمد هو الذي أمر بمصادرة أموال هؤلاء التجار ، وإرسالها إليه . كما أمر بقتل جميع أفراد القافلة . ثم باع السلع لتجار بخارى وسمرقند .

ومهما يكن من أمر فإن هذا التصرف الأخرق ، حتى ولو كان صادراً عن حاكم أترار وحده . فإنه لا يمكن أن يعفى السلطان محمد من التبعة ؛ خصوصاً بعد أن سنحت له الفرصة لإصلاح هذا الخطأ ، ولكنه مع هذا تمادى في غيه . فزاد بذلك الطين بلة كما سنرى بعد قليل .

وعندما علم چنگيزخان بما لحق رعاياه . هاج وماج واشتد غضبه . ولكنه حاول أول الأمر أن يحسم الموقف مع الخوارزميين بطريقة سلمية ، دلت على ما اتصف به هذا الغازي المغولي من الاتزان والتعقل ؛ إذ أنه أوفد إلى السلطان محمد سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال من المسلمين ، يحملون رسالة . يعترض فيها الخان بشدة على تصرف السلطان إزاء التجار المغول ، ويطلب

---

(١) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٦ .
(٢) تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٦١ .
(٣) الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٣١ .

تسليم حاكم أترار ليلقى جزاءه . وقد حفظ لنا النسوي[1] نص هذه الرسالة والتي يقول فيها چنگيزخان : « إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ، ألا تتعرض إلى أحد منهم ، فغدرت ونكثت ، والغدر قبيح ، ومن سلطان الإسلام أقبح . فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك ، فسلم ينال خان إلىّ لأجازيه على ما فعل حقنا للدماء وتسكيناً للدهماء ، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح » .

ولكن السلطان محمد رفض هذا الاحتجاج ، كما رفض تسليم ينال خان للسببين الآتيين :

١ ـ لأن ينال خان كان ابن أخي « تركان خاتون والدة السلطان . وكانت هذه المرأة شخصية قوية تحمي أقاربها و تقف إلى جانبهم معتمدة على تأييد قبيلتها من أتراك القنقلي ، الذين كانوا رهن إشارتها وطوع أمرها . فلو أخذ السلطان برأي چنگيزخان ، لتعرض لقيام ثورة عسكرية ضده ، من جانب رجال الجيش الذين يؤازرون والدته ، وربما أدى ذلك إلى الإطاحة بعرشه .

٢ ـ كان السلطان يعتقد أنه إذا سلم ينال خان ، يكون قد أقر بضعفه وتخاذله أمام چنگيزخان ، على حين أنه يريد أن يبدو دائماً رجلاً قوياً ، مهاباً من الجميع .

ولم يقف أمر السلطان عند هذا الحد ، بل أمر بقتل رسل چنگيزخان في سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) أو على الأقل قتل واحداً منهم ، فقطع بذلك كل أمل ممكن في التفاهم مع المغول ، وأصبحت الحرب بين الطرفين أمراً لا مفر منه ، وبهذا جر السلطان على نفسه وعلى الممالك الإسلامية الخراب والدمار . يقول الجويني[2] : « إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار ، قد

---

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٧ .

(٢) تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٦١ .

أجرت نهراً من دماء المسلمين . وكان القصاص لكل شعرة مئات الآلاف من الرؤوس » . .

على أن هناك من يرى أن أطماع جنكيزخان ، لم تكن تقف عند حد ، وأنه كان في نية هذا الغازي المغولي أن ينقض على تلك الأقاليم في أية لحظة ، حتى ولو لم تقع هذه الحادثة ؛ إذ لا يعقل أن المغول كانوا يكتفون بمركزهم في آسيا الوسطى ، ولا ينساحون نحو الجنوب الغربي والقرائن تؤيد ذلك ؛ فإن كل غاز لإقليم التركستان ، كان لا بد وأن يغير عاجلاً أو آجلاً — على الهضبة الايرانية[1] . وفي السنوات العشر الأولى من حكم المغول ، أعد العاهل المغولي العدة لإخضاع العالم بأسره ، فكان طبيعياً أن يوحي إلى أتباعه بأنهم سوف يهيمنون على العالم ليمنيهم بإشباع رغبتهم في السلب والنهب . وقد وطن المغول أنفسهم على القيام بحروب متواصلة من أجل تحقيق هذا الغرض .

ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن مذبحة أترار ، وما صحبها من سوء التصرف من جانب السلطان ، وعدم اهتمامه بالتحقيق في هذه الكارثة ، ورفضه تسليم ينال خان ، ثم إقدامه على قتل رسل جنكيزخان في المرة الثانية ؛ كل ذلك قد أعطى جنكيزخان الحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه ، ولإثبات أوجه الضعف والخذلان التي كانت تسود الحالة في ايران . يذكر براون أنه من المحتمل جداً أن الكارثة كانت آتية لا ريب فيها ، وأنه لم يكن ليمنعها مانع ، أو ليؤجل وقوعها مؤجل ، ولكن سببها المباشر ، يرجع إلى حادثة مقتل التجار المغول في أترار[2] .

ولقد ألقى بارتولد علينا هذا السؤال : مسألة الحرب بين جنكيزخان

---

(١) Spuler : Die Mongolen in Iran, P. 52.

(٢) انظر براون : تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي إلى السعدي ، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ، ص ٥٥٧ .

ومحمد خوارزمشاه : ما سببها ؟! ... وتولى هو نفسه الإجابة فقال : كثير ما ينظر إلى هذه المسألة من حيث ارتباطها بخطة چنگيزخان للفتح والغزو . وكثيراً ما يقال إن خطط چنگيزخان – إذا لم تكن بتحريض من دول أجنبية – فقد كانت على الأقل تلقى تأييداً من الخارج ، وبخاصة من خليفة بغـــداد الناصر ؛ ذلك على حين أن الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الإسلامية عن هذه الحرب ، يدل على أن «محمد خوارزمشاه» ، سبَّبَ هذه الحرب ، أو على الأقل عجل قيامها[1] .

نخلص من هذا إلى أن تصرف خوارزمشاه حتّى من وجهة نظر القانون الدولي المعاصر ، قد أعطى چنگيزخان أكثر من سبب كاف لإعلان الحرب على السلطان[2] .

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، الترجمة العربية ، ص ١٤٩ .

(٢) Barthold ; Turkestan Down to the Mongol Invasion, P. 400.

الفصل الخامس

حملات چنگيزخان على الدولة الخوارزمية

الفصل الخامس

حملات چنگيزخان على الدولة الخوارزمية

كان للأحداث المتعاقبة التي أسفرت عن قتل رعايا چنگيزخان أسوأ الأثر في نفس هذا العاهل المغولي . فقد استفزه هذا التصرف لدرجة أنه حرم على نفسه النوم وقضى وقته يفكر فيما عساه أن يفعل . يروي الجويني[1] أن چنگيزخان صعد قمة تل عال وعرّى رأسه وظل على هذا التل ثلاثة أيام كاملة يدعو الله ويقول : « يا رب : إنك تعلم أنني لم أكن أول من أشعل تلك الفتنة ، فامنحني القوة على الانتقام » ومنذ تلك اللحظة أخذ يستعد لقتال السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه .

وفي الحقيقة كان هذا السلطان في موقف لا يحسد عليه ، إذ كان عليه أن يقنع رعاياه بقتال المغول ، وأن يبين لهم أن في هذا القتال صلاح دينهم . ولكن لما وقع المسلمون دون سواهم فريسة لمذبحة أترار ، أصبح موقفه حرجاً للغاية إذ فقد بذلك الحجة في استنفار المسلمين وحثهم على مجاهدة المغول وقتالهم .

ومع هذا فإن چنگيزخان كان يظن أن السلطان « علاء الدين محمد » رجل قوي ؛ إذ كانت حكومته تعد أقوى الحكومات في ذلك الوقت ؛ ولهذا

---

(١) انظر تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٦٢ .

اتخذ چنگيزخان أهبته ، وسار مع جميع أبنائه وجيوشه متجهاً إلى ما وراء النهر . وبدأ هذا التصميم في خريف سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) . وقد صحبه في تلك الحملة أمراء القرلق والأويغور الذين قبلوا الدخول في طاعته .

الهجوم على منطقة ما وراء النهر :

وضع چنگيزخان خطة محكمة للاستيلاء على هذا الأقليم تتلخص في غزوه من أربع جهات ، ولهذا قسم قواته إلى أربعة جيوش ، كلف كلاً منها بفتح منطقة معينة وذلك على النحو التالي :

الأول : بقيادة ابنيه « جغتاي » و « اوگتاي » أو « اوگداي » . وهذا الجيش مكون من سبعة تومانات[1] (أي ٧٠٠٠٠ جندي) وقد ترك چنكيز لهذا الجيش مهمة فتح مدينة أترار .

الثاني بقيادة ابنه الأكبر « جوجي » وقد عهد إليه بمهمة فتح البلاد التي تقع على ساحل نهر جيحون . وخصوصاً مدينة « جند » إحدى الحصون الإسلامية الهامة التي تقع على هذا النهر .

الثالث : وهو عبارة عن فرقة صغيرة تتكون من ٥٠٠٠ جندي وقد أمرت بأن تفتح مدينتي بناكت وخجند . وكانتا من أهم المنافذ على نهر سيحون .

الرابع : يتكون من أغلب قوات المغول . وكان على رأسه چنكيزخان نفسه ؛ كما سار معه ابنه « تولوي » أو « تولي » قاصداً وسط إقليم ماوراء النهر وخاصة بخارى ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الحيلولة دون اتصال السلطان محمد ببقية جنوده الذين يدافعون عن البلاد المحاصرة .

ومن هذا التقسيم الدقيق يتبين لنا أن چنكيزخان كان على علم تام بطبيعة

---

(١) التومان عدد مغولي يساوي عشرة آلاف .

هذا الإقليم ، كما كانت لديه معلومات صحيحة عن الطرق والمسالك التي سوف يسلكها . وقد استقى تلك المعلومات من خصوم السلطان محمد الذين فروا منه ، ولجأوا إلى جنكيزخان ، وكانوا يحثونه على مهاجمة السلطان(١) .

الاستيلاء على مدينة أترار :

كانت مدينة أترار أول مدينة قصدها المغول ؛ لأنها تعتبر من جهة مفتاح إقليم ما وراء النهر ، ومن جهة أخرى كان لا يزال يحكمها « ينال خان » الحاكم الخوارزمي الذي قتل التجار المغول فأثار بذلك حفيظة جنكيزخان وجعله يصمم على تأديبه والثأر لمقتل رعاياه .

أسرع المغول إلى محاصرة هذه المدينة ؛ ولكن ينال خان الذي كان يعرف جيداً مصيره إذا ما ظفر به الأعداء — لم يدخر وسعاً في تحصين المدينة والدفاع عنها دفاع المستميت ، فلا غرو أن صمدت في وجه المغول ما يقرب من خمسة أشهر . وقد اعتصم ينال خان مع جنوده في قلعة المدينة ، واستمر مدة شهر يوقع الضربات الجريئة بجنود المغول ، وينزل بهم أفدح الخسائر . حتى إذا وجد نفسه محاصراً من كل جانب ، وقد سقط جنوده صرعى من حوله ، فقد الأمل في الصمود أمام المغول ، وقذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل حيث كان يدافع عن نفسه بقطع من الطوب كانت تنتزعها بعض النسوة من الجدران . وأخيراً وقع في قبضة المغول ، فأرسلوه إلى معسكر جنكيزخان الذي سنحت له الفرصة للتشفي من خصمه والتنكيل به ؛ فأمر بأن تصهر الفضة وتسكب في عينيه وأذنيه حتى مات بهذه الطريقة البشعة .

وعلى أثر دخول المغول مدينة أترار لم يبقوا على شخص قط مدفوعين بالحقد الذي أورثته في نفوسهم حادثة مقتل التجار المغول ، فكل من وجدوه في طريقهم جعلوه طعمة لسيوفهم ؛ وذلك بعد أن نهبوا ممتلكات هؤلاء الضحايا

---

(١) انظر حمد الله المستوفى القزويني : تاريخ گزيده ، ص ٤٩٤ ، طبع طهران .

وأسروا عدداً كبيراً من السكان . ومن ثم أسرع هذا الجيش المظفر إلى اللحاق بجيش چنگيزخان الذي كان مشغولاً بفتح المناطق الوسطى من إقليم ماوراء النهر .

سقوط مدينة جند :

أما الجيش الثاني الذي كان يقوده جوجى فقد تحرك قاصداً المدن الواقعة على نهر سيحون ؛ وسرعان ما وصلت طليعة جيشه إلى مشارف سقناق على مسافة أربعة وعشرين فرسخاً من أترار . وقد أرسل جوجى « حسن حاجى » الذي كان تاجراً ثم التحق بخدمة چنگيزخان — برسالة إلى أهل سقناق يدعوهم فيها إلى التسليم ، ولكنهم هجموا عليه وقتلوه فسار إليهم جوجى على رأس جيشه . وحاصر المدينة سبعة أيام ثم سقطت في يده ؛ ونصب ابن حسن حاجي حاكماً عليها .

وكان هدفه بعد ذلك مدينة جند إحدى الثغور الهامة على نهر سيحون ، وذلك بعد أن استولى على كثير من المدن والحصون . وما أن اقتربت جيوش المغول من هذه المدينة ، حتى غادرها جنود خوارزمشاه تاركين لسكانها أمر الدفاع عن مدينتهم . وقد أرسل قواد چنگيزخان رسولاً إلى جند يدعو الأهالي إلى التسليم . فانقسموا على أنفسهم فمنهم من يرى ضرورة الدفاع عن المدينة ، ومنهم من يرى عدم جدوى المقاومة . ويدعو إلى التسليم في الحال . فما كان من جوجى إلا أن أصدر أوامره بتشديد الحصار على المدينة في شهر صفر عام ٦١٧ (١٢٢٠ م) حتى سقطت وأجبروا الأهالي على مغادرتها ثم أطلقوا يد الغارة والتدمير فيها . واقتصروا على قتل الأشخاص الذين أغلظوا القول أثناء إجابتهم على الرسالة التي دعتهم إلى التسليم ؛ وعفوا عن الباقين . وبعد ذلك سار جوجي مع جنوده قاصدين إقليم خوارزم .

الاستيلاء على بناكت وخجند :

سار الجيش الثالث للاستيلاء على منطقة فرغانة والوادي الأعلى من نهر

سيحون . وقد بدأ هذا الجيش مهمته بمحاصرة مدينة « بناكت » أو « فناكت » الواقعة على هذا النهر ، وكان حكامها من الأتراك . وبعد ثلاثة أيام دخل المغول المدينة ، بعد أن كف الأهالي عن مقاومتهم ، وقبلوا تسليمها إليهم . وعلى أثر ذلك انضمت قوات مغولية أخرى لتعزيز هذا الجيش ، وسار الجميع نحو خجند إلى الجنوب من بناكت ، وكانت في ذلك الوقت مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها ، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم(١) . أما حاكم تلك المدينة « تيمور ملك » فقد كان رجلاً جريئاً مقداماً ، استمر يحمل علم الكفاح ضد المغول مدة طويلة . رأى هذا القائد أن يترك المدينة لأنها مكشوفة لجنود الأعداء ويصعب الدفاع عنها ، وفضل أن يلجأ مع فرقته الصغيرة البالغ عددها ١٠٠٠ جندي إلى جزيرة نائية من الجزر الداخلة وسط نهر سيحون بالقرب من خجند ، وظل يحارب المغول بشجاعة وبسالة منقطعة النظير . وقد حاول المغول الوصول إليه بشتى الوسائل فأحضروا الأحجار من الجبال المجاورة ، وألقوها في النهر لينشئوا طريقاً يوصلهم إلى غرضهم ، ولكن تيمور ملك أفسد خططهم إذ كان يرسل سفنه كل يوم للإغارة على المغول الذين يعملون في هذا الطريق ، واستطاع بذلك الحيلولة دون إعداده ، فضلاً عن الضربات الشديدة التي كان ينزلها بجنود الأعداء .

ولكن عندما وجد المغول يحاصرونه من كل ناحية وألا سبيل إلى مقاومتهم في هذا المكان ، حمل أمتعته وعتاده وجنوده في سبعين سفينة كانت معدة من قبل إذا ما تأزمت الأمور ، وسار الجميع في نهر سيحون متجهين نحو بناكت ، ومنها إلى جند ، وكانوا ينازلون المغول في كل مكان حلوا به . وأخيراً عندما علم « تيمور ملك » أن المغول قد حشدوا قوات كبيرة على مقربة من مدينة جند ، وأنهم سدوا نهر سيحون بقنطرة من السفن ترك النهر

---

(١) انظر Howorth : History of the Mongols, I, P. 77.

إلى الساحل وامتطى جواده وأخذ يقاتل قتال اليائس إلى أن تمكن من الوصول إلى خوارزم ، ومن هناك هرب إلى خراسان ، ثم انضم إلى قوات السلطان في «شهرستان». [1] ويروي الجويني أن تيمور ملك رحل بعد مدة إلى الشام في زي المتصوفة. وعندما هدأت الأحوال وخمدت الفتن ، والتأمت الجراح ، غلبه حب الوطن وعاوده الحنين إلى بلده. وقد شاءت إرادة الله أن يعود إلى فرغانة ، ويقيم بها عدة سنوات ، وكان يتردد على خجند من وقت لآخر وأخيراً قتل على يد رجل مغولي[2] .

فتح بخارى:

كان هدف الجيش الرابع الذي خرج بقيادة چنگيزخان وابنه تولوي ، الاستيلاء على المدن الرئيسية في منطقة ما وراء النهر ، وفي مقدمتها بخـارى وسمرقند. وقد اصطحب چنگيزخان معه أمهر قواد المغول. وفي طريقه إلى بخارى استولى على بعض المدن ، ثم شرع يحاصر بخارى نفسها حتى إذا لم يجد سكانها في أنفسهم القدرة على الصمود اضطروا إلى التسليم ، وخرج قاضي المدينة ومعه طائفة من الأعيان يطلبون الأمان. فلما أجابهم چنگيزخان إلى طلبهم فتحت أبواب المدينة للمغيرين ، فاندفعوا إليها في الرابع من ذي الحجة سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) يروي الجويني أن چنگيزخان دخل المدينة ليتفقد ما فيها ، ثم ذهب إلى المسجد الجامع ووقف أمام المقصورة ، وسأل عما إذا كان هو قصر السلطان. فلما قيل له إنه بيت الله ، ترجل عن حصانه ، وصعد المنبر ، وصاح قائلاً «كانت الصحراء خالية من العلف ، أما الآن فاملأوا بطون خيولكم وأشبعوها. وعلى الفور قام جنده ونهبوا المدينة ، وفتحوا المخازن واستولوا على الغلات ، ثم حملوا إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوي مصاحف القرآن الكريم وألقوا بها تحت حوافر الخيل ، وحولوا الصناديق

---

[1]) بالقرب من نسا ، وينسب إليها الشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل.

[2]) انظر تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٧١-٧٤ .

إلى مذاود للخيول ، وبعد ذلك أحضروا كئوس النبيذ والمغنيات من المدينة وصاروا يشربون ويسمعون ويرقصون ، ويغنون وفق أصول غنائهم وألحانهم ، بينما وقف الأئمة والمشايخ والسادات والعلماء والمجتهدون أمام المذاود يعلفون الخيول ويحافظون عليها ، وينفذون ما يصدر إليهم من أوامر[١] .

أما قلعة المدينة فقد استمرت تقاوم مدة اثني عشر يوماً ، وكان بها ٤٠٠ شخص دافعوا دفاع الأبطال إلى أن سقطوا جميعاً صرعى على أيدي هؤلاء السفاحين[٢] .

وقد جن جنون چنگيزخان عندما رأى كثيراً من جنوده قد هلكوا بسبب ضربات هؤلاء الأبطال ، فأمر باضرام النيران في أبنية المدينة . ولما كان أغلبها من الخشب ، فقد احترقت بأسرها في أيام قلائل ، ولم يسلم من الحريق إلا المسجد الجامع وبعض القصور التي كانت مبنية بالآجر .

أما السكان فقد شردوا ومزقوا شر ممزق فمنهم من قتل ومنهم من أسر . يصف ابن الأثير حالة الناس في بخارى يوم سقوط المدينة فيقول : « لما فرغ (چنگيزخان) من القلعة أمر أن يكتب له رؤوس البلد ورؤساؤهم ففعلوا ذلك . فلما عرضوا عليه ، أمر بإحضارهم فحضروا فقال : أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزمشاه فإنها لي ومن أصحابي أخذت ، وهي عندكم . فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه ، ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه . ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه . وأحاط بالمسلمين فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم . وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان ، وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق ؛ واقتسموا

---

(١) انظر تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٨٠–٨١ .
(٢) انظر ابن عربشاه : فاكهة الخلفاء ، ص ٣٦٠ .

النساء أيضاً ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا من النساء العظيم ، والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم ؛ فمنهم من لم يرض بذلك ، واختار الموت على ذلك ، فقاتل حتى قتل ... ومن استسلم أخذ أسيراً ، وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال[1] » .

هذه المدينة التي كانت قد بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والمدنية ، واشتهر سكانها باشتغالهم بالعلوم والفنون – قد أصبحت أثراً بعد عين ؛ إذ تشتت سكانها على أثر تخريبها . وهجروها إلى القرى . وحدث أن أحد السكان قد فر ناجياً بجلده إلى خراسان فسئل عما فعله المغول بمدينته فقال تلك الكلمات الموجزة المؤثرة :

« لقد أتوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا[2] » .

وهذه الإجابة جعلت الفصحاء يتفقون على أنه لا يمكن أن يكون في اللغة الفارسية أفصح ولا أوجز من هذه الكلمات .

فتح سمرقند :

وبعد أن فرغ چنگيزخان من غزو بخارى ، توجه إلى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر ، مصطحباً معه عدداً كبيراً من الأسرى لتسخيرهم في الأعمال الحربية التي يقوم بها ، وقد أجبر هؤلاء الأسرى على السير وراء الفرسان حتى إذا بدا على أحدهم العجز والإعياء بسبب مشقة الطريق تخلصوا منه على الفور وقضوا عليه .

وعندما اقترب جيش المغول من سمرقند ، تقدم فرسانهم للهجوم على المدينة ، ومن ورائهم جنود المشاة فالأسرى ، وكان غرض المغول من هذا

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٣٢–٣٣٣ .

(٢) « آمدند وكندند وسوختند وكشتند وبردند ورفتند » . (الجويني : ج ١ ، ص ٨٣).

الترتيب أن يدخلوا في روع الأهالي أن هذا العدد الكبير من الأسرى ، إنما هو جزء لا يتجزأ من جيوش المغول فيدب في نفوسهم الخوف والفزع ، ويكون هذا عاملاً على تثبيط هممهم وإسراعهم إلى التسليم .

وفي اليوم التالي ظهر في ميدان المعركة ، المشاة والأسرى ، وكان المغول قد قسموهم إلى فرق صغيرة وأعطوا كل عشرة منهم علماً[1] ، وكما كان يهدف المغول ظن أهالي سمرقند أنهم أمام جيش مغولي جرار لا طاقة لهم بمقاومته . فتسرب اليأس إلى نفوسهم واستولى عليهم الذعر . وقد قضى چنگيزخان اليومين الأولين في تفقد حصون المدينة واختبارها . وفي صبيحة اليوم الثالث أمر جنوده بالهجوم فتقدم عدد كبير من المحاربين الشجعان من الحامية الخوارزمية والتحموا بالمغول في معركة حامية ؛ فتقهقرت جنود چنگيزخان أول الأمر تبعاً لخطة موضوعة وأطمعوا فيها جيوش المسلمين حتى قادوهم إلى كمين كانوا قد أعدوه لهم . وعندئذ طوقوهم من كل ناحية وقطعوا عليهم خط الرجعة إلى المدينة ، وبهذا تمكنوا من القضاء عليهم جميعاً . ويقال إن الخسارة في الأرواح قد بلغت من ٥٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠ نسمة . فلما وصل ذلك الخبر المشئوم إلى أهالي سمرقند ، فت في عضدهم وانهارت مقاومتهم خصوصاً عندما رأوا الجيش الخوارزمي بقيادة « طغاي خان » أخي تركان خاتون قد أحجم عن قتال المغول ، بحجة أنهم هم والمغول من أصل واحد . ولم يقف أمر الحامية الخوارزمية عند هذا الحد ، بل طلب أفرادها الأمان والانضمام إلى قوات چنگيز فكان من الطبيعي أن يضطر الأهالي بدورهم إلى التسليم ، فأوفدوا جماعة برئاسة شيخ الإسلام وقاضي المدينة إلى چنگيز . وعندئذ فتحت المدينة ودخلها المغول في العاشر من المحرم سنة ٦١٧ (١٢٢٠ م) . واستولوا على قلعتها . وبعد أن جمعوا الأسلحة والأموال والحيوانات ، أغاروا على المدينة ، وأشعلوا فيها النيران ، وأباحوا

(١) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٣ .

القتل العام في السكان بعد أن استبقوا منهم من يصلح للقتال ، وبعد أن اختاروا عدداً كبيراً من العمال والصناع ، وأرسلوهم إلى منغوليا . وهكذا لاقت سمرقند نفس المصير الذي لاقته بخارى[1] .

وبسقوط هذا القسم الهام من الدولة الخوارزمية ، فتح الطريق أمام المغيرين ، وسهل عليهم مهمة الاستيلاء على الأجزاء الباقية .

عبور المغول نهر جيحون وتعقب خوارزمشاه :

بعد فتح سمرقند . عهد چنگيز إلى جيش تعداده ٣٠٠٠٠ جندي بتتبع خوارزمشاه والقضاء عليه ، وأمرهم بألا يتوقفوا في الطريق ولا يهدأوا حتى يتخلصوا من عدوهم نهائياً ، وألا يتعرضوا للبلاد الكبيرة الواقعة في طريقهم خشية أن يصرفهم هذا عن هدفهم الأساسي وهو تعقب السلطان .

وفي شهر ربيع الأول عام ٦١٧ (مارس ١٢٢٠ م) عبرت جيوش المغول نهر جيحون . وعندما وصلوا إلى بلخ عينوا حاكماً من قبلهم . ثم ساروا إلى هراة ، فقبل حاكمها الدخول في طاعة المغول .

أما السلطان فقد قر قراره على ألا ينازل المغول في معركة من المعارك بل آثر الفرار هائماً على وجهه . كان قد قصد نيسابور ، فلما علم أن المغول عبروا نهر جيحون . وأنهم يجدون في طلبه ترك هذه المدينة على الفور ، واتجه نحو إقليم العراق العجمي نزولاً على نصيحة «عماد الملك» وزير ابنه «ركن الدين» . وقد اجتاز الطريق إلى بسطام حيث وقع اختياره على أحد خدمه الخصوصيين وكان يثق فيه ثقة تامة ، فسلمه عشرة صناديق مملوءة بالجواهر والنفائس ، وأمره بأن يحفظها في قلعة «أردهن[2]» . ولكن هذه النفائس وقعت كلها في أيدي المغول عقب القضاء على السلطان بمدة قصيرة

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ٩٥–٩٦ .
(٢) إحدى القلاع المنيعة بين دماوند ومازندران على مسافة ثلاثة أيام من الرى .

وأرسلت جميعها إلى جنگيزخان .

ثم غادر السلطان محمد بسطام وتوجه إلى الري ومنها ذهب إلى قلعة « فرزين »[1] حيث انضم إليه ابنه ركن الدين على رأس جيش تعداده ٣٠٠٠٠ جندي . ولا شك أن هذه كانت فرصة ثمينة جدير بالسلطان أن يستغلها ؛ إذ كان يستطيع – اعتماداً على هذا الجيش الكبير – أن يصمد أمام قوات العدو ، وذلك بالإضافة إلى ما معه من قوات . ولكن الفزع كان قد استولى عليه فلم يعد قادراً حتى على محاولة تجربة محاربتهم ، مع أنه لو رزق الشجاعة والتقى بقوات المغول ، فإنه إذا لم يقدر له النصر على أعدائه ، لاستطاع على الأقل أن يحول دون تقدمهم السريع .

ومن هذا المكان أرسل السلطان نساءه مع ابنه غياث الدين إلى قلعة « قارُون »[2] إحدى القلاع الداخلة في جبال البرز .

نهاية السلطان محمد خوارزمشاه :

أسرعت الجيوش المغولية إلى اللحاق بالسلطان محمد . فسارت من هراة إلى خراسان حتى وصلت إلى طوس . وهناك شرعت تقتفي أثر السلطان محمد . وفي طريقها استولت على الري . وكان لسقوطها وقع أليم في نفوس الخوارزميين . فقد أيقن الأمراء وقواد الجيوش أنه لا فائدة من الدفاع . وأخذ كل منهم يفكر في الطريق الذي ينجيه من الهلاك . وانصرف كل إلى شأنه . وهكذا تفرقت بقايا الجيش الخوارزمي ، واستولى الفزع على نفوس الجميع[3] .

أما السلطان محمد فكان يفكر في الهرب إلى بغداد ؛ ولكن سرعان ما عدل عن هذه الفكرة عندما تأكد أن المغول يلاحقونه ، وقد لا يتركون له

---

(١) إحدى قلاع كرج التي تقع جنوب شرقي همدان بالقرب من سلطان آباد الحالية .
(٢) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ٢ ص ١١٣ .
(٣) انظر حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

فرصة تنفيذ هذه الخطة ، فاختار الالتجاء إلى إقليم مازندران فأكرم وفادته أمراء هذا الإقليم ، وقاموا نحوه بما يليق بمقامه من تبجيل واحترام .

وقد كان المغول يظنون أول الأمر أن السلطان سيفر إلى بغداد فاستمروا يتعقبونه عدة أيام ، ولكنهم عادوا أدراجهم بعد أن تبين لهم عدم صحة هذا الخبر . بعد ذلك سمع خوارزمشاه بقرب وصول المغول إلى مازندران ، وكان متوارياً في إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر ، ولم يلبث أن رأى المغول يهجمون عليه ، فركب سفينة وأسرع بها ؛ بينما كانت سهام الأعداء تنهال عليه دون أن تصيبه . وقد بلغ من شدة حرص المغول على القبض عليه أن ألقى الكثيرون منهم بأنفسهم في الماء يريدون اللحاق به والقبض عليه فلقوا حتفهم غرقاً . وأخيراً استطاع أن يصل سالماً إلى إحدى الجزائر الصغيرة المنعزلة في بحر قزوين . يصف النسوي[1] حالة السلطان علاء الدين محمد عندما كان في السفينة فيقول : « حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب قالوا : كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما آيسه من الحياة وهو يظهر الاكتئاب ضجراً ويقول : لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر . فما الدنيا لساكنها بدار ، ولا ركونه إليها سوى الخداع واغترار . ما هي إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب ، فاعتبروا يا أولى الألباب » .

فلما وصل إلى الجزيرة سربنجاته ، وكان بعض أهالي مازندران ممن اتصفوا بالنخوة والشهامة يقومون على خدمته ويجلبون له كل ما يحتاجه من مأكل ، ويمدونه بكل ما يطلبه من مستلزمات الحياة . ولكن كان الإعياء قد اعتراه والمرض قد اشتد عليه ، فعاش شهراً في هذه الجزيرة في محنة وكرب وبلاء . وعندما أحس بدنو أجله ، وبلغه أن والدته قد أسرت ، استدعى ابنه الأكبر

---

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ١٠٦-١٠٧ .

« جلال الدين منكبرتي »[1] وابنيه الآخرين اللذين كانا حاضرين بالجزيرة : أزلاغ شاه وآق شاه ، وأعلن خلع ولده قطب الدين أزلاغ شاه من ولاية العهد ، والبيعة بها لابنه جلال الدين لأنه وجد فيه الشخص الوحيد الـــذي يستطيع مقاومة المغول واستعادة أملاك الدولة الخوارزمية . وكان مما قاله لأبنائه في هذا الشأن العبارة الآتية :

« إن عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت ، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالملك أظفاره وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ ثأرى منه إلا ولدي منكبرتي ، وها أنذا موليه العهد فعليكما بطاعته ، والانخراط في سلك تباعته »[2] ثم شد سيفه بيده على وسط جلال الدين . وتصادف أن وصلت الأخبار إلى علاء الدين محمد تنبيء أن المغول قد استولوا في مازندران على القلعة التي كان يحتمي بها نساؤه وأبناؤه . وأن أولاده الصغار قد قتلوا ، ووقع نساؤه في الأسر ، فلم يتحمل وقع هذه المصائب التي أخذت تنهال على رأسه الواحدة بعد الأخرى فأسلم الروح في شوال سنة ٦١٧ هـ (١٢٢١ م) . ومما يؤسف له أن أتباعه لم يجدوا كفناً يكفنونه به ، وأخيراً صنعوا له كفناً من قميص واحد منهم ، ودفن بالجزيرة سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) .

فتح إقليم خوارزم :

إذا كان چنگيزخان قد وضع نصب عينيه أن يتعقب خوارزمشاه للخلاص منه ، فإنه لم يغفل أيضاً الاستيلاء على إقليم خوارزم وخاصة عاصمته «جرجانية »[3] التي كانت في الوقت نفسه حاضرة الدولة الخوارزمية . كذلك كان

---

(١) لفظ تركي مركب من كلمتين : منك بمعنى الله « وبرتى » بمعنى أعطى والمراد (عطاء الله).
(٢) النسوى : سيرة « جلال الدين منكبرتى » ص ١٢٠ .
(٣) تسمى أيضاً أورگنج أو گرگانج .

يحرص چنگيزخان على أسر تركان خاتون والدة السلطان ، وكان يعد ذلك أمراً حتمياً للقضاء نهائياً على هذه الدولة .

كان إقليم خوارزم يمثل الجزء الرئيسي في هذه المملكة . وكان خاضعاً لسيطرة تركان خاتون ، ولسيطرة الأتراك من قبيلتها المسماة بالقنقلي . وكان من الممكن جداً أن يدافع هؤلاء عن إقليمهم ضد العدو المغير ، وأن يثبتوا له ، لولا أن الهرم كان قد استولى على تلك المرأة . كما أن الضربة القاصمة التي أنزلها المغول بابنها كان لها أكبر الأثر في تسرب اليأس إلى نفسها . أضف إلى ذلك ما ثار من نزاع بين أبناء السلطان محمد حول ولاية العرش . كل ذلك سهل مهمة العدو في الاستيلاء أيضاً على هذا الإقليم .

وقد حاول چنگيزخان أول الأمر أن يستغل فرصة الشقاق الذي قام بين السلطان علاء الدين محمد وأمه . فأراد أن يستميلها إلى جانبه وأن يدعوها إلى الاستسلام فكان أن أرسل إليها رسولاً برسالة مضمونها أنه في حرب فقط ضد خوارزمشاه . وليس في نيته أن يتعرض لها بسوء ، ولا أن ينتزع ما في يدها من ممتلكات . ثم طلب إليها أن ترسل إليه أحد معاونيها حتى يسلمه فرمان توليها حكومة خوارزم وخراسان وملحقاتها . غير أن تركان خاتون لم تطمئن إلى هذا الوعد . ولم تستجب لهذه الدعوة . بل غادرت إقليم خوارزم مصطحبة نساء السلطان وأبناءه . وحاملة معها ما خف حمله وغلا ثمنه . وقد عبرت نهر جيحون . واخترقت الطريق الصحراوي قاصدة خراسان ، ثم توجهت إلى مازندران حيث لجأت إلى إحدى القلاع الحصينة الموجودة بهذه المنطقة .

ولكن المغول كانوا قد شرعوا في حصار تلك القلعة في أوائل سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) عندما كانوا يطاردون السلطان محمد ، واستمروا يحاصرونها مدة ثلاثة أشهر إلى أن نفد الماء عند المحاصرين . فسلمت تركان خاتون ومن معها . وسيق الجميع إلى معسكر چنگيزخان . وقد بقيت

تركان خاتون أسيرة عند المغول إلى أن صحبوها معهم عندما قرروا العودة إلى بلادهم ، حيث ظلت تعيش أسيرة ذليلة إلى أن ماتت في سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) . أما أبناء السلطان محمد فقد تخلص منهم چنكيزخان رغم صغر سنهم .

وعقب وفاة السلطان عاد أبناؤه الكبار إلى خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والترحيب وسرعان ما تكون جيش خوارزمي كبير كان على أهبة الاستعداد للقاء المغول والدفاع عن هذا الإقليم . ولكن هذا الجيش كان يتكون من القبيلة التي تنتمي إليها تركان خاتون . ولما علم هؤلاء باختيار جلال الدين ولياً للعهد وخلع أزلاغ شاه ، ثاروا ولم يوافقوا على هذا التغيير . وهكذا دب الخلف في صفوفهم وبدل أن يتحدوا لمواجهة العدو المشترك ، حاولوا القبض على جلال الدين وايداعه السجن أو الخلاص منه نهائياً ، فلما علم جلال الدين بما يدبر له اضطر إلى الهرب إلى خراسان ومعه ٣٠٠ فارس بقيادة « تيمور ملك » الحاكم السابق لمدينة جند .

ولما كان چنكيزخان يعرف جيداً أهمية موقع خوارزم وكثرة عدد السكان في هذا الإقليم وما اشتهر عن أتراك القنقلي من شجاعة وبأس ، فقد اتخذ كافة الاحتياطات اللازمة ، ولم يدخر وسعاً في جلب معظم قواته من عدة جهات ؛ إذ أمر ابنيه جغتاي وأوكتاي بالتحرك بقواتهما من إقليم ما وراء النهر والتوجه إلى جرجانية ، ولم يكتف بهذا بل كلف ابنه جوجي الذي كان يرابط بالقرب من جند بأن يسير بقواته لمساعدة أخويه حتى بلغت هذه الجيوش نحو ١٠٠٠٠٠ جندي .

وعندما اقتربت طلائع المغول من بوابات المدينة ، ظن الناس أن جميع قوات چنگيزخان لا تتعدى هذه الطلائع فتجرأوا وحاولوا أن يتعقبوهم ليقضوا عليهم ، وتقهقر المغول ليطمعوهم فيهم ، فخدع الخوارزميون وساروا في إثر خصومهم حتى ابتعدوا عن قواعدهم ما يقرب من فرسخ ، وهنا أحدقت

بهم جيوش المغول ، وطوقتهم من كل جهة . وصاروا يعملون فيهم سيوفهم حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب كانوا قد أهلكوا عدداً كبيراً من هؤلاء الجنود.

وفي اليوم التالي بدأت قوات أوگتاي وجغتاي تحاصر المدينة . وجرياً على عادتهم دعوا السكان إلى تقديم فروض الطاعة والاستسلام . ولكن عندما تبين لهم عزم الخوارزميين على المقاومة أعدوا المجانيق ، وصاروا يمطرون أهالي المدينة بوابل من الحجارة والأخشاب . ولما لم تكن هناك حجارة كافية حول هذه المنطقة ، فإن المغول كانوا يقتلعون أشجار التوت ويقطعون سيقانها قطعاً مستديرة ، ثم يتركونها مدة في الماء ، حتى إذا اشتدت وازدادت قوة وصلابة ، صاروا يقذفونها على المدينة بواسطة المجانيق[1] .

وفي ذلك الوقت كانت جيوش جوجى قد وصلت إلى الميدان ، وحاصرت المدينة من جميع الجهات ، وأرسل هذا القائد إلى السكان رسالة ينبئهم فيها أنهم سوف يكونون آمنين إذا سلموا ، كما أعلنهم أن أباه قد منحه حكم هذا الأقليم وأنه حريص على أن يقي حاضرته من الدمار . وبالإضافة إلى ذلك كان السلطان محمد قبل وفاته ، قد أرسل إلى سكان هذه المدينة من مقره في « آبسكون » يدعوهم إلى مسالمة المغول وعدم مقاومتهم حقناً للدماء[2] . ومع هذا لم يصغوا إلى نصيحة هذا ولا ذاك ، بل استماتوا في الدفاع عن مدينتهم . وهنا كلف جوجى الأسرى بحفر خندق حول المدينة وأمر بملئه الماء ، فتمت هذه العملية في عشرة أيام ، ثم كلف جنوده بتخريب أسوار المدينة .

وقد أفزعت هذه العمليات الحربية الواسعة النطاق قائد الحامية الخوارزمي فكف عن مناوأة المغول ، وطلب الصلح وسلم إليهم جميع قواته . أما الأهالي

(١) انظر النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص ١٧١ .
(٢) انظر نفس المصدر ص ١٧٢ .

فقد استمروا يحاربون ببسالة منقطعة النظير إلى أن فتحت المدينة عنوة ، وذلك بعد مشقة بالغة ، وبعد أن أزيل السد القائم على نهر جيحون لإغراق المدينة .

وعلى أثر الغزو أغار المغول على المدينة ، وأسروا النساء والأطفال ، وأعملوا السيف في رقاب الرجال . ويقال إن هؤلاء الضحايا قد وزعوا على جنود المغول فخص كل جندي ٢٤ شخصاً . أما أرباب الحرف والصناعات الذي كان عددهم يربو على ١٠٠٠٠٠ شخص فقد أرسلوا إلى الأقاليم المغولية.

وهكذا بهذه الوحشية التي تفوق حد الوصف ، لم يبق أحد على قيد الحياة من سكان هذه المدينة ، وبلغ عدد القتلى كثرة هائلة إلى حد أن أحد المؤرخين(١) امتنع عن إحصاء هؤلاء القتلى الذين راحوا ضحية تلك المذبحة الرهيبة ؛ لأنه لم يصدق ما قيل في هذا الشأن . ومما هو جدير بالذكر أنه كان من بين من استشهد في هذه المدينة ، العالم الصوفي الشهير : « الشيخ نجم الدين كبرى ». يحدثنا الشاعر الفارسي « عبد الرحمن جامى » عن قصة مقتل هذا الشيـــخ فيقول : « فلما بلغ المغولي الكافر مدينة خوارزم ، جمع الشيخ « نجم الدين كبرى » تلاميذه وأتباعه حوله ، وكانوا يزيدون على الستين . وكان السلطان محمد خوارزمشاه قد هرب من خوارزم ... ولكن المغولي الكافر ظل يعتقد أنه ما زال بها ، وصمم على الإغارة عليها بجيوشه . فاستدعى الشيخ جماعة من أتباعه من بينهم الشيخ (سعد الدين الحموى) و (رضى الدين على لالا) وقال لهم : قوموا وغادروا هذه الديار بسرعة إلى مواطنكم ودياركم فستتقد في المشرق نار يندلع لهيبها حتى يلفح المغرب . وإنها لكارثة لم يحدث مثلها حتى الآن لهؤلاء القوم الآمنين. فلما سكت ، قال له واحد من أتباعه : ولِمَ لا تصلي من أجلهم فربما ينكشف البلاء عن ديار الإسلام ...؟! ولكن الشيخ أجابه على الفور بأن هذا البلاء قدر مقدر لا تنفع فيه صلاة ولا ضراعة ... ثم ذهب إليه أتباعه وقالوا له : إن الدواب على أهبة الاستعداد للرحيل ...

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ١٠١ .

فهل لك أن تشاركنا في سفرنا إلى خراسان فالفرصة ما زالت باقية ... ولكن الشيخ أجابهم سلباً . وقال لهم إنه سيبقى ليموت شهيداً . لأنه غير مسموح له بالسفر ؛ ثم تركهم يسافرون إلى خراسان ... فلما دخل الكافر مدينة خوارزم جمع الشيخ حوله من تخلف معه من أتباعه وقال لهم : قوموا على اسم الله نقاتل في سبيل الله ... ثم دخل منزله وارتدى خرقته وشد على وسطه حزاماً. وملأ جعبته بالحجارة . ثم خرج إليهم على هذا النحو . وقد أمسك في يده حربة طويلة . فلما التقى بالمغول أخذ يقذفهم بالحجارة حتى فرغت جعبته . ورشقه واحد منهم بسيل من السهام اخترق أحدها صدره . فمد يده وجذبه من صدره وطرحه جانباً ثم لفظ أنفاسه الأخيرة على هذا النحو..!

ويقال إنه قبض أثناء استشهاده على ضفيرة واحد من المغول فلم يستطيعوا تخليصها من قبضته بعد موته واضطروا إلى قطعها ...!![1] ثم إن النكبة صارت عامة شاملة حينما أزال المغول السد القائم على نهر جيحون فغرقت المدينة وغرق معها من كان يظن أنه ناج من سيوف المغول .

وهكذا زالت من عالم الوجود مدينة جرجانية بعد حصار دام أربعة أشهر . وهي التي كانت زينة المدن اتساعاً وعمراناً واكتظاظاً بالسكان . وكانت عاصمة كبيرة تزخر بالمدارس والمكتبات . وتموج بالعلماء والشعراء والأدباء الذين يفدون إليها من خراسان . وما وراء النهر والعراق . وفضلاً عن ذلك . كانت لها مكانة ممتازة من الناحية التجارية ؛ إذ كانت تقع على رأس طرق التجارة ما بين جرجان وممالك طوائف الخزر ووادي القبچاق . كما كانت ترتبط بما وراء النهر وكاشغر والصين . فلا غرو أن كان يؤمها التجار من كل ناحية .

---

(١) نفحات الأنس ص ٢٧٩ ، طبع لكهنو ، سنه ١٣٣٣ ﻫ = ١٩١٥ م ؛ براون : تاريخ الأدب في ايران ، ترجمة الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ، ص ٦٢٧–٦٢٨ .

استيلاء المغول على إقليم خراسان :

كان جنگيزخان حريصاً على فتح بقية الأقاليم التي تتكون منها الدولة الخوارزمية في أسرع وقت ممكن ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى القضاء نهائياً على عظماء هذه الدولة ورؤسائها ، والعمل على بث الرعب والفزع في نفوس الأهالي ؛ لكي يسرعوا إلى الخضوع والاستسلام . وعلى هذا الأساس أعد جنگيزخان حملته لغزو إقليم خراسان ، فبعد أن استولى على نخشب وترمذ ، عبر نهر جيحون وتوجه إلى بلخ التي تقع على الضفة الغربية ، وكانت في ذلك الوقت من أهم المدن في إقليم خراسان . وما أن وصلت قوات جنگيزخان إلى هذه المدينة حتى أبدى الأهالي استعدادهم للخضوع والتسليم . ولكن جنگيز عندما علم بظهور جلال الدين منكبرتي في هذه المنطقة ، وتأييد الأهالي له ، لم يؤمنهم على حياتهم . وجرياً على عادة المغول أمر الأهالي بالهجرة إلى خارج المدينة ، ثم أجهز عليهم دفعة واحدة ، وخربت المدينة تخريباً كاملاً . وقد رأى جنكيزخان ألا يستمر في فتح بقية المدن في هذا الإقليم . وسار نحو الطالقان ليواصل إخضاع المدينة الواقعة في أعالي نهر جيحون ، تاركاً مهمة الفتح لإقليم خراسان لابنه « تولوي » .

وقد أطاع « تولوي » أمر أبيه وقاد جيشاً مغولياً بلغ سبعين ألف جندي قاصداً خراسان في سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) . وفي بادىء الأمر سارت طلائع ذلك الجيش وكانت تقدر بعشرة آلاف جندي بقيادة « طغاجار نويان » زوج ابنة جنگيزخان ، ويممت وجهها شطر مدينة « نسا » . وعندما اقتربت إحدى الفرق المغولية من هذه المدينة ، تصادف أن أصيب قائدها المغولي بأحد سهام المسلمين فأرداه قتيلاً . فجن جنون طغاجار وجنوده ، وشددوا الحصار على المدينة ، كما حاصروا قلعتها خمسة عشر يوماً ، لم يفتروا عن القتال ليلاً ولا نهاراً ، ونصبوا عليها عشرين منجنيقا تجذبها الرجالة الذين جمعوا من أطراف خراسان . وهكذا استمر المغول يحاربون إلى أن سقطت المدينة في

أيديهم . وعندئذ ارتكبوا مع الأهالي أشد الفظائع ، وأنزلوا بهم أقسى الأهوال كما يبدو ذلك من عبارة النسوي[1] التي يقول فيها : « فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين ... كأنهم قطعان الضانية تسوقها الرعاة . ولم يمد التاتار أيديهم إلى سلب ونهب ، إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسع بالصغار والنساء ، والضجيج يشق جلباب السماء ، والصياح يسد منافذ الهواء . ثم أمروا الناس بأن يكتف بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلاناً ، وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال ، والجبل قريب لنجا أكثرهم . فحين كتفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدا وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء . فمن دماء مسفوكة ، وستور منهوكة ، وصغار على ثدي أمهاتها المقتولة متروكة . وكان عدة من قتل بلسان من أهلها ، ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعين ألفاً » .

سقوط مرو :

كان هدف تولوي الرئيسي هو الاستيلاء على مرو عاصمة هذا الإقليم فسار إليها على رأس جيش كبير ، وكانت حتى ذلك الوقت مدينة عامرة يمتاز أهلها بالغنى والثراء ؛ فلا غرو أن كانوا يعيشون في سعة من العيش ، ولقد رأت هذه المدينة من العز ورفعة الشأن الشيء الكثير إذ كانت مقر سلاطين السلاجقة ، ووقع اختيار الخوارزميين عليها لتكون حاضرة لهم ، وذلك على أثر استيلائهم على أملاك السلطان سنجر في خراسان . وبالإضافة إلى ذلك كانت مثل جرجانية تزخر بالمكتبات والمدارس وتموج بالعلماء والأدباء[2] .

تقدم تولوي بقواته إلى هذه المدينة فتبين لحاميتها أنه لا طاقة لهم بمقاومة المغول ؛ فطلبوا التسليم على أن يؤمنهم على حياتهم فخدعهم تولوي إذ تظاهر بالموافقة ، ولكنه سرعان ما نقض هذا العهد ، ودخل جنوده المدينة وقتلوا

---

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ١١٤-١١٥ .

(٢) انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٠٩-٥١٠ .

جميع السكان ما عدا ٤٠٠ شخص من أرباب الحرف والصنائع أبقوا عليهم للاستفادة بهم في أعمالهم الحربية . ثم هدم المغول المدينة عن آخرها ، ونبشوا قبر السلطان سنجر السلجوقي ظناً منهم أنهم سيجدون ذهباً وفضة .

تدمير مدينة نيسابور :

احتلت هذه المدينة منزلة كبيرة في تاريخ الحضارة الإسلامية إذ سبق أن اتخذها السامانيون والغزنويون عاصمة لهم ، وارتفع شأنها كذلك في عهد السلاجقة والخوارزميين . وصارت عامرة بمبانيها وآهلة بسكانها إلى أن كانت نهايتها على يد المغول . فبعد أن استولى طغاجار على مدينة نسا ، توجه إلى نيسابور وكانت قد استعادت حريتها ورونقها بعد رحيل القوات المغولية عنها عندما كانت تتعقب السلطان .

ولما اقترب طغاجار من المدينة . شرع في حصارها في أواسط شهر رمضان سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ولكنه قتل في اليوم الثالث بأحد سهـــام المدافعين . وقد رأى القائد الذي خلف « طغاجار » أن يرفع الحصار عن المدينة في انتظار وصول تولوي ليقوم بهذه المهمة .

أما تولوي فقد سار بالفعل قاصداً هذه المدينة بعد أن فرغ من فتح مرو . وكان مدفوعاً بعامل الحقد والضغينة بسبب قتل « طغاجار » زوج أخته ، فصمم على الأخذ بثأر هذا القائد . وكان الأهالي بدورهم يتوقعون الشر والبلاء من المغول فاتخذوا أهبتهم للدفاع عن المدينة . ولكن سرعان ما فت في عضدهم عندما رأوا أنه لا قبل لهم بالصمود أمام هؤلاء السفاكين . فأرسلوا قاضي المدينة إلى تولوي ليعرض عليه التسليم ، ويتعهد له بأن يدفع الأهالي مبلغاً معيناً كل سنة . ولكن تولوي الذي صمم على الانتقام من الأهالي . والتشفي منهم بسبب قتل الأمير المغولي رفض كل هذه العروض .

وفي العاشر من صفر عام ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) شرع المغول في مهاجمة المدينة من كل جانب ، وتمكنوا من احتلالها . وعندئذ تركوا صفاتهم الآدمية ،

وتحولوا إلى وحوش كاسرة ؛ إذ أخذوا يقتلون السكان في بشاعة منقطعة النظير ، حتى إن زوجة طغاجار التي كانت تتحرق شوقاً للأخذ بثأر زوجها ، دخلت المدينة هي الأخرى يصحبها عشرة آلاف جندي ، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال ، ولم يتركوا في المدينة أثراً من آثار الحياة ، بل لقد امتد إيذاؤهم إلى الحيوان فقتلوا القطط والكلاب .

وأدهى من ذلك وأمر ، أنهم قطعوا رؤوس القتلى وبنوا منها أهرامات عالية أحدها للرجال والآخر للنساء والثالث للأطفال ؛ وبذلك ضمنوا ألا ينجو مخلوق من حد سيوفهم بادعائه الموت وارتمائه بين الأشلاء والجثث المتراكمة[1] .

بعد ذلك لم يبق أمام المغول من مدن خراسان الهامة إلا مدينة هراة التي سار إليها تولوي بجيوشه . ولكن خفت غارة المغول على هذه المدينة ، فلم يقتلوا من السكان سوى ١٢٠٠٠ شخص من أتباع جلال الدين منكبرتي . ومن ثم اتجه تولوي بجنوده ليلحق بأبيه چنگيزخان عندمدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون .

وهكذا استطاع تولوي في مدة لا تزيد على بضعة أشهر أن يفتح جميع بلاد خراسان الواحدة بعد الأخرى ، ابتداء من حدود مرو الروذ حتى بيهق (سبزوار الحالية) ومن نسا وأبيورد حتى هراة .

سيطرة المغول على إقليم غزنة :

ذكرنا سابقاً أن چنگيزخان ذهب من بلخ إلى الطالقان ، وقد فعل بأهلها مثلما فعل بأولئك ، ثم سار إلى باميان فعصاه أهلها وقاتلوا المغول قتالاً شديداً ، واتفق أن قتل في المعركة الأمير « موتوجن بن جغتـــاي » وكان من أحب

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ص ١٤٠ ؛ براون : تاريخ الأدب في ايران من الفردوسى إلى السعدى ، ص ٥٦٠ .

الأحفاد إلى جنگيزخان ، فعظمت المصيبة ، وملأ الغيظ قلوب المغول ، فجدوا في القتال إلى أن فتحوا المدينة، وقتلوا كل من فيها حتى الدواب والأجنة ، ولم يأسروا منها أحداً قط ، بل تركوها أرضاً قفراً لا يسكنها أحد وسموها « ماو باليغ » أي مدينة البؤس[1] .

السلطان جلال الدين منكبرتي :

سار جلال الدين منكبرتي بعد موت أبيه إلى خوارزم ، ولكن على أثر هجوم المغول على هذا الإقليم تركها قاصداً مدينة «نسا » ثم غادرها إلى نيسابور ومنها إلى غزنة ، وكان جلال الدين يحكم هذا الإقليم من قبل أبيه ، ثم استدعاه أبوه بعد مدة ليكون إلى جانبه في حروبه إذ كان يلمس فيه الشجاعة والبطولة .

وعندما وصل جلال الدين إلى غزنة ، رحب به الأهالي ، وانضم تحت لوائه جموع كثيرة من مختلف الأجناس ، كما أسرعت إلى الانضمام إليه الجنود الخوارزمية المشتتة في كابل وپيشاور وغيرهما من المدن الواقعة على حدود الهند ، وبذلك استطاع أن يجمع جيشاً كبيراً بلغ ستين ألفاً من المشاة ، وسبعين ألفاً من الخيالة .

ولما اطمأن جلال الدين إلى إعداد جيشه ، خرج به في ربيع سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) إلى السهول المحيطة « بپروان » في الشمال الشرقي من غزنة ، وتقابل مع طلائع الجيش المغولي هناك فاستطاع أن يهزمهم ، وأن يقتل منهم ما يزيد على الألف جندي ، وفر الباقون إلى أن عبروا نهر جيحون ، وحطموا السد القائم عليه ، ثم لجأوا إلى جنگيز وسردوا عليه أنباء المعركة .

بعد ذلك عاد جلال الدين إلى « پروان » حيث أخذ ينظم قواته استعداداً للمعركة التالية ، أما جنگيزخان فقد أسرع بإرسال جيش كبير للالتحام بجيش

---

(١) انظر عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

جلال الدين . وبالقرب من « پروان » ، دارت رحى الحرب بين الطرفين ، واستمرت يومين : ففي اليوم الأول لم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة . وحل اليوم الثاني فإذا بالقائد المغولي يلمس قوة بأس جلال الدين وبسالة جنوده ، فأراد أن يخدع الخوارزميين وذلك بإيهامهم بأنه تلقى إمدادات كثيرة أثناء الليل ، فأوصى جنوده بأن يضعوا قلانسهم على رؤوس خيولهم حتى يظن الخوارزميون أنها جنود جدد انضموا إلى الجيش المغولي ، وكادت الحيلة تنطلي على جنود جلال الدين عندما هموا بالتقهقر ، ولكن جلال الدين ثناهم عن عزمهم . وألهب في نفوسهم الحماسة والحمية فثبتوا للعدو ، وانقلبوا من مدافعين إلى مهاجمين ، فأوقعوا الاضطراب في صفوف المغول ، واستطاعوا القضاء على الكثير منهم .

ولقد كان لانتصار المسلمين رنة فرح وسرور في جميع البلاد التي تئن تحت وطأة المغول ، فقامت بثورات ضد هؤلاء الغزاة أسفرت عن مقتل بعض الحكام المغول في هذه البلاد ، فقد ثار الأهالي في هراة وقتلوا الحاكم المغولي . فما كان من چنگيز إلا أن عنف ابنه تولوي لأنه لم يتخلص من أهالي هذه المدينة كلهم دفعة واحدة . وقد سير على الفور جيشاً كبيراً لإخماد تلك الثورة ، وكانت النتيجة أن قتل جميع السكان وخربت المدينة تخريباً كاملاً .

ولقد بعث هذا النصر أيضاً روحاً جديدة في نفس جلال الدين ، فصمم على الصمود في وجه المغول ، ولكن لسوء حظه حدث ما لم يكن في الحسبان ؛ إذ اختلف قائدان من كبار قواده على توزيع الغنائم ، واعتدى أحدهما على الآخر ؛ فغضب جلال الدين وحاول تصفية هذا النزاع ، ولكن أصر كل منهما على موقفه ، ولم يحاول المخطىء أن يعتذر لزميله ، فما كان من الآخر إلا أن رحل بجيشه من الغوريين تاركاً جلال الدين في أحرج موقف . وفي ظل هذا الانقسام وجد جلال الدين نفسه عاجزاً عن مقابلة المغول بجيوشه المفككة والمنقسمة على نفسها ؛ فاضطر إلى التقهقر نحو السهل الواقع غربي

نهر السند وخاصة عندما علم أن جيوش چنگيزخان تتعقبه.

ورغم هذه الأحوال المضطربة. نجد جلال الدين يستجمع قوته فيتزود بدعاء أبيه، ويتمنطق بسيفه، ثم يمضي أمام العاصفة على عجل، فيحتمي بالحدود الهندية، ويقوم هنالك بأعجوبة من أعاجيب بطولته التي ذاع صيتها وانتشر خبرها. وخلاصة هذه المغامرة أنه عندما بلغ مع جيشه الصغير نهر السند، وجد نفسه فجأة وقد أحاطت به جموع كثيرة من المغول فائقة العدة والعتاد. فقاومها قدر ما استطاع من مطلع الفجر إلى منتصف النهار، وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد مالا مزيد عليه، ولكنه أدرك في النهاية أنه قد خسر الموقعة فهجم على أعدائه هجوم اليائس، ثم يمم وجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده. ثم امتطى صهوة جواده، وعبر النهر على متنه، وتبعه قوم من أتباعه ففعلوا مثل مافعل. ولكن أكثرهم غرقوا. أو أهلكتهم سهام المغول الذين كانوا يجدون في إثرهم[1]، وأسر ابنه الذي كان في السابعة من عمره فقتل بين يدي چنگيزخان.

يذكر ابن الوردي[2] أن جلال الدين قبل أن يقتحم النهر. رأى والدته وأم ابنه وحريمه يصحن. بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر. فأمر بهن فغرقن وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا.

ولما كان المغول يعدون الشجاعة والبطولة من أخص صفات المحارب، فقد أعجبوا كثيراً ببسالة جلال الدين، ووقف چنگيزخان وسائر جنود المغول فاغرين أفواههم عجباً ودهشة عندما أبصروا هذا المنظر، وتوجه چنگيزخان إلى أولاده قائلاً: «ينبغي أن يكون للأب ابن مثل جلال الدين. وحيث أنه قد نجا من الغرق والنار ووصل إلى الساحل سالماً. فسوف تتولد

---

(١) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص ٥٧٠.
(٢) انظر تتمة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ١٥٥.

عنه أعمال كثيرة ومتاعب لا حصر لها بالنسبة إلينا . وإذن فكيف يستطيع الرجل العاقل أن يغفل عنه[1] ؟! » .

وهكذا تجلت بسالة جلال الدين في عبوره النهر وهو يكافح كفـــاح الأبطال ، ويصارع الموت ، فيقهره ، ويتغلب عليه ، ويصل إلى الشاطىء الشرقي سالماً مع أربعة آلاف رجل من أتباعه كانوا حفاة عراة . وفي الهند جرى بينه وبين أهالي تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين . واستطاع أن يكون جيشاً كبيراً يعود به إلى إيران لاسترداد عرشه ومجالدة المغول من جديد كما سنرى فيما بعد .

عودة چنگيزخان الى منغوليا وموته :

بعد أن احتل المغول منطقة غزنة ، سيطروا سيطرة كاملة على بلاد الدولة الخوارزمية ، وقد تتبعوا الخوارزميين في كل مكان تقتيلاً وتشريداً . ولما اطمأن چنگيزخان إلى تحقيق أهدافه ، صمم على العودة إلى منغوليا ؛ خصوصاً عندما علم أن ثورة قامت ضده في شمال الصين والتبت ، وأن الظروف تستدعي وجوده هناك . فسلك طريق هراة ، كما أمضى ثلاثة أشهر في أطراف پيشاور وولاية البنجاب، ومن پيشاور توجه إلى كابل وحدود نهر جيحون . وبعد أن أمضى الصيف في باميان عبر نهر جيحون في فصل الخريف ، ووصل إلى سمرقند حيث أمضى الشتاء من عام ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . وبالقرب من نهر سيحون أرسل في استدعاء أبنائه ليقوموا بالصيد والقنص ، وليتفاوض معهم في مهام الأمور التي تتعلق بتدبير شئون الممالك التي سخرها المغول ، فلحق به جغتاي واوگتاي عند هذا النهر .

وعند حدود الدولة الخوارزمية ، وقف چنگيزخان فترة مع تركان خاتون والدة السلطان محمد ، لتلقي آخر نظرة على أراضي وطنها ولتنتحب على

---

(١) الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

ملكها الضائع ، ولتكفر عن صلفها وقسوتها عندما وجدت الأمور تفلت من يدها . فأمرت بقتل البقية الباقية من أمراء السلاجقة والغوريين ، وكانوا رهائن لديها لا يملكون من أنفسهم شيئاً[1] .

وفي ربيع سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) في صحراء « قلان باشي »[2] انضم جوجى إلى أبيه فعقد چنگيزخان مع أبنائه اجتماعاً كبيراً كان يطلق عليه بالمغولية « قوريلتاي » للتشاور معهم ، ورسم الخطط للمستقبل . وبعد انفضاض هذا الاجتماع عاد جوجى إلى وادي القبچاق . أما چنگيزخان فقد صرف أشهر الصيف في صحراء قلان باشي . كذلك أمضى صيف العام التالي ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) في المنطقة المحيطة بنهر ارتش ، ولم يعد إلى موطنه الأصلي في منغوليا إلا في سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) . وفي هذا العام نفسه قام بحملته الأخيرة على ولاية التانجوت في شمال التبت . لإخضاع ملكها الذي كان قد ثار على الحكم المغولي ، فهزمه وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً . ولما علم أنه لن تقوم لهذا الملك قائمة ،[3] تركه وانصرف .

بعد ذلك مرض چنگيزخان . ولما اشتد المرض عليه ، وعرف أن منيته قد حانت ، استدعى أولاده فأوصاهم أن يخلفه ابنه اوگتاي لمزية رأيه المتين وعقله الرزين ، فجعله ولي عهده فوافقوا على اختياره . وهذا نص وصيته لأولاده :

« اعلموا يا أولادي الجياد أنه قد قرب سفري إلى دار الآخرة ، ودنا جلي ، وأنا بقوة الإله والتأييد السماوي ، استخلصت مملكة عريضة بسيطة ؛ بحيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم يا أولادي ، وهيأتها لكم . فوصيتي إليكم أنكم تشتغلون بعدي بدفع الأعداء ورفع

---

(١) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، ص ٥٧٠ .

(٢) في القسم الشرقي من منطقة سيحون الحديثة إلى الشمال من جبال الإسكندر .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص ٣٨٤ .

الأصدقاء ، وتكونون جميعاً على رأي واحد . حتى تعيشوا في نعمة وعز ودلال وتتمتعوا بالمملكة »[1] .

وهناك في إقليم كان سو الصيني الحديث غير بعيد من مدينة تسن چو أسلم چنگيزخان الروح في النصف الأول من رمضان عام ٦٢٤ ﻫ الموافق أغسطس ١٢٢٧ م . وقد حمل جثمانه إلى منغوليا ودفن في المنطقة التي يخرج منها نهر أونون وكرولين . وبقي موضع الدفن سراً من الأسرار كما هي عادة المغول . وقبل موت چنگيزخان بستة أشهر توفي أكبر أبنائه « جوجى » في وادي القبچاق . وقد تضاربت الأقوال في كيفية موته : فمن قائل بأن جوجى كان أصفى نفساً من أبيه ، فلم يرض عن الوحشية التي ارتكبها أبوه في حق البشرية ، بما سفك من دماء وأزهق من أرواح وخرب من بـــلاد لدرجة أنه صمم على الانضمام إلى المسلمين . والعمل معهم على الخلاص من أبيه ، فوقف أخوه جغتاي على ما يدور بخلد أخيه ، وأطلع أباه على سر هذه المؤامرة ، فدس له چنگيز السم سراً[2] .

ومن قائل بأن چنگيز كان يسيء الظن بجوجى ، فعندما رجع إلى منغوليا أرسل يستدعي هذا الابن فاعتذر بأنـــه مريض . وتصادف في ذلك الوقت أن شخصاً من قبيلة التانجوت قدم إلى منغوليا من وادي القبچاق ، وأخـــبر چنگيز بأن ابنه جوجى في صحة جيدة ، وأنه قصد الصيد وهو منشرح ومسرور ، فأرسل چنگيز ولديه اوگتاي وجغتاي على رأس جيش كبير إلى القبچاق ، وكلفهما بالقضاء على جوجى ؛ ولكنهما قبل أن يصلا لتنفيذ هذا الأمر علما بوفاته[3] .

---

(١) رشيد الدين ؛ جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٨٥ ، طبع طهران ؛ عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، ص ١٢٨ .

(٢) انظر الجوزجانى ، طبقات ناصرى ص ٣٧٩ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٥٢٢–٥٢٣ ، طبع طهران .

الفصل السادس

سياسة جنكيزخان وتحليل شخصيته

الفصل السادس

سياسة جنكيزخان وتحليل شخصيته

يشبه بعض المؤرخين جنكيزخان « بأتيلا » رئيس قبائل الهون ، ويشبهون هجوم جيشه بالطوفان أو السيل الجارف ، ويعدون غارة المغول في مقدمة الغارات التي تنبعث من الصحراء بين حين وآخر ، لتقضي على الحضارة والمدنية . والأمر الذي لا شك فيه أن جنكيزخان يعتبر من السفاكين الباطشين الذين تجردوا من كل شفقة ورحمة ، بل إنه كان من أقسى الغزاة الذين نكب بهم تاريخ البشرية . وإن الدم الذي سفك بأمره ، والعمران الذي خرب على يده ، قد يندر أن يحدث مثله في أي فترة من فترات التاريخ ؛ خصوصاً إذا علمنا أن هذا الغازي المغولي كان شديد الميل إلى الأخذ بالثأر ، والانتقام من عدوه . وإن القتل العام عنده ، وإفناء الألوف من الأنفس ، وإبادة النساء والأطفال والشيوخ بإشارة منه ، إنما هو في نظره أمر يسير لا تقوم دونـــه عقبات ، ولا تعترضه صعوبات ؛ ذلك لأن الحرب عنده إنما تستبيح كل شيء في سبيل النصر .

لقد كان جنكيزخان من هؤلاء الرجال الذين يهبطون على عباد الله الآمنين ، يهبطون وكأنهم الإعصار المجنون الذي يقتلع النبت من جذوره ، ويهدم البناء من أساسه ، ثم يمضي والأرض من خلفه بلقع يباب . وما ظنك بهذا الرجل وقد ظهر من لا شيء ليعدو بجياده وجياد أتباعه الذين أخذوا يتزايدون في

سرعة مذهلة ، وأخذ يتنقل على متون الجبال كأنه الشيطان المريد ، فما هو إلا أن بسط سلطانه من حدود الصين القصوى على شاطئ المحيط الهادى شرقاً ، إلى قلب أوربا ، وإلى عواصم المسلمين غرباً ، حتى إذا ما استقر له هذا السلطان العريض في سنوات قلائل ، سأل ضابطاً من أتباعه ذات يوم : ماذا يعود على الإنسان بالسعادة القصوى ؟!. » فأجابه الضابط : جواد سريع يجوب به السهول الخضراء ، وعلى رسغه باز يطير ليعود بطراد الصيد . فقال الطاغية ليصحح تابعه : كلا ، بل السعادة أقصى السعادة هي أن تسحق العدو سحقاً ، حتى يجثو خاشعاً عند قدميك ، ثم تسلبه كل ما يملك ، ومن حوله نساؤه يعولن باكيات[1] .

وهكذا كان چنكيزخان بمثابة المطرقة التي ابتليت بها البشرية ، فما تعرضت له الحضارات القديمة من غزوات شعوب الاستبس طوال اثني عشر قرناً ، اجتمعت كلها في چنكيزخان . والواقع أن ما من أحد من أسلافه يضارعه فيما اتسمت به شهرته من العنف والقسوة البالغة . ولم يكن اسم رجل قبله . أو منذ كان حتى اليوم يبعث الرعب في قلوب سامعيه ما يبعثه اسم چنكيزخان . وكان يبدو أحياناً وكأنه يفوق البشر في جبروته ، كما كان كالريح العاصفة التي تهب في عنف من الصحارى التي نشأ فيها ، مكتسحة وممزقة كل ما يعترض سبيلها من وسائل العمران . وإن ما تم على يديه من التخريب والتدمير في منطقة خراسان بايران ، أثار من الفزع والرعب ما لم يشتهر به أتيلا في أوربا[2] .

ولقد غرس چنكيزخان خوفه ومهابته في قلوب جيشه . وكان الجميع ينظرون إليه نظرة إجلال واحترام ، ويعدونه رئيسهم الأكبر ، يأتمرون

---

(١) انظر هارولد لام : چنكيزخان وجحافل المغول ، ترجمة متري أمين ، ص ٣ من مقدمة الدكتور زكي نجيب محمود .

(٢) الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٤٥ .

بأمره ، وينزلون على طاعته ، كما كانوا يعتقدون أنه لا يصح أن يوجد إلى جانبه حاكم آخر علـــى ظهر الأرض ينازعه السيطرة والسلطان : « رب في السماء وحاكم في الأرض »[1] .

وإن الخروج على طاعة چنگيز ومخالفة أوامره ، ليعد جرماً عظيماً لا يغتفر في نظر المغول ؛ ذلك لأن أوامره في عقيدة هؤلاء القوم إنما تصدر من السماء ، فعصيان رئيسهم إنما هو عصيان لله . وكان ينظر أيضاً إلى أفراد أسرته تلك النظرة القدسية ، فالدنيا تقوم وتقعد إذا اعتدى على واحد منهم ، وأصيب بأذى . وإن تخريب مدينة نيسابور ، وجعل أعاليها أسافلها بسبب قتل طغاجار صهر چنگيزخان ، وتسوية باميان بالأرض على أثر قتل موتوجن ابن جغتاي وحفيد چنگيزخان ، ليؤيد هذه الحقيقة . ولم يكن چنگيزخان ليعفو عن أحد إذا ما عصى أمره . وبالرغم من أن صديقه الحميم «بواورتچو» كان له مطلق الحرية في دخول خيمته وقتما يشاء ، والجلوس معه ، ومشاركته الطعام ، إلا أنه كان ينفذ أي أمر يصدره الخان .

أجل !... لقد أقام چنگيزخان صرحاً للفزع بواسطة نظامه الحكومي الصارم الذي شرعه ، وبواسطة المذابح الرهيبة التي أقامها . ومع هذا فينبغي أن نلاحظ أن قسوته إنما نبعت من قسوة بيئته أكثر من نبعها من توحش طبيعي . وقد زاد هذه القسوة حدة وشراسة ما كان يعانيه العنصر التركي المغولي من الحرمان .

وفي نظرنا أن ما فعله الخوارزميون ، لا يمكن أن يفترق عما فعله المغول من حيث الغلظة والشدة والسفك والبطش ، وأنهم هم الآخرون لم يكن عندهم وسيلة أخرى سوى تحكيم السيف وشن الحرب . وإن القتل العام الذي فرضه السلطان محمد على سكان سمرقند[2] ، وما أنزله في سنة ٥٩٠ جنود أبيـــه

---

(١) Spuler : Die Mongolen in Iran, P. 26.

(٢) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٩٥ .

تكش بأهالي العراق من نكبات . أشار إلى طرف منها مؤرخ السلاجقة محمد ابن سليمان الراوندى[1] فقال :

« وإن المظالم التي ارتكبها مياجق (قائد الجيش الخوارزمي) وأتباعه ، لم تحدث على أيدي الكفار الأبخازيين[2] والترك الخطائيين والصليبيين ؛ فقد نزعت من قلوبهم رحمة الإسلام فكانوا يريقون دم الإنسان كما يريقون الماء ، وكانوا يغلقون المدارس بصورة لا يجيز المجوس والنصارى واليهود والوثنيون أن تصيب بيوت النار والكنائس ومعابد اليهود وبيوت الأصنام . ولقد أصدر هؤلاء الظالمون قانوناً في العراق بمصادرة المدارس والمساجد وأموال العلماء فكانت هذه البدعة وبالاً عليهم » . كذلك ما أحدثه جلال الدين منكبرتي ابن السلطان محمد من قسوة بالغة في مدينة تفليس عام ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) . ثم إن هناك أيضاً « تيمورلنك » ، وهو سفاح آخر علمنا أنه كان يقيم المنارات من جماجم القتلى . يقول ابن عربشاه في أول كتابه : « وكان من أعجب القضايا ، بل من أعظم البلايا ، الفتنة التي يحار فيها اللبيب . ويدهش في دجى حندسها الفطن الأريب ، ويسفر فيها الحليم . ويذل فيها العزيز . ويهان الكريم . (قصة تيمور) رأس الفساق الأعرج الدجال . الذي أقام الفتنة شرقاً وغرباً على ساق . أقبلت الدنيا عليه . فتولى وسعى في الأرض فأفسد فيها . وأهلك الحرث والنسل »[3] .

وما لنا نذهب بعيداً ونقصر حديثنا على العصور الوسطى . وننسب إليها وحدها هذه النزعات الخبيثة الشريرة ؟ ! ... إن أمامنا أيضاً العصور الحديثة ، وما جرته هي الأخرى على الإنسانية من محن ونكبات . تعالوا معي إلى العصر

---

(١) راحة الصدور ، ص ٣٩٨ .

(٢) يقصد بهم المسيحيين في القوقاز وجورجيا (انظر بارتولد : تركستان حتى الغزو المغولى ، ص ٣٤٨) .

(٣) عجائب المقدور ، ص ٣ ، طبعة المطبعة العامرة بالقاهرة ، ١٣٠٥ هـ .

الحديث الذي نعيش فيه ، عصر الحضارة والمدنية ، إلى القرن العشرين ، الذي حقق فيه الإنسان المعجزات ، فسيطر على الفضاء ، ووصل إلى القمر. مـــاذا يجري في هذا العصر أيضاً ؟!... لقد سمعنا الكثير عن النازيين في الحرب العالمية الثانية ، وما ارتكبوه من فظائع تقشعر لهولها الأبدان .

وسمعنا أيضاً الكثير من التصرفات اللاإنسانية التي صدرت عن الولايات المتحدة الأمريكية ، تلك الدولة التي طالما كانت تتشدق بأنها زعيمة العالم الحر ، والمثل الأعلى للديمقراطية. ماذا فعلت هي الأخرى ؟!... كانت تحارب اليابان في الحرب العالمية الثانية . وبينما كانت هذه الحرب تقترب من نهايتها بظفر الحلفاء ، ألقى العسكريون الأمريكيون القنبلة الذرية الأولى على مدينة هيروشيما ، والقنبلة الثانية على ناجازاكي ، فأودت بأرواح مائة ألف من الأبرياء مـــن سكان المدينتين بخلاف المشوهين والمعذبين الذين أصبحوا يفضلون الموت على هذه الحياة التعسة البائسة . لقد وصف أحد أساتذة التاريخ الأمريكيين البارزين قنبلة هيروشيما بأنها جريمة ظالمة ظلماً بالغاً ؛ فالحرب كان النصر فيها قد تمّ . وكان اليابانيون يحاولون أن يسلموا ، إلا أن العسكريين ، سارعوا إلى إلقاء القنبلة الذرية كمحاولة لإنهاء الحرب ، قبل أن تشترك روسيا في القتال ، وتدخل أرض اليابان[1] . وربما كانت أمريكا تظن أن سكان هاتين المدينتين ليسوا من البشر ، وإنما هم قطعان حيوان ، وتريد أن تجرب عليهم القنبلة الذرية لتختبر مدى فعاليتها ، ومقدار ما تحدثه من خراب ودمار لتطمئن على اختراعها العظيم الذي أهدته آخر المطاف إلى الإنسانية .

ولم تقف المأساة عند هذا الحد ؛ فلقد اختير الطيار «كلود ايثرلى» للقيام بمهمة إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي . وشاء سوء حظه أن يقوم بزيارة هاتين المدينتين بعد الحرب بقليل ، فواجهته الحقائق القاسية ، والواقع المر عن قصف المدن من الجو ، وتفرس في وجوه ضحاياه ، ورأى

---

(١) وليم برادفورد هيوى: طيار هيروشيما ، ترجمة أحمد عبد المجيد ، ص ٤١٥ .

أعينهم تشخص إليه ، ولا تريم عنه ، ولاحظ أمارات البؤس ، وعدم الرغبة في الحياة ، بعد أن شاهدوا نهاية العالم[1] . ومنذ ذلك الحين أصبحت حياة ايثرلى جحيماً لا يرى سبيلاً إلى القرار منه . لقد كان ثقل الوزر الذي ارتكبه أكبر من أن يحمله ويحتمله . فعلى الرغم من أن الأمريكيين استقبلوه استقبال الأبطال ، وكافأوه بوسام الطيران الممتاز ، فإنه أبدى ندمه ، وأبى أن يتسلم مكافأته الملوثة بالدماء ، وصمم على أن يعاقب نفسه لتصوره أنه المسئول عن ارتكاب جريمة هيروشيما . وحاول الانتحار مرتين . ولما فشل في ذلك سعى إلى توقيع عقاب على المجتمع بارتكاب جرائم التزييف والسرقة والسطو التي لم تخفف عقوباتها من حنقه وسخطه[2] . وكان يرى بحق أن الواجب يقضي بمحاكمة أمريكا في نورمبرج عن جريمتها في هيروشيما مثلما حوكم النازيون عن جرائمهم التي ارتكبوها . ولما أراد أن يذهب إلى نورمبرج ، استجوبه — عدة أيام — رجال أركان الحرب في السلاح الجوي الأمريكي ، ثم أعلنوا أنه مجنون[3] .

والآن أيضاً يتحدث العالم كله عن الفظائع التي ترتكبها الولايات المتحدة ضد شعب ڤيتنام ، وقيام جنودها في عام ١٩٦٨ بقتل المئات من السكان العزل من العجزة والنساء والأطفال في قرية « ماى لاى » .

وأشد وأنكى من كل هذا إسرائيل التي أقامها الاستعمار ركيزة ، واتخذتها الإمبريالية قاعدة ، وبعثت في تفكيرها خططاً خطيرة لا يمكن تحقيقها إلا على أشلائنا جميعاً[4] . ماذا تفعل الآن هذه العصابات الصهيونية في منطقة عزيزة علينا من وطننا العربي ؟!... إنها ترتكب الشناعات ضد السكان العرب الآمنين ، وتنسف بيوتهم وحوانيتهم ، وتزج بالأبرياء في أعماق السجون ،

(١) انظر وليم برادفورد هيوى : طيار هيروشيما ، الترجمة العربية ، ص ١٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٣ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٤١٦ .
(٤) انظر صالح مسعود أبو يصير : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ص ٥١٥ .

وتعتدي على حرمة الأماكن المقدسة . وتفعل كل ذلك تحت سمع العالم وبصره .

وإذن فكل تلك الأعمال الوحشية التي تهدف إلى إبادة الجنس البشري ، وانتهاك حقوق الإنسان انتهاكاً صارخاً ، إنما هي من هذا القبيل ، ولا يمكن أن تفترق في البشاعة والشناعة عما اقترفه المغول . ولا شك أن هؤلاء جميعاً في مختلف الأمم والعصور مسئولون مسئولية كاملة أمام الله وأمام التاريخ عما اقترفوه من آثام ، وينبغي أن نحملهم مسئولية أكبر من تلك التي يتحملها المغول ؛ لأنهم يدينون بدين سماوي من جهة ، ولأنهم أكثر تحضراً من المغول من جهة أخرى . والويل لكل هؤلاء من عذاب الضمير وعدالة السماء ونقمة الشعوب . ثم إن القتل العام الذي سار عليه چنگيزخان إنما كان يكون جزءاً من نظام حربي هو سلاح البدو ضد أهل الحضر الذين لم يستسلموا في الوقت المناسب والذين ثاروا بعد أن كانوا قد استسلموا ، وإن مثل چنگيزخان في القتل العام مثل جلاد تجرد من كل عاطفة ، وكلف بتنفيذ حكم عام لا فرق عنده بين فقير وغني ، وصغير وكبير ، ورجل وامرأة ، ومسلم وكافر . وهو بالإضافة إلى ذلك رجل بدوي لم يعرف مطلقاً الحضارة الزراعية والريفية ، فحينما غزا ايران الشرقية والصين الشمالية ، ظن أنه من الطبيعي أن يمحو المدن ، ويبيد المزروعات ، ليعود بهذه المناطق إلى حالات السهوب كبيئته التي عاش فيها .

وهكذا تجمع الروايات على أن فتوحات المغول ، كانت مصحوبـــة بالمجازر البشرية . ولكن علماء الشرق والغرب ، لا يدخلون في اعتبارهم إلا حروب الإبادة التي كان البدو يشنونها على البلاد المتحضرة ، هذا مع أن البدو لم يكونوا يحققون اتحادهم السياسي إلا بعد معارك دامية فيما بينهم ، بل ربما أبيدت في هذا السبيل ، وطبقاً لخطة ، قبائل بأسرها ؛ حتى ليصعب علينا أن نعرف أي صرعى چنگيزخان أكثر عدداً : صرعاه في الاستبس أم صرعاه في البلاد المتحضرة ؟ . ويصعب أيضاً أن نثبت أن فتوحات المغول كانت نفعا خالصا للبدو ،وضراً خالصاً لأهل الحضر ، فمثلاً لم يكن استيلاء

المغول على البلاد المفتوحة نتيجة هجرة كاملة لشعوبهم ، كما كان حال السلاجقة حين استولوا على غرب آسيا ، بل بقيت جمهرة المغول العظمى في منغوليا ، وإليها رجع جنكيزخان ، وبقيت مقراً لخلفائه أكثر من أربعين سنة بعد وفاته(١) .

وهذا الميل الغريزي إلى السفك والقتل والمكر والدهاء استمر يلازم جنكيز خان إلى آخر لحظة من حياته . يروي رشيـد الدين أن « شادرغو » ملك التانجوت ظل مدة طويلة يتمرد على جنكيزخان ويحاربه . وأخيراً عندمـا مرض جنكيزخان ، أرسل إليه هذا الملك رسالة يعرض عليه الصلح ، ليحل السلام والوئام محل الخصام والنزاع . وطلب مهلة شهر لكي يعد التحف والهدايا ، ويخرج مع أهالي المدينة ليقدم فروض الخضوع والطاعة . فوافق جنكيزخان ، وأجابه قائلاً : « إنني مريض الآن . فاصبر حتى تتحسن صحتي » وكان العاهل المغولي يعلم علم اليقين أنه لن يسلم من هذا المرض . ولهـذا أوصى الأمراء قائلاً : « لا تذيعوا خبر موتي ، ولا تبكوا وتنوحوا عليّ مطلقاً ، حتى لا يعلم أهالي التانجوت . وعندما يخرجون في الموعد المقرر ، اقتلوهم عن آخرهم »(٢) .

في شخصية جنكيزخان تتحدث آلاف السنين من التقاليد التي تبناهـا ذلك الرجل البدوي . تلك التقاليد التي لا تبالي بما يسفك من دماء ، ويزهق من أرواح ، بل تجد السعادة والرضا حين تفتح الأقاليم ، ويقام الملك على حساب ملايين القتلى . تأملوا حديثه وهو يقف أمام عتبة المدنية ؛ ليعبر عن سعادته الكبرى فيقول : « مزقوا هؤلاء الأعداء إرباً إرباً ، اطردوهم أمامكم ، استولوا على ممتلكاتهم ، علقوا من يحبونهم عـلى أسلحتكم ، حطموا نساءهم وبناتهم » . وكانت أسعد الأوقات عند هذا الطاغية هي التي يحطم فيها قوى

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، الترجمة العربية ، ص ١٦٥ .
(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

أعدائه ويطاردهم ، ويستولي على ممتلكاتهم ، ويرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم . وهو الوقت الذي يستطيع فيه أن يركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونساءهم . وعندما تنبأ بأن أحفاده سيطرحون وراء ظهورهم — يوماً ما — حياة البداوة وما فيها من خشونة وتعب ، وسيحيون حياة أهل الحضر دون كلفة أو مشقة ، صرح قائلاً : « سيأتي أناس من بعدنا من نفس جنسنا ، يلبسون أزياء ثمينة ، ويأكلون أطباقاً دسمة ، مضافاً إليها الحلوى ، ويمتطون الجياد الأصيلة ويضمون إلى صدورهم أجمل النساء . ولكنهم لن يقولوا إن هذا كله قد جمعه لنا آباؤنا وساداتنا ، وسينسون في وقت عظمتهم أنهم مدينون لنا بهذا »[1] . وإن ما تنبأ به هذا العاهل المغولي البعيد النظر هو ما حدث بالفعل ؛ فإن أبناءه وأحفاده سرعان ما تحولوا من حياة البراري القاسية إلى حياة الحضر الوادعة المترفة .

ومن هنا يتبين أن چنگيزخان نفسه ، كان حريصاً على المحافظة على كيان المغول والإبقاء على تقاليدهم البدوية مرعية ومصونة ؛ لأن هذا يكفل لهم الانتصار على أعدائهم . إنه كان يكره حياة المدنية حقاً ، ويبغض مافيها من نعيم وترف ، ويفضل الحياة الجافة الغليظة التي تدعو إلى الجهاد والسعي والعمل . يقول في هذا الصدد موجهاً نقده إلى حياة الدعة والبذخ التي كان يحياها الصينيون : « لقد برمت السماء من هذا البذخ المتناهي في الصين . أما أنا فسأبقى في المنطقة المتوحشة في الشمال ، سأعود إلى البساطة ، وسأرجع إلى التوسط ، وسأحتفظ بنفس الرداء ، وبنفس الغذاء ، كحراس البقر تماماً سواء فيما يتعلق بملابسي التي ألبسها ، أو بوجباتي التي أتناولها . سأعامل جنودي كإخوة أشقاء . لقد شهدت مئات المعارك ، ووضعت نفسي دائماً في المقدمة ، وأنجزت عملاً كبيراً خلال سبع سنوات »[2] .

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٤٣٧–٤٣٨ .

(٢) انظر Grousset : L'Empire des Steppes, P. 310.

ولعل چنگيزخان بهذه التصريحات كان متأثراً بكلمات أبيه التي يقول فيها : « إننا لا نبلغ واحداً من مائة من عدد سكان الصين . والسبب الوحيد الذي من أجله أمكننا مقاومتهم هو أننا جميعاً قوم رحل ننتقل بمؤننا من مكان إلى آخر . إن لنا خبرتنا بنوع القتال الخاص بنا . إذا ما استطعنا سلبنا ما نحن في حاجة إليه ، وإذا لم نستطع قبعنا بعيداً . أما إذا بدأنا نبني مدناً ، ونغير من عاداتنا القديمة ، ساء طالعنا ، وهوى نجمنا »[1] .

ولكن في الوقت نفسه يجب أن نعترف في صراحة بأنه ما كان يتيسر لجنگيزخان فتح تلك المناطق الفسيحة ، وتكوين هذا الملك العريض ، إلا إذا كان مزوداً بكثير من التعقل والتبصر والكفاءة الممتازة ، وأنه لا بد وأن يكون على جانب كبير من الدهاء والسياسة . ولا يمكننا أن نسلم بأنه كان فقط ميالاً إلى الغزو والفتح وإراقة الدماء ، بل كان كذلك له هدف معين يبغي الوصول إليه ، ويرى أن تحقيقه لا ينبغي أن يحول دونه حائل ما . فمهما أريق من دماء ، وأزهق من أنفس ، وخرب من مدن ، فكل ذلك لا يعد شيئاً مذكوراً ما دام هو الطريق الذي سوف يبلغه مراده .

وكل ما كان يسعى إليه چنگيزخان أول الأمر ، هو إعادة فتح الطريق التجاري القديم بين ايران والصين . وعلى هذا لم يدخر وسعاً في القضاء على الدول والقبائل التي كانت تعترض هذا الطريق ، ولا تؤمن قوافل التجار . وعندما جاور ممالك السلطان محمد خوارزمشاه ، حرص على أن تكون علاقته بالسلطان محمد قائمة على المودة وتبادل المنافع . ولكن ما ارتكبه السلطان من أخطاء شرحناها فيما سبق ، كانت هي السبب في تحريك چنگيزخان ، إذ جعلته يسارع إلى مهاجمة الممالك الإسلامية بدافع الانتقام قبل أي شيء آخر .

إن چنگيزخان في نطاق نوع حياته ووسطه وجنسه ، ليبدو أيضاً رجلاً

(١) هارولد لام : چنگيز خان وجحافل المغول ، ترجمة متري أمين ، ص ١٥ .

حكيماً مدبراً ذا عزم ومضاء ، يجابه الأحداث بشجاعة ورباطة جأش ، وكان حريصاً على كرامة قواده وجنوده ، ويحب أن يراهم يثقون بأنفسهم دائماً . عندما أوقع السلطان جلال الدين منكبرتي الهزيمة بجنود القائد المغولي « قوتو نويان » ، وجاء هذا أمام چنگيزخان كاسف البال متخاذلاً ، لم يخرج هذا الخبر چنگيزخان عن هدوئه وثباته ، واكتفى بأن قال له :

« إن قوتو نويان تعود أن يخرج من كل معركة ظافراً منتصراً ، ولم يذق طعم الهزيمة قط . وإنه لا شك سوف يأخذ حذره ويحتاط أكثر من ذي قبل بعد هذه الهزيمة » .

ونحن نستطيع أن نستخلص من أفعال العاهل المغولي ، ما كان له من صفات وطباع رفعت قدره وأعلت شأنه . فما يبهرنا فعلاً ، ما كان له من شخصية بلغت من القوة قدراً كبيراً ، بحيث أنها فرضت نفسها على كل من تلتقي به . وكان لعبقريته في القيادة ، وإحساسه بالعدالة ، وإخلاصه لأصدقائه الأثر الكبير في إسراع القبائل إليه والتفافهم حوله ، وانضوائهم تحت رايته . ولقد أضحت محبته لأصدقائه الأوائل مضرب الأمثال ؛ ولا غرو فإن من طباع سكان الخيام ، المحبة الشديدة للأصدقاء التي لا يضارعها إلا الكراهية البالغة للخصوم .

وچنگيزخان أيضاً رجل متزن إلى درجة ملحوظة ، يعرف كيف يستمع ، سخي كريم عطوف رغم قسوته . فيه صفات الإداري الحازم المنظم ، ولكنه يجيد فقط إدارة الشعوب البدوية ، وليست الشعوب الحضرية التي أخطأ في فهم حياتها واقتصادياتها . وهنا تتجلى عبقرية چنگيزخان في حبه للنظام ، ورغبته في أن يكون حاكماً صالحاً . فإلى جوار أحاسيسه البربرية الفظيعة ، نجد جوانب أخرى لا شك في رفعتها ونبلها ، يرتفع بها هذا الرجل إلى مكانه في الإنسانية[1] . لقد كان يفزع من الخونة ويلقنهم دائماً درساً قاسياً ؛ فكثيراً

(١) انظر Grousset : L'Empire des Steppes, P. 311.

ما أعدم المرائين الذين أرادوا أن يظهروا له حبهم وإخلاصهم عن طريق خيانة ساداتهم وأولياء نعمتهم ، والتنكر لأوطانهم . وعلى العكس من ذلك كان كثيراً ما يحترم خصومه ويقدرهم ، ويثيبهم بعد النصر ، فيلحق بخدمته أولئك الممتازين الذين ثبت إخلاصهم ووفاؤهم لساداتهم الأصليين .

وإذا كان جنكيزخان قد سحق كل مشيئة تخالف إرادته ، وأخضع جيشه لنظام دقيق ، فيه ما فيه من الصرامة والشدة ، فإن ذلك أدى إلى منع الصفات الذميمة كالكذب والسرقة ؛ بحيث أن الجندي المغولي ، كان يعترف بذنبه إذا ما ارتكب خطأ ؛ حتى ولو كان يعرف أن في ذلك إزهاقاً لروحه[1] .

كذلك أخذ جنكيزخان على عاتقه حماية الضعفاء ، واستمرت هـذه الحماية حتى النهاية . وقد أثبت جنكيزخان إخلاصه لهذا الفريق في شتى المناسبات ؛ فحينما قتل رئيس التانجوت لأنه وقف إلى جانب جنكيزخان ضد النايمان ، مد يد المعونة إلى أسرته ، وثبت ابنه على العرش ، وزوجه من ابنته ، وضمن الثروة والحياة المستقرة لهذه الأسرة . كما أن المنهزمين في الحروب السابقة : الأويغور والخطا ، لم يصادفوا حامياً صادقاً لهم إلا في جنكيزخان ، مثلما كان أحفاده حماة أوفياء للمسيحيين من الأرمن والسريان . وكان من أتباعه في مستهل حياته ، الأمير الخطائي ، « يليوليوكو » . الذي لقي مصرعه في الحرب أثناء قتال الخوارزميين . فأخذت أرملته تسعى للقاء جنكيز خان ، حتى تم لها ما أرادت ، بعد أن فرغ من حملته في إقليم « كانسو » ، فأحسن استقبالها ، وبذل رعايته الأبوية لابنيها[2] . وهكذا في ظروف أخرى مشابهة نلحظ في هذا البدوي الذي يلبس جلود الحيوانات ، والذي حاول أن يفني شعوباً بأسرها — بجاملة بالغة تفوق حد الوصف .

ولما كان جنكيزخان لا يؤمن بأي دين أو دولة ، فإنه كان يتجنب التعصب ،

---

(١) انظر الجوزجانى : طبقات ناصرى ، ص ٣٧٤—٣٧٥ .

(٢) الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٤٩ .

ورجحان أمة على أمة ، أو دين على دين ، ولكنه كان يكرم العلماء والزهاد من كل طائفة ، ويعفيهم من الضرائب[1] .

وأخيراً فإن ذلك السياسي الجبار ، لم يكن أصم بالنسبة لتجارب المتحضرين . لقد كان يستفيد كثيراً من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الاطلاع فيما يتعلق بالشئون الإدارية والمخابرات التي تساعده على القيام بأعماله الحربية ، فكان له مستشارون احتضنهم وقبلهم في خاصته . ومن المعروف أن تنظيم الإدارة المدنية عند جنكيزخان في مستهل حكمه ، كان أمراً بالغ الصعوبة ؛ فلا شك أن المغول وقتذاك لم يبلغوا من المستوى الحضاري ما بلغته القبائل التي خضعت لهم كالكرايت والنايمان . ولذا أضحت الحاجة ماسة إلى الإفادة من الشعوب الخاضعة والموالية لهم عقب توحيد منغوليا . وكان التجار المسلمون في مقدمة الذين ظهروا في البلاط المغولي من ذوي الحضارات . وكان هؤلاء يجيئون من البلاد البعيدة ، وهم على علم كاف ، وخبرة تامة بأحوال البلاد الواقعة خارج منغوليا نتيجة لكثرة تنقلاتهم وأسفارهم . فلا غرو أن كانوا يؤدون لجنكيزخان أجل الخدمات . من هؤلاء جماعة كانوا يلازمونه ، ويذهبون من قبله كسفراء لدى السلاطين ، أو للقيام بمهام أخرى . وهناك ثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصاً للعاهل المغولي ، خصوصاً في الأيام الحالكة التي صادفها في حياته المبكرة . وهؤلاء هم جعفر خوجا ، وحسن ، ودانشمند الحاجب . وقد أفاد جنكيزخان من حسن ودانشمند في حملته على مملكة خوارزمشاه ؛ بما قاماً به من مفاوضات مع السكان الأصليين[2] كذلك ورد دانشمند الحاجب رسولاً من قبل جنكيزخان إلى تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ليقنعها بالخضوع للمغول[3]. كذلك يقرر الجوزجاني[4] أنه عندما صمم جنكيزخان على مهاجمة ممالك الخطا في

---

(١) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاى ، ج ١ ، ص ١٨ .
(٢) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٥٠ .
(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٩٣ . (٤) طبقات ناصرى ، ص ٣٣ .

الصين الشمالية ، ذهب برسالته أحد الرسل من المسلمين اسمه « جعفر » قاصداً ملكهم « التون خان » ؛ فما كان من هذا الملك إلا أن ألقى القبض عليه، وزج به في السجن . غير أن « جعفر » تمكن من الهرب وعاد إلى چنگيزخان مخترقاً طريقاً سرياً ، وسرد على مسامع الخان أحوال الخطا ، وما عليه ملكهم . فما كان من چنگيزخان إلا أن انقض على ملك الخطا « التون خان » ، سالكاً نفس الطريق الذي سلكه رسوله جعفر . وبذلك استطاع أن يزيل عرش الخطا ، ويستولي على بلادهم .

وكان چنگيزخان يميل إلى الإصغاء إلى أقوال الحكماء ، والاستفادة بتجاربهم . فهذا حكيم من الصين حذر الخان ذات يوم قائلاً : « لقد غزوت إمبراطورية وأنت على صهوة جوادك ، ولكنك لن تستطيع أن تحكمها وأنت على صهوة هذا الجواد » . وقد صدق هذا الحكيم ؛ لأن الحكم قوامه فكر وبصيرة وروية وسياسة وبناء ، وهذه كلها لا تجيء خطفاً كما قد يجيء الغزو خطفاً . ثم حدث لهذا العاهل المغولي مرة أخرى في حياته ، وبعد أن كان له الملك كله على الصين وما يسمى اليوم بروسيا وبلاد الأفغان وفارس ، وما هو أبعد من هذا كله — أن سمع بحكيم صيني ، فأرسل إليه يدعوه للشورى ، وجاءه الحكيم واثقاً من قوة روحه ، وإن لم تكن في يده قوة السلاح ، حتى مثل أمام چنگيزخان ، فاستنصحه الخان : ماذا يفعل ، وقد غزا ما غزا ، وحكم ما حكم ؟!... فقال الحكيم : النصح عندي أن تعيش في سلام ، وأن تكف عن إزهاق أرواح الناس[1] .

كذلك كان چنگيزخان يضم إلى حاشيته ، الأكفاء من أهالي البلاد حة ، ويتخذ منهم وزراءه ومستشاريه ، وكان أشهر هؤلاء ثلاثة :

— « محمود يلواج » من المسلمين .

لام : چنگيز خان وجحافل المغول ، ص ٥ من المقدمة .

٢ ــ « تاتات أونجا » T ' a-t ' a-t ' ong-a من الأويغوريين .

٣ ــ « يي ليوچوتساي » Ye-Liu Tch ' ou-ts ' ai من الصينين .

أما محمود يلواج فهو محمود الخوارزمي ، وكان قد التحق بخدمة چنگيزخان قبل هجومه على أملاك الدولة الخوارزمية . ولما كان هذا الرجل يقوم بمهمة السفير والرسول لچنگيزخان إلى السلطان محمد خوارزمشاه فقد لقب بلقب « يلواج » ، وهو لفظ تركي معناه السفير والمبعوث . وكانت أول سفارة لمحمود الخوارزمي في سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) حينما حمل رسالة چنگيز إلى السلطان محمد ، ونقلها إلينا النسوي في كتابه[1] . ومنذ ذلك التاريخ بقي محمود في خدمة چنگيزخان ، وكان بمثابة مستشار ووزير له ، حتى استطاع الخان المغولي وأولاده الاستيلاء نهائياً على ممالك خوارزمشاه ، فكان محمود يتمتع دائماً بعطف چنگيزخان لدرجة أنه عينه نائباً عنه في منطقة ما وراء النهر ، ثم نصب بعد ذلك حاكماً على هذه المنطقة من قبل المغول . وقد بذل محمود جهوداً كبيرة في تعمير ما خربه المغول وإصلاح حال الناس ، وإدارة هذه الممالك أحسن إدارة ، واستطاع بحسن تدبيره وتوخيه العدل ــ أن يخفف من آلام الضربة القاسية التي أوقعها المغول بالرعايا في تلك المنطقة .

وأما « تاتات أونجا » فقد كان قبل أن يلتحق بخدمة چنگيزخان مستشاراً لآخر ملك نايماني ، ثم اتخذه چنگيزخان مستشاراً له ومعلماً لأطفاله يعلمهم الخط الأويغوري .

ولكن « يي ليوچوتساي » كان أهم شخص أثر في حياة چنگيزخان ؛ وهو من أهالي الصين الشمالية . وقد شغل أبوه منصب الوزارة لسلاطين آل كين . تثقف « يي ليو چوتساي » ثقافة عالية فحصل العلم والحكمة ، ودرس علوم الفلك والجغرافيا والأدب ، وصنف في هذه الفنون كتباً عديدة . وفي سنة

---

(١) انظر سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٨٣ .

٦١٢ هـ (١٢١٥ م) عين حاكماً على مدينة پكين من قبل آل كين ، ولكن سرعان ما سقطت تلك المدينة في أيدي المغول في هذا العام نفسه ، فوقع في أسرهم .

وعندما لمس چنگيزخان كفاية « پي ليو چوتساي » ومقدرته ، فك أسره ، وولاه أعلى المناصب في دولته . ومنذ ذلك الوقت صار يتمتع لدى چنگيز بمنزلة كبيرة ، واستمر يعيش معززاً مكرماً ، خصوصاً وأنه كان رجلاً ذكياً ممتازاً ، كما كان على معرفة بعلم الفلك ، وكان المغول يجلون الفلكيين والمنجمين فلا غرو أن كان مقامه يسمو يوماً بعد يوم في دولة چنگيزخان .

يروى أن شخصاً من طائفة التانجوت اشتهر بصنعة الأقواس والسهام ؛ فارتفع شأنه عند چنگيزخان . ونظراً لما كان يتمتع به هذا الشخص من عز وجاه ، كان كثيراً ما يردد هذا السؤال في تيه وفخار : « ماذا يفيد شخص عالم أديب مثل « پي ليو چوتساي » قوماً لا يعنيهم سوى القتال وقيادة الجيوش؟! فلما وصل هذا الكلام إلى سمع « پي ليو چوتساي » ، قال لمخاطبه : « أجل ! . إن الدولة تتطلب أستاذاً ماهراً في صنع الأقواس والسهام ، ولكن من الضروري لها أيضاً وجود علماء لهم خبرة بإدارة الممالك » . فلما بلغ چنگيزخان ماقاله مستشاره ، سر منه ، وزاد في إعزازه وتكريمه .

وقد صحب « پي ليو چوتساي » چنگيزخان في حملاته على البلاد الإسلامية ، كما صحبه في حملاته الأخرى ، ورأى بعيني رأسه جميع حوادث القتل والبطش التي تقشعر لهولها الأبدان . ومن حسن الحظ أن هذا الرجل وصف لنا فتوحات چنگيزخان وغزواته للدولة الخوارزمية وصفاً يعد من أدق ماكتب في هذا الموضوع (١) .

---

(١) Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, Vol, I, PP. 9 - 10 .

يحدثنا تاريخ هذا العالم الصيني أن ما كان يشغله هو إنقاذ الكتب الثمينة من الحرق والغرق ، وذلك في المدن التي تعرضت لنهب المغول ، أو تلك التي أشعلوا فيها النيران ، أو تلك التي سلطوا عليها الماء لإغراقها ؛ فكان بذلك يؤدي خدمة جليلة في سبيل العلم والثقافة ، وهو نفس العمل الخالد الذي قام به بعد نصف قرن، الخواجه نصير الدين الطوسي ، فقد شاء القدر أن يكون هذا الرجل في خدمة سفاك آخر هو هولا گوخان[١] .

ومع أن « بي ليو چوتساي » لم يجرؤ على مخالفة سياسة چنگيزخان ، ورغم أنه استمر على إخلاصه لهذا الغازي المغولي ، إلا أنه قد أخذ على عاتقه — كلما سنحت الفرص — أن يسارع إلى نجـدة المنكوبين ، والتخفيف من ويلاتهم ، فكان يعطي الدواء والغذاء لأولئك المساكين الذين كتبت لهم السلامة والنجاة من القتل ، بل إنه اهتم بالبحث عن عقاقير طبية لمكافحة الأوبئة التي انتشرت من جراء تراكم جثث القتلى .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل كان يتدخل أيضاً بحذر ودقة ، ملتمساً العفو عن مدينة أو إقليم ، كان على وشك أن ينزل به عقاب المغول الرهيب . وعلى هذا صار الوسيط الطبيعي بين جنس مضطهد وآخر جائر . وكثيراً ما كان يقول له أوگتاي بن چنگيزخان : « أستبكي من جديد من أجل الشعب؟! [٢]

كذلك كان يعمل بقدر ما في وسعه على تفادي الإجراءات التعسفية من جانب المغول ، ما دامت هناك سبل أخرى ، لتحقيق أهداف هؤلاء المتبربرين دون إراقة دماء . يروي أنه عندما عاد چنگيزخان من البلاد الإسلامية إلى منغوليا عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) أبلغ أن أزمة شديدة تجتاح الأقاليم الصينية ؛ فمخازن الحبوب قد أصبحت خاوية على عروشها ، كما خلت الخزانة من

---

(١) انظر عباس اقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ٧٧ .
(٢) Grousset : L'Empire des Steppes, P. 315.

النقود ، وانعدم وجود الأقمشة الثمينة . وفي الجلسة التي عقدت للبحث عن مخرج من هذا المأزق ، ارتفع صوت شيطاني جهنمي ماكر خبيث ، يتمثل في أحد قواد چنگيز ، وهو ينادي بالدمار والفناء فيقول : « إن الرعايا الصينيين الجدد عديمو الجدوى ، غير صالحين لمباشرة الأعمال الإدارية والحربية . ولهذا يجب استئصالهم جميعاً ، لكي نحول الأراضي إلى مزارع للحيوانات ومزارع للغلات » . وعلى الفور أعجب چنگيزخان بهذه الفكرة ، وكان على وشك أن يصدر أمره بالتنفيذ فيحكم بالفناء على ما يقرب من عشرة ملايين من الأنفس، لو لم يتدخل « يي ليوچوتساي » ليحول دون وقوع هذه الكارثة ؛ فقد تقدم إلى چنگيزخان بدافع الإنسانية أولاً ، وبدافع حب الوطن ثانياً ، وأظهر له المزايا التي يمكن الحصول عليها ، وذلك باستغلال المساحات الخصبة ، والاستفادة بالرعايا الجدد القادرين على الصناعة . كما بين له أيضاً أنه إذا رفعت الضرائب على الأراضي والبضائع ، فإنه يمكن الحصول على ٥٠٠٠٠٠ أوقية من الفضة ، ٨٠٠٠٠ ثوب من الحرير ، ٤٠٠٠٠٠ غرارة من الحبوب . وبهذا التفكير السديد كسب المعركة ؛ إذ كلفه چنگيزخان بوضع نظام الضرائب على هذا الأساس .

وهكذا نرى أنه بفضل هذا الرجل وأمثاله من المستشارين الأويغوريين والمسلمين الذين خدموا چنگيزخان ، وجد وسط هذه المذابح الدامية ، عنصر ملطف رحيم كان نواة للإدارة المغولية .

ومن هنا يتضح أن چنگيزخان كان يظهر ميلاً عاماً نحو الأقوام المتمدينة ذوي الثقافات . وليس أدل على ذلك ، من أنه كان يقرب إليه الأويغوريين والصينيين والمسلمين ، وعلى العكس كان يعامل بقسوة وشدة سكان منشوريا والتانجوت والأتراك الخوارزميين ، وكان ينفر منهم ، ويبطش بهم .

لقد كان چنگيزخان فظيعاً حقاً في حياته ، ولكنه مال إلى الإنسانية على مستشاريه من الأمم المغلوبة على أمرها . ومن العجيب أن معاصريه أو

القريبي العهد منه ، قد أسدلوا ستار النسيان على المذابح الرهيبة التي اقترفها ، وذكروا له فقط العمل الإداري الذي أقامه بمساعدة الأويغوريين وغيرهم . ولقد صدق الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود حين قال : « ليست عظمة الإنسان في أن ينتفخ كالفقاعة الفارغة ، ثم ينفجر جداره الهش ، فيذهب كأن لم يكن منذ لحظة ، بل عظمة الإنسان هي أن ينتج ما يمكث في الأرض ، تراثاً للإنسانية خالداً »[١] .

هذه النظم الإدارية هي وحدها التي أسهم بها چنگيزخان من الناحية الحضارية وهي وحدها التي لفتت أنظار معاصريه ، فأصدروا حكمهم عليه . فيوم أن انتقل إلى العالم الآخر ، قال عنه الرحالة ماركوپولو[٢] : « إنه مات !.. إذن فتلك خسارة فادحة !.. لقد كان رجلاً حذراً عاقلاً » . وقال عنه جوانفيل[٣] : « إنه هيأ السلام لقومه » . وقد يبدو هذا الكلام غريباً لأول وهلة . ولكن الحقيقة أنه ليس فيه شيء من التناقض إلا في ظاهره ؛ فچنگيزخان هو الذي وحد جميع الأقوام والقبائل المغولية والتركية في إمبراطورية متحدة ، وبفضل ما أجراه من سيادة النظام الصارم في الإمبراطورية الممتدة من پكين إلى بحر قزوين ، قضى على كل ما كان ينشب دائماً من الحروب بين القبائل ، وحقق للقوافل من الأمن مالم تعهده من قبل .

ولكن تبقى الحقيقة بعد ذلك ماثلة أمامنا ، وهي أنه إذا كانت هذه النظم الإدارية قد أفادت من بعض الوجوه ، فإن ذلك قد تم بعد تضحيات كبيرة ، وبعد أن قضى على كثير من مظاهر الحضارة في البلاد التي فتحها چنگيزخان .

---

(١) انظر هارولد لام : چنگيز خان وجحافل المغول، الترجمة العربية ، ص ٦ من المقدمة.

(٢) انظر Marco Polo'éd, Pauthier. Vol, I, P. 182

(٣) انظر Grousset : L'Empire des Steppes, P. 313

الفصل السابع

خلفاء چنگیزخان من أسرة أوگتای قاآن

الفصل السابع

خلفاء چنگيزخان من أسرة أوگتاى قاآن

١ ــ أوگتاى قاآن

٦٢٦ ــ ٦٣٩ هـ = ١٢٢٩ــ١٢٤١ م

تقسيم ممالك چنگيزخان :

كان لچنگيزخان زوجات ومحظيات كثيرات . ولكنه كان يفضل عليهن جميعاً زوجته المسماة « يَسُونجين بَيْگي » . ولهذا كان يعز أبناءه من هذه الزوجة ، ويقدمهم على أبنائه الآخرين . وقد أنجب چنگيز تسعة أولاد من بينهم أربعة ، كانوا من زوجته يسونجين . وهؤلاء الأبناء الأربعة هم : جوجى وجغتاي وأوگتاي وتُولُوي . كان أبوهم چنگيزخان يعهد إليهم بجلائل الأعمال ، كما كان يعتمد عليهم اعتماداً كلياً في إدارة إمبراطوريته المترامية الأطراف .

فمثلاً نراه يكلف أكبر أبنائه « جوجى » بالإشراف على شئون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها . وأما ابنه الثاني « جغتاي » فقد وكل إليه تنظيم شئون القضاء والعمل على تنفيذ أحكام چنگيزخان وقوانينه ، وتوقيع الجزاء والعقاب على المقصرين . وجعل ابنه الثالث « أوگتاي » يختص بالشئون المالية والإدارية ، ويقوم بتنظيم شئون الملك ، وتدبير مصالح الناس . وفوض إلى ابنه تولوي

مباشرة شئون الدفاع وإعداد الجيوش . وكان يدعى « الغ نويان »[1] .

وقد رأى چنگيزخان بثاقب فكره أن خير وسيلة لتدريب أبنائه على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسئوليات ، هو أن يقسم إمبراطوريته بينهم وهو على قيد الحياة . وچنگيزخان بهذا الإجراء إنما يسير على المبدأ المتبع عند الشعوب البدوية ، والذي يعتبر أن ما يجري امتلاكه من بلاد وأقاليم ، ليس ملكاً للحاكم ، بل للأسرة الحاكمة ، وأن لكل فرد من أفراد الأسرة أن يختص بعدد من القبائل (أولوس) ، وأن يكون له موطن (يورت) يشتمل على مساحة من البراري تمارس فيها هذه القبائل حياة الرعي ، وأن يتوافر له من الخراج ما يكفي للإنفاق على بلاطه وعساكره . وهذا الخراج تؤديه الشعوب التي خضعت في الصين وتركستان وايران . وطبقاً للقانون المغولي يعطي الأب قبل وفاته قسماً من أملاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ، ويترك الجزء الأهم لأصغر أبنائه وقد تم التقسيم على النحو التالي :

١ - كان نصيب جوجي وهو أكبر أبناء چنگيزخان ، البلاد الواقعة بين نهر ارتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان اسم تلك البلاد عامة القبچاق ، ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية Golden Horde نسبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي ، وكان غالب أهلها من الأتراك والتركمان[2] . ولما كان جوجي قد توفي قبل وفاة أبيه ، قرر چنگيزخان أن تكون هذه المناطق من نصيب حفيده « باتو[3] بن جوجي » ، الذي اشتهر برقة العاطفة وعذوبة الحديث ، وشدة التعقل ، وأضحى رأس بيت چنگيزخان ، وقام بدور حاسم فيما نشب من منازعات على ولاية العرش للإمبراطورية .

---

(١) خوندمير : حبيب السير ، ج ٣ ، ص ١٨ . ومعنى الغ نويان ، الأمير الكبير .
(٢) انظر المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، حاشية ٤ .
(٣) يكتب ايضاً « باطو » .

٢ ـ اختص جغتاي ببلاد الأويغور ، وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة.

٣ ـ نال أوكتاي ولي العهد ، قسماً يقل عن نصيب إخوته . وكان ينحصر في مناطق جبال تار باجاى ، وأطراف بحيرة ألاجول وحوض نهر ايميل الذي يصب في تلك البحيرة ، ويقع غربي منغوليا .

٤ ـ منغوليا ، المنطقة الأصلية لجنكيزخان وآبائه وأجداده . والتي تشمل وديان أنهار كرولين وأونن وأرخن ومنطقة قراقورم ، كانت من نصيب تولوي أصغر أبناء جنكيزخان . وقد استمر يحكم الإمبراطورية مدة عامين ٦٢٤ ـ ٦٢٦ هـ (١٢٢٧ ـ ١٢٢٩ م) بصفته وصياً على العرش ، طبقاً للعرف المغولي . وذلك بمساعدة ثلاثة من المستشارين إلى أن انتخب الخان الجديد خلفاً لجنكيزخان .

ونحن نعلم أنه أثناء حياة جنكيزخان ، وقع اختياره على ابنه أوكتاي ليكون ولي عهده وخليفته من بعده . وقد دل هذا الاختيار على حكمة العاهل المغولي . واتساع أفقه وعمق تفكيره . ونفاذ بصيرته ؛ إذ أنه لم يغتر بما اشتهر به تولوى من مواهب عسكرية . أو بما اتصف به جغتاي من صرامة يستطيع أن يفيد منها في تحقيق المبادىء الأساسية التي ينطوي عليها نظام جنكيزخان ، بل وضع « أوكتاي » نصب عينيه ؛ لما امتاز به من خصب القريحة وسعة الأفق وسماحة الوجه ، فضلاً عن عبقريته ونشاطه وإدراكه السليم للأمور ، واتصافه بصفات تجعله مقبولاً لدى الناس .

وعلى الرغم من أن جميع الأبناء والأحفاد والأعمام كانوا مشتركين في إدارة البلاد وحيازة الأموال والأملاك ، إلا أن جنكيزخان كان يرى بحق أن الإمبراطورية المغولية ، لا يمكن أن تبقى قوية متحدة إلا إذا آلت مقاليد أمورها إلى شخص كفء ، يخضع له الجميع ، ويأتمرون بأمره [١] . وإذا

---

(١) انظر الجويني : ج ١ ، ص ٣٠ .

كان أوكتاي قد تولى عرش الخانية بعد وفاة أبيه فساس الإمبراطورية أحسن سياسة ، وتحقق الوفاق التام بين أفراد الأسرة المغولية المالكة ، وازدهر العمران، وأحس الرعايا برخاء نسبي ، فإن ذلك يقوم دليلاً قاطعاً على أن چنگيزخان كان موفقاً في اختياره .

انتخاب أوكتاى خانا أعظم للمغول :

بعد وفاة چنگيزخان ، ظل العرش خالياً من ملك مدة عامين . وأخيراً رأى الأمراء الكبار ضرورة التعجيل بتنصيب خان جديد ، حتى تنصلح الأمور ، ولا يتطرق الفساد والخلل إلى أساس الملك . وقد استقر رأيهم على اتخاذ هذه الخطوة . فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف ، وصاروا يمهدون لعقد مجلس الشورى (القور يلتاي) . ولما كانت هذه هي المرة الأولى التي يقع فيها الاختيار على من يخلف چنگيزخان ، حرص المغول على أن يخرجوا من هذه التجربة وهم متماسكون متضامنون حتى يكملوا رسالة زعيمهم في الفتح والغزو .

وعندما خفت حدة البرد ، وظهرت بشائر الربيع ، وفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش ، وظلوا هناك ثلاثة أيام في متعة وأنس وطرب ، شرعوا بعدها في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد ، فأجمعوا على تولية أوكتاي عرش الخانية ؛ ولكنه حاول التنحى والاعتذار بحجة أنه غير أهل لتولي هذا المنصب الخطير ، وأن أخاه « تولوي » أجدر منه بمباشرة هذا الأمر ، والالتزام به ؛ لأنه الأخ الأصغر ، وطبقاً لتقاليد المغول ورسومهم ، يقوم مقام الأب ، ويتعهد داره ؛ ولأنه كان ملازماً لأبيه ليلاً ونهاراً ، ويعرف الأصول والقوانين . غير أن إخوته وأقاربه ، أغلقوا أمامه كل باب للاعتذار ، وأصروا عليه أن يقبل هذا المنصب ، وذكروه بوصية أبيه في هذا الشأن ، فنزل على مشيئتهم آخر الأمر . وعندئذ أخذ « جغتاي » يد أخيه « أوكتاي » اليمنى ، وأخذ تولوي يده اليسرى ، وأمسك عمه اوتچگين بحزامه ،

وأجلسوه على سرير الخانية ، وركع جميع الحاضرين داخل البلاط وخارجه ، وأعلنوا تنصيب « أوكتاي » « خاقانا » أي خاناً أعظم للإمبراطورية المغولية ، وذلك في القوريلتاي الذي عقد لهذا الغرض في ربيع سنة ٦٢٦ ﻫ (١٢٢٩ م).

بعد ذلك قام الخان بتوزيع الأموال على الأقارب والعشائر . وطبقاً للرسوم والعادات المتبعة عند المغول ، أمر بتقديم الأطعمة لمدة ثلاثة أيام متتالية صدقة على روح جنكيزخان . كذلك اختار أربعين فتاة حسناء من نسل الأمراء الذين كانوا يلازمونه وألبسوهن أفخر الثياب ، وزينوهن بالمرصعات والجواهر ، ثم أرسلوهن على جياد أصيلة إلى روح جنكيزخان(١) .

وعلى أثر تولية أوكتاي عرش المغول ، قرر أن تكون كل الأحكام التي أمر بها جنكيزخان نافذة المفعول ، وأن تبقى مصونة بعيدة عن التغيير والتبديل. كذلك أصدر عفواً شاملاً عن جميع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوباً قبل جلوسه على العرش ، وهدد بإنزال العقاب الصارم على كل من تحدثه نفسه بمخالفة القوانين بعد ذلك .

واهتم اهتماماً كبيراً بإكمال الفتوحات التي بدأها والده جنكيزخان ، فكون الجيوش اللازمة لغزو ايران والصين وأوربا . ونحن نتحدث عن كل حملة من هذه الحملات .

حروب المغول في ايران :

ينبغي أولاً أن نشرح الظروف التي عاد فيها جلال الدين منكبرتي من الهند إلى ايران ، ونبين كيف اصطدم بالقوى الإسلامية في المنطقة ، وذلك قبل أن يرسل المغول قوات جديدة من منغوليا لمحاربته . ونحن نعلم أنه على أثر وفاة جنكيزخان ، انصرف المغول عن كل شيء ، واهتموا فقط بمعالجة

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ١٦-١٧ ، تصحيح بلوشيه Blochet ، طبع ليدن .

شئونهم الداخلية ، والإعداد لانتخاب خان جديد . لذلك نرى القواد والحكام والأمراء ، الذين كانوا في أماكن بعيدة عن أوطانهم ، يسارعون بالعودة إلى منغوليا .

في ذلك الوقت كان جلال الدين ، قد كوّن جيشاً كبيراً في الهند وقد استغل فرصة انشغال المغول ، وانسحاب قواتهم الرئيسية من أقاليم الدولة الخوارزمية ، فصمم على العودة إلى وطنه ؛ ليسعى مرة ثانية في سبيل استرداد مملكة آبائه وأجداده . وهكذا عبر نهر السند في سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) ، وقصد ايران . ولكن في نفسه ضغينة وحقد على أولئك الذين مهدوا لوقوع هذه الكارثة بسبب تخاذلهم وضعفهم ، وتحريض المغول على مهاجمة أراضي الدولة الخوارزمية في عهد أبيه علاء الدين محمد ، وفي مقدمتهم الخليفة العباسي . وهناك أيضاً رأى حكام المدن والأقاليم المختلفة قد انتهزوا فرصة رحيل الجيوش المغولية ، فاستقلوا ببعض ولايات خراسان ومازندران والعراق العجمي . أما جيرانه من الحكام والأمراء . فقد كانوا لا يزالون على أنانيتهم وخلافاتهم ، وضيق أفقهم ، ولم يتعلموا شيئاً من الدرس القاسي الذي تلقاه العالم الإسلامي على يد جنگيزخان وقواده . فكان لا مفر لجلال الدين من أن يصطدم بهذه القوى المفككة ، وأن يقوم بسلسلة لا نظير لها من المجازفات والمخاطرات التي سجل تفاصيلها كاتبه « النسوى » في كتابه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » .

لقد كان على جلال الدين أن يحارب جميع الطوائف تقريباً . حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه ، وحارب أخاه غياث الدين ، وأجبره على الدخول في طاعته . ولكن هذا الأخير عاد وخان أخاه في أحرج الظروف ؛ إذ تخلى عنه عندما كان يحارب المغول ، وهم أعدى أعدائه ، كذلك اقتحم كرمان وفارس ويزد . وخضع له الأتابكة في هذه الأقاليم ، وصاروا يأتمرون بأمره ، ثم قصد إصفهان فأسرعتْ إلى تقديم الخضوع له . وبهذا أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية .

ولم يقف جلال الدين عند هذا الحد ، بل عمل أيضاً على بسط نفوذه على الأقاليم المجاورة ، فاستطاع أن يخضع الخليفة العباسي ، وينتصر على جيوشه . ولكنه بالرغم من هذا هادنه ، واصطلح معه . ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال ، فأخضع إقليم أذربيجان ، واستولى على عاصمته تبريز . وبعد أن مكث عدة أيام في هذه المدينة ، سار إلى جورجيا ففتحها ، وسقطت في يده عاصمتها تفليس في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) .

وفي عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) حارب الإسماعيلية وانتصر عليهم ، وأجبرهم على أن يلزموا قلاعهم . وفي سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) انتزع خلاط[١] من يد صاحبها الأشرف موسى بن الملك العادل أيوب الذي أسرع إلى تكوين حلف ضد جلال الدين . وقد قام هذا الحلف وشمل أمراء الموصل ، وبلاد ما بين النهرين ، ولم يلبث أن انضم إليهم «علاء الدين كيقباذ »[٢] السلطان السلجوقي صاحب بلاد الروم . وقد نجح هذا الحلف في إيقاع الهزيمة بجيوش جلال الدين بالقرب من خلاط ، واستعاد الأشرف تلك المدينة .

ولكن على الرغم من هزيمة جلال الدين ، فقد سعى هؤلاء الأمراء ، وفي مقدمتهم الأشرف – إلى عقد صلح معه ، على أن يقنع كل حاكم بالسيطرة على البلاد التي في حوزته .

يحدثنا النسوي[٣] أن الأشرف موسى أرسل رسالة إلى شرف الملك وزير جلال الدين ، يقول فيها : « إن سلطانك سلطان الإسلام والمسلمين وسندهم والحجاب دونهم ودون التتار وسدهم. وغير خاف علينا ما تم على حوزة الإسلام وبيضة الدين بموت والده . ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الإسلام ،

---

(١) تقع على بحيرة « وان » في أعالي نهري دجلة والفرات .

(٢) هو علاء الدين كيقباذ الأول بن كيخسرو الأول سلطان السلاجقة الروم . وقد حكم من سنة ٦١٦ – ٦٣٤ هـ (١٢١٩ – ١٢٣٦ م) .

(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٣٤ .

وضرره عائد إلى كافة الأنام . وأنت قد حلبت الدهر أشطره ، وعرفت نفعه من ضرره ، وذقت حلوه ومره . فهلا ترغبه في جمع الكلمة ما هو أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً ؟... ولِمَ لا تدعوه إلى الألفة التي هي أحمد في البدو والعقبى ، وأقرب إلى الله زلفى ؟!... وها أنا ضامن السلطان من جهة علاء الدين كيقباذ ، وأخي الملك الكامل ما يرضيه من الإنجاد والإسعاد . وإصفاء النيات على حالتي القرب والبعاد . والقيام بما يزيل عارض الوحشة ؛ ويمحو سمة الفرقة . »

وهكذا أخذت الرسل تتردد بين الطرفين حتى تم الصلح . ولكن مع هذا لم تكن النيات خالصة ؛ إذ أنه على الرغم من أن الحكام المسلمين من أمثال الأشرف وغيرهم كانوا يقدرون خطورة الموقف تمام التقدير . ويرون ضرورة التكاتف والتآزر ، إلا أن ذلك كان أمنية فقط ؛ فهم لم يقدموا على الاتحاد قط ، ولم يقفوا صفاً واحداً ، ويضعوا أيديهم في يد جلال الدين ، بل إنهم عندما جد الجد ، تركوه وحده أمام عدو جبار بات يهدد كيانه وكيانهم .

ولقد كان لهزيمة جلال الدين تأثير كبير في مجرى الأحداث ؛ إذ استغلت طائفة الإسماعيلية هذه المناسبة أسوأ استغلال ، ولم يلبث أن أرسل مقدمهم إلى المغول ، يطلعهم على ما بلغه جلال الدين من ضعف ، ويهون له من شأنه ، ويحثهم على غزو بلاده ، ويؤكد لهم أن النصر سوف يكون حليفهم[1] .

وفي الحقيقة لم يكن المغول في حاجة إلى تذكير من طائفة الإسماعيلية أو غيرها ؛ إذ أن الأمر الذي لا شك فيه أن المغول قد شغلوا عن جلال الدين فترة تفرغوا فيها لمعالجة شئونهم الخاصة ؛ حتى إذا انتهوا من هذه المهمة ، عادوا فاستأنفوا الزحف على البلاد الإسلامية .

---

(١) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٨٣ .

ولقد كان انتخاب أوكتاي بن چنكيزخان خاناً أعظم للمغول ، إيذاناً بشن حملة جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية والقضاء عليها نهائياً . على أن المغول الذين كانوا لا يزالون يحتلون منطقة ما وراء النهر ، قاموا قبل ذلك بعدة حملات غير منظمة على قوات السلطان جلال الدين منكبرتي ، كانت تسفر تارة عن انتصار جلال الدين ، وتارة أخرى عن انتصار المغول[1] ، ولكنها على كل حال لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ؛ إلى أن عهد «أوكتاي» إلى قائده المشهور «جُرْماغون نويان» بقيادة الحملة على إيران ، فسار على رأس جيش كبير تعداده ٥٠٠٠٠ جندي ، مصطحباً معه عدداً من أمهر قواد المغول . وقد قدم الجميع إلى تركستان حيث طلبوا المدد من أمراء المغول وحكامهم في خوارزم . وبالإضافة إلى ذلك أضيفت إلى هذا العدد الكبير قوات أخرى غير نظامية من أسرى الأعداء ، فبلغ عدد الجميع ١٠٠٠٠٠ جندي .

نهاية السلطان جلال الدين وسقوط الدولة الخوارزمية :

سارت هذه القوات المغولية إلى إيران ، فاستولت على الرى وهمذان ، وواصلت زحفها حتى حدود أذربيجان في أوائل سنة ٦٢٨ هـ (١٣٢١ م) . وفي ذلك الوقت كانت جهود المغول كلها منصرفة إلى تتبع جلال الدين والقضاء عليه ، لأن هذا يكفل لهم — في سهولة — إحكام سيطرتهم من جديد على أقاليم الدولة الخوارزمية . فلما رحل السلطان الخوارزمي إلى تبريز ، مطمئناً إلى أن المغول سيقضون فصل الشتاء في إقليم العراق العجمي ، إذا بهم يفاجئونه ، وهم يجدون في إثره ، ويرغمونه على التقهقر إلى سهل «موقان» المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين ، قبل أن يتمكن من جمع جيوشه . ولم يكد يستقر في موقان حتى علم بمسير المغول إليه ، فاضطر إلى العودة ثانية إلى أذربيجان[2] .

---

(١) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ٣٧٦ .

(٢) انظر حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٩٤ .

وعندما شعر جلال الدين بالخطر الداهم الذي يتهدد العالم الإسلامي من جديد على يد المغول ، أخذ يدعو أمراء المسلمين إلى التحالف معه ، للوقوف صفاً واحداً في وجه هؤلاء الأعداء . وكان يقول لهم : « إن جيشاً جراراً من عساكر التتار ، كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة ، قد تحرك نحونا . فإذا تركت وشأنه ، فسوف لا تصمد أمامه القلاع والأمصار . وقد تمكن الرعب من قلوب الناس في هذه المنطقة . فإذا هزمتُ . وخلا مكاني من بينكم ، فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو . وإذن فأنا لكم بمثابة سد الإسكندر . فليسارع كل منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود ، حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم ، وفت في عضدهم ، فيتشجع جنودنا ، وتقوى قلوبهم »[1] .

ولكن ــ للأسف ــ ذهبت جهوده في هذا السبيل أدراج الرياح . وترك وحده في المعركة ، فأخذ يفر من بلد إلى آخر ، وقوات المغول تتعقبه ، حتى أدى به المطاف إلى آمد في أعالي نهر دجلة ، فلحق به المغول ، وهزموه هزيمة منكرة ، وقتلوا عدداً كبيراً من الخوارزميين ، وتفرق الباقون . وكان السلطان نفسه ضمن من لاذوا بالفرار ، فتعقبه خمسة عشر من فرسان المغول ، وأدركه اثنان منهم ، فقتلهما جلال الدين . أما الفرسان الباقون فقد عادوا من حيث أتوا بعد أن يئسوا من اللحاق به[2] .

وهكذا واصل جلال الدين سيره ، هائماً على وجهه ، حتى بلغ قرية من قرى ميافارقين . وأخيراً احتمى بجبال كردستان ، حيث لقي مصرعه على يد أحد الأكراد . ويشرح لنا النسوي[3] النهاية المفجعة التي انتهت إليها حياة هذا البطل ، فيذكر أن الأكراد فتشوه كما هي عادتهم في تفتيش كل

---

(١) الجويني : ج ٢ ، ص ١٨٣ ، طبع ليدن .
(٢) حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٩٤ .
(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

غريب عنهم ، ولما هموا بقتله ، همس في أذن كبيرهم : « إنني أنا السلطان ، فلا تستعجل في أمري » . فأخذه الرجل إلى منزله ، وهناك طلب منه جلال الدين أن يعاونه على العودة إلى بلاده . فوافق الرجل ، وخرج لإحضار الخيل . وفي هذه الأثناء ، قدم شخص كردي من السفلة ، وبيده حربة ، فقال لزوجة الكردي : « ما هذا الخوارزمي ، وهلا تقتلونه ؟! .. » فأجابت : « لا سبيل إلى ذلك ، وقد أمنه زوجي » . وعرف الكردي أنه هو السلطان . فقال : « كيف تصدقونه بأنه السلطان ؟!... وقد قتل لي بخلاط أخ خير منه » . ثم ضربه بالحربة ضربة أغنت عن الثانية ، وألحقته بالنفوس الفانية . وكان ذلك في منتصف شوال سنة ٦٢٨ هـ (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١ م) . وهكذا كانت نهاية السلطان جلال الدين منكبرتي ، آخر ملوك الدولة الخوارزمية .

وبعد مقتله بسنين عديدة ، ظل الناس في شك من حقيقة موته ، إذ كانوا يظنونه حياً . وفي كل يوم كان يظهر دعي يدعي أنه السلطان ، فيستبشر الناس بذلك ، ويتضايق المغول لسماع هذا الخبر .

وهكذا نسجت حول جلال الدين الأساطير والخرافات شأنه في ذلك شأن كل بطل قومي ، تتعلق به الآمال في ساعات اليأس العصيبة ؛ إذ لم يكن أحد يود أن يصدق أن مثل هذا الرجل الشجاع الذي صرف عمره كله في الكر والفر يموت هذه الميتة على يد جلف من أجلاف الأكراد .

تحليل شخصية جلال الدين :

كان جلال الدين قصير القامة أسمر اللون ، لغته الأصلية هي التركية ، وكان يتكلم بالفارسية[1] أيضاً . أمه من أصل هندي . ومن أجل هذا كانت تحقد عليه تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين محمد ؛ فعملت على إقصائه عن ولاية العهد أول الأمر ، على الرغم من أنه كان أكبر إخوته ، وأجدرهم

(١) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٨٤ .

بتولي هذا المنصب . وقد نزل السلطان على رأي والدته المستبدة ، وعهد بولاية العهد إلى ابنه الأصغر « ازلاغ شاه » . وما ذلك إلا لأن والدته من أتراك قبيلة القنقلي التي تنتمي إليها تركان خاتون . وقد استمر هذا الوضع إلى أن هزم السلطان علاء الدين محمد هزيمة منكرة على يد المغول ، فثاب إلى رشده في أخريات أيامه ، وصحح الوضع ، بأن نقل ولاية العهد إلى ابنه جلال الدين ، عندما تبين له أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يجالد المغول ، ويثأر له منهم .

كان جلال الدين شجاعاً مقداماً ، محارباً من الطراز الأول ؛ ذا عزم ومضاء . ولكنه على الرغم من هذا ينقصه التدبير والتنظيم . لم يحاول طوال مدة حكمه أن يهتم بإدارة شئون الدولة . كما كان غافلاً عن الوسائل اللازمة لإعداد الجنود وتنظيم الجيوش . كذلك لم يعمل على التقرب إلى رعاياه ؛ ولم يبذل جهداً في سبيل كسب صداقة جيرانه من حكام المسلمين . وإنما كان يحكم السيف دائماً في تصريف الأمور . وكان كل همه مصروفاً إلى الكر والفر والفتح والغزو . وفي سبيل هذا الهدف عمد إلى تسخير كل موارد الدولة ، وأهمل الإصلاح الداخلي حتى حل وقت عجز فيه عن دفع رواتب جنده مما كان له أسوأ الأثر في تهديدهم له في كثير من المناسبات ، وإقدامهم على تخريب المدن المفتوحة ونهبها ، ليغتصبوا منها ما يعوضهم عن رواتبهم المتأخرة . فعندما استولوا على مدينة خلاط ، هددوا السلطان بالانصراف عنه إذا لم يسمح لهم بنهب المدينة ، فاضطر إلى الرضوخ لمشيئتهم ، وأباحها لهم ثلاثة أيام ، فلاقى السكان منهم أشد أنواع العذاب . ومع هذا لم يعبأ جلال الدين بما يترتب على هذه السياسة الحمقاء من كراهية الأهالي لحكمه ، وبغضهم للخوارزميين . وإذا كان المغول الوثنيون قد أقدموا على ارتكاب هذه الشناعات ، فإنه لا يجوز أن يقدم عليها سلطان مسلم في بلاد إسلامية ، مع شعوب إسلامية[1] .

---

(١) انظر حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ١٩٦ .

وأسوأ من كل هذا هو عكوفه على اللهو والشراب حتى في أحرج المواقف ، وأصعب الحالات . ففي أخريات أيامه عندما كان المغول يتعقبونه ، ويجدون في طلبه ، كان يظهر الاستهتار واللامبالاة ، ويلجأ إلى السكر والعربدة .

يروي رشيد الدين أن السلطان جلال الدين ، أرسل أحد أتباعه ، ويدعى « بوقاخان » ليتجسس له على المغول ، ويعرف تحركاتهم . وعندما وصل هذا الشخص إلى تبريز ، بلغه نبأ عودة المغول ، وخلو هذه المناطق منهم ، فقدم بوقاخان من فوره ، وبشّر السلطان بهذا الخبر دون أن يتحرى صحته . فما كان من السلطان وأمرائه وجنوده إلا أن عكفوا على الشراب واللهو والطرب ، واستمروا على هذه الحال يومين أو ثلاثة . وفي منتصف إحدى الليالي دهمهم المغول ، وكان السلطان يغط في النوم ، وهو في حالة سكر شديد . وعلم « أورخان » أحد قواد جلال الدين بوصول المغول ، فسارع إلى فراش السلطان ، ونادى عليه كثيراً ، فلم يستيقظ ، فصب على وجهه ماء بارداً حتى عاد إلى صوابه ، وشاهد تلك الحال ، فكلف أورخان بأن يقاوم المغول بقدر المستطاع ، حتى يتقدم هو ويرحل . وهكذا ولى السلطان هارباً ، وقاوم أورخان المغول قليلاً ، ولاذ هو الآخر بالفرار ، فتعقبه المغول ظناً منهم أنه السلطان . لكنهم عادوا بعد أن عرفوا الحقيقة ، وقتلوا كل من صادفهم[1] .

ربما كان يظن السلطان جلال الدين أن الخمر تنسيه محنه وآلامه كما يقول الشاعر[2]

ولست أحب السكر إلا لأنــه   يخدرني كيلا أحس أذى المحن

ولكنه كان واهماً في ظنه ؛ فالظروف العصيبة التي كان يجتازهـا ،

---

(١) جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٣٣ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

(٢) الجويني : ج ٢ ، ص ١٨٦ .

نتطلب منه مزيداً من اليقظة والتنبه . وباعتباره قائداً وموجهاً ، كان ينبغي أن يكون قدوة حسنة لجنوده ومرءوسيه ؛ إذ أن سلوكه المعيب ، جعل أتباعه يسيرون على منواله ، ويصيرون على شاكلته انصرافاً إلى اللهو والشراب ، وغفلة عن الاهتمام بشئون الدفاع لمقاومة الأعداء . وقد تنبه إلى هذه الحقيقة المؤسفة أحد الشعراء[1] ، فنظم هذه الرباعية الفارسية التي يقول فيها :

شاها زمى گران چه برخواهد خاست .... ؟
وزمستي هرزمان چه برخواهد خاست .... ؟
شه مست وجهان خراب ودشمن پس وپيش....
پيداست كزين ميان چه برخواهد خاست .... ؟

ومعناها :

أيها الملك مــاذا سوف يحدث من الإفراط في الخمر ..... ؟
ومــاذا سوف يحدث من السكر في كل وقت ..... ؟
إن الملك سكران ، والدنيا خراب ، والعدو من الخلف والأمام ؛
فواضح ماذا سوف يحدث من خــلال هذه الأحوال ......

كذلك التحق بخدمة جلال الدين غلام جميل اسمه « قليج » ، فشغف بحبه ، وقربه إليه . ولكن تصادف أن توفي هذا الغلام ، فحزن عليه السلطان حزناً شديداً ، وصار يبكيه بكاء مراً ، وأطلق نفسه للحزن ، بحيث فقد اتزانه ووقاره ، وصار يتصرف تصرفاً شاذاً جعل أمراءه ينفرون منه ؛ إذ أمرهم بأن يسيروا مترجلين لتشييع جنازة هذا الغلام من موضع يبعد عدة فراسخ من مدينة تبريز ، وسار هو أيضاً مسافة طويلة . وأخيراً بعد أن ألح عليه الأمراء ، قَبِل أن يركب حصانه . وعندما وصلوا إلى تبريز كلف الأهالي بأن يسيروا أمام نعش الفقيد ، ويندبوا وينوحوا عليه ، وإلا تعرضوا لأشد

(١) الجويني : ج ٢ ، ص ١٨٧ .

أنواع العقاب . ولم يقف أمر جلال الدين عند هذا الحد ، بل أقدم على أفعال أخرى غريبة ، لا يمكن أن تصدر من شخص متمتع بكامل قواه العقلية[1] .

وفي نظر « دوسون » D' Ohsson : كان جلال الدين جندياً محارباً ، ولم يكن حاكماً سياسياً . وذكر عنه أيضاً : أنه كان ميالاً إلى الأبهة ، شديد الولع بالخمر والموسيقى ، حتى في أشد ساعاته حرجاً . وكانت جيوشه التي لا يدفع أرزاقها تعيش على السلب والنهب[2] .

والأمر الذي لا شك فيه أن جلال الدين كان يعوزه التنظيم الدقيق الشامل في جميع المعارك التي خاضها ، ولكنه كان على أية حال خير من دافع عن حياض الإسلام في وجه الكفار الوثنيين .

يقول ابن تغرى بردى نقلاً عن الأشرف موسى : « كان الخوارزمي يقاتل التتار عشرة أيام بلياليها بعساكره ، يترجلون عن خيولهم ، ويلتقون بالسيوف ، ويبقى الرجل منهم يأكل ، وهو يقاتل »[3] .

وإذن فقد قسا عليه ابن الأثير كثيراً حين حمله وحده تبعة الهزيمة في هذه الكلمة البعيدة عن الإنصاف : « كان جلال الدين سيء السيرة ، قبيح التدبير لملكه ، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ، ونازعه الملك ، وأساء مجاورته ؛ فمن ذلك أنه أول ما ظهر في إصفهان ، وجمع العساكر ، قصد خوزستان ، فحصر مدينة ششتر ، وهي للخليفة فحصرها ، وسار إلى دقوقا فنهبها ، وقتل فيها فأكثر ، وهي للخليفة أيضاً . ثم ملك أذربيجان ، وهي لأوزبك فملكها . وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم . ثم عادى الملك الأشرف صاحب خلاط ، ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم ، وعادى

---

(١) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٢) D' Ohsson : Histoire. Des Mongols, V, III. P. 63.
(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

الإسماعيلية ، ونهب بلادهم ، وقتل فيهم فأكثر ، وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة ، وكذلك غيرهم . فكل من الملوك تخلى عنه ، ولم يأخذ بيده »[1] .

والأصح ما قاله عنه المؤرخ « سيديو » : « كان جلال الدين هذا قواماً بما فوض إليه . فهو لو كان على رأس قوم راغبين في الدفاع عن حوزتهم خطوة خطوة . لاستطاع بشجاعته النادرة أن يقف أمام المغول ، ولكنه إذ ترك وأحيط بضروب الخيانة من كل جهة أبصر والألم ملء نفسه عشائر جنكيزخان تغمر بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان وجيلان وأذربيجان »[2]

ونحن لو أردنا كلمة ننصف بها هذا البطل لما وجدنا خيراً من الكلمة التي قالها عنه كاتبه المعروف النسوي[3] : « كان أسدا ضرغاماً ، أشجع فرسانه إقداماً ، وكان حليماً لا غضوباً ولا شتاماً . وقوراً لا يضحك إلا تبسماً ، ولا يكثر كلاماً . وكان يحب العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب ، ويحب الترفيه على الرعية لولا أنه ملك في زمان الفترة فغضب » .

ولما قتل جلال الدين ، دخل جماعة على الأشرف موسى فهنأوه بموته فقال : « تهنئوني به وتفرحون . سوف ترون غبه !... والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام . ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج » .

أما المغول فبعد أن تخلصوا من أخطر عدو استطاع أن يواجههم في بسالة منقطعة النظير ، أصبح الطريق أمامهم ممهداً للفتح والغزو دون أن يعوقهم عائق ، أو تقف في سبيلهم عقبة ؛ فاستطاعوا في يسر وسهولة أن يشنوا حملاتهم على معظم البلاد الإسلامية ، وينشروا فيها الخراب والدمار . وكان هناك قائد خوارزمي اسمه « أورخان » ، وهو الذي استطاع أن ينقذ حياة

---

(١) الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٨٣ .
(٢) سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٢٦٧ .
(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ١٠٩ .

جلال الدين عندما هاجمه المغول في آخر مرة قبل أن يفر منهزماً إلى كردستان. كان هذا القائد لا يزال على قيد الحياة بعد مقتل جلال الدين، فسار على رأس ٤٠٠٠ جندي من الجنود الخوارزميين وصلوا إلى إربل. ومن هناك أسرع أورخان بمفرده إلى إصفهان حيث لقي حتفه على يد المغول.

بعد ذلك تفرقت البقية الباقية من جنود جلال الدين في جبال كردستان والجزيرة والشام. فقتل بعضهم على يد الأكراد وأعراب البدو، واختار الباقون أن يعملوا كجنود مرتزقة في خدمة سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم، وصاروا لفترات طويلة سبباً في إثارة كثير من المتاعب في البلاد التي يعملون فيها[1].

المغول يواصلون زحفهم في البلاد الإسلامية :

قسم المغول قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية : فتح الجيش الأول ديار بكر وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار. وقد تقدم هذا الجيش حتى بلغ ساحل الفرات. واشتط جنود المغول في القتل والسلب والنهب دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم أو حتى على مجرد سماع اسمهم. وقد استولى الرعب والفزع على قلوب الأهالي إلى الحد الذي يتضح فيما ساقه ابن الأثير من قصص تذكي لهيب الأسى في النفس وتثير الشجون. تلك القصص التي قد يتوهم القارىء أنها سيقت على سبيل المبالغة لولا أنها جاءت على لسان كاتب يعتبر ثقة فيما رواه. يقول : « ولقد حكى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب، وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد

---

(١) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران، ج ١، ص ١٤٢ ؛ الدكتور الباز العريني: المغول، ص ١٧٣ – ١٧٤، حاشية (٢).

واحد لا يتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس – ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ، ولم يكن مع التتري ما يقتله به ، فقال له ضع رأسك على الأرض ، ولا تبرح . فوضع رأسه على الأرض ، ومضى التتري أحضر سيفاً فقتله به – (وحكى) لي رجل قال : كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق ، فجاءنا فارس من التتر ، وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً ، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم ، فقلت لهم : هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب ؟!... فقالوا : نخاف . فقلت : هذا يريد قتلكم الساعة ، فنحن نقتله ، فلعل الله يخلصنا . فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك ، فأخذت سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا . وأمثال هذا كثير »[1] .

أما الجيش الثاني فقد قصد مدينة « بدليس » . وبعد أن أحرقها ، استولى على بعض القلاع المحيطة بخلاط وغيرها .

وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجان ، وشرع يفتح مدنها الواحدة تلو الأخرى . وأخيراً صمم على احتلال حاضرتها تبريز ، فسلمت دون مقاومة في أوائل سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) ، وذلك لأن الأهالي هناك لم يكونوا على وفاق مع السلطان جلال الدين . وعندما تأكدوا من ضعفه ، ثاروا على الحكام الخوارزميين وقتلوهم ، وقطعوا رؤوسهم ، وأرسلوها إلى المغول تقرباً إليهم . لهذا لم يكد الجيش المغولي يقترب من أبواب تبريز حتى سارع الأهالي إلى تقديم فروض الطاعة ، وقدموا مختلف الهدايا من مال وقماش إلى قواد المغول ، كما قبلوا تعيين شحنة من قبلهم ، وتعهدوا بأن يدفعوا لهم جزية كبيرة كل سنة ، فما كان من المغول إلا أن وافقوا على هذه العروض ، ودخلوا المدينة ، ولكنها سلمت من التخريب والتدمير إذا قيست بغيرها من المدن .

---

(١) الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٨٥ .

وفي عامي ٦٣٢ ، ٦٣٣ هـ (١٢٣٤ — ١٢٣٥ م) دخل المغول إقليم إربل ، وغزوا حاضرته . إلا أن أهالي المدينة أسرعوا إلى القلعة ، وتحصنوا فيها . فحاصرها المغول أربعين يوماً . وأخيراً افتدى الأهالي أنفسهم بمبلغ كبير من المال ، ورحل المغول عنها عندما سمعوا أن المدد قد جاء من بغداد .

بعد ذلك انتقلت القوات المغولية إلى العراق في سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) وواصلت زحفها شمالاً حتى بلغت مدينة « سامرا » . فلما شعر الخليفة بما يتهدده من خطر ، أسرع وأعلن الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء ، جعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله ، فكان أن تجمع جيش كبير بقيادة مجاهد الدين الدواتدار[1] ، استطاع أن يهزم المغول بالقرب من تكريت ما بين دجلة وجبل « حَمْرَين » ، وأن يفك أسر عدد كبير من المسلمين كانوا قد وقعوا في أيدي المغول أثناء قتالهم في إربل ، ولم تغفل نشوة النصر جنود المسلمين عن إقامة الاستحكامات المنيعة حول بغداد . ومع هذا لم يمض وقت طويل حتى عاود المغول الكرة ، فقصدوا هذه المدينة في سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) حيث هزموا المسلمين في الخانقين ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وعاد الباقون إلى بغداد[2] .

كذلك تابع المغول زحفهم في الشمال ، فهاجموا جورجيا ، واستعملوا أفظع ما عرف من أساليب البطش والهمجية نتيجة لمقاومة ملكتها « رو سودان » Rousoudan ، ولكنها أجبرت في النهاية على الهرب ، وسقطت في أيدي المغول معظم المدن الهامة في هذا الإقليم ، وفي مقدمتها العاصمة تفليس .

أما أرمينية الكبرى ، فقد خربت عاصمتها « آني » Ani وقتل كثير من أهلها لأنها قاومت المغول الذين ظلوا يحاصرونها زمناً طويلاً ، كما عوملت

(١) الدواتدار أو الدويدار في الأصل بمعنى الكاتب والمنشىء .
(٢) انظر ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١١٣ .

« قرس » إحدى مدنها معاملة سيئة على الرغم من أنها سارعت بتقديم مفاتيحها إلى المغول ، ولم ينج من مذبحتها إلا الأطفال والصناع . ولكن المغول عادوا فأحسنوا معاملة أرمينية وجورجيا ، وسلكوا معهما نفس السلوك الذي سلكوه مع فارس وكرمان ، تلك الجهات التي سلمت من أذى المغول وشرورهم ، إذ أنه عندما قبل الحكام في هذين الإقليمين الدخول في طاعة المغول ، اكتفوا بأخذ الجزية منهم ، وأقروهم في مناصبهم .

كذلك سيطر المغول سيطرة كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية ، دون أن يجدوا أدنى مقاومة ، فسلمت لهم سجستان وغزنين وكابل وحدود السند .

وفي سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤٢ م) عزل « جُرْماغون » من قيادة الجيش المغولي على أثر إصابته بالشلل ، وحل محله القائد المغولي « بايجو نويان » .

وقد استغل المغول فرصة النزاع الدائر بين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى من جهة ، وبين الحكام في مصر والشام من جهة أخرى[1] ؛ فسار « بايجو » في نفس السنة على رأس جيش تعداده ٣٠٠٠٠ جندي ، مجهزين بآلات القتال ، قاصدين « أرزن الروم » حيث التحموا بقوات السلطان غياث الدين كيخسرو ابن علاء الدين كيقباذ أحد سلاطين السلاجقة الروم ، فلم يقو على الصمود أمام المغول ، وسقطت المدينة في أيديهم بعد أن قتل من أهلها عدد كبير ، ووقع في الأسر الكثيرون .

وفي السنة التالية استعد « غياث الدين كيخسرو » للقاء المغول ، فكون جيشاً كبيراً من المسلمين والأرمن والكرج واليونانيين والفرنج[2] ، وساروا عن طريق البر ، كما سار البعض عن طريق البحر متجهين إلى أرمينية لمحاربة

---

(١) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥١ .

المغول ؛ فالتقى الفريقان بموضع يسمى « كوسه طاغ »[1] (الجبل الأقرع) من نواحي أرزنجان حيث دارت معركة عنيفة سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٣ م) ، أسفرت عن انتصار المغول ، ودحر هذا الجيش غير المتجانس ، ولم يجد السلطان غياث الدين مفراً من الهرب والتحصن بمدينة أنقوره (انكوريه) . ثم استولى المغول على سيواس وقيساريه (قيصرية) وخربوهما . كذلك كر المغول عند عودتهم على مدينة أرزنجان ، وملكوها عنوة ، وقتلوا رجالها ، وسبوا الذراري ، ونهبوها وخربوا سورها . وأخيراً انسحبوا[2] .

ولقد كان لهذه المعركة أثر حاسم في مقدرات الدولة السلجوقية ؛ إذ وقع الأناضول بعدها في قبضة المغول ، وعندما رأى السلطان غياث الدين أنه لن يقوى على مواجهة المغول ، أرسل إليهم رسولاً ، يعلن خضوعه ، ويتعهد بدفع جزية سنوية لخان المغول . وبهذا قضى على استقلال دولة سلاجقة الروم ، وصارت تابعة للمغول . وكان أمراء السلاجقة يتولون الحكم فرادى أو مثانى أو أكثر من ذلك بيرالغ (مراسيم) من حكام المغول . وكان من رجالات الدولة الذين اكتسبوا ثقة المغول ، وقبضوا على زمام الحكومة السلجوقية فعلاً من يستمتعون بنفوذ أعظم من نفوذ السلاطين السلاجقة . وكان قواد جيش الاحتلال المغولي هم الحكام الحقيقيين للبلاد السلجوقية كلها ، وهم الرقباء على إدارة السلاجقة . وكانت مصروفات السلطان السلجوقي والأمراء وتكاليف جيش الاحتلال ، وعلية القوم من المغول ، وإرسال الإتاوة السنوية والهدايا للقان ، كان كل أولئك يزيد المشكلات المالية تفاقماً . وكان الناس يضيقون ذرعاً بالضرائب المتزايدة . وكانت الأجهزة الإدارية

---

(١) انظر الكريم الآقسرايي : مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ، ص ٣٣ .

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٢ .

المتراكبة المتداخلة فاسدة النظام ، تعمل دائماً ضد مصلحة الشعب . وبالإضافة إلى ذلك ، كانت الفتن تستعر بين سلاطين السلاجقة وأمرائهم ، فيسعى بعضهم ببعض عند المغول[1] .

فتح أقاليم الصين الشمالية :

في عهد چنگيزخان ، استطاع المغول أن ينتزعوا بعض الأجزاء فقط من أقاليم الصين الشمالية مثل شبه جزيرة شانتونج Chantung وأطراف خليج پتشيلي Pétchili والعاصمة الأولى پكين . أما بقية الأجزاء في هذه المنطقة ، فكانت لا تزال تحت حكم أسرة كين . كذلك نجحت هذه الأسرة في استرداد جزء كبير من مملكتهم بعد رحيل چنگيزخان مباشرة ، واتخذت مدينة كاي فونج في هونان عاصمة لها .

فلما تولى أوگتاي قاآن حكم المغول ، أعد العدة لفتح هذه البلاد ، فسير جيوشه إليها في سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) ، وذلك في نفس الوقت الذي كان جنوده في إيران يتعقبون السلطان جلال الدين منكبرتي . وقد تحرك أوگتاي بنفسه مع أخويه جغتاي وتُولى إلى سهل « هوانج هو » الذي يطلق عليه المغول « قراموران » . ثم قسموا قواتهم إلى جيشين رئيسيين : هجم أحدهما من الشمال بقيادة أوگتاي ، واختار الآخر الهجوم على الجنوب بقيادة أخيه تولوي . وقد أسفرت المعارك عن انتصار المغول على قوات الصينيين انتصاراً ساحقاً ، وانتزعوا منهم مساحات شاسعة من الأراضي .

بعد ذلك عهد المغول إلى قائدهم المشهور « سبوتاي » بفتح العاصمة « كاي فونج » . وقد استعد الصينيون من جانبهم استعداداً تاماً لخوض غمار هذه المعركة الفاصلة ، فجيّشَ ملكهم « التون خان » — الذي كان يدعى

---

(١) انظر محمد فؤاد كوپريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ٥٧ .

« نن ـ كيا ـ سو » ـ مائة ألف من خيرة جنوده ، وأمر عليهم قائداً كبيراً ، وأنفذهم للقاء المغول . ثم قام «سبوتاي » بمحاصرة المدينة ، واستمر الحصار مدة طويلة . ورغم ما أبداه الصينيون من شجاعة تفوق حد الوصف ، فقد سقطت هذه العاصمة الكبيرة في أيدي المغول ، وقتل معظم سكان المدينة ، ولم يفلت منهم إلا القليل . وكان ذلك في سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) . وعلى أثر ذلك تقدم الوزير المصلح « يي ليو چوتساي » إلى أوگتاي ملتمساً ألا يأمر بتدمير المدينة ، بل يلحقها بالأملاك المغولية ، فاستجاب لطلبه .

أما نن ـ كيا ـ سو ملك الصين ، فكان قد لجأ إلى مدينة أخرى تسمى « نامكينك » قبل سقوط العاصمة « كاي فونج » . فلما بلغه الخبر بما جرى على أصحابه ، ارتاع وفزع ، وانتابه اليأس من الحياة ، فجمع أولاده ونساءه ، وكل من يعز عليه ، ودخلوا بيتاً من بيوت الخشب ، وأمر بضرب النار فيه ، فاحترق هو ومن معه أنفة من الوقوع في أسر المغول[1] . ولكن رشيد الدين يذكر أنه عندما سمع « التون خان » بسقوط المدينة في أيدي المغول ، خاطب الأمراء والخواتين قائلاً : « لا أريد ـ بعد طول هذه المدة من الحكم والسيطرة والتمتع بضروب الشهرة ـ أن أقع أسيراً في يد المغول ، فأموت ملطخاً بالعار » . ثم خرج من بين الجمع ، وشنق نفسه[2] . وبهذا تم للمغول الاستيلاء على أقاليم الصين الشمالية بأكملها . ودالت دولة أسرة كين . ولكن خلال هذه الحملات ، مرض « تُولى خان » ، ولم يمهله المرض ، إذ سرعان ما توفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) . فحزن عليه أخوه أوگتاي حزناً شديداً . ويورد المؤرخ رشيد الدين[3] حكاية لا تخلو من طرافة وغرابة عن سبب وفاة «تولوى» مؤداها أن الخان الأعظم « أوگتاى » كان قد مرض عدة أيام ، وساءت

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٨ .
(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٦ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤ .

حالته ، فقدم أخوه تولوى لعيادته . وجرياً على عادة المغول ، قرأ له السحرة الرقي والتمائم ، وغسلوا مرضه بالماء في قدح خشبي . ولما كان تولوي يحب أخاه حباً جما ، تناول ذلك القدح ، وناجى ربه بتضرع وخشية قائلاً : أيها الاله الأزلي !... أنت تعلم أنه لو كان سبب موت القاآن هو عصيانك ، فأنا الذي عصيتك أكثر ؛ لأني أزهقت أرواح كثير من الناس في الولايات المختلفة ، وأسرت نساءهم وأبناءهم وأبكيتهم . وإذا كنت تذهب بالقاآن بسبب الطيبة والفضيلة ، فأنا أطيب منه وأفضل ، فدعه حياً ، وادعني إليك عوضاً عنه » . تفوه بهذه الكلمات بخشوع تام ، وشرب ذلك الماء الذي كانوا قد غسلوا فيه المرض ، فشفي أوگتاي قاآن . ثم استأذن تولوي ، وسار لاستئناف فتوحاته . ولكنه مرض بعد عدة أيام ، وأسلم الروح . فكانت زوجته « سرقويــتي بيگي » تقول دائماً : « لقد ذهب ذلك الشخص الذي كان فيه دلالي ومناي ، ضحية أوگتاي قاآن ، وفداه بنفسه » .

وعند قيام المغول بحملتهم على الصين الشمالية ، كان حكام الصــين الجنوبية من أسرة « سونج » يقدمون المساعدات للمغول طمعاً في أن يكون لهم نصيب في أراضي الصين الشمالية . فلما خابت آمالهم . نشبت الحرب بينهم وبين المغول ، وكانت هذه فرصة سانحة لهم للقضاء على هذه الأسرة أيضاً ، وضم أملاكها إلى حوزتهم . ولكن تم هذا في عهد خلفاء أوگتاي .

المغول في أوربا :

في عهد چنگيزخان بعد أن أخضع المغول الأقاليم الشمالية من الدولة الخوارزمية ، عبر القائدان المغوليان جبه وسبوتاي المنطقة الواقعة بين بحــر قزوين والبحر الأسود إلى القبچاق وروسيا . ولكن لم تتح لهما الظروف أن يستمرا في فتوحاتهما . وعندما خلف أوگتاي أباه چنگيز على عرش المغول ، كان أول ما فعله أن وجه همته نحو الغزو والفتح ، فكان من برنامجــه أن يكمل الفتوحات التي قام بها المغول في عهد چنگيزخان .

وبعد أن عاد أوكتاي من الصين مظفراً ، كون جيشاً عظيماً تعداده ١٥٠٠٠٠ جندي أسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجى ، وكلفه بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوربا الشرقية . وكان القائد المغولي المشهور « سبوتاي » يتولى القيادة الفعلية . وقد تمكن هذا الجيش من الاستيلاء على كل المنطقة الواقعة بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم التي كانت موطناً للباشقرد والبلغار ، وهزم حكام روسيا ، وأحرق مدينة موسكو ، ودمر مدينتي سوزدال وڤلاديمير ، فاشتعلت النيران في سوزدال ، على حين شهدت ڤلاديمير عند سقوطها عنوة أفجع المناظر ؛ إذ دارت المذبحة في كل السكان الذين لجأوا إلى الكنيسة ، وسط لهيب النار .

بعد ذلك انسابت الجيوش المغولية إلى مملكة أوكرانيا ، فقلبوا هذه المناطق أيضاً رأساً على عقب ، وعاثوا فيها تخريباً وفساداً ، واستولوا على عاصمتها « كييف » في سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ودمروها تدميراً كاملاً ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية . وبذلك سقطت في أيديهم روسيا بأكملها ، واستمرت تلك المناطق الشاسعة خاضعة للمغول مدة قرنين ونصف ٦٣٦ – ٨٨٦ هـ .

وبعد أن أتم المغول فتح روسيا ، انقسمت جيوشهم إلى قسمين : زحف القسم الأول على بولندا ، وتوجه القسم الثاني إلى المجر . وقد تمكن القسم الأول من التغلب على جيش متحالف من البولونيين والألمان ، يبلغ تعداده ٣٠٠٠٠ جندي ، واستولى المغول على مدينة « بِرِسْلاَو » وتقدموا حتى مدينة برلين ، بعد أن أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك ، وبالمدن الخراب والدمار . وفي هذا الإقليم وحده ، جمعوا أكياساً ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم ، فبلغ مجموعها ٢٧٠٠٠٠ أذن ، أخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة[1] .

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٨ ؛ براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، ص ٥٧٣ .

أما القسم الثاني فقد تغلب أيضاً في نفس الوقت على المجريين ، واستولى المغول على عاصمتهم پِسْت Pest ، وتقدموا إلى ڤيينا من جهة ، وإلى سواحل بحر الإدرياتيك من جهة أخرى . ولكن لما كان المجريون والمغول من أصل واحد ، ترك المغول هذه البلاد بعد سنة واحدة من احتلالها ، واكتفوا بتبعيتها لهم من الناحية الرسمية(١) .

وهكذا ابتلى المغول أقاليم أوربا بنفس الأهوال التي ابتلوا بها ايران . وقد أزعجوا بأفعالهم وشناعاتهم العالم المسيحي ، فبعث البابا « جريجوري التاسع » كتاباً إلى الأمراء المسيحيين يحثهم فيه على التكاتف لإعلان حرب صليبية على هؤلاء الغزاة من التتر(٢) .

وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في القارة الأوربية ، إذا بالأنباء ترد إلى أوربا تعلن وفاة أوگتـــاي في سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) واستدعاء باتو وسبوتاي لحضور القوريلتاي ، والاشتراك في انتخاب الخان الجديد . وبذلك سلمت أقاليم غرب أوربا من خطر محقق كان ينتظرها على أيدي هؤلاء المغول .

وفاة أوگتاى قاآن :

كان أوگتاي ولوعاً إلى أقصى حد بالشراب والإدمان على الخمر . وقد تسبب هذا في ضعفه يوماً بعد يوم . ولم يتيسر للخاصة ولا للأصفياء منعه من ذلك ، بل كان يكثر من الشراب رغماً عنهم(٣) . وعندما كانت جيوشه تحارب في أوربا ، ظل مدة سبع سنوات عاكفاً على اللهو والمتعة والشراب إلى أن أثر هذا على صحته . وفي إحدى الليالي عندما حان أجله ، أفرط في الشراب ، فتوفي وهو نائم . وكان ذلك في سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) .

---

(١) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، ص ٥٧٣ .

(٣) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٥١ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

النظم والإصلاحات التي تمت في عهد أوكتاى :

كان أوكتاي قاآن – بالقياس إلى غيره من المغول – متصفاً بمحاسن الأخلاق ومكارم الصفات ، لين العريكة ، يحمل بين جنبيه نفساً طيبة خيرة ، وضميراً حياً يقظاً . أشاع في رعاياه العدل والإحسان والمروءة ، وقام بعدة إصلاحات في البلاد المغلوبة على أمرها خففت من الويلات التي لاقتها على يد أبيه .

ترك زمام الأمور في الصين في يد وزيره المصلح « يي ليو چوتساي » الذي استطاع أن ينشىء في هذا الإقليم إدارة حازمة منظمة ، مستعيناً في ذلك بالكتاب والعمال من الصينيين والأويغوريين والإيرانيين وأهل التبت . كذلك نجح في تنظيم الشئون المالية ، وضبط عمليات الدخل والخرج ، وإلى هذا الوزير يرجع الفضل في إعداد ميزانية ثابتة للإمبراطورية المغولية ، إذ ألزم الصينيين بأن يؤدوا ضرائب معينة نقداً ونوعاً ، بما يجري تقديره من أثواب الحرير وكميات الحبوب ، على حين يدفع المغولي عشرة في المائة مما يحوزه من قطعان الخيل والماشية والغنم . ثم إنه شيد في مدينة پكين (خان باليغ) مدارس لتخريج شباب ذوي خبرة وكفاءة ، وفيها كانوا يدرسون تعاليم كونفوشيوس .

هذه الأعمال الخيرة لم تكن تروق أحياناً في أعين المغول المتوحشين الذين جبلوا على تعذيب البشر وامتصاص دماء الشعوب ، فصاروا يوشون بهذا الوزير الجليل ، حتى استطاعوا أن يزجوا به في السجن بأمر أوكتاى ، ولكن نزعة الخير سرعان ما تغلبت على هذا الخان ، فشعر بالخجل والندم ، لسوء معاملته لوزيره ، وأطلق سراحه على الفور ، وقلده مهام الأمور التي كان يباشرها من قبل .

ولما تم لأوكتاي فتح الصين الشمالية ، ولى عليها « محمود يلواج » ، كما نصب ابنه « مسعود بيك » حاكماً على إقليم ما وراء النهر ، فقام الأب والابن

بتعمير ما خربه المغول ، وأخلصا في خدمة الناس وإصلاح أحوالهم وإدارة تلك المناطق أحسن إدارة .

كذلك تغيرت النزعة البدوية التي كانت في نفس أوكتاي ، وذلك على أثر مخالطته للأقوام المتحضرة من الصينيين والأويغوريين والإيرانيين ، وبفضل تأثير مستشاريه . فأصبح ينظر إلى الشعوب نظرة عطف وشفقة ، وصار يميل إلى التعمير والتشييد ؛ ففي سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤ م) أمر مهرة المهندسين الصينيين ــ الذين كان قد أحضرهم معه من قبل من بلاد الخطا ــ بأن ينشئوا مدينة جديدة في منطقة « أوردو باليغ » (مدينة البلاط) ، شمال منغوليا ، وبالقرب من جبال قراقورم ، وعلى أطلال إحدى المدن الخربة التي كانت تقوم في عهد الأويغوريين ، فتم هذا ، وأطلق على المدينة اسم « أوردو باليغ ». ولكن نظراً لقربها من جبال قراقورم ، اشتهرت في التاريخ بهذا الاسم . ثم اختارها أوكتاي لتكون عاصمة له .

ومما هو جدير بالذكر أن لهذا الموقع أهمية كبيرة من الناحية التاريخية ؛ ففي منطقة نهر أورخون ، اتخذت معظم الإمبراطوريات التركية والمغولية حواضرها ، ابتداء من دولة هيونج في العصر القديم ، إلى دولة الترك الشرقيين « تو ــ كيو » في العصور الوسطى أي في القرون السادسة إلى الثامنة . فبالقرب من هذا الموضع ، أقام خان الأويغور في القرن الثامن حاضرته في « قــره بَلْغَاسون » . وفي عهد چنكيزخان وقع الاختيار على قراقورم ، أو على مكان قريب منها ، ليكون مقراً لحاضرته من الناحية الاسمية ؛ غير أن إخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ قد تم في عهد أوكتاي .

وفضلاً عن الأهمية التاريخية ، كان لاختيار هذا الموقع أهمية أخرى من الناحية الإدارية ؛ فوقوع هذه العاصمة وسط إقليم منغوليا ، قد ساعد عــلى توثيق الروابط بين الموطن الأصلي لأسرة چنكيزخان عند منابــع اونون وكيرولين ، وبــين المناطق التي كانت تخص أوكتاي على نهرى

ارتش وايميل[1] .

كذلك أمر أوكتاى بتشييد قصر شامخ في العاصمة الجديدة ، يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه رمية سهم بعيد المدى ، وأقاموا في وسطه مقصورة كبيرة عالية ، وأنجزوا ذلك المبنى في أكمل صورة وأتم نسق . ثم عكفوا على زخرفته وتزيينه بمختلف فنون النقش والتصوير ، وسموه «قرشي»[2] .

بعد ذلك صدر الأمر بأن يبني كل من الإخوة والأبناء وسائر الأمراء الملازمين له دوراً فخمة حول هذا القصر ، فامتثلوا جميعاً للأمر . وعندما تمت هذه المباني ، واتصل بعضها ببعض ، كونت مجمعاً عمرانياً رائعاً . ثم أمر الصياغ بأن يصوغوا لمجلس الشراب ، أواني كبيرة من الذهب والفضة على هيئة الحيوانات وأشكالها مثل الفيل والأسد والحصان وغير ذلك ، وأن يجعلوها بمثابة دنان للخمر ، ويملأوها بالشراب والقميز[3] ، وقاموا أيضاً بصنع حوض من اللجين أمام كل منها ، فكان الشراب يسيل من منافذ تلك الحيوانات ، وينساب في الحوض[4] .

كذلك بادر المغول بإنشاء نظام البريد ، لسد حاجة الإمبراطورية من الناحية العسكرية ، فأقاموا على طول المسافة ما بين بلاد الخطا حتى مدينة قراقورم عدة محطات للبريد ، وأعدوا لكل مرحلة من الطريق فرقة مكونة من ألف جندي للمحافظة على هذه المحطات . وأصدر أوكتاي أوامره بأن ترسل خمسمائة عربة كل يوم من الولايات المختلفة محملة بالأطعمة والأشربة ، فتوضع في المخازن لتزويد هذه المحطات بما يلزمها من المؤن . أما فيما يتعلق بوسائل النقل ، فقد أعدوا عربات كبيرة ، يجر كل منها ستة ثيران[5] .

---

(١) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٦١ . (٢) كلمة مغولية بمعنى قصر .

(٣) اللبن الحامض ، هو في الأصل عبارة عن ألبان الأفراس توضع في قراب ، ثم تخض بشدة ، وتترك حتى تخمر ، فتصبح صالحة للشرب ، وتكون لها خاصية الخمر .

(٤) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٩ .

وقد عمم المغول هذا النظام ، فأفاد في ربط الطرق الرئيسية بين ديار أوگتاي وجغتاي وباتو . وفي الحقيقة يرجع إنشاء نظام البريد إلى چنگيزخان ؛ إلا أنه اكتمل في عهد أوگتاي قاآن الذي استفاد بالتجارب السابقة ، وعمل على تجنب العيوب ، وفكر أوگتاي أيضاً في حفر الآبار على امتداد دروب الصحراء في آسيا الوسطى[1] .

صفات أوگتاي وأخلاقه :

أجمع المؤرخون الإسلاميون على وصف أوگتاي بالجود والكرم والمروءة . وقد أطلقوا عليه « حاتم آخر الزمان » ، ونقلوا عنه حكايات عديدة ، وأوردوا أمثلة كثيرة تبرهن على جوده وكرمه وميله إلى الشفقة والرحمة ، وبغضه لإراقة الدماء بغير داع أو سبب . وهكذا كانت خصاله الحميدة تخالف تماماً ما عرف عن أخيه جغتاي من غلظة وفظاظة .

يروي صاحب طبقات ناصري[2] أن أوگتاي كان ملكاً كريماً نبيل الخلق ، طيب المعاملة للمسلمين على حين أن أخاه جغتاي ، كان لا يكف عن إيذاء المسلمين ، وإلحاق الضرر بهم . وكان يود أن يستأصل شأفتهم من سائر البلدان . وتنفيذاً لهذه السياسة درج على تحريض كبار الشخصيات المغولية من الأمراء والقواد لكي يوشوا بالمسلمين عند أوگتاي حتى يتغير عليهم ، ويعمل على الخلاص منهم . وذات يوم جاء راهب بوذي إلى الخان ، وقال له : إنه رأى چنگيزخان في المنام ، وأنه يأمر ابنه أوگتاي بضرورة العمل على هلاك المسلمين في جميع الأقطار ، ويوصيه بألا يتردد لحظة واحدة في تنفيذ هذا الأمر لأن المسلمين أصبحوا الآن كثرة ، وسوف يكون على أيديهم القضاء على ملك المغول . فلما سمع أوگتاي هذا الحديث ، وكان ملكاً عادلاً عاقلاً ، عالماً ذكياً ، ومحباً للمسلمين ، أدرك بفراسته على الفور أن

---

(١) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٦٢ .

(٢) انظر الجوزجانى : طبقات ناصرى ، ص ٣٨٢ وما بعدها .

هذا الكلام كذب ومحض افتراء ، وأنه من إيحاء أخيه الظالم جغتاي . ثم دعا أوگتاي إلى عقد اجتماع كبير حضره كبار الشخصيات من المغول وحكام الممالك ، وأمر باستدعاء ذلك الراهب ، وكلفه بأن يعيد سرد رسالة چنگيز على مسمع من الحاضرين ففعل . بعد ذلك قال أوگتاي : ينبغي أن تكون لكل دعوى حجة وبرهان حتى يتبين الصدق من الكذب ، والصحة من السقم . فأمن الجميع على ما قال أوگتاي . ثم توجه الخان إلى الراهب وسأله: أتعرف المغولية أم التركية أم الاثنين معاً ؟!... فأجاب الراهب : إنني أعرف التركية فقط . عندئذ قال أوگتاي : إن چنگيزخان كان لا يعرف سوى المغولية . وأنت لا تعرف سوى التركية ، فبأية لغة إذن بلغك هذا الأمر : هل بالمغولية أو بالتركية ؟!....

فلما تأكد الراهب أنه قد افتضح أمره ، لم يحر جواباً ، واعتراه الخجل . وعلى هذا اتضح للجميع كذبه ونفاقه . ولكن أوگتاي لم يدع هذه الفرصة تمر دون أن يلقن هذا الراهب درساً لاذعاً في الأخلاق فقال له : إنني لن أستبيح دمك احتراماً لأخي جغتاي . فعد من حيث أتيت ، وقل لجغتاي وزمرته : أن كفوا أيديكم عن إيذاء المسلمين لأنهم إخوتنا وأصدقاؤنا . وقد استمدت مملكتنا القوة منهم ، وبعونهم أصبح العالم مسخراً لنا وطوع أمرنا .

ويروى أيضاً أن المغول كانوا قد أصدروا قراراً بألا يذبح أي شخص الخراف والحيوانات الأخرى التي يؤكل لحمها كذبيحة المسلمين ، بل تشق صدورها وأكتافها . وذات يوم اشترى رجل مسلم خروفاً من السوق ، وأخذه إلى البيت ، وأوصد الأبواب . ثم سمّى، وهمّ بذبحه . واتفق أن رآه في السوق رجل تركي من القبچاق ، فتعقبه وتسلق السطح . وبمجرد أن

رآه يضع السكين على رقبة الخروف ، هبط من السطح ، وقيد ذلك المسلم ، وسحبه إلى بلاط القاآن ، فأرسل القاآن نوابه للتحقيق . وعندما أطلعوه على ما جرى ، قال : إن الرجل الفقير قد احترم القانون ، وهذا التركي ترك القانون ، لأنه صعد إلى دار الفقير . وبهذا نجا المسلم ، وقتل القبچاقي(١) .

٢ ــ كيوك خان

٦٤٤ – ٦٤٧ هـ = ١٢٤٦ – ١٢٤٩ م

بايع أوگتاي قاآن ابنه الثالث « كوچو » بولاية العهد لأنه كان يؤثره بحبه . ولكنه توفي أثناء حياة أبيه . فاختار أوگتاي حفيده شيرامون بن كوجو ولياً لعهده ، وكان لا يزال طفلاً صغيراً . وكان كيوك الابن الأكبر لأوگتاي مشغولاً مع قواد المغول بفتح روسيا وبولندا عندما أرسل إليه أبوه يستدعيه إلى العاصمة « قراقورم » حين اشتد عليه المرض . ولكن الأب لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يرى ابنه . وجرياً على عادة المغول ، شرعت توراكينا خاتون زوجة الخان الراحل – تباشر مهام الحكم ، إلى أن يعقد مجلس الشورى (القوريلتاى) لانتخاب الخان الجديد . وكانت هذه السيدة تحرص حرصاً شديداً على أن يتولى ابنها الأكبر كيوك هذا المنصب . فعملت على أن يطول أمد وصايتها ، لكي تمهد السبل لتحقيق هذه الأمنية .

وعلى أثر وفاة أوگتاي ، اضطربت أحوال المغول . واختلفوا على من يخلفه على العرش . فالأمير « باتو » ملك خانات روسيا ووادي القبچاق ، وأحد كبار الأمراء البارزين في أسرة چنگيزخان لم يكن يميل إلى أن يتولى

---

(١) انظر الجويني ، ج ١ ، ص ١٦٣ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٦٢ – ٦٣ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

عرش المغول أحد من أسرة أوكتاي . كذلك كان يرغب « كوتان » الابن الثاني لأوكتاي في تولي هذا المنصب بعد أبيه . وكان هناك فريق آخر يـرى التقيد بوصية الخان الراحل ، واختيار حفيده الطفل « شيرامون » ليكون خاناً أعظم للمغول . . ونظراً لمرور وقت طويل دون أن يستقر المغول على رأي معين بخصوص هذه المسألة ، وبسبب غياب كيوك الابن الأكبر عن المقر الأصلي للمغول ، تهيأت الفرصة للطامعين في تولي هذا المنصب ؛ وكان من بينهم أوتچگين أخو چنگيزخان ؛ إذ أراد أن يغتصب العرش بالقوة ، وتوجه لتنفيذ هذه الخطة إلى معسكر القاآن بجيش جرار مزود بالعدة والعتاد ، فهاج الجند والأتباع . وما أن علمت توراكينا بهذا التدبير ، حتّى بادرت بإرسال الرسل إلى أوتچگين ، تعتب عليه في رفق ، وتعمل على استمالته إلى جانبها ، فنجحت في هذا السبيل . إذ ندم أوتچگين ، ومهد سبيل الاعتذار ، ثم قفل عائداً إلى موطنه .

ولكن توراكينا خاتون لم تأبه بهذه المحاولات ، وصممت على أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب . ولبلوغ هذه الغاية ، صارت تبذل قصارى ما في جهدها لمدة تربو على أربع سنوات في سبيل اجتـذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا حتى ضمت الأغلبية إلى صفها ، وصاروا رهـن إشارتها . كذلك سنحت لها الفرصة للتخلص من كبار الشخصيات والولاة الذين كانوا مناوئين لسياستها . وكانت لها حاجبة تدعى « فاطمة » أصلها من مشهد طوس ، ثم ألحقت بخدمتها وكانت هذه المرأة غاية في الذكاء والكفاءة وموضعاً للثقة التامة ، وكاتمة أسرار الخاتون . وكان عظماء البلاد يتخذونها أداة لتحقيق أغراضهم . فأخذت توراكينا خاتون تعزل بمشورة تلك الحاجبة الأمراء وأركان الدولة ممن كانوا يتقلدون المناصب الكبرى في عهد أوكتاي

وكان من بين هؤلاء چينقاي الوزير الأعظم للقا آن ، ومحمود يلواج صاحب الديوان وحاكم الخطا . ولم ينقذ هاتين الشخصيتين الكبيرتين من بطش توراكينا خاتون سوى التجائهما إلى ابنها كوتان وحمايته لهما[1] ، وعزل « كوركوز » حاكم إقليم خراسان من قبل المغول وأعدم ، وحل محله حاكم مغولي آخر اسمه أرغون .

وعندما تأكدت « توراكينا خاتون » من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة . ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها . أرسلت الرسل إلى كبار الشخصيات المغولية في جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة القوريلتاي التي سوف ينصب فيها كيوك رسمياً خاناً أعظم . كما وجهت هذه الدعوة أيضاً إلى السلاطين والأمراء والعظماء في تلك النواحي[2] . فوصل إلى منغوليا كبار الأمراء والشخصيات المغولية ما عدا « باتو » الذي اعتذر لمرضه . وأرسل إخوته بدلاً عنه . وكذلك « ياروسلاف » دوق روسيا . كما حضر عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك التابعين للمغول . وكذلك مندوبون عن الدول الأخرى في الشرق والغرب . فكان من بين هؤلاء أمراء الخطا . والأمير مسعود بيك حاكم التركستان وما وراء النهر . وفي رفقته عظماء تلك الديار . والأمير أرغون حاكم خراسان . وفي معيته أمراء وعظماء ذلك الإقليم . والسلطان ركن الدين سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى . ومندوبون عن أتابكة كرمان وفارس والموصل ، والمطالبان بعرش مملكة الكرج : « داود نارين » و « داود لاج » . وأرسل الخليفة العباسي مندوباً عنه . كما أرسل علاء الدين حاكم الإسماعيلية ممثليه لحضور الاجتماع ، وربما كان هذا بدافع الخوف والفزع . وتفادياً لنقمة المغول . وتجنباً لشرهم .

---

(١) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤١ – ٢٤٢ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن ؛ الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٨٩ .

كذلك حضره من المسيحيين اثنان[1] من الكهنة أحدهما « سمباد » Sempad أخو هيتوم ملك قليقية ، والآخر « يوحنا دي پلان كارپين » Jean du Plan Carpin وقدم هؤلاء جميعاً إلى قراقورم محملين بالأحمال الكثيرة والهدايا الفاخرة المناسبة لمقام الخان المغولي ، وأُعِدَّ لإقامتهم ما يقرب من ألفي سرادق . ونظراً لكثرة الناس ضاقت الصحراء الشاسعة ولم يبق هناك موضع للنزول بجوار المعسكر ، وارتفعت أسعار المأكولات والمشروبات ارتفاعاً فاحشاً ، وندر وجودها [2] .

وفي عام ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) انعقد القوريلتاي على ضفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا ، فاقترح أغلب الحاضرين انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول . ولكنه كان يعتذر محتجاً بضعفه ومرضه . وفي النهاية قبل أن يتقلد هذا المنصب نزولاً على رغبة الأمراء بشرط أن يكون الحكم وراثياً في سلالته . فوافق الجميع على ذلك . وعندئذ خلع الأمراء قلانسهم ، وحلوا أحزمتهم ، وأجلسوا كيوك على العرش ، ثم أخذوا الكئوس . وركعوا أمام عرشه ، وأعلنوا انتخابه رسمياً خاقاناً للمغول ، واستمروا يحتفلون بهذه المناسبة مدة أسبوع . وكان كيوك يقوم بتوزيع الأموال على الأمراء ورؤساء الفرق . وتذكر المصادر التاريخية [3] أن القاآن عامل رسول الخليفة معاملة حسنة ، ولكنه سلمه رسالة كلها تهديد ووعيد . أما ممثلو الإسماعيلية ، فراح يصب عليهم جام غضبه ، وصرفهم أذلاء مهانين ، ورد على زعيمهم رداً جافاً إلى أقصى حد .

كان كيوك خان على الخلاف من أبيه رجلاً مغامراً محارباً ، ميالاً إلى

---

(١) دون كل منهما كتاباً وصف فيه رحلته إلى منغوليا . ويعد هذا الكتاب مصدراً هاماً يمدنا بكثير من المعلومات عن الحقائق التاريخية والجغرافية لممالك المغول في ذلك العهد .

(٢) انظر الجويني : ج ١ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

(٣) الجويني : ج ١ ، ص ٢١٣ ؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٧ .

الغزو والفتح ؛ فهو من هذه الناحية أقرب الشبه إلى جده چنگيزخان . لم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء إلى ضرورة مراعاة أحكام الياسا ، وتجنب الخروج عليها أو تحريفها وتأويلها ، وأمر بمعاقبة الذين قصروا في أداء واجبهم ، أو ارتكبوا مخالفات في المدة السابقة على توليته . كذلك كلف أمراءه وقواده بتجييش الجيوش لفتح الصين الجنوبية ، وعهد بهذه المهمة إلى القائد المغولي سبوتاي ، وأوفد « ايلچگتاي » إلى ايران لفتح بقية الممالك الإسلامية ، وجعل له السلطة العليا في الإشراف على شئون الروم والكرج والموصل وديار بكر ، ونصّب محمود يلواج حاكماً على ممـالك الخطا ، وولى الأمير مسعود بيك حاكماً على ما وراء النهر وتركستان ، وعين الأمير أرغون والياً على بلاد خراسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وطرف الهند . وقلد السلطان « ركن الدين » سلطنة الروم لأنه قدم إلى منغوليا بمناسبة تنصيبه إمبراطورا للمغول ، وعزل أخاه الأكبر « عز الدين » ، وقرر أن يكون داود الصغير المعروف بابن قيز ملكاً محكوماً لداود الكبير صاحب تفليس[1] .

أما بالنسبة لشخص « كيوك خان » ، فقد أخذ على عاتقه أن يخضـع « باتو » بسبب موقفه العدائي منه بصفة خاصة ، ومن أسرة أوگتاي بصفة عامة . ولكنه لم يكد يصل إلى حدود سمرقند حتى وافاه الأجل المحتوم في ٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) . أما والدته « توراكينا خاتون » فقد توفيت قبله بعدة أشهر .

سياسة كيوك خان :

كانت توراكينا خاتون تدين بالمسيحية . ولهذا عهدت إلى الأمير «قداق» المسيحي بالإشراف على تربية ابنها كيوك منذ الصغر . ولما اعتلى عرش المغول ،

---

(١) انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٧ .

قرب إليه « چينقاي » الذي كان يعمل مستشاراً ووزيراً لأبيه ، وكان من قبيلة كرايت ، يدين أيضاً بالمسيحية . ولم يكتف كيوك بهذا ، بل قلده منصب الوزارة ؛ فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على الخان المغولي ؛ إذ صار يعطف عطفاً شديداً على رعاياه من المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس . يقول رشيد الدين : « لما كان قداق يعتنق الديانة المسيحية منذ عهد الصبا ، وكان ملازماً لكيوك خان ؛ إذ كان أتابكا له ، تأثرت طبيعة القاآن بتلك العقيدة . وبعد ذلك قوى فيه چينقاي أيضاً هذا الميل »[١] .

ولما شاع ذلك عن كيوك ، صار يقصد بلاطه كثير من القسيسين والرهبان من مختلف المناطق . ففي سنة ١٢٤٥ م عزز البابا انوسنت الرابع جهوده لإنقاذ العالم المسيحي في الشرق الأدنى ، بأن أنفذ سفارتين إلى منغوليا ،حيث بلاط الخان الكبير . فغادرت السفارة الأولى برئاسة الراهب الفرنسيسكاني « يوحنا دى پلان كارپين » في ابريل من تلك السنة . وبعد أن أمضت خمسة عشر شهراً في اجتياز روسيا وسهول آسيا الوسطى ، وصلت إلى المعسكر الإمبراطوري في سيرا اوردو الواقع قرب قراقورم ، في اغسطس سنة ١٢٤٦ م ، في الوقت المناسب كي تشهد انعقاد المجلس (قوريلتاي) الذي انتخب كيوك خاناً كبيراً . وأحسن كيوك استقبال رسول البابا، نظراً لكثرة عدد النساطرة بين مستشاريه[٢] . ويذكر براون أن الجمعية العامة التي تم فيها انتخاب كيوك قد امتازت بوفرة عدد من حضرها من ممثلي الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول فقد حضرها اثنان من الكهنة بعث بهما البابا ، وكان أحدهما هو يوحنا دى پلان كارپين ، وكان يحمل من البابا خطابات يرجع تاريخها

---

(١) جامع التواريخ : ج ٢ ، ص ٢٤٩ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

(٢) انظر ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، ج ٣ ، ص ٤٤٦ .

إلى أغسطس سنة ١٢٤٥ م = ٦٤٣ هـ . وقد أستقبل هذان الكاهنان خير استقبال ، ونجحا في التأثير على وزيرين من وزراء كيوك ، فاعتنقا المسيحية ، واستطاعا بما لهما من مكانة لدى مولاهما – التأثير عليه بحيث أخذ يعطف على المسيحية ومعتنقيها(١) .

غير أن كيوك عندما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها أن يعتنق المسيحية ، كتب رداً عليها بأن طلب إلى البابا أن يعترف بسيادته العليا ، وأن يقدم إليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا يمين التبعية . فلما عاد « يوحنا » إلى البابا في نهاية سنة ١٢٤٧ م ، قدم إليه هذه الرسالة المخيبة للآمال ، وأرفق بها تقريراً مفصلاً ذكر فيه أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح .

ولكن البابا لم يفقد الأمل نهائياً في استمالة هؤلاء المغول ، فأرسل – بعد فترة قصيرة – سفارة ثانية كان على رأسها الراهب الدومنيكاني « أسكلين اللومباردي » . وقد اجتازت هذه السفارة سورية ، وواصلت سيرها حتى التقت في تبريز بالقائد المغولي « بايجو » في مايو سنة ١٢٤٧ م . وعلى الرغم من أن أسكلين صادف في بايجو رجلاً يميل إلى الاعتداء والهجوم ، فضلاً عن أنه ليس مقبولاً ، فإن « بايجو » أبدى استعداده لمناقشته في احتمال قيام تحالف لمناهضة الأيوبيين ، إذ كانت خطته تهدف إلى مهاجمة بغداد ، ويناسبه أن تقوم حملة صليبية لتصرف مسلمي الشام عنه . ولتحقيق هذه الفكرة ، أوفد « بايجو » رسولين هما « ايبك » و « سركيس » ليرافقا اسكلين في عودته إلى روما . ومن المحقق أن سركيس كان من النساطرة . ومع أنه لم يكن لهذين الرسولين سلطات السفراء المفوضين ، فإن الآمال انتعشت من

---

(١) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ، ص ٥٧٤ .

جديد في الغرب . وقد مكث هذان الرسولان نحو سنة عند البابا . ثم حدث في نوفمبر سنة ١٢٤٨ م أن أخطرا بأن يعودا إلى بايجو ، بعد أن جرى الإعراب لهما عن الأسف ، بأنه لم يطرأ شيء جديد عن التحالف[١] .

وصفوة القول أنه في عهد كيوك خان ارتفع شأن المسيحيين ، على حين أنه لم يرتفع صوت للمسلمين ؛ وذلك بتأثير أمه من جهة ، وكانت تـدين بالمسيحية ، وبتأثير وزيريه المسيحيين من جهة أخرى . كذلك وجد الأطباء المسيحيون الطريق ممهداً للإشراف على الشئون الطبية في البلاط المغولي . وكان من أثر هذه السياسة أن شاعت بعض التقاليد المسيحية في الأوساط المغولية .

---

(١) انظر ستيڤن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ .

الفصل الثامن

خلفاء چنگيزخان من أسرة تولوي خان

الفصل الثامن

خلفاء چنگیزخان من أسرة تولوي خان

٣ ـ منكوقاآن[١]

٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ = ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م

بعد أن توفي كيوك خان ، قامت زوجته « أُقُول قيمش » بمباشرة مهام الحكم إلى أن يتم انتخاب الخان الجديد طبقاً لرسوم المغول وعاداتهم . وفي هذه المرة أيضاً ، عادت أحوال المغول إلى الاضطراب ، إذ حدث نزاع على من يخلف الخان الراحل ؛ فأقول قَيْـمِش كانت ترى أن يتولى هـذا المنصب « شيرامون » ابن أخي كيوك ، وذلك تنفيذاً للعهد الذي قطعه الأمراء على أنفسهم بأن يظل الحكم في سلالة كيوك . غير أن أغلب الأمراء لم يوافقوا على اختيار شيرامون لصغر سنه ، وقلة خبرته ، وكانوا يرون أن منگو بن تولوي هو أحق الأمراء المغول بهذا المنصب ؛ لأنه تجتمع فيه صفات القائد المحنك والإداري الحازم . وكان على رأس المؤيدين لهذا الاقتراح الأمـير

---

(١) تختلف المصادر اختلافاً كبيراً في كتابة أسماء الأعلام المغولية فهذا الاسم مثلا يكتب في بعض المصادر منكو ومونكا ، وفي بعضها الآخر مونككا ومانجو .

« باتو بن جوجى » الذي كان يعد أعظم شخصية مغولية في ذلك الوقت ؛ فلا غرو أن تكون له الكلمة الأولى في اختيار الخان الجديد. وسبق أن اشترك منكو مع باتو في حروب المغول لفتح روسيا وممالك أوربا الشرقية ، فأتيحت لباتو الفرصة لكي يقف عن كثب على ما كان يتمتع به منكو من مزايا تؤهله لأن يعتلي عرش الإمبراطورية المغولية. ومنذ ذلك الوقت نشأت بينهما مودة وصداقة واتفاق في الرأي ونحن نعرف أيضاً أن باتو كان معارضاً في اختيار كيوك خاناً أعظم للمغول ، مما جعل كيوك يحقد عليه ، ويصمم على قتاله. ولقد سار بالفعل على رأس جيش كبير للقاء باتو ، مدعياً بأن الجو في ايميل لا يناسب صحته المعتلة ؛ ففطنت سرقويتي بيگى إلى ما يدور بخلده ، وأرسلت على الفور في السر رسالة إلى بايدو تطلعه على سوء نية كيوك[1] ، وتطلب إليه أن يتخذ حذره ، فحمد لها هذا المسلك. وكان الموت أسرع إلى كيوك خان ، فقضي على مشروعه.

وبطبيعة الحال كانت سرقويتي بيگى تؤيد ترشيح ابنها منكو لمنصب الخانية. ومن المعروف أنها كانت بنت أخي أونك خان آخر ملوك قبيلة الكرايت الذي هزم على يد چنگيزخان ، وزوجة للأمير الراحل تولوي خان. ولقد امتازت هذه الخاتون بالعقل والحزم والتدبير والكفاءة. ولهذا كان أوگتاي قاآن يعزها كثيراً ، ويستشيرها في كل صغيرة وكبيرة ، ويحترم رأيها ، وينفذ مشيئتها ؛ خصوصاً فيما يتعلق بإدارة شئون الدولة وإعداد الجيوش. ولما كانت تحب أن تكون جميع تصرفاتها صحيحة وسليمة ، حازت إعجاب جميع أمراء المغول على اختلاف ميولهم. وعندما تولى «كيوك» عرش المغول ، قام بفحص ما للأسرة المالكة من موارد مالية ، ولاحظ مخالفات خطيرة ارتكبها أغلب الأمراء. أما « سرقويتي » وأبناؤها فقد اتضح أنهم وحدهم قد تصرفوا على أساس الأمانة التامة.

---

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن.

ونظراً للمزايا العديدة التي كانت تتوافر في هذه السيدة ، حرص أوكتاي قاآن ـ بعد وفاة أخيه تولوي خان ـ على أن يزوجها من ابنه كيوك خان ، وعرض عليها هذا الرأي ، فاعتذرت في لباقة وقالت : « كيف يمكن تغيير حكم المرسوم ؛ غير أني أفكر في أن أربي هؤلاء الأولاد حتى أصل بهم إلى مرحلة الرجولة والاستقلال ، وأجتهد في تهذيبهم حتى لا يفارق بعضهم بعضاً ، ولا ينفر أحدهم من الآخر ، فلربما يترتب على وفاقهم عمل كبير »[1] . وبالفعل حققت هذه المرأة أمنيتها ؛ فإنه بفضل سياستها وصبرها وتضحيتها تربى أبناؤها أحسن تربية ، وتقلدوا جميعاً مناصب الحكم والسيادة في دولة المغول .

ولما كانت سرقويتي تحرص على أن يتولى ابنها عرش المغول ، فإنها مهدت لذلك باستمالة الأمراء والعشائر والأقارب والجنود عن طريق التحف والهدايا والأموال التي كانت ترسلها إليهم ، فكان الجميع يطيعون أمرها ، ويعملون على كسب رضاها[2] .

وعلى أثر وفاة كيوك خان ، أراد أبناء أوكتاي وأتباعه أن يقيموا « شيرامون » إمبراطوراً للمغول . ولكن لاتخاذ هذه الخطوة ، كان لا بد من الحصول على موافقة الأمير « باتو » باعتباره أكبر الأمراء سناً ومقاماً ، فأصبح من حقه النظر في اختيار الملوك وتنصيبهم . وعلى هذا أرسلوا إليه يطلبون أن يحضر إلى منغوليا لعقد القوريلتاي وتنصيب الخان الجديد ، فرد عليهم معتذراً بعدم قدرته على السفر إلى منغوليا بسبب مرضه ، وفي نفس الوقت وجه الدعوة إلى كبار الأمراء والقواد للحضور إلى القبچاق حيث يقيم ، والاشتراك في القوريلتاي لانتخاب الخان . ولكن أبناء أوكتاي وچغتاي عارضوا هذا الاقتراح ، وأصروا على أن يعقد القوريلتاي في المقر الأصلي

---

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن.

(٢) انظر الجويني : ج ٣ ، ص ٨ .

لچنگيزخان جرياً على العادة المتبعة . وعلى هذا امتنعوا عن الذهاب إلى القبچاق ، واكتفوا بأن أنابوا عنهم بعض المندوبين . أما منگو وإخوته فقد لبوا دعوة باتو ، وأسرعوا إلى القبچاق حيث عقد القوريلتاي ، ونودى بمنگو إمبراطوراً على المغول ، وتلقب بلقب « منگوقاآن » . وبهذا انتقل الحكم إلى أولاد تولوي الذين يمثلون الفرع الثاني من أسرة چنگيزخان .

ولكن لما لم يكن جميع الأمراء ممثلين في هذا الاجتماع ، أُتفِق على أن يعقد القوريلتاي مرة ثانية في مطلع السنة الجديدة ، ويحضره الأمراء والعظماء لإقرار تنصيب « منگو » خاناً أعظم للمغول بصفة رسمية .

ولكن بعض الأمراء من أبناء أوگتاي وجغتاي تمسكوا برأيهم الأول الذي ينادي بأن يظل الحكم في أسرة أوگتاي وكيوك ، وكانوا يتبادلون الرسل مع باتو ، معلنين معارضتهم لاقتراح عقد القوريلتاي لإقرار انتخاب منگو ، ومستنكرين الطريقة التي تم بها انتخابه في المرة الأولى .

وقد احتدم الجدل حول هذه المسألة بين باتو ومنگو وسرقويتي من جهة ، وبين المعارضين لهم من جهة أخرى ، واستمر النزاع يسود الطرفين مدة عامين كاملين .

وأخيراً — بناء على اقتراح باتو — عقد القوريلتاي في شهر ذى الحجة ٦٤٨ هـ (ابريل ١٢٥٠ م) في منطقة قراقورم ، وذلك رغم أنف المعارضين . وفيه أعلن انتخاب منگو رسمياً .

ولكن المناوئين لسياسة منگو لم يخضعوا لهذا القرار ، وحاولوا تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة ؛ فعلم بذلك منگو في الوقت المناسب ، وتمّ القبض على المتآمرين قبل تنفيذ خططهم . ولما حقق معهم اعترفوا بجرمهم . وكان منگوقاآن ينوي الصفح عنهم إلا أن الأمراء حذروه مغبة التهاون معهم ، وأصروا على ضرورة الاقتصاص منهم . وأخيراً طلب مشورة محمود يلواج ، فسرد عليه قصة الإسكندر وأرسطو ومؤداها أنه عندما استولى الإسكندر على أكثر ممالك العالم ، أراد أن يسير نحو الهند : غير أن أمراء

الدولة وأركانها خرجوا على طاعته ، وتخلفوا عن متابعته ، وأخذ كل منهم يعلن الاستقلال والاستبداد ، فعجز الإسكندر عن علاج هذا الوضع وأرسل رسولاً إلى وزيره أرسطو الذي لا نظير له ، وأطلعه على عصيان أمرائـه وتمردهم ، وسأله عن ايجاد حل لهذه المسألة ، فدخل أرسطو مع الرسول إحدى الحدائق ، وأمر بأن تُجتَثّ الأشجار الكبيرة من جذورها ، وأن تُغْرس شجيرات صغيرة ضعيفة مكانها ، ولم يجب عن سؤال الرسول. وأخيراً ملّ هذا الانتظار ، وعاد إلى الإسكندر ؛ وقال له : إن أرسطو لم يعط أي جواب . فسأله الإسكندر : ماذا رأيت منه ؟!.. فقال : دخل معي إحدى الحدائق ، وأخذ يقتلع الأشجار الضخمة ، ويغرس في مكانها شجيرات صغيرة . فقال الإسكندر : لقد أجاب ، وأنت لم تفهم مقصوده ، وأهلك الإسكندر – على الفور – الأمراء المستبدين ، ونصب أبناءهم في أماكنهم . فاستحسن منكوقاآن هذا القول ، وأمر بأن تضرب أعناق الأمراء المعتقلين ، ووضع جمعاً آخر في مكانهم[1] .

إصلاحات منكوقاآن الداخلية :

لما توطد عرش منكوقاآن ، بدأ يولي الإصلاحات الداخلية والنظـم الإدارية عناية كبيرة ، فنجح في هذا السبيل نجاحاً منقطع النظير . وكان من أحسن الحكام الذين ساسوا المغول سياسة بارعة . ورغم حرصه على التمسك بأحكام الياسا والمحافظة على آداب المغول وتقاليدهم ، فإنـه نظراً لطول معاشرته للأمم المتمدينة ، ولكثرة اختلاطه بالمتحضرين في الأمم المغلوبة ، خفت فيه إلى حد ما صلابة المغول وخشونتهم وتعطشهم لسفك الدماء ؛ تلك الصفات التي كانت تلاحظ بوضوح في الحكام الأول من المغول باستثناء

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ – ٢٩٧ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

أوكتاي . كذلك اختلفت نظرته في ترتيب إدارة هذه الممالك ومعاملة رعاياه ، فأصبح سلوكه في هذا السبيل أكثر عدلاً وأقرب إلى السياسة التي تسير عليها الممالك المتحضرة .

كذلك عرف عن منكو أنه كان يكره الترف ، وينكر المباذل . وليس له هواية سوى الصيد . ومن صفاته أنه كان بالغ النشاط ، بارعاً في تسيير الإدارة ، متوقد الذكاء ، جندياً باسلاً ، وسياسياً ماهراً . وبهذه الخصال ، أعاد القوة والحيوية إلى ما أقامه جده جنكيزخان من نظم ، ووهب الإمبراطورية المغولية ــ دون أن يتخلى كثيراً عن خصائص عنصره ــ أساليب إدارية محكمة ، وجعل منها دولة بالغة القوة[1] .

ومما يذكر لمنكوقاآن بالحمد والثناء ، أنه خفف الضرائب عن كاهل رعاياه ، وكان يعمل على تيسير سبل الحياة التي يحيونها ، والقضاء على أسباب شكواهم ؛ فأصدر أوامر مشددة إلى الحكام والولاة بتحريم اغتصاب الدواب من الناس ، وتجنب ظلمهم ، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون . وقد استدعى طائفة من الايرانيين المستنيرين ، وطلب إليهم تنظيم الإدارات والدواوين في قراقورم على أسس سليمة .

كذلك اختار الحكام المخلصين الذين أثبتوا جدارة وكفاءة في إدارة شئون ولاياتهم ؛ فعيّن محمود يلواج حاكماً على بلاد الصين ، ونصب ابنه مسعوداً والياً على تركستان وما وراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانه وخوارزم . وقد نهض الاثنان بهذه البلاد نهضة مباركة ، وبذلا كل ما في وسعهما في سبيل ازدهارها ورقيها ، فأصلحا المدن وأقاما العمائر فيها .

وبالإضافة إلى ذلك ، تجرد منكو من التعصب الديني ؛ فكان لا يفرق بين طائفة وأخرى ، وعامل المسيحيين والمسلمين والبوذيين على قدم المساواة ،

---

(١) انظر الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ١٩٤ .

وكفل الحرية للجميع ؛ إذ سمح للواحد منهم بأن يناظر الآخر ويجادلـه في المسائل الدينية في حرية تامة . وفي ذلك الوقت صارت قواقورم مركـز الدبلوماسية في العالم . فحينما وصل إليها سنة ١٢٥٤ م ، « وليم روبروق » ، سفير الملك لويس التاسع ، لقي سفارات من قبل الإمبراطور اليوناني ، ومن لدن الخليفة العباسي ، ومن عند ملك دلهي ، ومن جهة السلطان السلجوقي ، كما صادف أمراء من الجزيرة وكردستان وروسيا ، وجميعهم يقفون في خدمة الخان الكبير . وأقام بقراقورم كثير من الأوروبيين ، منهم تاجر جواهر من باريس مع زوجته المجرية ، وامرأة إلنزاسية تزوجت من مهندس روسي . ولم يكن بالبلاط شيء من التفرقة العنصرية أو الدينية . على أن الوظائف العليا بالجيش والحكومة ، اختص بها أفراد من الأسرة الإمبراطورية ، ومع ذلك فإنه كاد يكون من الأمم الأسيوية وزراء وحكام أقاليم . وعلى الرغم من أن منكو كان يدين بعقيدة أسلافه الشامانية ، فإنه كان يشهد الأعياد البوذية والمسيحية والإسلامية دون تفرقة أو تمييز . إذ سلم بوجود إله واحـد ، يعبده كل إنسان حسبما شاء[1] . ومنكوقا آن في هذا يسير على سياسة والدته « سُرْقويتي بَيْكَى » التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً . فمع أن هذه المرأة كانت تدين بالمسيحية ، إلا أنها سلكت سلوكاً حسناً مع الرعايا المسلمين . وكانت شديدة العطف عليهم ، لا سيما الأئمة ومشايخ الإسلام ؛ إذ أغدقت عليهم الكثير من العطايا والهبات . ولم تقف عند هذا الحد ، بل إنها أقامت في بخارى مدرسة على نفقتها الخاصة . ووقفت عليها أوقافاً كثيرة ، وولت عليهـا شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزى ، وعينت المدرسين ، ورعت شئون الطلبة . وكانت تتصدق على الفقراء والمساكين من المسلمين . وقد استمرت على هذا النحو من فعل الخيرات إلى أن توفيت في شهر ذى الحجة سنـة ٦٤٩ هـ[2] (مارس ١٢٥١ م) .

---

(١) انظر ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٠٩ .
(٢) انظر الجويني ، ج ٣ ، ص ٨ — ٩ .

مشروع التحالف بين المغول والمسيحيين :

وفي عهد منكوقاآن أيضاً ، قوى الاتصال بين المسيحيين في أوربا ، والمغول في آسيا . والظاهر أن المسيحيين جميعاً كانوا على استعداد لأن يتغاضوا عن الشناعات التي ارتكبها المغول ضد أبناء دينهم في روسيا وبولندا ، وأن يمجدوا المغول كمحطمين لقوة العرب والإسلام ؛[1] خصوصاً وأن المسيحيين كانوا يتوقون إلى الانتقام من المسلمين ، إذ كانوا في عراك معهم في الشام ومصر ، ولحقتهم أشد الضربات على يد صلاح الدين وخلفائه . ولما كان المسيحيون يعدون المغول أعداء المسلمين ، حاولوا الاتصال بالمغول ، والعمل على الاتحاد معهم . وتنفيذاً لهذه السياسة ، كانوا يرسلون رسلهم وسفراءهم على التوالي إلى البلاط المغولي .

من بين تلك البعثات ، بعثة أوفدها لويس التاسع ملك فرنسا برئاسة أحد رجال الدين اسمه « وليم رو بروق » الذي رحل من عكا سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) واتجه إلى القسطنطينية ، ومنها سار إلى شبه جزيرة القرم ، ثم قصد مدينة « سراي » عاصمة « باتو » خان القبچاق . وعبر منافذ جبال الأورال ، ونهر ايلي إلى أن وصل إلى قراقورم حيث مثل بين يدي منكوقاآن .

ومع أن منكوقابل سفير لويس باحترام وأكرم وفادته . وسمح له بأن يناظر العلماء البوذيين والمسلمين في حرية تامة ، إلا أنه لم يعطه جواباً مقنعاً فيما يتعلق بتكوين اتحاد مع المسيحيين ، بل إنه طلب إليه أن يسارع لويس مع جميع الملوك المسيحيين إلى الدخول في طاعته . وقد مكث « رو بروق » خمسة أشهر في قراقورم . وفي النهاية عاد إلى الشام حيث قابل لويس في مدينة عكا ، وقدم إليه الرسالة[2] .

---

(١) انظر براون : تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي إلى السعدي ، ص ٥٧٥ .

(٢) انظر حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢٤٨ .

وعن هذه البعثة يعطينا « رنسيمان »[1] بعض التفصيلات فيذكر أن سفارة « رو بروق » لم تظفر بنجاح كبير ؛ إذ اجتاز في سفره عاصمة «باتو» على نهر الفولجا ، حيث التقى بسارتاق بن باتو الذي اشتهر بميله إلى المسيحيين على الرغم من أنه لم يكن مسيحياً ، فبعث به « باتو » إلى منغوليا ، وتولت الحكومة الإنفاق عليه في سفره على امتداد الطريق التجاري الكبير ، وتهيأت له أسباب الراحة والأمن ، على الرغم من أن أياماً بأكملها كانت تنقضي دون أن يشهد داراً واحدة . ثم وصل في نهاية ديسمبر سنة ١٢٥٣م إلى معسكر الخان الكبير الذي يقع على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب من « قراقورم » . فمثل بين يدي منكو في ٤ يناير سنة ١٢٥٤ م ، ولم يلبث أن ارتحل مع البلاط إلى قراقورم . فألفى الحكومة المغولية قد عزمت فعلاً على مهاجمة المسلمين في غرب آسيا ، وأنها على استعداد لمناقشة ما يصح اتخاذه من إجراء مشترك . على أنه اعترض ذلك عقبة لم يتيسر التغلب عليها . ذلك أن الخان الكبير لا يقبل مطلقاً أن يكون سيد في العالم سواه .

والواقع أن سياسة منكو الخارجية ، كانت بالغة البساطة ، إذ أن أصدقاءه يعتبرون أتباعاً له ، أما أعداؤه فينبغي استئصال شأفتهم أو إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له . وكل ما استطاع «وليم روبروق» أن يحصل عليه ، هو أنه استخلص وعداً صادقاً بأن يتلقى مساعدة كبيرة طالما قدم أمراؤهم لبذل الولاء لسيد العالم . على أن ملك فرنسا لم يستطيع التفاوض على أساس هذه الشروط . وغادر « روبروق » قراقورم في أغسطس سنة ١٢٥٤ م ، عائداً إلى بلاط باتو بعد أن اخترق آسيا الوسطى ، ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينية ومنها إلى عكا . ولقي « روبروق » في كل مكان من الاحترام والتبجيل ما يليق برسول يقصد الخان الكبير .

---

(١) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥١٠ — ٥١١.

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الرحلة قــد أمدت « وليم روبروق » بمعلومات كثيرة مفيدة عن المغول ، فوصف لنا عاداتهم وطبائعهم وحياتهم الاجتماعية ، وغير ذلك مما صادفه في رحلته ، كما وصف جميع القبائل والجماعات التي كان يتكون منها العنصر المغولي ، والتي أخضعها جنكيز خان(١) .

وعندما لمس المسيحيون في غرب آسيا سياسة التسامح التي درج عليها المغول إزاء المسيحيين بصفة خاصة ، حاولوا التقرب إليهم ومحاولة اجتذابهم إلى صفوفهم حتى يستطيعوا بمعاونتهم أن يستخلصوا بيت المقدس خاصــة وبلاد الشام عامة من أيدي المسلمين . وكانت مملكة الأرمن بقليقية أول الإمارات التي تحف بالبحر الأبيض المتوسط إدراكاً لأهمية الزحف المغولي . فالمعروف أن الأرمن شهدوا في اهتمام بالغ ما أصاب الجيش السلجوقي من هزيمة ساحقة سنة ١٢٤٣ م أمام الحملة المغولية التي قادها أحد ولاة الأقاليم . فصار بوسعهم أن يقدروا ما يكون عليه جيش الإمبراطور من قوة لا سبيل إلى مقاومتها . ولهذا سعى الملك « هيتوم » **Héthoum** إلى خطب ود المغول والتقرب إليهم ، فأرسل إلى القائد المغولي « بايجو » كتاباً يفيض بالولاء والاحترام .

وسبق أن عرفنا أن سمباد أخا هيتوم قدم إلى قراقورم لحضور القوريلتاي الذي قرر انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول ، فأحسن كيوك استقباله . ولما سمع منه أن أخاه هيتوم مستعد لأن يعتبر نفسه من أتباع الخان الكبير ، وعد بأن يساعد الأرمن في سبيل استرداد ما انتزعه السلاجقة من المدن . ورجع سمباد يحمل تقليداً من الخان الكبير يكفل سلامة ممتلكات هيتوم ووحدتها . غير أن وفاة كيوك أوقفت كل إجراء مباشر(٢) .

ولما علم هيتوم أن عرش المغول قد آل إلى خان قوي آخر هو منكوقا آن ،

---

(١) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
(٢) انظر ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٠٧–٥٠٨

راوده الأمل في اجتذاب المغول إلى صفه لتحقيق أحلامه ، فأسرع بنفسه إلى قراقورم ، في نفس السنة التي عاد فيها رسول لويس التاسع من منغوليا ، وتقدم من تلقاء نفسه على أنه تابع للخان الكبير . ولهذا نال منزلة سامية عند منكوقا آن ، فأقام له حفل استقبال رسمي في ١٣ سبتمبر سنة ١٢٥٤ م ، ومنحه وثيقة تكفل السلامة لشخصه ومملكته ، وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا ، ووعده منكو بأن يعفي الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب .

وكانت جهود هيتوم خلال المدة التي قضاها في قراقورم منصرفة كلها إلى إقناع الخان بالقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين . وضار يلح في طلبه حتى وافق الخان في النهاية على مساعدة المسيحيين . وكلف أخاه « هولاكوخان » بغزو بغداد . كما تعهد بأن يعيد بيت المقدس إلى المسيحيين إذا ما تعاونوا مع المغول تعاونا كاملاً .

وفي أول نوفمبر سنة ١٢٥٤ م . عاد هيتوم إلى بلاده محملاً بالهدايا . ومبتهجاً بما أحرزه من نجاح . يذكر « رنسميان »[١] أنه من الطبيعي أن يتفاءل هيتوم ، غير أن هذا التفاؤل تجاوز الحدود قليلاً ، لأن المغول إذا كانوا قد جعلوا للمسيحية المنزلة الأولى بالنسبة لسائر الديانات الأخرى ، فإنهم أيضاً لم يقصدوا السماح بقيام أمارات مسيحية مستقلة . وإذا عاد بيت المقدس إلى المسيحيين . فإنما يعود إليهم في نطاق الإمبراطورية المغولية .

سياسة منكوقاآن الخارجية :

في السنة التالية لحكم منكوقا آن ، بعد أن استقرت الأحوال الداخلية ، وتخلص من جميع المناوئين لسياسته ، وجه عنايته نحو الغزو والفتح والعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية ، فصمم على فتح البلاد التي لم يتيسر فتحها

---

(١) انظر ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥١٣ .

من قبل . وقد دفعه هذا التصميم إلى تجهيز حملتين كبيرتين ، نصب أخاه الأصغر « هولاكو » على رأس إحداهما ، وعهد إليه بالقضاء على الإسماعيلية وإخضاع الخليفة العباسي . وسوف نتحدث عن تلك الحملة بالتفصيل فيما بعد . كذلك نصب أخاه الأوسط قوبيلاي على رأس الحملة الأخرى لفتح أقاليم الصين الجنوبية . واستعد منكوقاآن نفسه للسير بحملة أخرى بقصد الاستيلاء على بعض الأقاليم من هذه البلاد الفسيحة .

وفي سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) شرع قوبيلاي في إنجاز هذه المهمة ، فسار على رأس جيش كبير لفتح أقاليم الصين الجنوبية التي كانت تدعى أيضاً « منزى » ، وكانت لا تزال في أيدي أسرة « سونج » . فاستطاع أن يفتح قسماً منها . وكان أخوه « منكوقاآن » نفسه مشغولاً بفتح قسم آخر من تلك المناطق . ولكن ما أن حلت سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) حتى علم قوبيلاى نبأ وفاة أخيه « منكو » بسبب عفونة الهواء ، فترك الميدان ، وشد رحاله إلى شمال الصين ، ليشترك في تعيين الخان الجديد .

٤ — قوبيلاى قاآن

٦٥٨ — ٦٩٣ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٩٤ م

عندما كان منكوقاآن يقوم بحملاته على الصين الجنوبية ، كان ينوب عنه في حكم المغول أخ آخر اسمه « أريق بوكا » . وكان منكو يود أن يخلفه هذا الأخ على عرش المغول . فلما مات منكو ، أعلن « أريق بوكا » نفسه خاناً أعظم للمغول . وكان يسانده في ذلك معظم أقاربه من أفراد الأسرة الإمبراطورية الذين كانوا بمنغوليا[1] .

---

(١) انظر ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص٥٣١ .

أما قوبيلاي الذي كان قد تشبع بروح الصينيين ، واتصل بهم إتصالاً وثيقاً ، وضمن وقوف قواد الجيش إلى جانبه ، فقد رفض النزول على قرار أخيه . وفي سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) عقد مجلساً خاصاً في مدينة «كي مينج فو» ، إحـــدى مدن الصين الشمالية ، وأعلن خلع أخيه ، ونصب نفسه إمبراطوراً على المغول . وكان في ذلك الوقت في السادسة والأربعين من عمره . وطبقاً للتقاليد المتعارفة عندهم ، كتب الأمراء الحاضرون وثائق خطية بهذا القرار [١] .

ولكن لم يكن من السهل على كبار الأمراء من المغول ، أن يقروا هذا التصرف ؛ إذ لم يكن لهذا الاجتماع صفة شرعية ، نظراً لأنه لم يمثل فيه كل فروع الأسرة الإمبراطورية . هذا من جهة ومن جهة أخرى لأن قوبيلاي خرج على تقاليد المغول ؛ إذ أعلن نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين . وما ذلك إلا لأنه كان متأثراً إلى حد بعيد بحضارة الصينيين ، وصار مروجاً لهذه الحضارة ، فكان هذا إيذاناً بالتخلي عن قوانين چنگيزخان الشديدة القاسية[٢] .

وإذن كان على قوبيلاي أن يخضع هؤلاء المناوئين لسياسته ، والذين نادوا بأريق بوكا خاناً عليهم ، فلم يتردد في الإقدام على هذه الخطوة ، ووضع نصب عينيه أن يحارب أخاه ، وينتزع منه عاصمة المغول التقليدية «قراقورم» . وقد تم له ما أراد ؛ إذ استطاع الانتصار على أخيه وأسره في سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) ، ثم زج به في السجن إلى أن مات في سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٥ م) . وبذلك خلصت لقوبيلاي العاصمة قراقورم .

وبعد أن تخلص قوبيلاي من منافسه ، صمم على مواصلة فتوحاته في أقاليم الصين الجنوبية ، وبذل في هذا الميدان جهوداً كبيرة استغرقت نحو

---

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٣٩١ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن.
(٢) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

عشرين سنة ، إلى أن تم له الاستيلاء على تلك الأقاليم نهائياً في سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٨ م) . وبذلك قضى على أسرة سونج حكام تلك المنطقة . ومما هو جدير بالذكر أن أقاليم الصين برمتها ، كانت مقسمة منذ سنة ٩٠٧ م إلى قسمين : شمالي وجنوبي ، فصارت متحدة تحت حكم خان المغول « قوبيلاي » وكما يقول ماركو پولو[١] . « يعتبر قوبيلاي قاآن أول سلطان مغولي يحكم كل الأقاليم المذكورة . وقد تمت الوحدة الصينية لأول مرة على يد هذا الخان بعد مرور ٣٨٠ سنة » . وبعد أن فرغ منكّو من فتوحاته في الصين ، شرع في الزحف إلى الهند الصينية وجاوه واليابان . وكان يستعين في تلك الفتوحات بمهرة المهندسين من إيران والشام لإعداد المجانيق والآلات الحربية الأخرى . وكان هؤلاء بمثابة المستشارين الكبار للخان في الشئون العسكرية . يذكر براون[٢] أن قوبيلاي خان استعان باثنين من المهندسين الإيرانيين في حصار « فانشنج » بالصين .

إصلاحاته الإدارية والعمرانية :

اتسعت رقعة الإمبراطورية المغولية ، وبلغت ذروة الامتداد إلى مختلف أقطار العالم أثناء حكم « قوبيلاي قاآن » ؛ فكانت تضم الصين وكوريا والهند الصينية والتبت والهند إلى حدود نهر « الگنج » وإيران وآسيا الصغرى والقرم وجزءاً كبيراً من روسيا إلى حدود نهر الدنيبر[٣] .

وعلى أثر حروب المغول في الصين ، وانقراض حكامها من أسرة « سُونْج » ، خربت البلاد ، واختل الاقتصاد ، وعم الفقر ، وانتشرت

---

(١) رحلة ماركوپولو ، الترجمة الفارسية ، ص ٣٨ .

(٢) انظر براون : تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي إلى السعدي ، الترجمة العربية ، ص ٥٦٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٦٩ .

المجاعات . وفي أكثر الجهات أهملت الزراعة ، وبارت الأراضي ، وأوقفت العمليات الخاصة بإصلاح الري وتطويره . وقد ترتب على هذا أن ترك الفلاحون الزراعة ، وتحولوا إلى قطاع طرق .

فلما تولى قوبيلاي عرش الصين ، حاول جاهداً أن يصلح ما حدث من تخريب وتدمير ، واتسم عهده بحسن معاملته للمغلوبين . تعقب أولاً قطاع الطرق ، وقضى عليهم قضاء مبرماً . كما أمر الناس بالهجرة من الأماكن المكتظة بالسكان إلى الأماكن الخربة المهجورة ليقوموا بإصلاحها وتعميرها[1] .

كذلك أولى قوبيلاي الزراعة عناية تامة ، فأصلح وسائل الري ، وشجع الناس على الزراعة ، فأقبلوا عليها ، وما لبثت أن رقيت وازدهرت .

اهتم قوبيلاي أيضاً اهتماماً كبيراً بالتجارة ؛ فمهد الطرق وأنشأ طرقاً أخرى جديدة ، وأقام عليها حراسة قوية ، فكانت قوافل التجار تروح وتجيء في أمن وسلام ، وتنتقل من مكان إلى آخر في حرية تامة . وفي ظل هذه الإجراءات كثر تردد التجار المسلمين على الصين ، وعظمت أهمية الطريق البحري بين غرب آسيا وشرقها . وكان قوبيلاي يسعى دائماً إلى توثيق الروابط الاقتصادية بينه وبين الايلخانيين في إيران . ونتيجة لذلك راجت التجارة ، وعم الرخاء .

ونظم قوبيلاي البريد تنظيماً دقيقاً ، وعني بإنشاء محطات البريد ، وإعدادها خير إعداد لتقوم بمهمتها على أكمل وجه ؛ وذلك لأهميتها القصوى في تنقل الجيوش المغولية في أوقات الحرب ، فضلاً عن مزاياها من الناحية التجارية في أوقات السلم ، كما أنها كانت تفيدهم فائدة كبيرة بتزويدهم بالمعلومات الكافية عن كل جزء من أجزاء الإمبراطورية ؛ فكان

---

(١) انظر رحلة ماركوپولو ، الترجمة الفارسية ، ص ٤٦ .

القائمون على هذه المحطات بمثابة عيون الإمبراطور وآذانه . يقرر ماركو بولو أن دور البريد كانت في عهد قوبيلاي منظمة ومرتبة في جميع أنحاء الإمبراطورية ؛ إذ كان هذا العاهل المغولي يميل إلى أن يكون مطلعاً في أسرع الأوقات ، وبأقرب الطرق على جريان الوقائع والأحداث في كل ركن وزاوية من إمبراطوريته الكبيرة[1] .

كذلك قام قوبيلاي بجمع العلماء وأرباب الحرف والصنائع الذين كانوا قد تفرقوا واختفوا بسبب القتال الرهيب في بلادهم ، وحثهم على استئناف أعمالهم ، وبذل كل ما في وسعه في سبيل إزالة كافة العقبات من طريقهم .

وبالإضافة إلى هذا كان الخان ميالاً إلى التشييد والتعمير . أقام مدينة كبيرة بجوار العاصمة خان باليغ (بكين) ، وجلب إليها من كل بلد أشجاراً مثمرة ، غرسوها في حدائقها وبساتينها . وفي تلك المدينة شيد عدة قصور كان من أهمها قصره الكبير الذي كان غاية في الأبهة والفخامة ، وآية في فن المعمار ؛ إذ كانت جميع أعمدته وأرضياته من الرخام والمرمر ، وكان يبدو في منتهى الأناقة والنظافة . وقد قسم هذا القصر إلى أربعة أقسام : خصص الأول منها لرجال البلاط والتشريفات ، وجُعِلَ الثاني لجلوس الأمراء الذين يجتمعون كل صباح للتشاور في مختلف الأمور . أما الثالث فكان مقراً للحرس . وأما الرابع فقد أعد للخاصة[2] . كذلك تغلبت النزعة الإنسانية وحب الخير على قوبيلاي ؛ فأنشأ الملاجىء لإيواء العجزة والضعفاء والطاعنين في السن .

وكان هذا الخان يتصف بالعقل والتدبير . ولكنه عندما يغضب ، يصير عنيفاً قاسياً إلى أقصى حد ؛ بحيث أن رجال حاشيته وعظماء دولته ، كانوا

---

(١) انظر رحلة ماركوبولو ، الترجمة الفارسية ، ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٣٩١ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

يختفون عن بصره في مثل هذه الظروف خوفاً وفزعاً منه . وفي الأوقات العادية كانوا يهابونه ويجلونه . وأثناء جلوسهم أو تكلمهم معه ، كانوا يدققون في كل تصرفاتهم حتى لا يحدث منهم أي خطأ . كما كانوا يشعرون بخوف شديد وهم في حضرته(١) .

عرف عن قوبيلاي أيضاً أنه كان واسع الأفق ، حر الفكر ؛ فعلى الرغم من أنه تحول إلى البوذية ، إلا أنه كان بعيداً عن التعصب . ترك الحرية لجميع الأديان ، وغالباً ما كان يتناظر في بلاطه العلماء والأئمة من البوذيين والصينيين من أتباع «كونفوشيوس» والمسيحيين والمسلمين . وقد ترجم بناء على أمره إلى اللغة المغولية ، أقسام من القرآن الكريم والانجيل والتوراة وتعليمات بوذا(٢) . وكانت المناظرات في المسائل التي تتعلق بما وراء الطبيعة تجد ميلاً شديداً لدى الخان . وفي نهاية المناظرات ، كان يشمل المتناظرين بعطفه ورعايته(٣) .

وعلى الرغم من أن الصينيين ، كانوا يتمتعون بذكاء حاد ، وكفاءة نادرة ، واستعداد عظيم ، وميل إلى الابتكار والاختراع ، إلا أنهم لم يكونوا غافلين قط عن حريتهم المسلوبة ، واستقلالهم الضائع على يد المغول فلا غرو أن كانوا ينظرون إلى المغول على أنهم قوم مستعمرون غاصبون ، ولا يمكن أن يخلصوا لهم . وكان قوبيلاي يعرف هذا جيداً فلم يكن يطمئن إليهم كثيراً. ولهذا كان مضطراً إلى اختيار رجال بلاطه من العناصر الأجنبية من غير الصينيين ؛ فكان يوجد في بلاطه أناس من النساطرة السوريين ، ومن الأوربيين ، ومن الأويغوريين ، وكان هؤلاء كثرة في بلاط قوبيلاي ، ريعملون أطباء ومنجمين ، ومن الإيرانيين وغيرهم

(١) انظر رحلة ماركوپولو ، الترجمة الفارسية ، ص ١٨٠ .
(٢) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران ، ح ١ ، ص ١٦٣ .
(٣) انظر رحلة ماركوپولو ، الترجمة الفارسية ، ص ١٨٠ .

من الأمم الإسلامية . وقد احتل الإيرانيون ــ بصفة خاصة ــ مكانة سامية في بلاط قوبيلاي ، وكانوا يشغلون مناصب المستشارين لقوبيلاي في الشئون العسكرية . ومن الايرانيين أيضاً الذين كانوا يعملون في بلاط قوبيلاي ، جماعة من أرباب الحرف والصناعات ، وقعوا أسرى في يد المغول عندما كانوا يفتحون مناطق ما وراء النهر وخراسان ، فأرسلوهم إلى منغوليا . وعن طريق هؤلاء الإيرانيين انتشرت اللغة الفارسية في الصين .

ولم يقف نفوذ الإيرانيين عند هذا الحد ، بل إن قوبيلاي عهد بوزارته إلى رجل إيراني ، كان يلقب بالسيد الأجل البخاري ، وذلك بعد محمود يلواج . كان هذا الرجل في بادىء أمره يتولى حكم ولاية « قراچانك » ــ إحدى ولايات الخطا ــ من قبل منكّو قاآن . وعندما سار قوبيلاي إلى هذه الولاية بناء على أمر أخيه منكّو ، قدم إليه السيد الأجل خدمات كثيرة ، وظهر بمظهر التابع المخلص ، فأحبه قوبيلاي . وعندما آل إليه عرش المغول ، رفع قدره ، وعهد إليه بمنصب الوزارة ، وولى ابنه ناصر الدين نائباً عنه في حكم ولاية قراچانك . وتتفق الآراء على أن السيد الأجل قام بمهام منصبه على أكمل وجه ، وظل في الوزارة مدة خمس وعشرين سنة من سنة ٦٥٨ ــ ٦٨٣ هـ (١٢٥٩ ــ ١٢٨٤ م) . وكما يقول رشيد الدين لم تصدر عنه نميمة أو وشاية ، ولم تلحقه نكبة ، وتوفي وفاة طبيعية بانقضاء أجله ، وهذا من النوادر[١] .

وفي عهد هذا الوزير ، جرى نظام التعامل في الصين بالنقود الورقية المعروفة « بالچاو » . وطوال تلك الفترة التي وزر فيها ، ظل التعامل بهذا النوع من العملة دقيقاً ومحكماً ، وعلى أساسه أمكن تنظيم الدخل والخرج للمملكة كلها[٢] .

وبعد وفاة السيد الأجل ، آلت الوزارة إلى الأمير « أحمد البناكتي » ،

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .
(٢) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

وهو أيضاً من الإيرانيين ، ارتفع شأنه كثيراً في بلاط قوبيلاي ، إلا أنه لم يرزق كفاءة السيد الأجل ولا استقامته . وقد مكث مدة طويلة . وكان الأمير « چيم كيم » ابن قوبيلاي يكرهه ، ولا يأبه به . وقد بلغ من استهانته بشأنه ، واحتقاره له ، أن ضربه ذات يوم بقوس على رأسه ، وخدش وجهه . وعندما مثل بين يدي القاآن ، سأله : ماذا حدث لوجهك ؟!... فأجاب : ركلني حصان . وكان « چيم كيم » حاضراً فاغتاظ وقال : أتستحي أن تقول ضربني « چيم كيم » ؟!... وكال له اللكمات في حضرة القاآن[1] .

كذلك كان يحسده ويحقد عليه كثير من أمراء الخطا ، وعلى رأسهم رجل خطائي كان شريكاً له في الوزارة ؛ فصار يشي به ، ويدبر ضده المؤامرات ، إلى أن تمكن أتباعه في النهاية من قتله والخلاص منه . فلما علم قوبيلاي بهذا النبأ ، أرسل كبار قواده على رأس جيش للقضاء على الخطائيين الذين أثاروا تلك الفتنة . وبناء على أمر قوبيلاي ، اشترك الأمراء والعظماء في تشييع جنازة « أحمد البناكتي » ، ودفنوه في إجلال بالغ .

وبعد ذلك بأربعين يوماً ، أخذ قوبيلاي يبحث عن جوهرة كبيرة ليرصع بها تاجه ، ولكنهم لم يجدوا ما يحقق رغبته . وتصادف أن كان هناك تاجران ، قدما إلى الخان ، وقالا له : إننا قد أحضرنا من قبل جوهرة كبيرة للقاآن ، وسلمناها للأمير أحمد . فقال القاآن : إنه لم يحضرها لي . ثم أرسل رسله يطلبها من بيته ، فعثروا عليها عند زوجته « اينچو خاتون » . وعندما حملوها إلى القاآن ، غضب غضباً شديداً ، وسأل التاجرين قائلاً : « ما جزاء العبد الذي يرتكب مثل هذه الخيانة ؟!... » فأجابا : « ينبغي أن يقتل إذا كان حياً ، أما إذا كان ميتاً فيجب أن يخرج من القبر ، ويشهر بجثته ؛ حتى يعتبر به الآخرون » . وكان الخطائيون قد أفهموا « چيم كيم » أن أحمد البناكتي كان عدواً له ؛ ولهذا تخلصوا منه . كما أنهم أوغروا صدر

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

السلطان عليه ؛ فأصدر أمره بإخراج جثمان هذا الوزير التعس من قبره ، ومثلوا به تمثيلاً شنيعاً . كما أنهم قتلوا زوجته « اينچو خاتون » ، وصادروا جميع أمواله وممتلكاته لتئول إلى الخزانة [١] .

بعد ذلك أسند قوبيلاي منصب الوزارة إلى رجل من الأويغوريين اسمه « سنگه » . وكان متضامناً مع المسيحيين في الكيد للمسلمين والإيقاع بهم ، فلقوا في عهده كثيراً من الاضطهاد والعذاب . وبعد أن مكث في الحكم سبع سنوات ، قتل هو الآخر على أثر اتهامه بالاختلاس وجمع الأموال والاستئثار بالنفوذ .

ومما هو جدير بالذكر أنه في عهد الأمير أحمد البناكتي وسنگه كان قد طبعت كميات كبيرة من العملة الورقية « الچاو » دون أن يكون هناك رصيد كاف لضمانها ، مما أدى إلى انخفاض قيمتها الحقيقية في عهد خلفاء قوبيلاي ، وحل بالناس ضيق شديد ، وانتهى الأمر بقيام ثورة كبيرة عارمة ضد المغول في الصين ، وكان ذلك في سنة ٧٦١ هـ (١٣٥٩ م) . وكانت هذه الثورة إيذاناً بانتهاء حكم المغول في الصين ؛ إذ لم يكد يمر نحو عشر سنوات بعد هذا التاريخ حتى قضي نهائياً على إمبراطورية المغول في الصين [٢] .

ماركو پولو في بلاط قوبيلاى :

لما كان منگو قاآن يجري على سياسة أسلافه من التحبب إلى المسيحيين والتقرب إليهم ، حرص على تذليل الصعوبات التي تعترض سبيل التجار المسيحيين ، وشجعهم على ارتياد أقاليم المغول ، وسهل لهم مهمتهم التجارية ، مما أدى إلى انتشار هؤلاء التجار في الصين ، وغيرها من البلاد

---

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٥١٨ وما بعدها ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

(٢) انظر رحلة ماركوپولو ، الترجمة الفارسية ، ص ٢٠٢ .

الواقعة تحت سيطرة المغول . ونتيجة لهذه السياسة ، كثر الاتصال بين الشرق والغرب ؛ إذ قام بعض الرحالة الأوروبيين بعدة رحلات إلى الأقاليم المغولية ، أدت إلى ازدياد معلومات الأوربيين الجغرافية والتاريخية عن القارة الآسيوية . تلك المعلومات هي بعينها التي مهدت لحركة الاكتشافات التي تمت بعد ذلك .

من هؤلاء الرحالة أسرة پولو[1] التي كانت تتكون من الأخوين المعروفين : « مافيو پولو » Maffio Polo و « نيكو پولو » Nico Polo ، وكان يرافقهما « ماركو پولو » Marco Polo ابن نيكو پولو . وهم من أهالي البندقية بإيطاليا. رحل ثلاثتهم من هذه المدينة سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) قاصدين الشرق الأقصى ، فاخترقوا سهول خراسان ، وهضبة البامير ، وصحراء جوبي ، إلى أن استقر بهم المقام في بلاط قوبيلاي خان سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٥ م) فاستقبلهم العاهل المغولي ، ورحب بهم . وقد سلموه رسالة من البابا « جريجوار العاشر » . ويبدو أن قوبيلاي قد أعجب بالشاب ماركو پولو ، فتوطدت بينهما أواصر الصداقة ، وأرسله إلى قصره الشتوي في خان باليغ (پكين) .

ولما توسم الخان في قوبيلاي النبوغ والعبقرية ، ولمس فيه الوفاء والإخلاص اتخذه مستشاراً له ، وعهد إليه بالقيام ببعض الأعمال الهامة . ولشدة ثقته به ، كان يرسله في كثير من سفاراته . وهكذا استمر ماركو پولو يعيش في بلاط قوبيلاي حتى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) فأمضى بذلك نحو سبع عشرة سنة في الشرق الأقصى ، كان خلالها موضع ثقة المغول وإعجابهم . وكان ماركو پولو يتمتع بحافظة قوية ، وكان يسرد على مسامع الخان الأخبار العجيبة والروايات الغريبة عن رحلته . وكان قوبيلاي شغوفاً جداً بالاستماع إلى مثل هذه الأخبار ؛ خصوصاً تلك التي تتعلق بالأمم المتنوعة ، والناس على اختلاف طبقاتهم . وكان يجد لذة كبيرة في الوقوف على ما لهذه الأمم

---

(١) انظر Grousset : L'Empire des Steppes, PP. 374 - 377.

من آداب وعادات ورسوم . كما كان يجيد الإصغاء إلى القصص العذب المثير[1] .

وبالإضافة إلى هذا كان ماركو پولو يعرف اللغات الفارسية والعربية والمغولية . ولكن يبدو بوضوح أنه لم يكن يعرف الصينية ؛ بدليل أنه كان يستخدم المحرفات الفارسية والمغولية ، ويطلقها على الأسماء الجغرافية الصينية . والذي يطلع على رحلة هذا السائح الايطالي ، يجد كثيراً من هذه المحرفات[2] .

وفي سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) عاد ماركو پولو إلى أوربا بعد أن تزود بكثير من المعلومات عن البلاط المغولي في عهد قوبيلاي قاآن ، وبعد أن اطلع اطلاعاً عميقاً على كافة الأوضاع التي كانت عليها الإمبراطورية المغولية في ذلك الوقت . وفي بلده أملى ماركو پولو على أحد أصدقائه كل الأخبار المتعلقة برحلته ، فقام هذا بجمعها ونشرها .

وهكذا نرى أنه بهذه المادة الحية الخصبة قد دونت رحلة ماركو پولو المفيدة الممتعة ، فكانت مصدراً هاماً من مصادر الدراسة للعصر المغولي ؛ إذ نجد فيها وصفاً لكل البلاد المجهولة التي زارها ورآها رأي العين ، ونقرأ فيها تفصيلات قيمة عن ثرواتها ومعادنها ، ونحصل منها على معلومات وافية تتعلق بعادات المغول وتقاليدهم ونظمهم ، ونعثر فيها أيضاً على معلومات جديدة مثيرة عن طائفة الإسماعيلية .

وبعد مرور الأيام وتغير الأزمان ، وعندما ارتقت المعلومات الجغرافية واتسع نطاقها ، كثر اعتماد الناس واطمئنانهم إلى كتابات ماركو پولو . أما المستكشفون والرحالة — لا سيما أولئك الذين يبحثون عن الذهب — فقد كانوا أول الأشخاص الذين آمنوا إيماناً عميقاً بكتاب ماركو پولو .

---

(١) انظر رحلة ماركوپولو ، الترجمة الفارسية ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٠ ... ... ؛

Grousset : L'Empire des Steppes, P. 377.

ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن خط السير للأسفار والرحلات التي قام بها السائح الايطالي قد خرج من حيز التفكير إلى حيز التنفيذ في وقت متأخر جداً ، ورسم على شكل خريطة جغرافية . ولكن مع هذا تبقى هناك حقيقة ماثلة ، هي أن كنوز قوبيلاي قاآن ، وقصوره العجيبة ، كانت دافعة ومحركة « لكريستوفر كولمبس » لكي يمخر عباب البحار والمحيطات بسفنه الشراعية في سبيل استكشاف العالم الجديد ، وكثير من الأماكن المجهولة على سطح الكرة الأرضية(١) .

وقصارى القول أنه كان لكتابات ماركو پولو في وصف ثروات الشرق الأقصى أكبر الأثر في تشجيع الرحالة والرواد والمستكشفين من الأوربيين ، وحثهم على اجتياز مجاهل آسياً طمعاً في الاستيلاء على هذه الكنوز . ومنذ ذلك الوقت ، نرى المستكشفين الجغرافيين يجدون في البحث عن أسهل الطرق وأقصرها للوصول إلى الشرق الأقصى والهند . ولقد كان لهذه الفكرة أثرها الكبير في استكشاف القارة الأمريكية عن غير قصد(٢) . فلا غرو أن قيل عن ماركو پولو : « إنه قد اكتشف بلاد الصين في القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة ، واكتشف أمريكا في القرن الخامس عشر بعد وفاته »(٣) .

---

(١) انظر رحلة ماركوپولو ، الترجمة الفارسية ، ص ٦٧ .
(٢) انظر حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص٢٦١ .
(٣) Eileen Power : Medieval People, P. 67.

الفصل التاسع

حملة هولاگوخان على ايران

والقضاء على الإسماعيلية

الفصل التاسع

حملة هولاكوخان على إيران والقضاء على الإسماعيلية

بعد أن انتصر المغول على السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ، وقعت أحسن الأقاليم في إيران تحت نفوذ المغول ، الذين لم يجدوا مقاومة تذكر في تسخير تلك المناطق ، ولم تبقَ هناك قوة تستطيع أن تقف أمام هؤلاء الغزاة لتصد هجماتهم ؛ ذلك لأن السلطان محمد كان قد استولى على البلاد ، وقتل ملوكها وأفناهم ، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها . فلما هزمه المغول ، لم يبقَ في البلاد من يمنعهم ولا يحميها(١) .

ولقد كان الحكام المسلمون خارج إيران يعرفون تمام المعرفة أهمية قيام الدولة الخوارزمية . وسبق أن عرفنا أنه لما قتل جلال الدين منكبرتي ، ذهب بعض خواص الأشرف موسى الأيوبي يهنئونه بقتل عدوه ، فرد عليهم قائلاً : « تهنئوني به وتفرحون ؟!... سوف ترون غبَّه ، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام . ما كان الخوارزمي إلاَّ مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج »(٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٣٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

ولقد صدقت نبوءة الأشرف ؛ إذ لم يكد منكوقاآن يتربع على عرش المغول ، ويقضي على الفتن الداخلية ، ويتخلص من المناوئين لسياسته ، حتى نراه في السنة الثانية من حكمه ، يوجه همته نحو الغزو والفتح ، ويعمل على توسيع رقعة الإمبراطورية ، فيكلف أخاه هولاكوخان بقيادة الحملة على إيران .

يحدثنا المؤرخ رشيد الدين(١) أن منكوقاآن حرص على إعداد هذه الحملة إعداداً دقيقاً يكفل لهولاكو النصر ؛ فلقد أمده بكثير من القوات التي مارست الحروب ، واقتحمت ميادين القتال ، وخرجت منها مظفرة منتصرة . ولم يكتف بهذا ، بل أرسل رسله إلى بلاد الخطا لاستدعاء ألف أسرة من أولئك الذين مهروا في استخدام أدوات القتال مثل المنجنيق وقاذفات النفط ، ورمي السهام . وبالإضافة إلى ذلك ، أصدر منكو أوامره باختيار اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيزخان لتكوين حرس خاص لهولاكو.

وقبل قيام الجيش بمهمته ، أرسل الرسل والمرشدين ؛ فاختبروا الطريق الذي سوف يخترقه جيش هولاكو ابتداء من قراقورم حتى شاطىء نهر جيحون ، ووضعوا أيديهم على جميع المزارع والمراعي التي تمتد على طول الطريق ، وأقاموا الجسور على الأنهار العميقة وعلى مجاري المياه السريعة وقد عني منكو عناية خاصة بتموين هذا الجيش من جميع أنحاء الإمبراطورية

وبعد أن جهز منكوقاآن كل ما يلزم لهذه الحملة من الرجال والعدد والعتاد ، رسم لأخيه هولاكوخان الخطة التي سوف يتبعها ، فقال له(٢) «إنك الآن على رأس جيش كبير ، وقوات لا حصر لها ؛ فينبغي أن تسير

---

(١) جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص١٣٢ وما بعدها ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٢ – ١٤٤ ؛ الترجمة العربية ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

من توران إلى ايران ، وحافظ على تقاليد جنگيزخان وقوانينه ، في الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ، ويجتنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر — بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك . أما من يعصيك ، فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به . وابدأ بإقليم قهستان في خراسان ، فخرب القلاع والحصون » .

« وإذا فرغت من هذه المهمة ، فعليك أن تتوجه إلى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق على سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض له مطلقاً . أما إذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور ، العقل الحكيم والرأي السديد ، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم ، سوف تفتح ممالك الأعداء ، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة . وشاور دوقوز خاتون[1] في جميع القضايا والشئون » .

وكان منكو واثقاً تماماً من أن هولاكو يستطيع بجيشه القوي أن يسيطر على تلك الأقاليم ، وأن يكون منها مملكة خاصة به وبأبنائه من بعده . ولكنه مع هذا أوصى أخاه بأن يعود إلى مقره الأصلي حينما يفرغ من إنجاز مهمته .

هولاكوخان والإسماعيلية :

والآن نتساءل : ما الذي جعل المغول يغيرون نظرتهم إلى جماعة الإسماعيلية

---

(١) كانت زوجة تولوي المفضلة عنده ، ثم آلت من بعده إلى ابنه هولاكوخان، فتزوج منها جرياً على عادة المغول الذين كانوا يتزوجون من نساء آبائهم . وكانت امرأة حازمة ؛ ذات شخصية قوية ، وتدين بالمسيحية. وكان هولاكو يعزها ويحترمها ويستشيرها في مهام الأمور.

بحيث يشير منكو على أخيه هولاكو بأن يبدأ بغزو إقليم قهستان مقر هذه الطائفة ، ويكلفه بتحطيم قلاعهم وحصونهم مع أنهم ظلوا مع المغول في صفاء مدة طويلة ؟!... ألم يكن جلال الدين حسن بن محمد زعيم الإسماعيلية هو أول حاكم يرسل رسولاً إلى جنكيزخان ليقدم له فروض الخضوع والطاعة ، عندما جاء على رأس جيشه إلى إقليم ماوراء النهر ، وبعد عبوره نهر سيحون[1] ؟!... أليس الإسماعيلية هم الذين اتصلوا بالمغول ودعوهم أكثر من مرة لمهاجمة السلطان جلال الدين منكبرتي ، والقضاء نهائياً على الدولة الخوارزمية[2] ؟!...

للإجابة عن هذين السؤالين نقول : إن الإسماعيلية أنفسهم عندما رأوا أن مطامع المغول لا تقف عند حد ، وأن فتوحهم مستمرة في الصين وأوربا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى ، خافوا خطرهم ، وصمموا على مقاومتهم ؛ فأخذوا يرسلون رسلهم إلى انجلترا وفرنسا سنة ٦٣٧ هـ ، (١٢٣٩ م) طالبين معونة الأوربيين الذين عرفوهم إبان الحروب الصليبية . ولكنهم لم يلقوا مجيباً ، يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينة ونشستر Winchester : « دع هؤلاء الكلاب يأكل بعضهم بعضاً حتى يقضى عليهم نهائياً ، وعندئذ سوف نقيم على أنقاضهم الكنيسة الكاثوليكية العالمية ، فنكون حقاً راعياً واحداً وقطيعاً واحداً »[3] . ولم يقف الإسماعيلية عند هذا الحد ، بل إنهم حاولوا تكوين اتحاد من جميع الإمارات المجاورة لهم لصد الخطر المشترك الذي يتهددهم جميعاً .

---

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ : قسمت اسماعيليان وفاطميان ونزاريان وداعيان ورفيقان ، ص ١٧٨ ، تحقيق محمد تقى دانش پژوه ، محمد مدرس (زنجانى) ، طبع طهران ؛ D'Ohsson : Histore des Mongols, Vol, III P. 174.

(٢) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٨٣ ؛ النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٢٤٦ ، ٣٤٠ .

(٣) انظر المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٨٣ ، حاشية ٤ .

ولا بد أن هذه الأخبار قد وصلت إلى المغول ، ووضح لهم عدم إخلاص هذه الطائفة ، ونفاقهم ورياءهم . ولعل هذا يفسر لنا المعاملة السيئة التي لقيها رسل الإسماعيلية الذين أوفدوا إلى قراقورم للاشتراك في القوريلتاي الذي انعقد هناك لانتخاب «كيوك» خاناً أعظم للمغول ، وكان ذلك في سنة ٦٤٤ (١٢٤٦ م) .

وعندما كان المغول يفكرون في إزالة الدولة العباسية ، أدركوا أن طائفة الإسماعيلية ستكون شوكة في ظهورهم ، وقد تحول دون تحقيق أطماعهم في السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي . لهذا أوصى منكوقاآن أخاه هولاكو بالقضاء على هذه الجماعة قبل مسيره إلى بغداد[1] قضاء مبرماً فيخرب قلاعهم ، ويجعل أعاليها أسافلها ، ولا يبقى منها أي أثر .

ولا شك أن العامل الهام الذي شجع المغول على مهاجمة الإسماعيلية هم المسلمون أنفسهم الذين كانوا تحت حكم المغول ؛ فلقد ضج هؤلاء بالشكوى من الإسماعيلية بسبب مالاقوه منهم من عنت وإرهاب وظلم وجور ، لا سيما أهل قزوين الذين كانوا يجاورونهم ، وكانوا في نضال دائم معهم ؛ لأنهم كانوا يعتنقون مذهب أهل السنة ، وكانوا يغالون ويتعصبون لهذا المذهب . يقول صاحب الفخري[2] : «حدثني الملك إمام الدين يحيى بن الافتخاري ، قال : أذكر ونحن بقزوين إذا جاء الليل جعلنا جميع ما لنا من أثاث وقماش ورَحْل في سراديب لنا في دورنا غامضة خفية ، ولا نترك على وجه الأرض شيئاً خوفاً من كبسات الملاحدة ، فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا ، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك ، ولأجل ذلك كثر حَمْـــلُ القزاونة للسكاكين وكثر حملهم للسلاح . وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر شمس الدين قاضي

(١) Von Hammer : Histoire de L'Ordre des Assassins, P. 257.

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٥ – ٢٦ ، الطبعة الثانية .

قزوين ، وتوجهه إلى قاآن ، وإحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان » .

ويذكر صاحب طبقات ناصري[1] أن القاضي شمس الدين أحمد الكافي القزويني كان على اتصال بالمغول ، وكان إماماً وعالماً كبيراً ، ذهب مرة إلى منكوخان ، وطلب منه أن يضع حداً لشر الملاحدة ، ويخلص الناس من فسادهم . وفي أثناء حديثه ، وبينما كان مندفعاً بحماسة المسلم المتدين ، صدرت منه كلمات جافة أغضبت منكوخان ، وكان لها أثر عميق في نفسه ، إذ نسب إليه الضعف والعجز ؛ لأنه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الذين يدينون بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول . وما ذاك إلاّ لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال ، بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته ، فيخرجون من الجبال والقلاع ؛ ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم .

خرج هولاكوخان على رأس جيشه من عاصمة المغول قراقورم في سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) . وقد أسرع أمراء الأطراف إلى تقديم كافة التسهيلات لتموين الجيش . كما أنهم أخذوا على عاتقهم تنظيف الطرق من الحجارة والأشواك . وهكذا صار هولاكوخان وجنوده يقطعون المراحل والمنازل ، حتى وصلوا إلى سمرقند في شعبان سنة ٦٥٣ هـ (فبراير ١٢٥٥ م) . ثم توجه هولاكوخان إلى مراعي «كان گيل» ، وكان مسعود بك حاكم ماوراء النهر وتركستان قد أقام له هناك خيمة مطرزة بالذهب ، فأمضى فيها هولاكو ما يقرب من أربعين يوماً ، وهو مشغول بالأنس والشراب . ثم رحل منها إلى مدينة كش Kesch التي كانت تقع إلى الجنوب الغربي من سمرقند ؛ فمكث فيها مدة شهر كان خلاله موضع تكريم الوجوه والأعيان في إقليم خراسان ، أولئك الذين أسرعوا إليه حاملين هداياهم ، ومقدمين له فروض الخضوع

---

(١) انظر الجوزجاني : طبقات ناصرى ، ص ٤١٣ — ٤١٤ .

والطاعة ، وكان على رأسهم الأمير أرغون حاكم إيران من قبل المغول .

بعد ذلك وجه هولاگوخان عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران يقول فيها : « لقد أتينا هنا بناء على أمر الخان الأعظم ، وعزمنا على تحطيم قلاع الإسماعيلية ، والقضاء على تلك الطائفة . فإذا ساهمتم معنا في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله تعالى من أمر الملاحدة ، فسوف لا نقبل عذركم ، ونتوجه إليكم فيجري على ولايتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم »[1] .

وعندما ذاع نبأ وصول هولاگو إلى إيران ، تلقى الثناء والترحيب من أتباعه الجدد ابتداء من شمس الدين كرت ملك هراة ، ومن السلغري أبي بكر سعد بن زنگي أتابك فارس إلى السلجوقيين القائمين في آسيا الصغرى وهما كيكاوس الثاني وقلج آرسلان الرابع[2] .

في ذلك الوقت كان جماعة الإسماعيلية يستوطنون الجبال في ولاية طالقان « وروذبار ألَـمُوت »[3] وكان لهم في تلك المناطق قلاع حصينة تبلغ الخمسين أشهرها وأمنعها ثلاث : ألَـمُوت وميمون دز ولنبه سر[4] . وكان الإسماعيلية يتخذون قلعة ألَـمُوت[5] عاصمة لهم وقاعدة لملكهم . كما كانت لهم قلاع

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ١٥٠ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٤٠ .

(٢) انظر Grousset : L'Empire des Steppes, P. 247

(٣) المحل الرئيسى لتجمع الإسماعيلية ، ويفصله عن قزوين ستة فراسخ.

(٤) حمد الله القزويني : نزهة القلوب ، ص ٦١ .

(٥) ذكر زكريا بن محمد القزويني في كتابه آثار البلاد ، ص ٢٠٠ أن ألموت قلعة حصينة من ناحية روذبار بين قزوين وبحر الخزر ، على قلة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها ، وهي كرسي ملك الإسماعيلية. قيل إن بعض ملوك=

أخرى محكمة في غير روذبار ألموت في قومس[1] وقهستان يحكمها حاكم يقال له « محتشم » .

سار القائد المغولي «كيتُو بوقا نويان »[2] في طليعة جيش هولاكوخان إلى قهستان ، وهي مناطق الجبال الواقعة بين هراة ونيسابور ، فاستطاع أن يستولي على كثير من القلاع الموجودة هناك . غير أنه عندما تقدم إلى قلعة « گردكوه » وجدها حصينة محكمة ، فأمر جنوده بحفر خندق عميق حولها .

ولكن طال الحصار على هؤلاء المدافعين ؛ فانتشر الوباء بينهم لندرة الماء والطعام ؛ فكان ذلك سبباً في وفاة الكثيرين منهم . وعندما علم بذلك علاء الدين حاكم الإسماعيلية في ذلك الوقت ، خشي مغبة الأمر ، وخاف أن تسقط القلعة في أيدي المغول إن استمر الحال على هذا المنوال ؛ فلم يجد مفرا من تقديم المساعدة السريعة إلى هؤلاء المحاصرين ، فأرسل ١١٠ شخصاً من الفدائيين المشهورين لإنقاذ أهالي هذه القلعة . وحدث أن فتاة كانت قد تزوجت من أمير إسماعيلي داخل القلعة ، فخضبوا يديها وقدميها بالحناء ، ثم غسلوها بالماء . ولما كان الماء عزيز الوجود ، شربت طائفة من المرضى من ذلك الماء الملوث بالحناء ، فلم يمت واحد منهم . وبهذا وضح للأهالي فائدة الحناء في دفع الوباء ، فطلبوا المزيد من هذا الصنف[3] .

وقد اخترق هؤلاء الفدائيون صفوف المغول ، وكان كل منهم يحمل

= الديلم أرسل عقاباً للصيد ، وتبعه فرآه ، ووقع على هذا الموضع ، فوجده موضعاً حصيناً ، اتخذه قلعة ، وسماها « آ له آموخت »(آ له بمعنى عقاب وآموت مخفف من آموخت) أي تعليم العقاب بلسان الديلم . ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لأنها بنيت في سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وهي م . و . ت .

(١) حالياً سمنان ودامغان .

(٢) يكتب أيضاً كيتبوقا ، كتبو قا ، كتبغا ، كتبوغا.

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في ايران) ، نشر كاترمير ، ص ١٧٢ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

بعض الحناء والملح ؛ لأن الملح كان قد نفد من القلعة . ومروا جميعاً دون أن يصابوا بأذى ماعدا شخصاً واحداً سقط في الخندق ، فكسرت ساقه . وقد حمله زملاؤه على أكتافهم ، وذهبوا به إلى القلعة . وبهذه النجدة قوي موقف الإسماعيلية في هذه القلعة ، وصاروا أقدر على المقاومة والصمود في وجه أعدائهم .

وفي نهاية شوال سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) وجد علاء الدين محمد زعيم الإسماعيلية مقتولاً في مكان يدعى « شيركوه »[١] . ويقال إن الحسن المازندراني الحاجب ، هو الذي قتله بالاتفاق مع خورشاه بن علاء الدين . وكان المازندراني أخص الخواص بالنسبة لعلاء الدين ، كما كان موضع أسراره ، ولا يفارقه ليلاً ونهاراً . وكان ركن الدين خورشاه يحقد على أبيه ، بسبب سوء معاملته له ، ولأنه خلعه من ولاية العهد . ولكن الإسماعيلية لم يقبلوا ذلك ، جرياً وراء تقليدهم القاضي بأن النص الأول هو الصحيح ، وأن عهد الإمام لا ينقض[٢] .

والدليل على أن ركن الدين كان متواطئاً مع الحسن المازندراني على قتل أبيه ، هو أن ركن الدين عندما خشي أن يُفْشِي المازندراني هذا السر ، أرسل إليه أحد أتباعه ، فقتله . ثم أحرقت جثته ، كما أحرقوا أبناءه الثلاثة ، وكانوا ولداً وطفلتين[٣] . وبعد مقتل علاء الدين محمد جلس ابنه ركن الدين خورشاه على عرش الإسماعيلية .

وفي غرة ذي الحجة سنة ٦٥٣ هـ (٢ يناير ١٢٥٦ م) عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون ، وتقدم نحو تلك القلاع المنيعة ، وأخذ هو وقواده يعملون

---

(١) اسم قرية وواد وجبل يقع في القسم الغربي من ناحية ألموت (انظر الجويني : ج ٣ ، ص ٤٢٥ ، حواشي العلامة القزويني) .

(٢) عبد الفتاح السرنجاوى : النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ، ص ٢٨٢ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ (قسمت اسماعيليان وفاطميان ونزاريان وداعيان ورفيقان) ص ١٨٤ .

في تخريبها وتحطيمها . ولكنه أدرك منذ اللحظة الأولى أنه إذا اعتمد على القوة وحدها في الاستيلاء على تلك القلاع ، فإن ذلك سوف يكلفه مزيداً من التضحية فضلاً عن طول الوقت ، وذلك نظراً لمناعة هذه القلاع ، ولاستماتة الفدائيين في الدفاع عنها ، فلجأ إلى سياسة الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد . وقد نجحت هذه السياسة بالفعل ؛ فعندما أرسل هولاكوخان الملك شمس الدين كرت برسالة إلى ناصر الدين[1] محتشم الإسماعيلية في قلعة « سرتخت » يدعوه إلى الدخول في طاعته ، امتثل لهذا الأمر ، وقصد هولاكوخان في صحبة شمس الدين كرت حيث قدم للخان جملة من الهدايا والتحف بعد أن قبل الأرض بين يديه . فتعطف هولاكو عليه وقبل تلك الهدايا ، ثم قال له : « إنك نزلت من القلعة ، وقبلت الخضوع لإنقاذ حياة زوجتك وأبنائك . فلماذا لم تنزل معك سكان القلعة ، وتحثهم على التسليم ؟! ... » فأجاب ناصر الدين : « إن لهم ملكاً يدعى خورشاه ، يأتمرون بأمره »[2] .

بعد ذلك أنعم عليه هولاكوخان بلوحة ذهبية « پايزه » ومرسوم « يرليغ » ونصبه حاكماً على مدينة « تون » ، إلى أن توفي في شهر صفر سنة ٦٥٥ هـ (يناير ١٢٥٧ م) .

ولما فرغ هولاكو من هذه المهمة ، صار ينتقل من مكان إلى آخر ، حتى وصل إلى حدود زاوه[3] وخواف[4] . وحدث أن اعتلت صحته ،

---

(١) هو ناصر الدين أبو الفتح عبد الرحيم بن أبي منصور محتشم قهستان . كان رجلا كريماً فاضلا ، يقرب إليه العلماء والأدباء ، ويميل إلى مجالستهم ، وخاصة الرياضيين منهم . عاش في بلاطه مدة العالم الرياضي الكبير الخواجه نصير الدين الطوسى ، وألف له كتاب « أخلاق ناصري » باللغة الفارسية في حدود سنة ٦٣٣ هـ ، وقدمه باسمه . توفي ناصر الدين في سنة ٦٥٥ (انظر منتخب أخلاق ناصري، نشر جلال همائي ، ص ح – خ من المقدمة).

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ١٧٦ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٤٦ .

(٣) كورة بخراسان .

(٤) مدينة بخراسان بالقرب من نسا ، كبيرة آهلة ذات قرى وبساتين ومياه كثيرة .

فترك الميدان لقواده إلى أن يشفى من مرضه . فلما انتهى قواده من مهمتهم ، لحقوا به ، وسار الجميع إلى طوس ، ومنها إلى نخبوشان . ومن هناك أرسل هولا كو رسله إلى خورشاه ، يطلب إليه الخضوع والتسليم . ولم ينتظر الرد ، بل شرع في الهجوم . وفي العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ هـ (يناير ١٢٥٦ م) قصد خرقان وبسطام ، وشرع هو وجنوده يفتحون القلاع الواحدة بعد الأخرى ، حتى تمت لهم الغلبة على أكثرها ، ولم تستعص عليهم أول الأمر إلا قلعتا ميمون دز وألموت ؛ إذ طال حصارهم لهاتين القلعتين . وأخيراً أرسل هولا كو رسله مرة أخرى إلى قلعة ميمون دز ، حيث كـــان يقيم خورشاه ؛ وذلك لتهديده وتخويفه حتى يسارع إلى التسليم .

في ذلك الوقت كان الأصدقاء الثلاثة : الخواجه نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة[١] يقيمون مجبرين في قلعة « ميمون دز »[٢] ، وكانوا قد سئموا الإقامة عند الإسماعيلية ، لما رأوه من أفعال خورشاه السيئة ، ولما لمسوه من ظلمه وجوره ، فمالوا إلى هولا كوخان ، وودوا لو وجدوا الخلاص على يده من هذا السجن الذي هم فيه محصورون . فبدأوا يتشاورون سراً ، واتفقوا على أن يقنعوا خورشاه بالتسليم . وعلى هذا صاروا يزينون له النزول على حكم هولا كو ، وعدم مقاومته ؛ لأن في هذا نجاة له ولأسرته .

ولما رأى هولا كو أن خورشاه يراوغه ويداوره ، عقد العزم على فتح القلعة عنوة ، فشدد الحصار عليها من جميع الجهات . ولكن مع هذا تعذر عليه اقتحامها . فاستشار هولا كوخان النبلاء والأمراء من المغول في استمرار الحصار أو العدول عنه ، والعودة إلى قواعدهم ، والانتظار حتى يحل الربيع ، فقالوا له : « إننا في وقت الشتاء ، وحيواناتنا نحيفة عجفاء ، والعلف منعدم ، ويجب المبادرة بنقل العلف من طرف الأرمن أو حدود كرمان . وإذن فمن

---

(١) هو جد المؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله .
(٢) انظر ميرخواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٧٦ ، طبع لكهنو .

الأفضل أن نعود إلى قواعدنا »[1] . ولكن بعض قواد هولا كو أصروا على الاستمرار في ضرب الحصار حول هذه القلعة . وأخيراً أرسل هولا كو رسالة إلى خورشاه ملؤها التهديد والوعيد ، يعرض فيها أنه إذا نزل من القلعة ، وتخلى عن المقاومة ، وتوجه إلى معسكر الخان ؛ فإن تصرفه هذا سوف يكون سبباً في إنقاذ حياة طائفة كبيرة من الضعفاء والمساكين . وأما إذا تلكأ ، ولم يقدم نفسه خلال خمسة أيام ، فإن عليه أن يستعد لحرب ضروس .

ولقد كان لهذه الرسالة أثرها البالغ في نفس خورشاه ، فاستشار أركان دولته ، واستقر الرأي على أن يرسل إلى هولا كوخان الخواجه نصير الدين الطوسي مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة ، يحملون التحف والطرائف الكثيرة ، فوصلوا إلى معسكر هولا كو في يوم الجمعة ٢٧ شوال سنة ٦٥٤ هـ .

وأخيراً وجد « ركن الدين خورشاه » أن الأمر قد خرج من يده ، ولم تعد له طاقة على المقاومة . كما أن اليأس كان قد تطرق إلى نفوس رجاله المحاصرين ، وفقدوا كل أمل في الصمود . فنزل من قلعة ميمون دز التي كان يقيم فيها . وكان ذلك في يوم الأحد غرة ذي القعدة سنة ٦٥٤ هـ ، وسلم نفسه لهولا كو مظهراً الخضوع والطاعة .

بعد ذلك توجه هولا كو إلى معقل الإسماعيلية في ألَـمُـوت . واستدعى ركن الدين خورشاه ليحث المدافعين على التسليم . ولكن قائد القلعة رفض أن ينصاع لنصائح خورشاه . فما كان من هولا كو إلاّ أن أمر جنوده بضرب الحصار حول القلعة . ثم شنوا هجوماً عاماً عليها استمر ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع ، أرسل هولا كو إلى المحاصرين منشوراً يؤمنهم على حياتهم إذا ما أسرعوا إلى التسليم ، فاستجاب قائد القلعة لنداء هولا كو ، ونزل من القلعة ،

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٢١٠ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

وسلمها للقائد المغولي . وعندئذ صعد المغول إليها ، فحطموا ما وجدوه من الأسلحة وأدوات القتال . وقد طلب السكان مهلة ثلاثة أيام لنقل أمتعتهم . وفي اليوم الرابع اقتحم الجنود القلعة ، وأعملوا فيها يد التخريب والتدمير بعد أن استولوا على الكنوز والأموال . كذلك وقعت في أيديهم تلك المكتبة النفيسة التي تعب الإسماعيلية في إعدادها ، وصرفوا في ذلك سنوات عديدة ، حتى طبقت شهرتها الآفاق ، وكانت عاملاً هاماً في إذاعة صيت تلك الجماعة .

وقد استأذن المؤرخ عطا ملك الجويني «هولاكوخان» في أن يطلع على محتويات تلك المكتبة ، ليبقى منها الصالح ، ويحرق مادون ذلك من الكتب التي تتناول عقائد الإسماعيلية الفاسدة . وهكذا استطاع أن ينقذ من الهلاك مجموعة قيمة من المصاحف والكتب وآلات الرصد . ومن بين الكتب التي عثر عليها عطا ملك كتاب سرگذشت سيدنا (أي سيرة سيدنا) الذي كان يشتمل على شرح أحوال الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده . وقد ضمن الجويني خلاصة هذا الكتاب في الجزء الثالث من مؤلفه « تاريخ جهانگشاي »[1] ، فحفظ لنا بذلك تاريخ هذه الجماعة من الضياع .

ولما تأكد هولاكوخان من صدق وإخلاص نصير الدين الطوسي ومرافقيه — ممن كانوا يقيمون مكرهين في قلاع الملاحدة — شملهم بعطفه ، ورفع قدرهم ، وألحقهم بخدمته . ثم أمر فأُعطيت لهم الدواب اللازمة لحمل أُسرهم وأمتعتهم ، وكل ما يتعلق بهم إلى معسكره ، وصيّرهم من أتباعه وملازميه .

أما عن مصير ركن الدين خورشاه ، فقد عامله هولاكوخان معاملة حسنة ؛ إذ أنعم عليه ، ومنحه فتاة مغولية ليتزوج منها ، واختار له مدينة قزوين لتكون مكاناً لإقامته ، ولحفظ أمتعته وأمواله ، وليتخذها سكناً لأتباعه .

والآن نتساءل لِمَ أبقى هولاكوخان على خورشاه ، ولِمَ عامله هذه المعاملة الكريمة رغم مراوغته ومقاومته للمغول مدة طويلة ؟!... يجيب المؤرخ

---

(١) الجويني : تاريخ جهانگشاي ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

رشيد الدين عن هذا السؤال فيقول[1] : « لما كان هولا گوخان قد قطع العهد على نفسه لخورشاه بأن يؤمنه على حياته ؛ فإنه لم يشأ أن يتحلل من هذا العهد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأن هولا گو كان يعرف جيداً أنه لازالت هناك قلاع كثيرة تخص الإسماعيلية ، موجودة في هذه الديار ، وفي بلاد الشام . وهذه وتلك يمكن استخلاصها دون إراقة دماء ، وذلك بتوجيه خورشاه ونفوذه باعتباره زعيمهم الأكبر . وإلاّ كان على هولا گو أن يصرف السنوات العديدة ، فضلاً عن الجهود المضنية حتى يتيسر له فتح هذه القلاع الحصينة .

ولكن هذه المعاملة القائمة على التسامح لم تدم طويلاً ، فقد أرسله هولا گوخان إلى بلاط أخيه في منغوليا . فلما علم هذا الخان أن خورشاه في طريقه إليه خاطب أتباعه قائلاً : لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثا على الدابة التي يركبها ؟!... ثم أرسل من قبله شخصاً قضى عليه . وتبع ذلك حركة تقتيل في جميع أفراد أسرته وأقاربه من الرجال والنساء ، ولم يستثنوا حتى الأطفال . وكان ذلك في موضع يقع ما بين أبهر وقزوين . وأغلب الظن أن هولا گوكان يريد أن يبدو إلى آخر لحظة محافظاً على عهده وميثاقه ، فاتفق مع أخيه منگو على الخلاص من خورشاه بهذه الطريقة .

ولقد كان لانحدار طائفة الإسماعيلية رنّة فرح وسرور عمت العالم الإسلامي رغم ما كان يعانيه من المغول ، ورغم ما كان يتوقعه على أيديهم من أحداث أخرى جسام ؛ وما ذلك إلا لأن هذه الفرقة التي قاومت في القرن السادس كل جهود سلاطين السلاجقة ، واستطاعت أن تفزع الخلفاء العباسيين وترهبهم ـ كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي ، والتفرق في

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٢١٦ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

العالم الإسلامي . فإذا كان هولاكو قد أبادها أخيراً ، فإنما يكون قد أدى بذلك خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة[1] .

يقول الجويني : « حقاً !... لقد كان هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين ، وتداركاً للدين من الخلل . وإن الناس الذين يبقون من هذا العهد ، يعرفون إلى أي حد بلغت فتنة هذه الطائفة ، وإلى أي مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم . وإن الشخص الذي كان على وفاق معهم منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر ، إنما كان فقط مدفوعاً بدافع الخوف منهم . أما إذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجيناً خوفاً من رعاعهم . لقد كان كأساً طافحاً ، وريحاً عاتية ، ولكنها أخمدت »[2] .

---

(١) Grousset : L'Emqire des Steppes, P. 427 .

(٢) الجويني : تاريخ جهانكشاي ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

الفصل العاشر

هولاگوخان وسقوط الخلافة العباسية

الفصل العاشر

هولاكوخان وسقوط الخلافة العباسية

بعد أن حقق هولاكوخان هدفه الأول ، وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية في بغداد . وقبل أن نخوض في شرح حملة هولا كو على تلك المدينة ، يجدر بنا أن نعرف الحالة التي كانت عليها الخلافة والخليفة في نفس الوقت :

١ ـ كانت الخلافة العباسية قبيل حملة هولا كو قد تطاول عليها الزمن ، وأدركتها الشيخوخة ، وبدت عليها مظاهر الانهيار . وفي الحقيقة كانت جذور الضعف تمتد في جسم هذه الدولة قبل ذلك بمدة طويلة ، بسبب سيطرة الفرس أولاً ثم غلبة الأتراك ثانياً منذ أن فتح لهم الخليفة المعتصم الباب على مصراعيه ، فاستأثروا بالنفوذ ، وطغوا على سلطان الخلفاء . ولا شك أن تهاون العباسيين وانصرافهم عن العرب ، لمن أهم العوامل التي أدت إلى سقوط هيبة الخلافة ، الأمر الذي أطمع ولاة الأمصار في الاستقلال بولاياتهم ، والاكتفاء بتقديم ولاء صوري للخلافة . وبذلك تفككت الروابط القوية التي كانت تربط الحكومة المركزية بالأمصار في العصور الأولى . وعلى هذا نشأت دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة ، وعلى أطراف

مناطقها . يقول الدكتور فيليب حتى[1] وزميلاه : « مثل الخلافة في ذلك مثل الإمبراطورية الرومانية الغربية من قبل ، وقد أصبحت كعليل على فراش الموت ، فانتهز اللصوص فرصة مرضه للإجهاز عليه ، والقبض على ميراثه » .

ثم إن اعتلال الإدارة ، وشغب الموالي ، وتطاولهم على الخلافة ، واستئثارهم بالنفوذ والصولة ، كان له أعظم الأثر في وهن السلطة المركزية ؛ فالخلفاء صاغرون أذلاء قد رضوا لأنفسهم الهوان والإساءة ، وهم يستوون والوزراء والقضاة ورؤساء العسكر في أنهم راشون مرتشون ، يعيشون في جومن الغموض والريبة . أضف إلى ذلك أن ثورات العلويين المتتابعة ، كانت قد كلفت الدولة العباسية كثيراً من المال والرجال والجهد ، وعملت على استنزاف قوى الدولة . كذلك يجب ألا ننسى أن عوامل عدم الاستقرار ، وانتفاء الأمان ، وكثرة نقض العهود ، والتحلل من الأيمان ؛ بسبب التنافس على عرش الخلافة ، وسوء الحالة الاجتماعية على أثر الانغماس في الترف ، والعكوف على الشراب والغناء ، والأخذ بأسباب اللهو إلى أبعد حد ، والإقبال على التسري ، وما رافقه من نظام الحريم والخصيان ، واقتناء الجواري والغلمان ، وتكاثر الأبناء والبنات المولدين من أمهات مختلفات في بلاط الخلافة — كل ذلك من شأنه أن يعمل على تقويض معنويات الأمة ، وتوهين مقام المرأة ، وانحراف الرجال وذهاب المروءة منهم ، وإفساح المجال للتحاسد والتباغض وإثارة الفتن وإشاعة الفساد في جسم هذه الدولة ، والقضاء على النشاط والحيوية في أفراد البيت المالك[2] .

وهكذا عاشت الدولة العباسية لتشهد انسلاخ الأطراف عنها واحداً بعد الآخر ، حتى إذا اقتربت نهايتها ، لم يبق لها غير القلب الذي صار ينبض

---

(١) تاريخ العرب (مطول) ، ج٢ ، ص ٥٨٠ ، الطبعة الرابعة .
(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

في جسد عليل لا يكاد يتجاوز إقليم العراق وخوزستان . وهذا القلب قد اختلت دقاته ، وانقطع نظامه ، بحالة لا يمكن أن يقف معها لمواجهة اليد الباطشة القوية التي امتدت إليه من الشرق .

٢ ــ في ذلك الوقت كان الخليفة هو المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ٦٤٠ ــ ٦٥٦ هـ (١٢٤٢ ــ ١٢٥٨ م) ، وكان كما يقول ابن طباطبا : « رجلاً متديناً ، لين الجانب ، سهل العريكة ، سهل الأخلاق ، ضعيف الوطأة ، إلاّ أنه كان مستضعف الرأي ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعاً فيه ، غير مهيب في النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور . وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني ، والتفرج على المساخرة . وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة . وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أراذل العوام »[١] .

ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، يطلب منه جماعة من ذوي الطرب . وفي تلك الحال وصل رسول السلطان هولا گو إليه ، يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار ، فقال بدر الدين : انظروا إلى المطلوبَيْن ، وابكوا على الإسلام وأهله[٢] . ولكن على الرغم من هذا ، كان شديد البخل ، يكنز الأموال ، ويقيم وزناً كبيراً للدينار والدرهم ، ولا يصرف الأموال في شئون الدفاع ، وتشجيع الجنود وحثهم على مواجهة الأعداء . وقد استمر هــذا العيب لاصقاً بــه حتى في أحرج الأوقات عندما قدم هولا گوخان بجيوشه الجرارة إلى إيران ، وصار يتهــدد دولة المستعصم بالفناء .

٣ ــ كانت الأخبار تصل الخليفة تباعاً باقتراب جيوش المغول ، ومع ذلك لم يتخذ الأهبة لمواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم ، أو على الأقل

(١) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٩٠ ، الطبعة الثانية .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ ــ ٤١ .

يداهنهم ويصانعهم ، كما صنع غيره من أمراء الولايات ، بل كان على العكس إذا لفت نظره إلى ما يجب أن يفعله مع التتار : إما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجيِّش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق – يقول : « أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلتُ لهم عن باقي البلاد ، ولا أيضاً يهجمون عليّ وأنا بها ، وهي بيتي ودار مقامي »[1] . يقول ابن شاكر الكتبي : كان (المستعصم) متديناً متمسكاً بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده ، ولم يكن على ما كانوا عليــه من التيقظ والهمة ، بل كـــان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ ، نازل الهمة ، محباً للمال ، مهملاً للأمور ، يتكل فيها على غيره »[2] .

٤ – رغم أن المستعصم كان ضعيف الرأي ، قليل العزم ، كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول ، كان يظن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام الخطر المغولي ؛ فخالف بذلك السياسة التقليدية التي درج عليها أسلافه زمناً طويلاً مع السلطات القوية التي تعاقبت على إيران ؛ ونقصد بها البويهيين والسلاجقة ؛ إذ كانت القاعدة أن هؤلاء السادة حين كانت تطغى قوتهم ، كان الخلفاء يستسلمون ويقبلون إلى جانبهم أمير الأمراء البويهي أو السلطان السلجوقي . وكان الخليفة حين يستسلم ، يتمسك بوظائفه الروحية ، ويترقب إلى أن تستنفد تلك السيادة الوقتية قواها ؛ حتى إذا حانت الفرصة للخليفة ، ولمس بادرة ضعف في هؤلاء السادة ، عاد فرفع رأسه ، وتدخل في حل المشكلات ، وعمل على إنهاء تلك السيادة ؛ فكانت الخلافة أبقى من هؤلاء الحكام الذين قد يعمرون دهراً قصيراً أو طويلاً . ولكن مصيرهم إلى الزوال . أما الخلافة فإن لها الخلود كما كانوا يعتقدون[3] . أو على حد تعبير الخليفة على

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٥ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

(٣) انظر . Grousset : L'Empire des Steppes, P. 428

لسان رسوله إلى هولاكو : « إن كل ملك قصد أسرة العباسيين ودار السلام بغداد ، صارت عاقبته وخيمة . ومهما قصدهما الملوك ذوو الصلابة وأصحاب الشوكة ، فإن بناء هذه الأسرة محكم للغاية ، وسوف يدوم إلى يوم القيامة »(١) .

٥ ـ لم يكن زمام الأمور في بغداد مركزاً في يد واحدة ، بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة كل منها يجور على السلطة الأخرى، ويتدخل في عملها . ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بيدهم تصريف شئون الدولة ، بل كانوا متنازعين متباغضين ، كل منهم ينقم على الآخر ، ويدبر ضده المؤامرات ، ويسفه رأيه عند الخليفة . وفوق كل هؤلاء كان الخليفة مسلوب الإرادة ، ضعيف الشخصية ، لا يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده ؛ فترتب على ذلك أن اتسعت شقة الخلاف بين هؤلاء الساسة ، واستحكم العداء بينهم خصوصاً بين مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم ، وكان شيعياً ، وبين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير ، وكان سنياً ؛ فقد حدث قبيل حملة هولاكوخان أن جمع الدواتدار الصغير حوله كثيراً من الرعاع والمشاغبين والسفلة ، وأخذ يهدد الأمن ، ويضع الخطط لخلع الخليفة وإحلال آخر محله . فلما علم الوزير بتلك المؤامرة ، أخبر الخليفة على الفور بما يدبر ضده ، وطلب إليه أن يقضي على تلك الفتنة في مهدها . ولكن الخليفة جرياً على سياسة التهاون وعدم المبالاة ، لم يصغ إلى نصيحة وزيره ، وأمّن الدواتدار على حياته ، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة . ولا شك أن تصرف الخليفة على هذا النحو ليدل على سوء الحالة التي وصلت إليها الخلافة في هذا العهد ، وأنها لامحالة قد آذنت بالمغيب .

ومنذ وقوع هذا الحادث والوزير والدواتدار كلاهما يكيد للآخر عند الخليفة ؛ مما كان له أثره السيء في اضطراب الأمور ، وتقويض سلطة الخلافة ،

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٢٥٠ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٧٥ .

لأن مثل هذه التصرفات كانت تصدر عن غاية وهوى ، لا عن خدمة حقيقية للدولة .

٦ — كان سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود . وكان هؤلاء جميعاً في خلاف دائم حول المسائل الدينية ، كما كانوا يختلفون في الميول السياسية . ولا شك أن مثل هذه الحالة كثيراً ما كانت تثير الفتن والمنازعات بين السكان . من ذلك أنه في أواخر عهد المستعصم ، نشب قتال بين الشيعة وأهل السنة ؛ فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفض هذا النزاع ، فأغار أبو بكر على مقر الشيعة في الكرخ ، وارتكب كثيراً من الفظائع ، فقتل الرجال ، وسبى النساء ، وسفك الدماء ، وهتك الأعراض ، واستباح الحرمات ، فكان لهذا التصرف أسوأ الأثر في نفوس الشيعة ، فنقموا على المستعصم وعلى ابنـه . وقد أثار هـذا الحادث كوامن الأحقاد على الدولة العباسية فبرموا بها ، وتمنوا زوالها . كما أن مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان من كبار الشيعة ، قد تألم جداً لوقوع هذا الحادث ، فكاتب التتر ، وأطمعهم في ملك بغداد[1] .

٧ — أثر العوامل الاقتصادية ، وأولها الخراج المرهق ، وخطة التحكم في شئون الأمصار لمصلحة الطبقة الحاكمة مما آل إلى كساد الحياة الزراعية والصناعية . وكان كلما ازداد الحكام غنى ، ازداد الفقراء فقراً . ولما تجزأت الدولة إلى دويلات ، قام كل من أولياء الأمر بابتزاز أموال رعيته . وقضت الحروب المتواصلة بإنقاص عدد الرجال العاملين ، فعدت أكثر المزارع مهجورة خربة . وزاد الخرابَ تكررُ الفيضان في سهول العراق الجنوبية[2] .

وفي آخر صيف سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) حدث سيل عظيم أغرق مدينة بغداد ؛ لدرجة أن الطبقة العليا من المنازل هناك ، غرقت في الماء واختفت

---

(١) الجوزجاني : طبقات ناصري ، ص ٤٤٤ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٦٥ .

(٢) الدكتور فيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) ، ج ٢ ، ص ٥٨٢ ، الطبعة الرابعة .

تماماً . وقد استمر السيل يهطل في تلك الديار خمسين يوماً ، ثم بدأ في النقصان . وكان من نتيجة ذلك ، أن نصف أراضي العراق قد أصبح خراباً يباباً[1] .

سير الحملة :

في عهد المستعصم جاء المغول إلى العراق عدة مرات ، حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيوش الخليفة ، ولكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء على بغداد حتى أوائل سنة ٦٥٦[2] هـ (١٢٥٨ م) . وعندما صمم هولا گو على مهاجمة الإسماعيلية ، أرسل إلى الخليفة يطلب إليه أن يمده بجيش ليعاونه في القضاء على تلك الطائفة . فلما شاور الخليفة أتباعه ، حذروه أن يقدم على هذا العمل ، وأدخلوا في روعه أن هولا گو يريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش ، حتّى يسهل عليه أن يستولي عليها في أي وقت يشاء دون أن يجد صعوبة أو مشقة ، فوافقهم الخليفة ، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولا گو[3] .

فلما فرغ الإيلخان من محاربة الإسماعيلية ، قصد همذان . وفي شهر رمضان سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧ م) أرسل رسولاً يحمل رسالة إلى الخليفة مصاغة في قالب من التهديد والوعيد ، لامتناعه عن إرسال المدد . ولم يكن هذا الاحتجاج في الواقع إلاّ ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد لأمراء البويهيين ثم لسلاطين السلاجقة . يقول هولا گو في هذه الرسالة : « لا بد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ چنگيزخان ، وعلمت أية مذلة لحقت

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (الإيلخانيون) ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، الترجمة العربية .

(٢) انظر ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ؛ جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٥ ، تصحيح بلوشيه ، طبع ليدن .

(٣) انظر الرسالة الصغيرة في فتح بغداد المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي ، والملحقة بكتاب تاريخ جهانگشاي ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ٢٦٩ .

بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة ، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة . فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان ؟!... وقد نصحناك قبل هذا . والآن نقول لك : تجنب الحقد والخصام والضغينة ، ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثاً . ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق ، وتسلم ابنك المملكة ، ثم تتوجه لمقابلتنا . وإذا كنت لا تريد ذلك ، فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدواتدار ، ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان ، فإذا أطعت أمرنا ، فلا حقد ولا ضغينة ، ونبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك . وأما إذا لم تنتصح ، وسلكت طريق الخلاف والجدال ، فأعد جيشك ، وعيّن جبهة للقتال فإننا مستعدون لمحاربتك . واعلم أنني إذا غضبت عليك ، وقدت الجيش إلى بغداد ، فسوف لا تنجو مني ، ولو صعدت إلى السماء ، أو اختفيت في باطن الأرض » .

« فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك ، فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء ، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله »[1] .

فرد الخليفة بالرفض على هذا التحذير الرسمي من المغول ، وعارض إمبراطوريتهم بالسيادة الروحية للخلافة الإسلامية فقال : « أيها الشاب الحدث ! . الذي لم يخبر الأيام بعد ، والذي يتمنى قصر العمر ، والذي أغرته إقبال الأيام ومساعدة الظروف ، فتخيل نفسه مسيطراً على العالم ، وحسب أن أمره قضاء مبرم ، وأمر محكم . لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي ؟!.. ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الأديان ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي ؟! ... إنني عندما أشير بجمع الشتات ، سأبدأ بحسم إيران ، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران ، وأضع كل شخص في موضعه ، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءاً بالقلق والاضطراب » .

« غير أني لا أود الحقد والخصام ، ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم . كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش ، أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح والقدح ، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولا كوخان قلب واحد ولسان واحد » .

« فإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة ، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم؟!... أسلك طريق الود ، وعد إلى خراسان . وإن كنت تريد الحرب والقتال ، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، فإن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة هم على أهبة الاستعداد للقتال »[1] .

ونحن إذا أمعنا النظر في رسالة الخليفة ، نجد أنه هو الآخر كان حريصاً على التهديد والوعيد ، أكثر من حرصه على المسالمة والمهادنة . وربما كان يظن أن ذلك قد يرعب هولاكو ، ويجعله يفكر ملياً قبل أن يقدم على خطوته . ولكنه كان واهماً في ظنه ؛ لأنه لم يكن له سند حقيقي من قوة حتى يمكنه أن يقف هذا الموقف المتشدد من قوم محاربين جبابرة ، دوخوا الممالك ، وقوضوا العروش في مدة قصيرة من الزمن . ثم إنه إذا كان يعتمد على العالم الإسلامي الذي يدعي أنه رهن إشارته ، فقد أخطأه التوفيق كذلك ؛ لأن المستعصم كان أول من يعلم حقيقة العالم الإسلامي في ذلك الوقت . كان يعلم أنه فقد أهم أجزائه ، وأنه لا يزال يعاني الأثرة والأنانية والتفكك والانحلال ، فلا يعقل أن يهب لنجدته مهما كانت الأسباب . يقول الأستاذ الدكتور الباز العريني : « الواقع أن الخليفة اعتقد بأنه سوف يلبي نـــداءه

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٢٣٤ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٧٠ .

الأيوبيون في الشام والمماليك في مصر ، فيهرعون إلى الانضواء تحت العلم الأسود شعار العباسيين ، وسوف تعلن إيران وتركستان التمرد والعصيان على المغول » .

« على أن هذه الآمال كانت خادعة؛ إذ أن الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر ، توافر عندهم من المشاكل ما يمنعهم من النهوض لمساعدة بغداد ، ولن يتحرك الأتابكة الترك والفرس لمساندة الخليفة ، بعد أن استبد بهم الخوف والرعب من المغول »(١) .

وإذن كان من الطبيعي ألاّ تجدي تلك التهديدات ، بل يكون لها على العكس أسوأ الأثر في نفس هولاگو ؛ فيصمم قبل كل شيء على فتح بغداد . وهذا ما حدث بالفعل .

وصل رسل الخليفة إلى هولاگو ، فلما اطلع هذا على رسالة الخليفة ، وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد ، غضب غضباً شديداً ، وأعاد رسل المستعصم ؛ وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنـــذاراً نهائياً له ، صيغ في لهجة شديدة عنيفة إذ يقول : « لقد فتنك حب الجاه والمال ، والعجب والغرور بالدولة الفانية ؛ بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير وإن في أذنيك وقراً ، فلا تسمع نصح المشفقين . ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك . وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال ، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد . ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى ؛ فتلك هي مشيئة الله العظيم »(٢) .

فلما عرضت هذه الرسالة على الخليفة ، استشار كبار رجال دولته فيما عساه أن يفعل . فكان الوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي يرى أن يبذل

---

(١) الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٢٣٨ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٧١ .

الخليفة الأموال والتحف والهدايا ، ويرسلها إلى هولاكو مع تقديم الاعتذار إليه . كذلك كان يرى أن يذكر اسم هولاكو في الخطبة ، وينقش اسمه على السكة ؛ على نحو ما كانت تسير عليه الأمور أيام البويهيين والسلاجقة . وهذا في رأيه كفيل بأن يثني الغازي المغولي عن عزمه على فتح بغداد ، ولا يتعرض للخليفة بسوء . وكان المستعصم يميل إلى الأخذ بهذا الرأي .

غير أن مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير – الذي كان يستند إلى تأييد السنيين ورجال الجيش – رفض اقتراح الوزير ، وأصر على ضرورة المقاومة . فعدل الخليفة بكل بساطة عن رأي الوزير ، ووافق على مارتآه الدواتدار .

وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد ، استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس . أما الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول الأعظم « منكوقاآن » فقد كان سنياً يعطف على الخليفة العباسي ، ويحرص على أن يمنع هولاكو من الإقدام على غزو بغداد فراح يؤكد له آن هذه الحملة سوف تحدث خللاً في نظام الكون ، فضلاً عن أنها سوف تكون وبالاً على الخان نفسه ، فكان مما قاله له : الحقيقة أن كل ملك تجاسر – حتى هذه اللحظة – على قصد الخلافة والزحف بالجيش إلى بغداد ، لم يبقَ له العرش ولا الحياة . وإذا أبى الملك أن يستمع لنصائحي ، وتمسك بمشروعه ؛ فسينتج عنه ست مصائب كبيرة :

أولاً – تموت الخيول كلها ، ويمرض الجنود .
ثانياً – لن تطلع الشمس .
ثالثاً – لن ينزل المطر .
رابعاً – تهب رياح شديدة ، ويعاني العالم من الزلازل .
خامساً – لن ينبت النبات في الأرض .
سادساً – يموت الخان الأعظم في هذا العام .

وأما اللامات (بَخْشيان) والأمراء فقد قالوا : إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة

بعد ذلك استدعى هولاكوخان « نصير الدين الطوسي » لاستشارته . ولما كان يكره الخليفة ، ويعمل على إسقاطه ؛ فقد نقض كل ما قاله حسام الدين ، وطمأن هولاكو بأنه لا توجد موانع تحول دون إقدامه على الغزو ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أخذ يؤيد وجهة نظره بالحجج القوية التي تكذب نبوءة حسام الدين ، فذكر أن الكثيرين من أصحاب الرسول ماتوا في الدفاع عن الدين ، ومع ذلك لم تقع أية كارثة . وإذا قيل إن ذلك خاص ببني العباس ، فإن الكثيرين من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة ، وقتلوا منهم بعض الخلفاء ، دون أن يحدث أي خلل . وأخذ نصير الطوسي يتمثل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمداً الأمين ، وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم[١] .

وعلى أثر ذلك أصدر هولاكو أمره بأن تتحرك جيوش المغول من أطراف بلاد الروم عن طريق إربل والموصل متجهة نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربية ، وتنتظر حتى تصل إليهم جيوش هولاكو من الناحية الشرقية . أما كيتوبوقا أحسن قواد هولاكو ، فقد اتجه بالجناح الأيسر إلى العاصمة العباسية عن طريق لورستان وخوزستان . كما أنفذ إليها بعض أمراء المغول عن طريق كردستان الحالية .

وفي أوائل المحرم سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) نزل هولاكو من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان ، وكان معه في تلك الغزوة ، الأمير أرغون والخواجه نصير الدين الطوسي والوزير « سيف الدين البيتكچي »[٢] ،

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) نشر كاترمير ، ص ٢٦٢ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٠ .

(٢) هو الأمير سيف الدين البيتكچي بهادر بن عبد الله الخوارزمي وزير هولاكو ومدبر —

وعلاء الدين عطا ملك الجويني . وقد استطاع هولا گو أن يستميل إلى جانبه سكان الأماكن الجبلية المتاخمة للعراق بواسطة الأموال التي كان يبذلها لهم ، كما استطاع أن يضم إليه كثيراً من جنود سليمان شاه[1] .وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك أبو بكر في إقليم فارس ممن أمدوا هولا گو بالمال والرجال .

ولما انتهى حشد القوات المغولية ، وأقام هولا گو معسكره في ظاهر بغداد من الشرق ، حاول الجيش الصغير الذي أعده الخليفة بقيادة مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول في أماكنهم ، فكان نصيبه الهزيمة المنكرة ، وقتل عدد كبير من الجنود ، لقوا حتفهم على يد المغول ، فلم يسع مجاهد الدين إلاّ الهرب مع قليل من أتباعه .

وفي يوم الثلاثاء ٢٢ من المحرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) أحكم الحصار حول مدينة بغداد ، واستمر حتى نهاية هذا الشهر . وفي خلال تلك الفترة كان المغول يطلقون يد التخريب في المدينة ، ويفتحون الأبراج حتى استولوا

= ملكته . قدم مع هولا گو عندما جاء بحملته على ايران عام ٦٥٣ هـ . وبعد أن فرغ هولا گو من فتح بغداد ، طلب إليه سيف الدين أن يرسل مائة نفر من المغول إلى النجف ليحافظوا على قبر أمير المؤمنين علي ، والسكان القاطنين هناك (انظر جامع التواريخ ، نشر كاترمير ، ص ٣١٠) .

(١) سليمان شاه بن برچم الإيوائي هو أحد قواد المستعصم المشهورين ، يقترن اسمه بحادثة سقوط بغداد ؛ إذ كان أحد الأشخاص الثلاثة الذين آلت إليهم مقاليد الأمور في دولة المستعصم : سليمان شاه والدواتدار الصغير ومؤيد الدين بن العلقمي ، وذلك بعد وفاة إقبال الشرابي والدواتدار الكبير . وسليمان شاه كان في مقدمة الأشخاص الذين أشاروا على المستعصم برفض مهادنة المغول والاستعداد لقتالهم . ونظراً لأهميته في دولة المستعصم كان هولا گو في رسائله إلى الخليفة ، يطلب إليه أن يرسل سليمان شاه فكان الخليفة يعتذر دائماً . وهكذا إلى أن صار النصر محققاً للمغول ، فأجبر الخليفة على إرساله مع الدواتدار الصغير إلى هولا گو . ومما يؤثر عن سليمان شاه أنه كان له إلمام بعلم النجوم والكواكب ، كما كان ينظم الشعر الفارسي (انظر تاريخ جهانگشاي ، ج ٣ ، ص ٤٦١) .

بهجماتهم على القسم الشرقي من التحصينات . ولما رأى الخليفة حرج موقفه ، أراد أن يهدىء المغول ويثنيهم عن عزمهم على إتمام الفتح ، وذلك بإرسال الرسل والهدايا . ولكن هولاكو لم يستجب لهذا النداء ، وأرسل نصير الدين الطوسي إلى الخليفة يأمره بإحضار سليمان شاه والدواتدار ، فوجد نفسه مضطراً إلى إطاعة هذا الأمر ، وطلب إلى الشخصين المذكورين أن يذهبا لمقابلة هولاكو . فلما وصلا إليه ، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما ، وكل ما يخصهما بحجة أنهم سينفون جميعاً إلى مصر والشام ؛ فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان ظانين أن ساعة الخلاص قد حانت . فلما خرج هذا الجمع أمر هولاكو خان بقتلهم عن آخرهم . وفي يوم ٢ صفر ، قتل الدواتدار الصغير وسليمان شاه مع سبعمائة شخص من أقاربه وأتباعه . وكذلك قتل تاج الدين ابن الدواتدار الكبير ، وأرسلت رؤوس هؤلاء الثلاثة إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليعلقها على أسوار مدينته . ورغم أن بدر الدين كان صديقاً لسليمان شاه ، فإنه لم يكن في وسعه إلا أن يذرف الدمع ، وإلاّ أن يذعن للأمر ، فعلق تلك الرؤوس خوفاً من بطش هولاكو وتجنباً لنقمته[1] .

ويحدثنا صاحب الفخري عن صديقه « فلك الدين محمد بن أيدمر » فيقول : «كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة . قال فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة ، وتحته فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح ، فيضحك منه كل من رآه . ثم ما تم النهار

---

(١) جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) نشر كاترمير ، ص ٢٩٨ ، نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٢٩٠ .

حتى كانت لهم الكرّة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الأمر ما كان »[1] .

وفي يوم الأحد ٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٠ من فبراير ١٢٥٨ م) خرج الخليفة من بغداد ، وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط ، بعد أن وعده هولاكو بالأمان .

يذكر صاحب طبقات ناصري أن سليمان شاه ومجاهد الدين أيبك ذهبا إلى الخليفة على أثر هزيمتهما وأخبراه بما حدث . وأفهماه أنه لا طاقة لمن بقي من جيوش المسلمين مع قلة عددهم على الصمود أمام المغول ، البالغ عددهم ٢٠٠ ألف جندي أو ما يزيد على هذا العدد ؛ ولذا فهما يقترحان على الخليفة أن ينقل خزائنه ونساءه ، ويبحر في سفينة يعبرون بها نهر دجلة ، حتى يصلوا إلى البصرة حيث يقيمون في إحدى الجزائر ، حتى تسنح الفرصة ، ويأتيهم نصر الله . ولكن الوزير ابن العلقمي خدع الخليفة ، وأقنعه بأنه لا داعي للانتقال ، لأنه مهد طريق الصلح ، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين منقادين . ثم حث الخليفة على أن يرسل ابنه أبا بكر إلى المغول ، ليعجم عودهم ، وليرى مصداق ما يقول ؛ فاستصوب الخليفة رأي وزيره . وفي الوقت نفسه طلب ابن العلقمي إلى هولاكو سراً أن يحسن معاملة أبي بكر ، ويخدعه بمعسول القول ، حتى يتم حبك المؤامرة . فلما مثل أبو بكر بين يدي هولاكو ، ورأى منه حفاوة بالغة ، ولمس معاملة طيبة ، رجع إلى أبيه ، وأخبره بكل ما رأى وسمع ، ففرح الخليفة ، ولم يشك في حسن نية المغول نحوه ، وخرج من بغداد للقاء هولاكو بناء على إشارة الوزير ، واصطحب معه ١٢٠٠ شخص من علية القوم من قضاة ووجهاء وتجار وصناع . فلما وصلوا إلى معسكر الإيلخان ، أمر بوضعهم في مكان خاص ، وتقسيمهم جماعات ، وقبض على المستعصم ، وطلب إليه أن يكلف أتباعه والمقربين

---

(١) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٦٩ ، الطبعة الثانية .

إليه بأن يخرجوا من بغداد ، حتى إذا اكتمل عددهم في قبضة المغول ، قتلوا عن آخرهم(١) .

على أن الرواية الشائعة تذكر أنه على أثر الهزيمة التي مُنيَ بها جيش الخليفة ، خرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي إلى هولاكو ، فتوثق منه لنفسه ، وعاد إلى المستعصم ، وأخبره أن هولاكو يبقيه في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته من ابنه أبي بكر(٢) وحَسَّنَ له الخروج إلى هولاكو . فخرج من بغداد ، ومعه أبناؤه الثلاثة . فلما وصلوا إلى هولاكو ، لم يُبدِ أثراً للغضب ، بل أخذ يلاطفهم ، ويطيب خاطرهم . ثم طلب إلى الخليفة أن ينادي في الناس بإلقاء أسلحتهم ، والخروج من المدينة لإحصائهم . فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا ، قتلوا جميعهم . أما الخليفة وأولاده ، وكل ما يتعلق به ، فقد وُضعوا في معتقل محاذ لباب كلواذى ، وعُيِّن بعض الجنود لحراستهم . وكان الخليفة يرى أنه هالك لا محالة .

بعد ذلك أمر هولاكوخان بردم الخنادق ، وهدم أسوار المدينة ، كما أمر بإقامة جسر على نهر دجلة . وفي يوم ٧ من صفر ، أعلن الهجوم العام على المدينة ، وذلك بأن كلف القوات المغولية الموجودة في شرقي بغداد ، بدخول المدينة من الشرق ، كما كلف القوات المغولية المرابطة على الشاطىء الغربي بعبور الجسر ، واقتحام المدينة من الغرب ، فدخلها هؤلاء وهؤلاء ، وأتوا على كل ما فيها ، فخربوا المساجد بقصد الحصول على قبابها المذهبة ، وهدموا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة ، وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء . وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً حد الفظاعة ، فيروى

---

(١) الجوزجاني : طبقات ناصري ، ص ٤٢٧ — ٤٢٨ .

(٢) تاريخ وصاف ، ص ٣٧ ؛ أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٢ — ١٢٣ ؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧١ .

أن أحدهم دخل زقاقاً ، وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل[1] . ويقدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى بنحو ٨٠٠ ألف نسمة[2] . ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة . وقد استمرت هذه الغارة مدة أربعين يوماً ، اندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب ، فالتهمت كل ما صادفها ، وأتت على الأخضر واليابس ، وخربت أكثر الأبنية وجامع الخليفة ، ومشهد الإمام موسى الكاظم ، وقبور الخلفاء في الرصافة[3] .

وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد ، قصد قصر الخلافة ، وجلس في الميمنية ، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم ، وأمر بإحضار الخليفة ، وقال له : « أنت المضيف ونحن الضيوف ؛ فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة » . فصدق الخليفة قوله ، وكان يرتعد فرقاً وخوفاً ، واستولت عليه الدهشة ، واعتراه الذهول ؛ لدرجة أنه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزائنه ، فأمر بكسر الأقفال ، وإخراج ألفين من الثياب ، وعشرة آلاف دينار ، ونفائس ومرصعات ، وجواهر عديدة ، قدمها هدية لهولاكوخان الذي لم يعر تلك الأشياء التفاتاً ، ووزعها على أتباعه ، ثم قال للخليفة : « هذه الأموال التي نملكها على سطح الأرض أمرها واضح ، وهذه تعد غنيمة ، فتكون من نصيب جنودنا . والآن نريد أن تكشف لنا عن الأموال والدفائن . فما هي ، وأين توجد ؟! ... » عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر . فلما حفروا ذلك المكان ، وجدوه مملوءاً بالذهب الإبريز . وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال . ثم أمر هولاكو بأن يحصوا حرم الخليفة

---

(١) Richard Coke : Baghdad the City of Peace, P: 146.

(٢) الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ؛ الديار بكري : الخميس ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٣) Le Strange : بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير فرنسيس ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

وحاشيته ، فوجدوا سبعمائة من النساء والسرايا وألفاً من الخدم[1] . وعندما وقف الخليفة على تعداد نسائه ، قال في تضرع : « امنحني تلك النسوة اللائي لم يكن يطلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر . فأمر هولاكو بأن يختار من بينهن مائة من النسوة ممن هن من أقاربه والمحببات إليه . ثم رجع هولاكو إلى معسكره ليلاً . وفي الصباح كلف قائده « سونجاق » بأن يذهب إلى المدينة ليضبط أموال الخليفة ويخرجها . فجمع هذا كل ما كان الخلفاء العباسيون قد ادخروه خلال خمسة قرون[2] .

وأخيراً بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك ، وبعد أن خرب ما خرب ، أصدر أمره بالكف عن القتل ، وبأن ينصرف كل إلى عمله . يقول ابن كثير : « ولما نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر ، كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضاً ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه . وأخذهم الوباء الشديد ، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى »[3] .

والآن تبرز مسألتان هامتان ، كانت كلتاهما مثار خلاف بين المؤرخين ، ويهمنا أن نقف على وجهات نظرهم ، لا سيما أولئك الذين عاصروا واقعة فتح بغداد ، أو كانوا قريبي العهد منها ، ثم نعلن رأينا بعد ذلك .

الأولى — كيف عامل المغول الخليفة المستعصم ؟

الثانية — على أي نحو قتلوه ؟

---

(١) ذكر في رسالة فتح بغداد أن عدد الخدم كان ١٣٠٠ (انظر تاريخ جهانگشاي ، ج ٣ ، ص ٢٩٠) . وأما ابن العبري فيذكر أن عددهم كان ٣٠٠ خادم خصي (انظر تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧١) .

(٢) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٣٠٠ — ٣٠٢ ؛ نفس المصدر الترجمة العربية ، ص ٢٩٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٠٣ .

أما عن المسألة الأولى فتذكر المصادر أن هولا گو عامل الخليفة معاملة سيئة للغاية ؛ بحيث أنه حرم عليه الطعام . فلما أحس الخليفة بالجوع ، طلب طعاماً ، فقدم له هولا گو طبقاً مملوءاً بالذهب ، وأمره أن يأكل . فقال الخليفة : كيف يمكن أكل الذهب ؟!... فرد عليه هولا گو : إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا احتفظت به ، ولم توزعه على جنودك ، حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير ؟!... ولِمَ لَمْ تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام ، وتسرع إلى شاطىء نهر جيحون لتحول دون عبوري ؟!... فأجاب الخليفة : « هكذا كان تقدير الله »[1] . فقال هولا گو : « وما سوف يجري عليك إنما هو كذلك تقدير الله » . وفي رواية أخرى أن هولا گو عندما وجه هذه الأسئلة إلى الخليفة ، لزم الصمت ولم يحر جواباً[2] .

هذه الحادثة كانت مشهورة وذائعة في الأقطار الإسلامية في ذلك الوقت ، ويمكننا أن نطمئن إليها ، ونسلم بصحتها .

أما عن الكيفية التي قتل بها المستعصم ، فإنها لا زالت مسألة يكتنفها الغموض ؛ إذ تضاربت فيها روايات المؤرخين ؛ فنصير الدين الطوسي ورشيد الدين لا يعطيان تفصيلات وافية عن تلك الحادثة ، وإنما يذكر أن هولا گو رحل من بغداد في يوم الأربعاء ١٤ من صفر سنة ٦٥٦ ﻫ ، وذلك بسبب عفونة الهواء ، ونزل بقرية بالقرب من بغداد تدعى « وقف » حيث استدعى الخليفة ، وقضى عليه في ذلك اليوم[3] .

---

(١) خليفه درجواب گفت : تقدير خداى چنين بود . پادشاه گفت : آنچ بر تو خواهد رفت ، هم تقدير خدايست (انظر رسالة فتح بغداد ، الملحقة بكتاب تاريخ جهانگشاي ج ٣ ، ص ٢٩٠) .

(٢) انظر كتاب تاريخ وصاف ، ص ٣٩ — ٤٠ .

(٣) انظر رسالة فتح بغداد ، الملحقة بكتاب تاريخ جهانگشاي، ج ٣ ، ص ٢٩١ ؛ جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٣٠٤ .

ويعلق كاترمير على ما كتبه رشيد الدين في هذا الصدد فيقول : « يبدو أن رشيد الدين لم يعرف كيف قتل المستعصم ، وربما يرجع ذلك إلى أن الأشخاص الذين كان هولاكو قد عهد إليهم بقتل الخليفة ، لم يصرحوا لأحد بأي شيء عن هذا الحادث ، بل أبقوا أمره سراً مكتوماً . وقد نقل المؤرخون بعد رشيد الدين روايات مختلفة بخصوص قتل المستعصم ، واهتموا فقط بجمع الروايات المبهمة والمتضادة ، ولم يذكروا مطلباً صحيحاً[1] .

ولعل أبا الفدا يمثل لنا اختلاف الروايات بخصوص قتل المستعصم تمثيلاً واضحاً حين قال : « ولم يقع الاطلاع عـلى كيفية قتله ، فقيل خنق ، وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات ، وقيل غرق في دجلة » . ويختم عبارته بقوله : « والله أعلم بحقيقة ذلك »[2] .

وبين هذه الروايات المتناقضة تبرز رواية قتل المستعصم بوضعه في غرارة ثم رفسه إلى أن مات ، فتكون بذلك أشهر هذه الروايات ، وأكثرها تداولاً ؛ حتى أننا لنجد ثلاثة من أقرب المؤرخين بواقعة بغداد قد ذكروا هذه الرواية[3] .

والآن نسأل : لم اختار هولاكو هذه الطريقة في قتل المستعصم ، فامتنع عن إراقة دمه على الأرض ؟ ! ...

قيل في تبرير ذلك ما يأتي :

١ ـ صعب جداً على مستشاري هولاكوخان من المسلمين أن يراق دم الخليفة وهو أمير المؤمنين وزعيمهم الديني ، فحذروا الخان المغولي أن يقدم على تلك الفعلة ؛ حتى أنهم ليروون أن أحد المنجمين قال لهولاكو :

---

(١) جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٣٠٤ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

(٣) انظر الجوزجاني : طبقات ناصري ، ص ٤٣٠ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٧ ؛ تاريخ وصاف ، ص ٤٠ .

« إذا قتل الخليفة ، فإن العالم يصير أسود مظلماً ، وتظهر علامات القيامة »[1] .

وفي هذه المرة أيضاً نفى نصير الدين الطوسي هذا الادعاء ، وأيد رأيه ببراهين عملية ، تثبت أن عدة خلفاء من بني العباس قتلوا ، ولم يحدث خلل يذكر . وقيل كذلك إن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، كان من بين المحرضين على قتل الخليفة[2] . فلما صمم هولاكو على قتله ، احترز من أن يريق دمه ، فقتله بالطريقة السالفة الذكر .

٢ ـ قتل هولاكو « المستعصم » دون أن يريق دمه ، لا خوفاً من تحذير العلماء المسلمين ، وإنما جرياً على عادة المغول كما أشار إلى ذلك النويري إذ يقول في هذا المقام : « وجيء بالخليفة إلى هولاكو ، فأمر أن يجعل في جولق ، ويداس بأرجل الخيل ، ففعل به ذلك حتى مات كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية . ومن عادة التتار أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالباً »[3] . ويقول ابن خلدون أيضاً : « وتقبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافياً عن سفك دمه بزعمهم »[4] . ويشرح لنا « ماركو پولو »[5] الكيفية التي تم بها قتل أحد أمراء المغول المسمى « نايان » على يد « قوبيلاي قاآن » بما يؤيد هاتين الروايتين . ويذكر « هارولد لام »[6] أنه بعد أن تغلب تموچين (چنگيزخان) على طوائف الكرايت ، جد في إثر قوادهم بعنف ووحشية وقد فر « وانج خان » هارباً لا يلوي على شيء ، يصحبه ابنه تجاه الغرب البعيد ، حيث قتلهما رجال القبائل التركية . وأما جاموكا الذي كان قد تآمر

---

(١) القاضي نور الله الششتري : مجالس المؤمنين ، ص ٤٠٠ .

(٢) الجوزجاني : طبقات ناصري ، ص ٤٣٠ .

(٣) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٦ ، صور شمسية بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ، ص ٥٤٣ .

(٥) رحلة ماركو پولو ، الترجمة الفارسية ، ص ٢٧٠ .

(٦) هارولد لام : چنگيزخان وجحافل المغول ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

على كسر شوكة تموچين فقد أسروه حياً . وسأله تموچين : « ما المصير الذي تتوقعه ؟!... » فأجاب جاموكا من غير تردد : « نفس الكأس التي كنت أسقيك إياها ــ الموت البطيء » .

وكان جاموكا يقصد بالموت البطيء ، طريقة التعذيب الصينية ، وهي تقطيع الأوصال تدريجياً جزءاً جزءاً ، وتبدأ هذه العملية أول يوم ببتر مفاصل الأصابع الصغرى ، ثم تستمر بعد ذلك بقطع الأطراف شريحة بعد الأخرى . ولكن تموچين مارس تقاليد قومه التي كانت تحرم إراقة دم زعيم أي قبيلة يجري في عروقه الدم الملكي . فاقتيد جاموكا طبقاً لذلك خارجاً ، حيث أخمدت أنفاسه تحت ضغط أقمشة ثقيلة .

وعلى هذا يبدو أن السبب الثاني هو الأرجح ؛ لأن المغول حتى في دفنهم للمستعصم ، جروا على سننهم وتقاليدهم ، إذ دفنوه في مكان مجهول ، لدرجة أن السيوطي[1] ينقل عن الذهبي قوله : « وما أظنه دفن » . ويقول ابن الفوطي[2] : « أمر السلطان (أي هولا گوخان) بقتله ، فقتل يوم الأربعاء رابع عشر صفر ، ولم يهرق دمه ، بل جعل في غرارة ، ورفس حتى مات ، ودفن وعفي أثر قبره » . والمعروف عن سلاطين المغول وأمرائهم أنهم كانوا يدفنون موتاهم في موضع بعيد عن العمران ، ويجعلون قبورهم من الأسرار المخفية . وهكذا ظل المغول محافظين على هذا التقليد حتى جاء السلطان غازان خان (٦٩٤ ــ ٧٠٣ هـ) ، واعتنق الإسلام ، فأبطل هذه العادة ، وبنى لنفسه مقبرة كبيرة لتكون مقره الأبدي ؛ فكان بذلك أول سلطان من سلاطين المغول ، يدفن في مقبرة ظاهرة[3] .

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٢ .
(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٧ .
(٣) حمد الله المستوفي القزويني : تاريخ گزيدة ، ص ٦٠٦

مؤيد الدين بن العلقمي وموقفه من فتح بغداد :

بعد هذا ننتقل إلى الحديث عن الأشخاص الذين كانت بأيديهم مقاليد الأمور في دولة المستعصم ، ولعبوا دوراً بارزاً في فتح بغداد ، وكان موقفهم محاطاً بالشكوك والشبهات ، ومثاراً للقيل والقال . وفي مقدمة هؤلاء يرد اسم مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان وزيراً للمستعصم إبان فتح بغداد .

كان ابن العلقمي يتولى الوزارة للخليفة المستعصم مدة أربع عشرة سنة . فلما فتحت بغداد ، نصب وزيراً في دولة المغول . وقد عرف عنه ، أنه كان من فضلاء عصره ، كما اشتهر بجودة الخط وبلاغة الإنشاء . وكان ينظم الشعر ، ويحب الأدباء ، ويقرب العلماء ، ويجزل لهم العطاء ، فمدحوه بقصائد الشعر ، وصنفوا له الكتب .

كذلك كان وزيراً كفئاً خبيراً بتدبير شئون الملك . وكان المستعصم أول من يثق به ويطمئن إليه ؛ غير أن بعض حاشية الخليفة ، كانوا يكرهونه ويحسدونه ، ويوشون به ، فلما رأى من نفسه العجز عن مقاومة هذا التيار تخاذل وكف يده عن أكثر الأمور ؛ لدرجة أنه نسب إليه أنه خان المستعصم ، وتواطأ مع هولاگو وشجعه على احتلال بغداد ، بل وحرضه على قتل الخليفة . فهل كانت هذه الاتهامات صحيحة ، أو كانت من قبيل إلصاق التهم جزافاً من المخالفين له في المذهب ؛ إذ المعروف عنه أنه كان إيرانياً يعتنق مذهب الشيعة ؟!...

تميل أغلب المصادر الإسلامية إلى اتهام ابن العلقمي بالخيانة صراحة وبتدخله في أمر محاصرة بغداد لصالح المغول ، وتحريضهم على قتل الخليفة . وتُرجع السبب في ذلك إلى حادث نهب الكرخ ، وتخريب مشهد الإمام موسى الكاظم على يد أبي بكر بن المستعصم ، وما تبع ذلك من قسوة وإهانة لحقت السكان الشيعة ، فتأثر الوزير الشيعي أشد التأثر ، وصمم على أن يساعد هولاگو في الاستيلاء على بغداد ، والقضاء على الخلافة العباسية ؛ ولهذا كان

يرسل الرسل سراً إلى هولاكو ليطلع المغول على ضعف الخليفة ، وليهون لهم من شأنه ، وليسهل لهم مهمة فتح بغداد . كما تذكر هذه المصادر أنه لما حاول الخليفة أن يستعد لملاقاة جيش العدو ، قطع ابن العلقمي أرزاق الأجناد ، وثبط همة الخليفة ، وصرفه عن الاستعداد بحجة أنه رتب شئون الصلح ، إلى آخر هذه الوسائل التي انخدع بها الخليفة حتى سقطت بغداد لقمة سائغة في أيدي المغول[١] .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أكثر من هذا ، ويتهمون ابن العلقمي بأنه أثناء جهاد المسلمين في بغداد ضد المغول ، لم يتورع عن أن يصدر أمره في وقت المحنة بفتح سد كان مقاماً على نهر يقع خارج بغداد . فغرق بسبب ذلك الكثيرون من جيش الخليفة[٢] . ولم تقتصر هذه الاتهامات على ابن العلقمي وحده ، بل شملت كذلك سكان الكرخ من الشيعة . يقول Le Strange : « وكان هولاكو قد نظم عمليات الحصار وحركاته أفضل تنظيم في خارج المدينة ، وازدادت هذه قوة ، وتفاقم خطرها بما حصل من الخيانة في داخل أسوار بغداد ، وذلك لأن سكان الكرخ والمحلة التي حول مشهد الإمام موسى في الكاظمية ، كانوا من الشيعة ، وهم يكرهون الخليفة السني ، الأمر الذي دفعهم إلى الاتصال سراً بالعدو الكافر »[٣] .

وكنا نظن أن ابن العلقمي لم يفكر في خيانة الخليفة إلا بعد حادثة الكرخ ؛ غير أن مؤرخاً آخر قرر أن خيانة ابن العلقمي كانت مبكرة ، إذ قال في

---

(١) الجوزجاني : طبقات ناصري ، ص ٤٢٤ – ٤٢٨ ؛ تاريخ وصاف ، ص ٣٧ ؛ أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٦ ، صور شمسية بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٤٩ ، معارف عامة ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٣ ، ص ٥٣٧ ؛ المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٢ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧١ .

(٢) الجوزجاني : طبقات ناصري ، ص ٤٢٧ .

(٣) Le Strange : بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشر يوسف فرنسيس ، ص ٢٩٢ .

معرض حديثه عن حوادث سنة ٦٥٤ هـ : « وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد ، وتحدثوا معه ، ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد ، والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك »[1].

على أن هناك قلة من المؤرخين خصوصاً الشيعة منهم ، دافعوا عن ابن العلقمي وبرؤوه من تهمة الخيانة ، وألقوا التبعة كلها على ضعف الخليفة وظلم ابنه أبي بكر ، ونفاق الأمراء وقواد الجيش وتنازعهم الواحد مع الآخر . وكان على رأس هذا الفريق « محمد بن علي بن طباطبا » الذي ألف كتاب الفخري في الآداب السلطانية سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) فقد راح هذا الكاتب يكيل المدح للوزير ابن العلقمي ، ويصفه بالمهارة والكفاءة ، وينفي عنه التهمة بحرارة وحماسة فيقول : « ونسبه الناس إلى أنه خامر ، وليس ذلك بصحيح ؛ ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته ، سلامته في هذه الدولة ، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد ، وقتل الخليفة ، سلم البلد إلى الوزير ، وأحسن إليه وحكمه ، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه »[2]. ثم راح ابن طباطبا يصف لنا مسلك ابن العلقمي أثناء فتح بغداد ، فسرد رواية سمعها عن أحمد بن الضحاك ابن أخت الوزير مؤداها أن ابن العلقمي ظل وفياً للمستعصم إلى آخر لحظة ، وأنه لم يلب دعوة هولاكو إلاّ تحت ضغط الخليفة ، وأن هولاكو لما استمع إليه ، وقع منه موقع الاستحسان . فلما فتحت بغداد ، سلمها إليه ، وإلى علي بهادر الشحنة . ولكن لم يلبث الوزير إلاّ شهوراً قليلة مرض على أثرها ، ومات في جمادي الأولى سنة ٦٥٦ هـ[3].

ونحن في سبيل مناقشة هذه الأدلة نقول : إذا كان صاحب الفخري

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٠ .
(٢) الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٩٥ .
(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

قد دافع بحرارة عن موقف ابن العلقمي ، وسعى جاهداً لدفع تهمة الخيانة عنه ، فما ذلك إلاّ لأن هذا الكاتب شيعيّ مستنير ، أحس بفداحة الجرم الذي أقدم عليه صاحبه ؛ إذ كان بتصرفه هذا عاملاً هاماً في ضياع دولة ، وذهاب شخصية لها مقام ديني كبير في نفوس المسلمين ؛ خصوصاً وأن هذا التحول الخطير قد تم على أيدي قوم من الكفرة . ثم إن النكبة لم تكن مقصورة على أهل السنة وحدهم ، بل كانت نكبة عامة شاملة ، قاسى منها أهل السنة وأهل الشيعة ، وهم جميعاً في النهاية مسلمون . يقول ابن الوردي : أراد ابن العلقمي نصرة الشيعة ، فنصر عليهم ، وحاول الدفع عنهم فدفع إليهم ، وسعى ولكن في فسادهم ، وعاضد ولكن على سبي حريمهم وأولادهم ، وجاء بجيوش سلبت عنهم النعمة ، ونكبت الإمام والأمة ، وسفكت دماء الشيعة والسنة »[1] .

وهكذا عندما راح ابن طباطبا تحت تأثير العصبية المذهبية يدافع عن ابن العلقمي ، وينفي عنه تهمة التواطؤ مع المغول ، مستدلاً على ذلك بأنه لو كان خائناً حقاً ، لما وثق به هولاكو ، ولما عهد إليه بإدارة مدينة بغداد بعد سقوطها .

والواقع أن الدليل الذي ساقه صاحب الفخري دليل قوي مقنع ، لو لم يرد ما ينقضه في مصادر أخرى ؛ فعبد الله الشيرازي[2] يقرر أن الوزير ابن العلقمي ، لم يلق ما كان يؤمله من المغول ، بل على العكس كانوا ينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار بسبب خيانته للخليفة ، وعاملوه بمنتهى الإذلال والإهانة ؛ إذ جعلوه تابعاً لشخص يدعى « ابن عمران » ، كان خادماً في دولة المستعصم . ولم يعمر ابن العلقمي طويلاً ؛ إذ مات حزيناً كئيباً نادماً على فعلته . وكان ذلك في نفس السنة التي فتحت فيها مدينة بغداد .

---

(١) تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .
(٢) انظر تاريخ وصاف ، ص ٤١ — ٤٢ .

وإذا افترضنا إخلاص الوزير للمستعصم ، ووفائه له على نحو ما ذهب إليه ابن طباطبا ، فهل يظن هذا المؤرخ أن هولا گو كان يتركه دون أن يقتص منه وهو السفاح السفاك الذي قتل الآلاف المؤلفة من الأنفس البريئة دون ذنب أو جريرة ؟!...

ويروي النويري[1] أن هولا گو استدعى الوزير ابن العلقمي ، وكان قد كاتبه وحثه على قصد بغداد ، وأضعف جيوش الإسلام . فلما مثل بين يدي هولا گو سبه ووبخه على عدم موافاته لمن هو غذى نعمته ، وأمر بقتله فقتل ، وقيل لم يقتله ، بل استبقاه .

ويقول السيوطي[2] : إنه لم يتم للوزير ما أراد ، وذاق من التتار الذل والهوان ، ولم تطل أيامه بعد ذلك . ويذكر أيضاً أن ابن العلقمي حَسَّنَ للمغول أن يقيموا خليفة علوياً ، فلم يوافقوه ، واطرحوه ، وصار معهم في صورة بعض الغلمان . ومات كمداً .

ويفهم أيضاً من المصادر الأوربية أن المغول لم يكونوا يطمئنون تماماً إلى ابن العلقمي بسبب موقفه من المستعصم ؛ فها هو رنسيمان[3] يقرر أن هولا گو ، اختار لحكم بغداد الوزير السابق مؤيد الدين، الذي خضع لإشراف دقيق من قبل الموظفين المغول .

وكذلك حين تحدث رشيد الدين عن ابن العلقمي ، راح يصوره لنا في صورة الناصح الأمير الذي استمر على إخلاصه ووفائه للخليفة ، لكنه كان مكتوف اليدين ، كلما حاول أن يصلح ، قابلته تيارات قوية معارضة من أعدائه ومنافسيه . وكان ضعف الخليفة هو الذي زاد الموقف حرجاً

---

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٦ ، صور شمسية ، بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٢ – ٤٧٣ .

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٢٢ .

فحدث ما حدث [1] .

الحقيقة التي لا شك فيها أننا لا يمكننا أن نطمئن إلى ما جاء في الفخري ، ولا في جامع التواريخ ، بخصوص موقف ابن العلقمي ؛ ذلك لأن أغلب المصادر الإسلامية قد أدانت هذا الوزير ، وألصقت به تهمة الخيانة ، وكلها مصادر معتبرة موثوق بها .

ولكن لنذهب مع الشيعة الذين يدعون بأن هؤلاء المؤرخين كانوا من أهل السنة ، وقد تأثروا جداً لحادثة قتل الخليفة الذي كان إمامهم ورئيسهم الديني ، كما ساءهم أشد الإساءة ، انقراض الخلافة العباسية . فاتهموا ابن العلقمي بأنه كان على اتصال بالمغول ، لينتقم للشيعة من حادثة الإغارة على الكرخ ، فإنه يبقى أمامنا بعد هذا مؤرخ شيعي كبير هو القاضي نور الله الششتري [2] الذي اعترف صراحة بالدور الذي لعبه ابن العلقمي ، فقال : « إنه كاتب هولاكو والخواجه نصير الدين الطوسي ، وحرضهما على تسخير بغداد للانتقام من العباسيين بسبب جفائهم لعترة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم وآله » [3] .

وأخيراً يجب ألا ننسى أن الخواجه نصير الدين الطوسي كان شيعياً كبيراً ، وكان يعمل كمستشار وكوزير لهولاكو . وقد سبق أن عرفنا موقفه من سادته الإسماعيلية ، فلا يستبعد أن يكون هو الذي قد أثر كذلك على ابن العلقمي .

---

(١) جامع التواريخ (الإيلخانيون) ، م ٢ ، ج ١ ، الترجمة العربية ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٢) السيد نور الله بن شريف الدين الحسيني المرعشي الششتري المعروف بالقاضي الششتري . توفي سنة ١٠١٩ هـ . له عدة مؤلفات أهمها : كتاب مجالس المؤمنين بالفارسية . ألفه في عهد الدولة الصفوية في ترجمة أحوال جماعة من العلماء والحكماء والأدباء والعرفاء والرجال الذين يدينون بمذهب الشيعة الاثني عشرية . ويمتاز هذا الكتاب بأنه من أكثر كتب التراجم تفصيلا ، وأقربها إلى الفهم ، لأنه كتب بأسلوب سهل بعيد عن التكلف والصنعة . (انظر محمد باقر : كتاب روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، ج ١ ، ص ٣٨١) .

(٣) مجالس المؤمنين ، ص ٤٠٠ .

حتى جعله ينحرف ، ويقف هذا الموقف المشين في سبيل القضاء على الخلافة الإسلامية . يقول براون : « يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن « ابن العلقمي » وكذلك « نصير الدين الطوسي » كانا من الشيعة ، وأن الثاني منهما رغم كتابته في الموضوعات الأخلاقية والدينية قد أنكر جميل مضيفيه من الإسماعيلية ، كما ساعد على الإيقاع بالخليفة في سبيل أن يرضي فاتحاً وثنياً سفاكاً للدماء مثل هولاكو . ولكي نوفق بين آرائنا وبين ما نعرفه عن المغول ، وخاصة هولاكوخان ، يجب أن نفترض أن ابن العلقمي قد خدعته الوعود الطيبة التي بذلها المغول ، ثم أعماه التعصب المذهبي ، فزيّن له تفضيل الوثني الكافر على من يخالف مذهبه من أهل دينه . وربما انضم إلى ذلك ، أنه كان على وفاق مع « نصير الدين الطوسي » الذي أصبح وزيراً لهولاكوخان ، والذي كان مثله أيضاً من أهل الشيعة . فقبل من أجل هذه الفروض جميعها أن يخون الخليفة وأن يخون بغداد ، وأن يسلمهما معاً إلى المغول ، ليفعلوا بهما ما يشاءون »[1].

ويبدو لنا لأول وهلة أن ابن العلقمي كان لا يطمئن إلى عمله في الوزارة ، خصوصاً بعد أن احتدم النزاع بينه وبين الدواتدار الصغير ، ووقوف الخليفة إلى جانب خصمه . كل ذلك جعله يكف يده عن مساعدة الخليفة والإخلاص له ، كما حمله على البحث عن مخرج يخلصه من تلك المتاعب . وهذه الحالة النفسية نستدل عليها بشعر ورد على لسانه ، وسمعه عنه بعض أصحابه :

كيف يُرْجَى الصلاح في أمر قوم ... ضَيَّعوا الحزم فيه أي ضياعِ
فمطاعُ الكلامِ غير سديد ... وسديدُ المقالِ غيرُ مطاعِ[2]

فهل بعد هذا كله يمكننا أن نذهب كما ذهب براون من أن موقف ابن العلقمي لا يزال سراً غامضاً ، بحيث لا نستطيع أن نصدر حكمنا عليه بالخيانة أو بتبرئة ساحته من تلك التهمة ؟! ... »

---

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ، الترجمة العربية ، ص ٥٨٨.
(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٢ .

الحقيقة أننا على ضوء المصادر والقرائن السابقة ، نستطيع أن نقول : إن موقف ابن العلقمي لم يكن سليماً على الإطلاق . ولكننا لا نستطيع أن نحمله التبعة كلها ، بل نشرك معه الخليفة ورجال حاشيته الآخرين ، كما سبق أن بينا في شرح الأوضاع التي كانت قائمة في بغداد إبان غزو المغول .

وبعد أن فرغ هولاگو من فتح بغداد ، وتنظيم شئون الدولة ، توجه إلى أذربيجان حيث اختار مدينة مراغة – في شمال هذا الإقليم – عاصمة لملكه ، وأقام عدة أبنية في إقليم بحيرة أورمية[1] . وكان يؤثر الإقامة هناك ، كما أقام قصراً في « الاتاغ » . أما الخزانة التي كانت تحوي الغنائم والأموال والنفائس التي أُخذت من بغداد وقلاع الإسماعيلية والروم والكرج والأرمن وغيرها من البلاد ؛ فقد أُرسلت إلى أذربيجان ، ووضعت في قصر حصين أمر هولاگو بتشييده في إحدى جزائر بحيرة أورمية . وقد أرسل هولاگو إلى أخيه منگوكثيراً من التحف والأموال التي غنمها ، وهي تحمل بشرى الفتح والظفر والتصميم على التوجه للاستيلاء على ديار مصر والشام .

وفود الملوك والأمراء على هولاگو :

أوقع سقوط بغداد العالم الإسلامي في فزع وذهول وحيرة ، فسارع حكامه المستضعفون إلى الطاغية هولاگو ، يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة ، ويتملقونه خوفاً من بطشه ، واتقاء لشره ، فكان ممن حضر لتهنئته في مراغة ، أتابك الموصل الهرم « بدر الدين لؤلؤ » ، وأرسل أبو بكر أتابك فارس ابنه للغرض نفسه .

ووصل كذلك إلى معسكر هولاگو بالقرب من تبريز – اثنان من سلاطين

---

(١) بحيرة كريهة الرائحة ، لا سمك فيها . وفي وسطها جزيرة بها قرى وجبال وقلعة حصينة ، واستدارة البحيرة خمسون فرسخاً يخرج منها ملح يشبه التوتيا . (انظر زكريا القزويني : آثار البلاد ، ص ١٩٤) .

سلاجقة الروم ، وهما الأخوان المتنافسان : السلطان عز الدين كيكاوس الثاني والسلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع . أما عز الدين ، فكان يرتجف رعباً ؛ لأن جنوده حاولوا أن يصمدوا أمام القائد المغولي « بايجونويان » فدحرهم في « آقسرا »[1] . فلما سقطت بغداد على يد هولا گو أحس عز الدين بحرج مركزه ، وخشي بطش الخان ؛ فحاول أن يخلص نفسه من تلك الورطة بنوع مبتكر من التملق الذي يحمل طابع الخضوع والذلة . وذلك أنه رسم صورته على نعل زوج من الأحذية ، وقدمهما للخان الساخط قائلاً له : « عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها »[2] فرقّ له قلب الطاغية هولا گو ، ورفعت دوقوز خاتون من قدره ، وتشفعت له ، فعفا عنه الإيلخان .

ولا شك أن ذلك الموقف المخزي يصور لنا الحد الذي بلغه بعض الحكام المسلمين من الاستذلال والمهانة .

نتائج سقوط بغداد :

يعد سقوط بغداد ، وانقراض الخلافة العباسية التي استمرت قائمة أكثر من خمسة قرون ، من أكبر الوقائع التي حدثت في التاريخ . ولقد كان لهذا الحدث أسوأ الأثر في نفوس المسلمين جميعاً ، واعتبرت هذه المأساة لطمة قاسية وبلاء شديداً سلط على رؤوسهم؛ إذ انتهكت حرمتهم على يد المغول أهل الكفر والشرك ، الذين صوبوا طعنة نجلاء إلى مقام الخلافة المقدس ، وإلى أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فلا غرو أن كان لهذا الحادث نتائج خطيرة نلخصها فيما يأتي[3] :

---

(١) Grousset : L'Empire des Steppes, P. 433.

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٣٢٢ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٣٠١ .

(٣) انظر مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، المؤلف ، ص ٤١ وما بعدها .

١ ـ كان المسلمون يتطلعون إلى الخلافة على أنها رمز للممالك الإسلامية جميعها ، يجب أن يظل قائماً ، وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال واحترام وعلى هذا كان نفوذه الديني بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعاً . وعلى الرغم من أن الخلافة العباسية ، كانت قد فقدت منذ قرون جانباً كبيراً من قوتها المادية ؛ فإنها كانت لا تزال تدخر قدراً كبيراً من سلطانها الأدبي والروحي . فلما سقطت بغداد ، وقتل الخليفة ، قضي على هذا النفوذ ، وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة دينية ممتازة .

٢ ـ كانت بغداد قبل حملة المغول مركزاً للنشاط السياسي في جميع أنحاء الشرق الإسلامي ، يؤمها وفود الحكام والأمراء المسلمين . وكانت الروابط تربط بينها وبين مختلف العواصم . فلما سقطت في أيدي المغول ، صارت مدينة ثانوية ، يعين عليها وال ، وانتقل النشاط كله إلى مدن الشمال في أذربيجان ، إذ أنها أخذت تلعب دور العواصم ، ففقدت بغداد بذلك أهميتها السياسية . يقول رنسيمان : « أخذت بغداد تستعيد رويداً رويداً نظافتها ، وتعود إلى سابق عهدها من النظام والترتيب ، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة إقليمية وافرة الرخاء ، لا تتجاور عشر حجمها السابق »[١] . وبسقوط هذه المدينة دخل الشرق الإسلامي عامة في عهد جديد ، آلت فيه السيطرة من بعد هولاكو إلى أبنائه الذين صاروا يستقلون تدريجياً عن المغول في قراقورم ، وأسسوا لأنفسهم دولة في إيران ، عرفت باسم « دولة الإيلخانيين » .

٣ ـ كانت بغداد مركزاً هاماً للعلوم والآداب والفنون ، يهرع إليه العلماء وطلاب العلم ، للتزود بالثقافة الإسلامية التي كانت تتمثل هناك بأجلى معانيها . أجل ! ... كانت تلك المدينة غنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها وشعرائها . وكان كل هؤلاء بمثابة أساتذة وقادة لرجال العلم والأدب في

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، الترجمة العربية ، ص ٥٢٢ .

مختلف أنحاء الشرق الإسلامي . فلما حلت النكبة ببغداد على أيدي المغول ، قتل آلاف من العلماء والشعراء ، وشرد من نجا منهم ، فلجأوا إلى مصر والشام وغيرهما من البقاع[1] . وأحرقت المكتبات ، وخربت المدارس والمعاهد ، وقضي على الآثار الإسلامية التي تعب الفنانون المسلمون في إبداعها . كل هذا التراث المجيد ، قد أصبح في التراب أثراً بعد عين .

وقصارى القول أن سقوط بغداد بعد أن سقطت بخاري ونيسابور والري وغيرهما من مدن العلم والأدب ، كان حقاً جناية كبيرة على الحضارة والثقافة ؛ إذ فقدت اللغة العربية تلك المكانة التي كانت تتمتع بها قبل الغزو في ميادين الثقافة العلمية والأدبية . وبفتح المغول لهذه العاصمة الكبيرة تمت الخطوة النهائية في سبيل تفوق اللغة الفارسية على اللغة العربية . ورغم أن هذه اللغة قد بقيت كلغة علمية وأدبية في إيران ، ولم يستطع الأدباء والكتاب الإيرانيون أن يكفوا عن تعلمها والتأليف بها ، إلا أن عنايتهم باللغة الفارسية كانت أشد وأقوى ؛ لأنها اللغة التي استطاعت أن تشبع رغبة العامة ، وتوافق إحساس الناس في ذلك الوقت . يقول براون : « إن تحطيم بغداد كعاصمة للمسلمين ، وإنزالها إلى مرتبة المدن الإقليمية ، قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم الإسلامية بلطمة شديدة ، كما أصاب مكانة اللغة العربية في إيران بضربة قاصمة ؛ فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية ، فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) لم نعد نصادف إلا القليل النادر من الكتب العربية التي تم تأليفها في إيران[2] » .

٤ — كان لذيوع الأنباء المتعلقة بتدمير بغداد ، أثر عميق في جميع أنحاء آسيا ، فابتهج المسيحيون في كل مكان بهذه القارة ؛ إذ كتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية ، وهللوا لهولا كو وزوجته المسيحية

---

(١) انظر جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) تاريخ الأدب في ايران ، الترجمة العربية ، ص ٥٦٤ .

دوقوزخاتون ، واعتبروهما قسطنطين وهيلينا ، وأنهما ليسا إلا أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح[1] .

وفي الحقيقة كان الاستيلاء على بغداد ، وزوال الخلافة عملاً شجعه وباركه حاشية هولاكو من النساطرة ، ابتداء من دوقوز خاتون حتى كيتوبوقا الذي كان ينتمي هو الآخر إلى قبيلة النايمان . وقد تراءى غزو بغداد كأنه من أعمال حملة صليبية نسطورية . ويؤيد ذلك ما كان من اختيار البطريرك النسطوري ماكيكا ليكون رسولاً للمستعصم إلى هولاكو ، وكان يأمل أن يتوسط له عند دوقوز خاتون ، لمحاولة التفاوض مع الغازي المغولي . يضاف إلى ذلك ما نصادفه من جيوش هولاكو من وحدات عسكرية من الكرج الذين كانوا أول من اقتحم أسوار بغداد ، واشتهروا بشدتهم وقسوتهم في التخريب والتدمير .

غير أن ارتياح المسيحيين وسرورهم لم يستمر طويلاً ، إذ لم يمض زمن طويل حتى قهر المسلمون غزاتهم . على أن وحدة العالم الإسلامي تعرضت لضربة لم تنتعش منها أبداً ، إذ أن سقوط بغداد الذي وقع بعد نصف قرن من سقوط القسطنطينية في سنة ١٢٠٤ ، قضى نهائياً على ما كان بين بيزنطه والخلافة من حكومة ثنائية متزنة ، ازدهرت في ظلها لمدة طويلة إنسانية الشرق الأدنى ، ولم يعد بوسع الشرق الأدنى أن يتحكم مرة أخرى في المدنية[2] .

٥ ــ تأثر المسلمون أشد التأثر لسقوط بغداد ، وخلوّ الأرض من وجود خليفة يكون له المقام الروحي المرموق . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن ما حدث من استئصال الأسرة العباسية ، وتدمير العاصمة ، جعل زعامة المسلمين شاغرة ، يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين .

---

(١) انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، الترجمة العربية ، ص ٥٢٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٢٣ .

فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر ، بحث عن أحد أفراد الأسرة العباسية ، ونصبه خليفة في مصر سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) . وهكذا قامت الخلافة العباسية في مصر ، وكان لها شبه سلطة روحية في مدينة القاهرة . وبهذا انتقل النشاط السياسي والثقافي إلى مصر التي أصبحت قبلة أنظار المسلمين . وكان الظاهر يرمي من وراء إحياء الخلافة العباسية في مصر ، إلى أن يكسب سلطنته صفة شرعية بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة ، وأن يمتد ملكه ، ويوسع سلطانه بمساعدته باعتباره حامي الدين[1] . وقد استمر هذا الوضع قائماً في مصر إلى أن استولى عليها السلطان العثماني سليم الأول عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ، فألغى منها الخلافة العباسية . وبذلك انتقلت الخلافة إلى القسطنطينية حاضرة العثمانيين .

٦ ـ أثار حادث سقوط بغداد الحزن العميق والجزع الشديد في جميع أنحاء البلاد الإسلامية ، لأن معركة بغداد لم تكن في الحقيقة حدثاً عادياً يمكن أن يمر بسهولة ، بل كانت قضية الأمم الإسلامية جمعاء ، التي أحست بالخطر الداهم ؛ خصوصاً بعد أن توقف قلبها ، وانتزعت منها كعبتها ، وانفرط عقد الوحدة الإسلامية المقدس . لقد أقبل المسلمون بعضهم على بعض يتساءلون ، وماذا عسى أن يكون الوضع بعد بغداد؟!.. إن الأعداء لا زالوا واقفين بالمرصاد ، يعتدون على الأوطان ، ويخربون الديار . وإذا كانوا بالأمس قد أسقطوا بغداد ، فإنهم اليوم يهددون دمشق والقاهرة . لقد جال هذا بخاطر كل مسلم ، فانفعلت كل نفس ، واهتز كل وجدان .

و إذا كان لهذا الحادث الجلل تأثيره العميق في نفوس المسلمين جميعاً ، فإنه لا شك كان أشد وقعاً ، وأعظم تأثيراً في نفوس الشعراء منهم ؛ فنظموا المراثى التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون . وكان من بين

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، ص ١٣٠ .

تلك المراثي ، مرثية قالها تاج الدين إسماعيل بن أبي اليسر[1] منها هـذه الأبيات :

إسائل الدمع عن بغداد أخبـار فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا فمـا بذاك الحمى والدار ديـار
تاج الخلافة والربع الـذي شرفت بـه المعـالم قد عفـاه إقفـار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثـر وللدموع عـلى الآثـار آثـار

وذكر ابن شاكر الكتبي[2] نقلاً عن الشيخ شمس الدين الكوفي الواعظ – قصيدة يتحسر فيها على خراب بغداد وقتل الخليفة . وهذه القصيدة هي :

عندي لأجـل فراقكـم آلام فـإلامَ أعذَلُ فيكـم وألامُ
من كان مثلي للحبيب مفـارقاً لا تعذلوه فـالكلام كِلاَم[3]
نعم المساعد دمعي الجاري عـلى خـدَّيَّ إلا أنـه نمّـام
ويذيب روحي نَوْح كل حمامة فكأنمـا نوح الحمـام حِمَـام
إن كنتَ مثلي للأحبة فـاقـداً أو في فؤادك لوعـة وغـرام
قف في ديار الظـاعنين ونادهـا يـا دار ما صنعتْ بك الأيـام
أعرضتُ عنك لأنهم مذ أعرضـوا لم يبق فيّ بشاشـة تُسْتَـام[4]
يـا دارُ أين الساكنـون وأين ذَ يّاك البهـاء وذلك الإعظـام
يـا دار أين زمانُ رَبعك مونقـاً وشعارك الإجـلال والإكرام

---

(١) انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٣ ؛ مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمداني ، للمؤلف ، ص ٤٤ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٩٧ – ٤٩٨ .

(٣) جمع كلم وهو الجرح .

(٤) تطلب وتحب .

يا دار مُذْ أفَلَتْ نجومُك عمّنـا والله مـن بعد الضيـاء ظلام
فَلِبُعْدِهم قَرُب الردى ولفقدهم فُقِـد الهـدى وتزلزل الإسلام
فمـتى قبلتِ من الأعـادي ساكناً بعد الأحبـة لاسقـاك غمـام
يـا سادتي أمـا الفؤاد فشيّق قَلِـقٌ وأمـا أدمعي فَسجَام
والدار مُذْ عدمتْ جمال وجوهكم لم يبـق في ذاك المقـام مُقَام
لا حـظّ فيهـا للعيون وليس للأقـدام في عرصاتهـا إقدامُ
وحيـاتِكم إني عـلى عهد الهدى بـاق ولم يخفر لـدي ذِمام[1]
فدمي حلال إن أردتُ سواكُم والعيش بعـدكُم عـليّ حرام
يـا غائبين وفي الفؤاد لبعدهـم نار لها بين الضلـوع ضـرام
لا كُتْبُكم تـأتي ولا أخباركـم تُرْوى ولا تُدْنيكـم الأحـلام
أقصتْكُم الدنيا عـليّ وكلمـا جَدّ النوى لَعِبَتْ بي الأسقـام
ولقيتُ من صرف الزمان وجوره ما لم تُخيّلـه لِـيَ الأوهـام
يا ليتَ شعري كيف حال أحبتي وبـأي أرض خيّمـوا وأقاموا
مـا لي أنيس غير بيت قـالـه صَبٌّ رمتـه من الفراق سهـام
« والله ما اخترتُ الفراق وإنمـا حكمت عـليّ بذلك الأيـام »

ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على شعراء العرب وحدهم ، بـل شاركهم في هذا الميدان شعراء الفرس كذلك ؛ حتى أننا لنجد الشاعر الكبير سعدى الشيرازي الذي كان يعيش في ذلك الوقت في شيراز آمناً مطمئناً بعيداً عن ميدان المعركة ، لا يستطيع أن يخفي تأثره لهول هذا المصاب ، فينظم قصيدة فارسية يرثي فيها المستعصم ، ويبدي تحسره وتأسفه عـلى زوال الخلافة العباسية ، وهذا هو مطلع القصيدة :

---

(١) الذّمام جمع ذمة وهي العهد . وأخفر الذمة : لم يف بها .

آسمانرا حق بُوَد گرخون بريزد برزمين
بر زوال ملك مستعصم أمير المؤمنين[1].

ومعناه :
للسماء حق إذا بكت على وجه الأرض دماً ،
لزوال ملك المستعصم أمير المؤمنين .

كما نظم هذا الشاعر قصيدة أخرى عربية في نفس الموضوع ، كانت من أروع قصائده ، وكأنه أراد أن ينعي بهاتين القصيدتين الخلافة الإسلامية للمسلمين أجمعين: الفرس منهم والعرب على السواء[2] .

حبست بجفنيّ المدامع لاتجري فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صَبا بغداد بعد خرابها تمنيتُ لوكانت تمر على قبري[3].

(١) انظر كليات سعدى ، ص ٤٨٦ ، طبع طهران ؛ براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى ، الترجمة العربية ، ص ٤١ — ٤٢ .
(٢) الدكتور إبراهيم أمين الشواربي : العربية في إيران ، مجلة كلية الآداب ، جامعة عين شمس (جامعة إبراهيم باشا الكبير سابقاً) ، ج ١ ، ص ٤٥ لسنة ١٩٥١ .
(٣) انظر كليات سعدى ، ص ٤١١ — ٤١٤ ، طبع طهران .

الفصل الحادي عشر

حملة هولاگوخان على الشام

الفصل الحادي عشر

حملة هولاگوخان على الشام

كان هولاگوخان إبان شروعه في الزحف على بغداد ، قد أرسل جيشاً بقيادة القائد المغولي « أرقيو نويان » للاستيلاء على « إربـل » ، وكان يعيش بها قوم من الأكراد . ورغم مناعة القلعة وشجاعة الأكراد في الدفاع عنها ، فقد سقطت في يد جنود هولاگو . وبفتح هذه المدينة صار المغول يشرفون على حدود الشام .

ولما فرغ هولاگو خان من فتح قلاع الإسماعيلية ، والاستيلاء على بغداد ، بقي عليه من البرنامج الذي رسمه له أخوه « منگو قاآن » أن يخضع الشام ومصر ، فوجه همته لإخضاع هذين الإقليمين .

وكان إقليم الشام في ذلك الوقت تتقاسمه سلطات ثلاث : هي سلطة الفرنج ، وسلطة الأرمن المسيحيين ، وسلطة الحكام المسلمين الذين كانوا يتمثلون في الأمراء الأيوبيين . وكان هؤلاء الأمراء يحكمون في مـدن ميافارقين وحصن كيفا والكرك وحلب ودمشق وحماة وحمص ، وهم ينتسبون إلى الأسرة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي في مصر في الثلث الأخير من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وكانت ترجع إلى أصل كردي .

ومما يؤسف عليه أن كل واحد من هؤلاء الأمراء ، كان يعتبر نفسه مستقلاً ، فلا وفاق بينهم ، ولا سلطان لأمير منهم على أمير . وكانوا في نزاع دائم وخلاف مستمر ، حتى في الوقت الذي بدأ فيه شبح المغول يظهر مخيفاً مرعباً ، وأصبح هذا الخطر ماثلاً للعيان على أثر فتح بغداد . ولو قدر لهؤلاء الأمراء ، فاتحدوا وتكتلوا ، لاستطاعوا أن يكونوا سداً منيعاً ، يدرءون به خطر المغول عن تلك البلاد .

وفي ذلك الوقت كان الناصر يوسف – صاحب حلب ودمشق (٦٤٠ – ٦٥٩ هـ) – أكثر الأمراء الأيوبيين قوة واقتداراً . يقول ابن العبري أثناء تأريخه لحوادث سنة ٦٥٦ هـ : « وفيها توجه الأشرف بن الملك الغازي بن الملك العادل صاحب ميافارقين ، إلى الملك الناصر صاحب حلب ، يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول إلى الشام . فاستخف برأيه ، ولم يسمع مشورته ، بل سوفه بكلام وسرحه من عنده بالأمان »[1].

ولم يقف الناصر عند هذا الحد من التخاذل ، بل أظهر الضعف والخنوع ؛ إذ نجده على أثر فتح بغداد ، يهادن المغول ، فيرسل ابنه العزيز إلى هولاكو ، يحمل إليه الهدايا والتحف . ويقدم صك العبودية عن طواعية واختيار ، بل ويطلب إليه على لسان أبيه أن يمده بنجدة تساعد في الاستيلاء على مصر ، وتخليصها من المماليك[2] .

ولكن هولاكو على الرغم من ذلك ، شك في إخلاص الناصر ، لأنه لم يحضر إليه بنفسه ، ليعرض عليه ولاءه وتبعيته ، ثم يطلب تحالفه معه ضد المماليك في مصر . وبناء على هذا رأى هولاكو أن الوفد الذي أرسله الملك الناصر إليه لا يناسب مقامه ، فأرسل إليه رسالة[3] يأمره

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٧ ، طبع بيروت ١٩٥٨ .
(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١١ .
(٣) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٨ .

فيها بضرورة المجيء إليه وتقديم الخضوع والتبعية دون قيد أو شرط .

وفي الوقت نفسه تعرض الملك الناصر لاستنكار شديد من الأمراء الآخرين بسبب إقدامه على التقرب إلى المغول ، فأظهروا العداء السافر له . فلما رأى حبوط مسعاه ، وأن محاولته هذه جعلته مريباً عند المسلمين ، رد على رسالة هولا كو برسالة كلها قذف وسباب.

وهنالك عامل هام شجع المغول على فتح الشام ، ونعني به التحالف الذي تم بين الحكام المسيحيين في غرب آسيا من جهة ، وبين المغول من جهة أخرى ؛ فقد رأى « هيتوم » ملك أرمينية[1] أن الفرصة سانحة للانضمام إلى المغول ، لاستخلاص الشام بوجه عام ، وبيت المقدس بوجه خاص . ولما كان « بوهيمند » السادس ملك انطاكية الصليبي حليفاً وفياً لجاره هيتوم ، وكان قد تزوج من ابنته ؛ دخل هو الآخر في الحلف المغولي . ومما هو جدير بالذكر أنه كان لزوجة هولا كو المسيحية « دوقوز خاتون » ، والتي كان يؤثرها باحترامه وحبه ، أكبر الأثر في توطيد أواصر الصداقة بين الزعماء المسيحيين ، وبين هولا كو . يذكر « جروسيه » Grousset نقلاً عن المؤرخ الأرمني « هيتون » Hayton أن خطة الحملة المغولية قد تقررت بعد لقاء تم بين هولا كو وتابعه الأرمني « هيتوم » الأول ملك قليقية ، وكان الخان قد طلب إليه أن يسير بجيشه الأرمني إلى الرها بحجة أنه ذاهب لكي يخلص الأرض المقدسة من يد المسلمين ، ويردها إلى المسيحيين ؛ ففرح الملك هيتوم بهذا الخبر ، وجمع جيشاً

(١) المقصود أرمينية الصغرى أو بلاد قليقية . وقد جاء في (كتاب السلوك للمقريزي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٠ ، حاشية ١) أن هيتوم انضم إلى هولا كو رغبة منه في حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ، ودولة المماليك بالجنوب ، وصارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعة لدولة التتر بفارس .

كبيراً ، وانضم إلى هولا كو ، وقدم البطريق الأرمني ليمنح البركة للخان[1] . وهكذا اتخذت حملة حفيد چنگيزخان المغولية الأرمينية سمات الحرب الصليبية ؛ ذلك لأن ملك الأرمن هيتوم ، كان في علاقته بالمغول ، لا يتحدث عن نفسه فقط ، وإنما كان يتحدث كذلك عن صهره الفرنجي « بوهيمند » .

وفي شهر رمضان سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) تحرك الجيش المغولي الكبير من أذربيجان قاصداً سورية . وكان يقود الطلائع القائد المغــولي « كيتوبوقا » ، وكان « بايجو » و « سنقر » يقودان الجناح الأيمن . أما الجناح الأيسر فكان يقوده « سونجاق » . وأخيراً القلب ، وكان يقوده هولاكو نفسه . كما أرسل ابنه « يشموت » مع « سونتاي نويـــان » لمحاصرة ميافارقــين ، وعهد إلى الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ بفتح « آمد » .

وقد ابتدأت الحملة على سورية بغارة محلية ضد إمارة ميافارقين بديار بكر ، وكانت في ذلك الوقت تحت سيطرة أحد الأمراء الأيوبيين المسمى « الملك الكامل » محمد بن الملك المظفر بن العادل أبي بكر بن أيوب . وكان مما أخذه المغول على الملك الكامل ، أنه بتعصبه صلب قسيساً مسيحيـــاً يعقوبياً ، قدم بلاده ، وكان يحمل جواز مرور مغولي[2] . فعهد هولا كو إلى الأمراء يشموت وايلكانويان وسونتاي بالاستيلاء على ميافارقين . فلما اقتربوا منها ، أرسلوا رسلهم إلى الملك الكامل يدعونه إلى الانقياد والطاعة ، فأخبرهم بأنهم يحاولون عبثاً ، لأنه سوف لا ينخدع بأقوالهم المعسولة ، ولن يعتمد على وعودهم ، بل سيمتشق الحسام ضدهم ما دام على قيد الحياة . وهكذا استقر الرأي على القتال ، وتوجه الملك الكامل

---

(١) Grousset : L'Empire des Steppes, P. 434.

(٢) نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

إلى أفراد شعبه مقوياً من عزيمتهم ، فقال : « إنني لن أمنع الفضة والذهب والغلات التي توجد في المخازن ، بل سأوثر بها المحتاجين . فلست — بحمد الله — مثل المستعصم عبداً للدينار والدرهم ، فإنه قد أسلم رأسه ، وملك بغداد إلى الهلاك ؛ بسبب بخله وشحه[1] » . فانضم اليه جميع السكان ، وصاروا رهن إشارته للاشتراك في المعركة .

حاصر المغول ميافارقين ، واشتركت معهم فرق أرمينية مسيحية . وقد استمر الحصار مدة عامين أظهر خلالهما المدافعون عن المدينة ضروباً من الشجاعة المنقطعة النظير . وكان هناك في جيش الملك الكامل فارسان بارعان ، دوخا قادة المغول وأوقعاهم في الدهشة والحيرة ؛ إذ كانت بسالتهما وإحكامهما الرماية سبباً في إنزال أفدح الخسائر بالجيش المغولي . ولكن نظراً لطول الحصار ، نفدت عند المدافعين الأزواد ، وعم القحط ، وانتشر الوباء ، واضطر الناس إلى أن يأكل بعضهم بعضاً ، حتى هلك أكثر سكان المدينة . ولما تأكد الملك الكامل أن المقاومة أصبحت عديمة الجدوى استسلم للمغول ، فقتلوه شر قتلة ؛ إذ كانوا يقطعون لحمه قطعاً ، ويدفعون هذه القطع إلى فمه حتى مات ، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح ، وطافوا به في البلاد السورية الكبيرة . وكان يتقدم موكب الرأس مغنون وطبالون . وأخيراً علق في شبكة بسور باب الفراديس بدمشق[2] .

ولما تم للمغول فتح ميافارقين ، تقدموا نحو ماردين ، وكانت في قبضة الملك السعيد الذي أبى إلاّ أن يقاوم ، فاستمر المغول يحاصرونها مدة ثمانية

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٣٦٤ ؛ نفس المصدر ، الترجمة العربية ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) يذكر ابن الوردي في كتابه تتمة المختصر في أخبار البشر (ج ٢ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦) ، أن الرأس بقي على هذه الحالة إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين ، داخل باب الفراديس .

أشهر دون أن ينجحوا في احتلالها . وأخيراً حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يثني أباه عن عزمه ، ويحمله على التسليم للمغول . فلما لم يفلح ، لم ير بدأ من قتل أبيه ، حقناً لدماء المسلمين ، فتخلص منه ، وسلم القلعة للمغول ، فنصبوه والياً على ماردين بدلاً من أبيه .

وفي أثناء حصار ميافارقين ، كان هولا گو يغزو الإمارات الإسلامية في سورية ؛ إذ نزل من كردستان إلى الجزيرة ، واستولى على نصيبين ، واستسلمت له حران والرها ، وقتل أهالي سروج عن آخرهم ؛ لأنهم قاوموه . ثم احتل البيرة ، وعبر نهر الفرات ، وأغار على منبج حيث سفك دماء الكثيرين من أهلها .

بعد ذلك تقدم هولا گو على رأس جيش كبير ، يعاونه الأرمن والفرنج لمحاصرة حلب . وجرياً على عادة المغول ، أرسل الغازي المغولي رسالة إلى « الملك المعظم تورانشاه » والي حلب ، يطلب إليه أن يسلمه المدينة ، ووعد بأن يؤمنه ويؤمن أتباعه ، فلم يجبه تورانشاه إلى طلبه ، وصمم على محاربته . أما السلطان الناصر صاحب حلب ، فبدل أن يبقى ليدافع عن المدينة ، آثر الهرب إلى دمشق ، فحمل عنه عبء الدفاع الملك المعظم تورانشاه . وفي ذلك الوقت كان رئيس أساقفة حلب هو المؤرخ ابن العبري ، فسارع إلى المغول ، وقدم طاعته لهولا گو .

نصب المغول ٢٠ منجنيقاً حول المدينة ، وصاروا يمطرونها بوابل من قذائفهم ، إلى أن اضطرت إلى التسليم ، فاستباحوها سبعة أيام ، قتلوا خلالها خلقاً كثيراً ، امتلأت بهم الطرقات ، وأسروا النساء والذرية ، ونهبوا الأموال . وأما قلعة حلب ، فقد استعصت عليهم ، واستمرت تقاوم مدة ثلاثين يوماً ، ثم سلمت في النهاية . وقد استغل « هيتوم » ملك أرمينية تلك الفرصة ، فأحرق الجامع الكبير في الوقت الذي احترقت فيه الكنيسة اليعقوبية .

وعندما هدأت الأحوال ، أصدر هولا گو أمره ، بوقف تلك المذابح ،

وأعطى ملك الأرمن جزءاً من الأنفال ، وأعاد إليه الأقاليم والقصور التي كان قد استولى عليها مسلمو حلب . كما رد إلى بوهيمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها منه .

بعد ذلك رحل المغول إلى قلعة حارم[1] ، ولكن أبى أهلها أن يسلموها لغير فخر الدين المعروف بالساقي والي قلعة حلب ، لأنه رجل صادق مؤمن خيِّر ، يوثق به[2] ؛ فغضب عليهم هولاگو ، ولكنه تظاهر بالنزول على رغبتهم . واستدعى فخر الدين ؛ حتى اذا سلمت إليه القلعة ، أمر هولاگو بقتل فخر الدين أولاً ، ثم بقتل جميع من في القلعة من الصغار والكبار ، الرجال منهم والنساء حتى الأطفال . كذلك سقطت في أيدي المغول حماة والمعرة وحمص .

ونتيجة لهذه الانتصارات السريعة الحاسمة ، وما صاحبها من قتل وتشريد وتخريب وتدمير ، عم الرعب كل بلاد سورية الإسلامية ؛ فسارع الأمراء الآخرون بتقديم فروض الطاعة للمغول ، فكان ممن جاء إلى هولاگو ، وهو عند أسوار حلب ، الأيوبي الملك الأشرف موسى ، سليل أسد الدين شيركوه وملك حمص سابقاً . وكان في ذلك الوقت يملك فقط قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها . فكافأه هولاگو على ولائه للمغول ، وذلك بأن رد إليه حمص التي كان الناصر قد انتزعها منه في سنة ٦٤٦ هـ . كما اختاره نائباً عنه ببلاد الشام[3] .

ولما تقدم المغول نحو دمشق ، كان المدافعون عنها قد هجروها . كما أن أن الملك الناصر ، لم يحاول أن يحمي المدينة ، بل تركها لمصيرها التعس ،

---

(١) حارم : حصن وكورة تجاه انطاكية .
(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٩ .
(٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٣ ؛ الدكتور مختار العبادى : قيام دولة المماليك في مصر والشام ، ص ١٥٣ .

وانسحب إلى غزّة ليكون على مقربة من النجدة التي وعده بها سلطان مصر [1].
ولما خابت آماله، فر هائماً على وجهه إلى أن وقع في قبضة المغول، فعفا عنه هولاكو، ووعده بأن يفوض إليه حكومة الشام بعد أن يستولي على مصر [2].

أما أهالي دمشق، فقد عرفوا ما حل بمدينة حلب، وكانوا يخشون أن يلقوا نفس المصير، إذا حاولوا مقاومتهم. ولهذا سارع ذوو الرأي والوجهاء منهم إلى هولاكو، وقدموا له الهدايا والتحف، وسلموه مفاتيح المدينة، وأظهروا له الانقياد والطاعة. فدخل المغول المدينة دون إراقة دماء. ولكن امتنعت عليهم قلعة دمشق. فحاصروها، وأقاموا عليها المجانيق إلى أن استسلمت لهم في منتصف جمادي الأولى، ونهبوا جميع ما فيها.

وعلى أثر فتح دمشق، سنحت للمسيحيين الفرصة للتشفي والانتقام من المسلمين؛ فنظموا مواكب عامة، كانوا ينشدون فيها الأناشيد، ويحملون الصلبان، ويجبرون المسلمين على أن يقفوا احتراماً لها، ومن يمتنع منهم، كان يتعرض للسب والإهانة. وبلغ بهم التحدي أقصاه، فدقوا النواقيس، وتظاهروا بالخمر في رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات، كما صبوه على أبواب المساجد، ولم يستثنوا حتى الجامع الأموي، فضجر المسلمون من تلك الفعال، ورفعوا شكواهم إلى كيتوبوقا نائب هولاكو، فلم يحفل بهم، بل أهانهم، وضرب بعضهم، وأخذته موجة من التقوى، فجعل يزور الكنائس، ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم [3].

وفي الأسابيع الثلاثة التي أعقبت فتح دمشق، أتمّ المغول فتح سورية، وقتلوا حامية نابلس، لأنهم قاوموا. ثم تقدموا إلى غزة دون أن يلقوا مقاومة

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢٠٩ - ٢١٠.
(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (الايلخانيون)، م ٢، ج ١، الترجمة العربية، ص ٣٠٨.
(٣) انظر الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٢٥؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٥؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٠.

تذكر ، واستسلمت لهم حامية عجلون ؛ غير أن قوات المغول لم تصل مطلقاً إلى بيت المقدس نفسه . وبذا أحاط المغول بالفرنج من كل الجهات . ولكن لم يكن في نيتهم أن يهاجموا مملكة الفرنج ، بشرط أن تظهر لهم الانصياع التام .

انتصار المصريين على المغول :

رأينا فيما سبق أن المغول قد استطاعوا في مدة قصيرة أن يستولوا على معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف في ذلك الوقت ؛ فالتهموا دوله الواحدة بعد الأخرى ، وتوغلوا في ممالكه يفتكون ويهتكون ، ويسفكون الدم ، ويحطمون العروش . فلقد قضوا على الدولة الخوارزمية ، وحطموا قلاع الإسماعيلية ، وفتحوا بغداد ، وقتلوا الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ، وارتكبوا من الشناعات والفظائع ما تقشعر لهوله الأبدان ، واستولوا على الجزيرة وديار بكر وديار ربيعة ، وأخضعوا الشام بأسره ، ولم يبقَ أمامهم إلاّ مصر آخر معقل للإسلام في الشرق .

يقول « رنسيمان »[1] : « بسقوط المدن الثلاثة الكبيرة : بغداد وحلب ودمشق ، تراءى كأن الإسلام في غرب آسيا حان أجله . ففي دمشق ، وفي سائر الجهات في غرب آسيا ، لم يكن للفتح المغولي من معنى سوى انتعاش المسيحيين المحليين . وإذا كان كيتوبوقا نفسه مسيحياً ، لم يخف عواطفه . فأضحى المسلمون بداخل سورية لأول مرة منذ القرن السابع (الميلادي) يُعتبرون أقلية مغلوبة على أمرها ، فأخذوا يتحرقون للانتقام » .

ولا شك أن هذه الانتصارات المتتابعة التي أحرزها المغول ، كانت قد حيَّرت الناس ، وتركت في نفوسهم أثراً عميقاً ، وجعلتهم يميلون إلى الاعتقاد بأن هؤلاء المغول إنما هم بلاء من الله سلطه على المسلمين ، ولن تستطيع قوة

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٢٨ .

على ظهر الأرض أن تقف أمامهم .

ولكن فجاة وقعت حادثة زعزعت هذا الاعتقاد ، وقلبت الفكرة رأساً على عقب ؛ إذ وصلت الأخبار إلى هولاگو تنبيء بوفاة أخيه الأكبر منگوقاآن في الصين منذ سنة ٦٥٥ هـ ، وبتنازع أخويه الآخرين « قوبيلاي » و« أريق بوكا » ولاية العرش . وبالرغم من أن هولاگو هو الابن الرابع لتولوي ، ومن حقه أن ينافس أخويه الآخرين في تَوَلّيَ عرش المغول ؛ غير أنه عدل عن ذلك بسبب ما تهيأ له من الفتح والظفر في إيران والشام . ولكنه في الوقت نفسه ، كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي هذا المنصب من أخيه الآخر « أريق بوكا » . لهذا كان حريصاً على أن يحضر القوريلتاي (مجلس الشورى) ليزكي ترشيح أخيه قوبيلاي خاناً أعظم .

ومن ناحية أخرى كان هولاگو يعلم أنه مهدد من جهة الحدود القوقازية من قبل ابن عمه « بركه خان » الذي كان يحكم في القبچاق ؛ خصوصاً وأنه كان قد اعتنق الإسلام[1] ، وصار يتوعد هولاگو بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح ، راح فيها ألوف من الضحايا المسلمين ، ولتجرئه على مقام الخلافة وقتل الخليفة .

ولهذين السببين اضطر هولاگو إلى العودة إلى إيران . وكان في نيته أن يكتفي بما تم من فتح ، ولا يترك خلفاً له يكمل برنامجه في الاستيلاء على فلسطين ومصر ؛ غير أن إلحاح المسيحيين الشرقيين ، وفي مقدمتهم هيثوم ملك أرمينية ، جعل هولاگو يوافق على أن يترك قائده «كيتوبوقا » ، وتحت إمرته عشرة آلاف مقاتل لإتمام هذا المشروع[2] . كما عهد هولاگو إلى هذا

---

(١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٥ .

(٢) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٠ ؛ Lamb : The Crusades : The Flame of Islam, P. 340 . ويقول الدكتور الباز العريني : إن عددهم كان يتراوح بين ١٠ آلاف و ٢٠ ألف جندي (المغول ، ص ٢٥٧) .

القائد بإدارة شئون الحكم في سورية .

وقد عرف عن القائد المغولي «كيتوبوقا» أنه كان يكن أحسن النوايا للمسيحيين ، لا لأنه كان يدين بالمسيحية فقط ، بل لأنه فيما يبدو قد فهم المصلحة من قيام حلف صليبي مغولي . وبالرغم من أن «بوهيمند» السادس ملك أنطاكية ، كان يشارك كيتوبوقا هذا الشعور ، فإن بارونات عكا ، ظلوا ينظرون إلى المغول كبرابرة لا يمكن أن يفضلوا المسلمين . والواقع أن الفرنج بصفة عامة ، كانوا قد أدركوا أن المغول لن يسمحوا لهم بإقامة إمارات فرنجية مستقلة ، وإنما يريدونهم تابعين للخان الكبير . وإذن فلا يصح توجيه اللوم لهم ، لأنهم يؤثرون المسلمين الذين عرفوهم على هذا العنصر الغريب الهمجي المتغطرس القادم من الصحاري النائية ، والذي كان سجله في شرق أوربا داعياً للنفور[1] . وحدث أن هاجم أحد البارونات المسمى الكونت «جوليان الصيداوي» Julien de Sidon دورية مغولية ، وقتل ابن أخي كيتوبوقا ، فسخط المغول ، وتألموا جداً بسبب وقوع هذا الحادث ، وتوجهوا لتخريب صيدا ، فكان هذا إيذاناً بانتهاء الحلف الصريح أو الضمني بين الفرنج والمغول[2] .

وفي ظل هذا التنافر عادت للناس في مصر شجاعتهم وثقتهم بأنفسهم . وكان على المغول أن يدركوا أنه إذا كانت سلطنة حلب ودمشق قد سقطت في أيديهم ، فإنه قد بقي عليهم أن يغلبوا قوة إسلامية عظيمة هي قوة المماليك أصحاب السيطرة في مصر . يقول رنسيمان : «من سوء حظ المغول ، أن توغلهم في فلسطين ، أثار دولة إسلامية كبيرة لم تتعرض للهزيمة ، وهي دولة المماليك في مصر ؛ إذ أضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة

---

(١) انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥١٣ .
(٢) Grousset : L'Empire des Steppes, P. 437.

ما يجعلهم يقبلون تحدي المغول »[1] . والمعروف عن هؤلاء المماليك أنهم كانوا في الأصل غرباء عن البلاد وأهلها ، وهم من أصل تركي في الغالب[2] ؛ اضطر الأيوبيون إلى الاستعانة بهم ، فكانوا يشترونهم بالأموال ، ويجعلونهم نواة جيوشهم . وما هي إلاّ فترة وجيزة حتى نشأ بين زعماء هؤلاء الصنائع جيل جديد ، استطاع أن يستأثر بملك البلاد في عام ٦٤٨ هـ (١٥٢٠ م) . وفي الفترة التي نؤرخها كان السلطان المملوكي « قطز » ثالث هؤلاء المماليك هو الذي يحكم في القاهرة .

وهنا يجب أن نتنبه إلى حقيقة هامة ، هي أن هؤلاء المماليك جلبوا إلى مصر أطفالاً صغاراً ، فنشأوا وسط بيئة عربية خالصة ، وتعلموا منذ نعومة أظفارهم اللغة العربية ، وتلقوا أصول الديانة الإسلامية على أيدي مجموعة مختارة من الفقهاء والمشايخ العرب ، فشبوا لا يعرفون ديناً غير الإسلام ، ولا وطناً غير الوطن العربي . وبعبارة أخرى فإن هؤلاء المماليك قد استعربوا منذ طفولتهم ، وتشربوا العروبة وروحها منذ حداثتهم ، فصاروا جزءاً لا يتجزأ عن المحيط العربي الكبير ، وأخذوا يحسون بالأحاسيس نفسها التي شعر بها معاصروهم من العرب جميعاً نحو الأخطار الخارجية الكبرى التي هددت الوطن العربي الكبير في ذلك العصر ، فوضعوا أيديهم في أيدي أبناء مصر والشام ، وسار الجميع تحدوهم فكرة الجهاد في سبيل الله والوقوف صفاً واحداً في وجه المغول العدو اللدود للمسلمين .

والواقع أن قطز تولى السلطنة في ظروف لا يحسد عليها حاكم ؛ إذ كان مطلوباً منه أن يستعد لصد الخطر الذي لم تستطع قوة في الشرق الأدنى الصمود في وجهه . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ، كان عليه أن يعمل على لمّ الشعث

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٣٢ .

(٢) انظر الدكتور علي إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية . ص ٢٢ ، الطبعة الثانية .

وجمع الكلمة واتحاد الصفوف بين العرب في الشام ومصر ؛ إذ شاءت الأقدار أن تجعل ميدان معركة تحرير الشرق العربي من خطر التتار على أرض فلسطين التي سبق أن خلد على ترابها القائد صلاح الدين الأيوبي انتصاراته الرائعة على الاستعماريين الصليبيين .

كان عليه أيضاً أن يبذل الجهود الجبارة لكي يحول دون اتصال أمراء الشام بالتتار ؛ خصوصاً بعد أن سمع بأنباء هؤلاء المستضعفين الرجعيين من أبناء الأسرة الأيوبية الذين راحوا في ذلة ومهانة ، يقدمون فروض الخضوع والطاعة للطاغية هولاكو ، وقبلوا على أنفسهم خيانة وطنهم وبيعه للمستعمر الدخيل[1] .

والحق أن قطز كان سياسياً حكيماً كما كان قائداً بارعاً ، حرص بمجرد أن تولى الحكم على رفع الروح المعنوية لهؤلاء الحكام ، وتأمينهم على حياتهم ، ودعوتهم إلى التضامن والتآزر في سبيل القضاء على العدو المشترك . ويظهر دهاء قطز بوضوح في الرسالة التي أرسلها إلى الملك الناصر بعد أن ورد الخبر بقدوم نجدة إليه من عند هولاكو . فهو في هذه الرسالة يقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ، ولا يقاومه ، وأنه نائب عنه بديار مصر ، ومتى حل بها أقعده على كرسي السلطنة . كما يعرض عليه أن يُقْدِم إليه مع جيشه . وإذا كان لا يطمئن إلى حضوره ، فإنه على استعداد لأن يُسَيِّر إليه الجيش صحبة من يختاره : «وإن اخترتني خَدَمْتُكَ ، وإن اخترتَ قدمتُ ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك . فإن كنتَ لا تأمن حضوري ، سَيَّرْتُ إليك العساكر صحبة من تختاره »[2] . فاطمأن الملك الناصر .

وهكذا نجح قطز في الجولة الأولى — وقبل أن يخوض المعركة ضد المغول —

---

(١) انظر كتاب المجتمع العربي ، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس ، ص ١٥٩ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٨ .

في خلق تعاون وثيق بين الشام ومصر ، وتوحيد جيوشهما لصد العدوان المغولي . وقد سارعت البقية الباقية من أمراء الشام ممن أبت عليهم وطنيتهم أن يستسلموا للمغول ، فاتجهوا إلى مصر يتطلعون إليها ، وينتظرون على يديها الخلاص ، ويبدون استعدادهم للوقوف معاً صفاً واحداً في وجه العدو المشترك لإنقاذ الشرق العربي من خطرهم .

ثم دخلت العلاقات بين المغول والمماليك في مرحلة حرجة عندما أرسل هولاكو — قبل أن يبرح الشام في سنة ٦٥٨ هـ (١٢٥٩ م) — رسله يحملون رسالة إلى السلطان قطز تتضمن كل معاني التهديد والوعيد ، يدعوه فيها إلى الاستسلام ، وتقديم فروض الطاعة للمغول . يقول في هذه الرسالة[1] :

« من ملك الملوك شرقاً وغرباً ، القان الأعظم :

« باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا [2] إلى هـذا الإقليم ، يتنعمون بإنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب ، وعلينا

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ — ٤٢٩ .

(٢) يشير هنا إلى أصل السلطان قطز محمود بن مودود ، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، وأبوه ابن عم السلطان جلال الدين . وكان قد أسر في حروب التتر ، وبيع بدمشق للسلطان الملك المعز أيبك ثم انتقل إلى القاهرة (انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ، ص ٣٧٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٣٥) .

بالطلب فأي أرض تأويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع . فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفّون عند الكلام ، وخنتم العهود والأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا . وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنـا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم نار الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم . فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر ها هلاوون[1] قد أتى بحد سيوف تنتضي وبواتـر
يـصير أعز القوم منها أذلة ويُلحق أطفالاً لهم بالأكابر »

فلما وصل رسل هولاگوخان ، وتُليتْ الرسالة ، استدعى قطز الأمراء ، وشاورهم في الأمر . فقال ناصر الدين قيمري : « إن هولاگوخان فضلاً

---

(١) صيغة لاسم هولاگو ، ترد كثيراً في كتب المؤرخين المعاصرين (انظر ابن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٧٢ ، حاشية ٧) .

عن أنه حفيد چنگيزخان ، وابن تولوي ، وأخو منگوقاآن ، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان ، وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر ، كلها في قبضته الآن . وقد اختص بالتأييد السماوي . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان ، فليس في ذلك عيب وعار . ولكن تناول السم بخداع النفس ، واستقبال الموت ، أمران بعيدان عن حكم العقل . إنه ليس بالإنسان الذي يُطمْأن إليه ؛ فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس ، وهو لا يفي بعهده وميثاقه ، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه ، وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق . فإذا ما سرنا إليه ، فسيكون مصيرنا هذا السبيل »[1] .

فقال قطز : « والحالة هذه ، فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع من فيها من حرث ونسل ، فخلت من الأزواج والأبقار والبذور . فلو أننا تقدمنا لقتالهم ، وقمنا بمقاومتهم ، فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن ، فأمر متعذر ، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفراً إلا المغرب ، وبيننا وبينه مسافات بعيدة » .

فأجاب ناصر الدين قيمري : « وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم ؛ إذ أنه لا يوثق بعهودهم » . وقال أيضاً بقية الأمراء : « ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك » .

عندئذ قال قطز : « إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال . فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق » . فاتفق الأمراء على هذا الرأي . ثم اختلى قطز بالظاهر بيبرس البندقداري الذي كان أميراً

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (الإيلخانيون)، م ٢ ، ج ١ ، الترجمة العربية ، ص ٣١١ — ٣١٢ .

للأمراء ، واستشاره في هذا الموضوع . فقال البندقداري : « إني أرى أن نقتل الرسل ، ونقصد كيتوبوقا متضامنين . فإن انتصرنا أو هزمنا ، فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين »[1] . فاستصوب قطز هذا الكلام ، وأمر بقتل الرسل ، والمسير للقتال . وقد شجعه على اتخاذ هذه الخطوة عاملان :

الأول — وجد من الصعب على نفسه ، أن تخضع مصر أيضاً لمشيئة كافر مستبد ، ورأى هو وجنوده أن الموت مع العزة خير لهم من الحياة مع الذلة ، وأن الخلود في تقديس الكرامة البشرية والسمو بها إلى الاستقلال والحرية ، فإن عجزوا عن إحرازها في الأرض ، ففي جنة الشهداء المستبسلين متسع للمجاهدين .

الثاني — أدرك أن الظروف قد أصبحت ملائمة ، وأن كيتوبوقا بجيشه الذي لا يزيد على عشرة آلاف جندي بعد رحيل هولاكو بمعظم الجيش ، لم يكن ليستطيع أن يحتفظ بفتوحاته إلاّ عن طريق تحالفه بالفرنج النازلين على الشاطىء . وما دام هؤلاء الفرنج قد نفضوا أيديهم من هذا الحلف ، فقد أصبحت الفرصة مواتية للوقوف أمام الغزاة وقفة موفقة ، بل صار الأمل كبيراً في الانتصار عليهم .

ومع كل هذا فعندما جد الجد ، واستعد قطز للمسير للقتال ، نكص جماعة من الأمراء على أعقابهم ، وأبدوا تكاسلاً وخنوعاً وخوفاً بحجة أنه لا طاقة لهم بمقاومة المغول . فما كان من قطز إلاّ أن توجه إليهم بتلك الكلمات اللاذعة التي ألهبت مشاعرهم ، وقوت عزيمتهم ، وجعلتهم يطرحون الجبن وراء ظهورهم ، ويسارعون إلى نصرة قائدهم وتأييده : « يا أمراء المسلمين !... لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون . وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ (الإيلخانيون) ، م ٢ ، ج ١ ، الترجمة العربية ص ٣١٣ .

يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليــه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين »[1] .

فعلت هذه الكلمات في نفوس الأمراء فعل السحر ، وكان لها أثرها الفعّال في تقوية روحهم المعنوية المنهارة ، فتحالفوا جميعاً على الجهاد في قتال العدو ، ودفعه عن البلاد[2] .

وكانت الخطة التي رسمها قطز لقائده بيبرس تتلخص في أن يزحف بجيوشه لاستطلاع أخبار التتار ، ودراسة مواقفهم وخططهم ، وهو شيء جديد لم يشاهد من قبل في حروب العرب ضد التتار . إذ كان أمراء المدن العربية ، يكتفون بتقوية الحصون عندما تصلهم تهديدات التتار ، ويؤثرون السلامة في الدفاع من وراء الأسوار دون أن يتنبهوا إلى أنهم قد أوقعوا أنفسهم في فخ لا نجاة لهم منه . أما قطز . فقد كشفت خطته عن فهمه لفنون الحرب ، إذ كان يرى أن الهجوم خير من الدفاع في مقاتلة الأعداء[3] .

وعلى هذا التصميم تقدمت طلائــع المصريين يقودهم القائد بيبرس البندقداري ، قاصدين فلسطين . على حين أن الحامية المغولية الصغيرة بقيادة « بايدر » . كانت تحتل غزة ، فلقيها بيبرس ، ودمرها بعدده الوفير ، وأجلاها حتى شاطىء نهر العاصي . أما الفرنج في عكا ، فإنهم بدلاً من أن يتفقوا مع كيتوبوقا ، سمحوا للمصريين بأن يعبروا أرضهم ، ويمونوا أنفسهم منها عند أسوار عكا ؛ ذلك لأن البارونات كانوا يحسون بالمرارة من المغول ، بسبب ما أقدموا عليه منذ زمن قريب من نهب صيدا . كما أنهم لم يكونوا يثقون بهذه القوة القادمة من الشرق التي حفل سجلها بالمذابح الجماعية . لقد ألفوا الحضارة الإسلامية ، وكان معظمهم يؤثرون المسلمين على المسيحيين

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ .
(٢) الدكتور مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٦١ .
(٣) الدكتور إبراهيم أحمد العدوي : العرب والتتار ، ص ١١٢ ، المكتبة الثقافية ، رقم ٨٨ .

الوطنيين الذين حباهم المغول بقدر كبير من العطف[1] .

يقول المقريزي : « ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة ، وأقام بها يوماً . ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا ، وبها يومئذ الفرنج ، فخرجوا إليه بتقادم ، وأرادوا أن يسيروا معه نجدة ، فشكرهم وأخلع عليهم ، واستحلفهم أن يكونوا لا لـه ولا عليه . وأقسم لهم أنـه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريـد أذى عسكر المسلمين ، رجع وقاتلهم قبل أن يلقي التتر »[2] .

ويذكر رنسيمان أن السلطان قطز قاد جيشه على الطريق الساحلي وعسكر في الحدائق الواقعة خارج عكا عدة أيام . وتقررت دعوة عدة أمراء لزيارة المدينة ، باعتبارهم ضيوف شرف . ومن هؤلاء الأمير بيبرس الذي اقترح على قطز ، عقب عودته إلى المعسكر قائلاً : إنه من اليسير الاستيلاء على الموضع بغتة . غير أن قطز لم يكن مستعداً لأن يكون خائناً ، وأنه لا يأمن من هجمات المسيحيين الانتقامية ، بينما لم ينهزم المغول بعد . على أنـه زاد في حيرة الفرنج ، كثرة عـدد زائريهم . ولكن سرى عنهم وطمأنهم ما حصلوا عليه من وعد بأن يشتروا بأثمان منخفضة ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول[3] .

ولا شك أن السماح للجيش المصري باتخاذ الطريق الساحلي الذي كان في أيدي الصليبيين ، واحتشاد هذا الجيش هناك بفضل تموين الفرنجة له ، كان ميزة كبيرة تمتع بها المصريون ؛ إذ أتاحت لهم فرصة ذهبية للقاء العدو ، وهم على أتم الاستعداد . هذا فضلاً عن كثرتهم العددية بالقياس إلى جيش المغول .

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٣٤ — ٥٣٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ .

(٣) انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٣٥ — ٥٣٦ .

موقعة عين جالوت :

عندما علم القائد المغولي «كيتوبوقا» بهزيمة «بايدر» ، صار كأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب ، وأقبل معتمداً – إلى أقصى حد – على قوته وسطوته ، مدفوعاً بدافع الانتقام ، واثقاً من نفسه ، مؤمناً بأن الجيش المغولي لا يمكن أن يغلب .

أما المصريون والسوريون ، فقد تجمعوا عند أسوار عكا حيث عقد قطز مؤتمراً حربياً حضره رؤساء الفرق العسكرية لرسم خطة المعركة . ولم ينسَ قطز أن يستغل هذا المجتمع ليثير الحماسة في نفوس الحاضرين ، ويذكرهم بأهمية الموقعة التي سوف يخوضونها ، وما يترتب عليها من إزالة المفاسد والمذابح والأهوال التي لاقاها المسلمون على يد التتار ، وينبههم إلى عدم التهاون في محاربة المغول حتى لا يصيبهم ما أصاب سكان البلاد الإسلامية من القتل والسبي ، وما حاق بأقاليمهم من الخراب والتدمير . وأخيراً حثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين وحذرهم عقوبة الله . وكانت الكلمة التي ألقاها عليهم قطز بليغة ومؤثرة ، ألهبت مشاعرهم ، وأسالت عبراتهم ، فصمموا على التفاني في الجهاد إلى آخر رمق من حياتهم[1] .

بعد ذلك سارت القوات المصرية والشامية ، متجهة عبر بلاد الفرنجة نحو نهر الأردن . وتقدم الأمير بيبرس البندقداري على رأس عدد من الجنود ، إلى أن واجه طليعة التتر ، فكتب إلى قطز يعلمه بذلك . وأخذ في مناوشتهم حتى لحق به السلطان .

وفي يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر ١٢٦٠ م) في موقع «عين جالوت»[2] التقى جيش المغول – تؤيده بعض النجدات الأرمينية

---

(١) انظر المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ ؛ الدكتور إبراهيم أحمد العدوى : العرب والتتار ، ص ١١٥ – ١١٦ .

(٢) ورد اسمها في معجم ياقوت (عين الجالوت) ، وهي بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال =

والكرجية – بجيوش المصريين حيث دارت المعركة بين الفريقين . وكان قطز شديد الإدراك لتفوق جيشه في العدد . ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ، ولم يظهر للعدو إلاّ المقدمة التي قادها بيبرس . ووقع كيتوبوقا في الفخ ، إذ حمل بكل رجاله على العدو الذي شهده أمامه . وحسب خطة محكمة موضوعة تقهقر المصريون أول الأمر ، وأطمعوا فيهم المغول ، فتشجع هؤلاء ، وتعقبوا المصريين ؛ حتى إذا بلغوا كمينهم ، انشق عليهم من ثلاث جهات ، وطوق المصريون الجيش المغولي بأسره . وقد اشترك السلطان قطز في المعركة وقاد الهجوم بنفسه ، وأبلى بلاء حسناً ، وضرب بذلك مثلاً من أمثلة الشجاعة النادرة ؛ إذ التف الجنود المصريون حوله ، وحملوا على المغول حملة صادقة ، وقاتلوهم باستبسال وشجاعة من الفجر حتى منتصف النهار ، فكتب الله لهم النصر المبين على أعدائهم ، وانهزم المغول هزيمة منكرة[1] ، لأول مرة في تاريخهم ، بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصرة عليهم لاستيلائهم على معظم البلاد الإسلامية ، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلاّ فتحوه ، ولا عسكراً إلاّ هزموه[2] . إلى أن كانت هذه المعركة الحاسمة ، فقضت على تلك الخرافة ؛ إذ استطاع المصريون أن يصمدوا للمغول ، وينتقموا منهم شر انتقام ، ويقتلوا عدداً كبيراً من جنودهم . وأما الذين سلموا من المغول ، ولجأوا إلى قمم الجبال ، فقد تعقبهم المصريون ، وأفنوهم عن آخرهم ، كما طاردوا من هرب إلى أطراف البلاد الشرقية .

وكان المؤرخون المسلمون منصفين ؛ إذ اعترفوا اعترافاً صريحاً كاملاً

= فلسطين (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٦٠ ، نشر وستنفلد) .

(١) انظر رشيد الدين : جامع التواريخ (الإيلخانيون) ، م ٢ ، ج ١ ، الترجمة العربية ، ص ٣١٣ – ٣١٤ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠–٤٣١ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ ؛ الدكتور مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٦٦ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١٤ .

بما كان يتصف به القائد المغولي «كيتوبوقا» من صفات المحاربين الشجعان ، وبما أبداه من ضروب البطولة المنقطعة النظير في كل المعارك التي اشترك فيها إلى أن وقع أخيراً في أسر المصريين ، فكانت نهايته على أيديهم .

فرشيد الدين[1] يقرر أن كيتوبوقا — عندما شعر بأنه خسر المعركة — صار يضرب يميناً وشمالاً ، غيرة وحمية . وكان يكر على أعدائه ؛ فحثه جماعة من أتباعه على الهرب . ولكنه لم يستمع لنصحهم ، وقال : « لا مفر من الموت هنا ، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان . وسيصل رجل واحد ، صغيراً أو كبيراً ، مع أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك (يريد هولاكو) ، ويعرض عليه كلامي قائلاً : إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع ، وقد كلله الخجل ، فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه . ينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً ، وأن جياد قطعانه لم تلد المهور . فليدم إقبال الملك . وما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة ، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود ؛ إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع ، أمر سهل يسير » .

ورغم أن جميع جنوده قد انفضوا من حوله ؛ فقد ظل وحده في ميدان المعركة يكافح ألف رجل ، إلى أن كبا به جواده في نهاية الأمر ، فوقع في الأسر . وكانت هناك مزرعة للقصب بالقرب من ساحة القتال ، فاختفى فوج من فرسان المغول . فأمر قطز جنوده بأن يضرموا فيها النار ، وأحرقوهم عن آخرهم .

ولما سيق كيتوبوقا مكبلاً إلى قطز ، قال له : «أيها الرجل الناكث بالعهد !... ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة ، وقضيتَ على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة ، وهدمتَ البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة

---

(١) جامع التواريخ (الإيلخانيون) ، م ٢ ، ج ١ ، الترجمة العربية ، ص ٣١٤ وما بعدها .

المزورة ، قد وقعتَ أخيراً في الشرك » . فرد عليه القائد المغولي في تبجح وعدم مبالاة : « إني إذا قتلتُ على يدك ، فإني أعلم أن ذلك من الله لا منك . فلا تنخدع بهذه المصادفة العاجلة ، ولا بهذا الغرور العابر ؛ فإنه حين يبلغ هولاكو نبأ وفاتي ، سوف يغلي بحر غضبه ، وستطأ سنابك خيل المغول البلاد من أذربيجان حتى ديار مصر . إن لهولاكوخان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض أنه نقص واحد منهم » . فقال له قطز : « لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران ؛ فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع ، لا بالرجولة والشهامة » .

ولما حاول كيتوبوقا أن يطلق لسانه بالبذاءة والسباب ، أصدر قطز أمره بقتله على الفور ؛ فاحتز رأس هذا القائد ، وطيف به في البلاد .

وأما المؤرخ ابن تغري بردى[1] ، فيقول عن كيتوبوقا ضمن وقائع سنة ٦٥٨ هـ : « كان كتبغانُوين عظيماً عند التتار ، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره . وكان بطلاً شجاعاً مقداماً ، خبيراً بالحروب وافتتاح الحصون ، والاستيلاء على الممالك . وهو الذي فتح معظم بلاد العجم والعراق . وكان هولاكو ملك التتار يثق به ولا يخالفه فيما يشير إليه ، ويتبرك برأيه . يحكى عنه عجائب في حروبه . وكانت مقتلته في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان في المصاف على عين جالوت » .

« قلت إلى سقر وبئس المصير . ولقد استراح الإسلام منه ، فإنه شر عصابة على الإسلام وأهله . ولله الحمد على هلاكه » .

وما أن وصلتْ الأخبار إلى دمشق باندحار المغول ، حتى سارع المسلمون إلى الانتقام من العناصر التي كانت تتعاون مع المغول ، وفي مقدمتهم المسيحيون الذين دفعوا الثمن غالياً بسبب عطفهم السابق على المغول ، ولِمَا اقترفوه

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٠ - ٩١ .

من آثام ضد الأهالي المسلمين على أثر انتصار المغول[1] .

بعد ذلك تابع قطز سيره بالجيش ، حتى دخل دمشق دخول الظافر المنتصر ، فقوبل بأروع مظاهر التقدير والترحيب . ولكنه في غمرة هذا الترحيب ، ووسط هذا الابتهاج ، لم ينسَ قطز واجباته ، بل بادر إلى عقاب الخونة وعملاء التتار ، وأسرع إلى مكافأة الأبطال العرب من أهل الشام الذين بذلوا جهوداً مشكورة في سبيل مكافحة الخطر المغولي[2] .

أما ركن الدين بيبرس ، فكان قد سبق السلطان ، قاصداً دمشق وهو يتتبع آثار التتار إلى قرب حلب . فلما دنا منهم ، أطلقوا سراح من كان في أيديهم من أسرى المسلمين ، وألقوا بأولادهم ، فتخطفهم الناس . وقاسوا من البلاء ما يستحقونه[3] .

وبهذا النصر المؤزر ، دخلت الإمارات الإسلامية في سورية من الفرات إلى حدود مصر تحت حكم المماليك . وقد حاول المغول أن يستعيدوا مركزهم مرة أخرى ، فدخلت فرقة منهم أرض سورية من جديد ، ونهبت إقليم حلب ، إلاّ أنها سرعان ما رُدَّتْ على أعقابها بعد لقاء قرب حمص ، فعادت أدراجها شرقي الفرات .

وقد استعدت القاهرة لاستقبال الملك المظفر قطز ، وأخذت المدينة زخرفها وازينت ؛ ليرى القائد العظيم ثمرة انتصاره . ولكن لم تكد قدمه تطأ أرض الوطن ، حتى راح ضحية الغدر على يد « ركن الدين بيبرس » في ١٥ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ[4] (٢٢ اكتوبر ١٢٦٠ م) ؛ ذلك لأن بيبرس

---

(١) انظر التفصيلات في المصادر الآتية : أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٨ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ؛ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨١ .

(٢) الدكتور إبراهيم أحمد العدوي : العرب والتتار ، ص ١٢١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٢ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٥ .

كان يشعر بأنه قد أبلى بلاء حسناً في معركة عين جالوت ، وأبدى من الشجاعة ما لا يقل عن شجاعة السلطان نفسه ، فكان يأمل أن يقطعه « قطز » حلب . فلما خاب أمله ، عوّل على الانتقام منه ، فقتله ، واعتلى عرش مصر ، وتلقب بلقب الظاهر . ولكن مما عزّى الأمة الإسلامية عن فقد هذا البطل ، هو أن بيبرس نفسه ، كان قائداً عبقرياً ، أثبت كفاءة ومقدرة في حروبه ضد المغول ، والانتصار عليهم المرة تلو الأخرى .

ومهما يكن من أمر ، فإن انتصار العرب في معركة عين جالوت ، قد دل دلالة قاطعة على أن الإيمان بالله والوطن ، كفيل بأن يحقق النصر على الغزاة المعتدين مهما بلغت قوتهم ، واشتد بطشهم . وإنه لحري بنا في هذا المقام ، أن نرفع رؤوسنا إعزازاً وفخراً بالجنود المصريين والسوريين البواسل ، وعلى رأسهم قطز محطم التتار . لقد كان هذا القائد جديراً بتلك الكلمة الصادقة التي قالها في حقه المؤرخ ابن تغري بردى[1] : « كان بطلاً شجاعاً مقداماً ، حازماً حسن التدبير ، يرجع إلى دين وإسلام وخير ، وله اليد البيضاء في جهاد التتار . فعوّض الله شبابه بالجنة ، ورَضِيَ عنه » .

نتائج موقعة عين جالوت :

إن موقعة عين جالوت تعتبر بحق إحدى الوقائع الهامة ؛ ليس في تاريخ مصر والشام فحسب ، ولا في تاريخ الأمم الإسلامية وحدها ، بل في تاريخ العالم بأسره . ونحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذه الموقعة ، تفوق في أهميتها كل الوقائع الحربية الحاسمة في العصور الحديثة ، لأنها لم تكن حرباً بين شعوب راقية متحضرة ، تحكمها قواعد وقوانين متعارف عليها ، تخفف بعض الشيء من ويلات الإنسانية ، وإنما كانت حرباً همجية ، شنتها قبائل بربرية متوحشة ، سفاكة للدماء ، مخربة للعمران ، ضد سكان المدن

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٤ .

في كل مكان . فانتصار هذه القبائل معناه القضاء التام على حضارة العالم الشرقية منها والغربية . ومن هذه الزاوية تكون موقعة عين جالوت قد تركت في تاريخ البشرية أثراً أشد وأقوى مما تركته كل هذه المعارك[1] .

ونحن إذا كنا قد فصلنا القول في شرح هذه الموقعة ، فإنه يكون قد بقي علينا أن نتحدث عن أبرز النتائج التي أسفرت عنها ، فنجملها فيما يأتي :

١ — كانت بمثابة سد منيع حال دون تقدم المغول إلى مصر ، وقضت على الخرافة القائلة : إن المغول قوم لا يغلبون . ورغم أن الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو ، إلا أنها كانت على أية حال ضربة قاصمة حاسمة ، أنزلها المصريون بجيوش المغول . والأمر الذي لا شك فيه أن تلك الهزيمة ، بالإضافة إلى قتل القائد المغولي كيتوبوقا ، لتعد صدمة عنيفة أصابت هولاكو ؛ فإنه عندما بلغه نعي قائده الكبير ، تأثر تأثراً شديداً ، وصمم على أن يغسل العار الذي لحق بجيوش المغول ، فأراد أن يرسل حملة جديدة إلى الشام ومصر لينتقم لمقتل قائده الكبير ؛ غير أن الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك .

٢ — تبدو أهمية هذه المعركة على وجه الخصوص ، إذا ما تصورنا أنها جاءت بنتيجة عكسية ، وانتصر فيها المغول ، إذن لسقط آخر معقل للإسلام في فلسطين ومصر ، خصوصاً وأن المغول لم يكونوا وحدهم ، وإنما حالفتهم بقية القوى المعادية للعروبة والإسلام ، بعد أن وجدت في الزحف المغولي خير فرصة لتحقيق أطماعها في الوطن العربي . فانتصار المغول كان معناه ارتفاع شأن المسيحيين ، واتساع دائرة نفوذهم . ونحن نعلم أن بلاد العراق وإيران التي كانت أكبر معقل للإسلام في مواجهة الفرنج ، أضحت بعد سقوط بغداد ، مركزاً لبلاط مغولي ، شديد العطف على

---

(١) الدكتور مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٦٩ .

المسيحيين . وبعد زوال الخلافة العباسية ، صار البطريرك النسطوري شخصية بارزة ، ومن أهم الرجال في الدولة المغولية ، فقوي سلطانه ، واشتد نفوذه . وأعلنت دمشق خضوعها للقائد المغولي كيتوبوقا ، وكان يدين بالمسيحية ، ويتعصب لها . فلما أحس المسيحيون من سكانها بمساندة المغول لهم ، طغوا وبغوا على المسلمين ، وحولوا أحد المساجد إلى كنيسة . وبذلك صارت بلاد الشام مقسمة بين المغول والمسيحيين الوطنيين والصليبيين . فلو تم النصر للمغول في هذه الموقعة ، لواصلوا زحفهم إلى ليبيا وبلاد النوبة ، ولاسترد الفرنج بيت المقدس[1] . وبذلك كان يتضاءل شأن الإسلام إلى أقصى حدود التضاؤل ، وربما كان يتغير مجرى التاريخ للأمم الإسلامية جمعاء .

يقول رنسيمان[2] : «ما أحرزه المماليك من انتصار ، أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له . فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر ، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة ، شرقي بلاد المغرب . ومع أن المسلمين في آسيا ، كانوا من وفرة العدد ، ما يمنع من استئصال شأفتهم ، فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم . ولو انتصر كيتوبوقا المسيحي ، لازداد عطف المغول على المسيحيين ، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة النِّحَل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام . على أنه من العبث أن تفكر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ . فليس للمؤرخ إلاّ أن يروي ما حدث فعلاً » .

٣ ـــ إعادة الوحدة بين مصر والشام بعد أن أدى ضعف أبناء صلاح الدين وتنازعهم بالشام إلى تمزيق رباط الوحدة التي أجهد كل من نور الدين محمود وصلاح الدين نفسه في بنائها في القرن الثاني عشر ، والتي كان لا بد منها لمواجهة الأخطار التي جابهت المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى . ولكن

---

(١) الدكتور الباز العريني : المغول ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .
(٢) تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٣٧ — ٥٣٨ .

تقاعس البيت الأيوبي عن صد التتار ، ونفورهم من الجهاد ، بل تواطؤ بعض أبناء هذا البيت مع التتار ، واشتراكهم معهم في عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين ، أفقد بني أيوب أي حق شرعي في الملك ، وجعلهم يبدون في نظر المعاصرين في صورة القوة المتداعية غير الجديرة بحكم المسلمين[1]. يذكر جروسيه في كتابه تاريخ الصليبيين أن تخاذل ملوك الأيوبيين أمام التتار واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر ، جاء بمثابة تنازل منهم عن ملكهم بعد أن عجزوا عن الدفاع عن ذلك الملك[2] . والأمر الذي لا شك فيه أن معركة عين جالوت ، جعلت سلطنة المماليك بمصر القوة الأساسية في الشرق الأدنى ، في القرنين التاليين ، إلى أن قامت الإمبراطورية العثمانية[3] .

يقول الدكتور مختار العبادي : « مما تجب ملاحظته كذلك ، أن نصرة عين جالوت ، كانت قد سبقتها نصرة سلبية ، ليس للمماليك أنفسهم فيها فضل ، وهي أن المقاومة الأيوبية التي ظلت تعارض قيام دولة المماليك ، وتلح في المطالبة بعرش مصر دونها ، قد انهارت أمام الغزو المغولي ، وبدا على ملوك الأيوبيين ضعف وتخاذل في الوقت الذي أبدى فيه المماليك ثباتاً وصلاحية للبقاء »[4] .

٤ ـ علمت العرب درساً في الاتحاد والتآزر . فعندما كان يظهر خطر المغول وتشتد وطأتهم على الشام ، كانوا يسرعون إلى تحصين أنفسهم بالتضامن ، ويسيرون قدماً في سبيل الجهاد ، حتى استطاعوا تحرير ديارهم من التتار ، واستعادوا مكانتهم التقليدية وسط أمم العالم باعتبارهم رسل الإنسانية ومنقذيها ، إذ أن خطر التتار عمّ البلاد الإسلامية ، وامتد إلى أوربا

---

(١) انظر الدكتور سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٣٦ .
(٢) Grousset : Hist. des Croisades. Tome III, P. 587.
(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٥٣٨ .
(٤) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٦٨ .

الشرقية كما سبق أن ذكرنا . وكان هولاكو وخلفاؤه يفكرون في القيام بغزو أوربا كلها وتخريبها ، وذلك بعد استيلائهم على منطقة الشرق العربي ، مخترقين طريق الصحراء الغربية ، وهو نفس الطريق الذي سبـق أن سلكه الغزاة والفاتحون الذين قاموا بغزو أوربا من الجنوب في العصور المختلفة(١) .

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة بعض المؤرخين الأوربيين ، فاعترفوا بأهمية معركة عين جالوت ، وذكروا أنها لم تنقذ مصر والشام فحسب ، بل خلصت العالم الأوربي والمدنية الأوربية من شر لم يكن لأحد من ملوك أوربا وقتئذ طاقة على دفعه(٢) .

وإذن فانتصار العرب في هذه الموقعة ، قلب خطط المغول رأساً على عقب ، ووقف حائلاً دون غزوهم أوربا وبهذا جعل أهلها يدركون أن أبناء الشرق العربي . قادرون على حماية أنفسهم بأنفسهم ، وأن في وحدة العرب وعزتهم كسباً هائلاً لمجموعة الأمم العالمية بضم عضو فعال إليها ، لديه من الإمكانيات ما يكفل خدمة البشرية ، ودفع حضارتها في مدارج الرقي والازدهار(٣) .

٥ ـ بعث الانتصار في موقعة عين جالوت روحاً جديدة في المسلمين ، لا سيما الإيرانيين منهم الذين تحملوا وطأة الغزو المغولي كله ، والذين لاقوا صنوفاً من العذاب والاضطهاد والتشريد ، فَقَوِيَ موقفُهم ، واستطاعوا أن يصمدوا أمام مناورات المسيحيين ، وينافسوهم في تبوء مركز الزعامة والصدارة في دولة المغول بإيران ، وصاروا يشرحون للحكام المغول تعاليم

---

(١) الدكتور إبراهيم أحمد العدوي : العرب والتتار ، ص ١٢٥ ؛ الدكتور مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٦٩ .

(٢) Browne : A Literary Hist. of Persia, III P. 6. ; Camb. Med. Hist. Vol,VI PP, 28, ,43,44.

(٣) الدكتور إبراهيم أحمد العدوي : العرب والتتار ، ص ١٢٦ .

الإسلام ، ويرغبونهم في اعتناق هذا الدين حتى كللت مساعيهم بالنجاح ، وأصبح الإسلام ديناً رسمياً لدولة المغول في إيران . يقول رنسيمان[1] : « ما حدث من ازدياد قوة العنصر الإسلامي ، وإضعاف العنصر المسيحي ، لم يلبث أن أغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام . وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية » .

٦ – توطدت العلاقات بين الحكام المغول من المسلمين في القبجاق[2] ، وبين المماليك في مصر ، وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذي كان يتمثل في أسرة هولاكو بإيران . وكان من جراء ذلك انتشار الإسلام بين سكان تلك المناطق .

٧ – أسفرت هذه المعركة عن فشل ذريع لسياسة الصليبيين في الشرق والغرب ، ومنحت مصر مركز الزعامة في العالم الإسلامي ، فكان ينظر إليها دائماً في تلك العصور على أنها الدولة الوحيدة التي استطاعت أن تنتصر

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، الترجمة العربية ، ص ٥٣٨ .

(٢) كان لأتراك خوارزم وآسيا الوسطى أثر كبير في نشر الإسلام في ربوع هذه البلاد ، وبين أفراد القبيلة الذهبية ، الذين كانوا يحكمون هناك ، وفي مقدمتهم « بركه بن جوجي ابن چنگيزخان » خان القبچاق. ويقول أبو الغازى إن بركه دخل الإسلام وهو خان على يد تاجرين وافدين من بخارى . وتقول روايات أخرى إنه دخل الإسلام قبل اعتلائه العرش بتأثير بعض مشايخ خوجند وبخارى (ويذكر في هذا الباب اسم سيف الدين الباخرزى المتوفي سنة ١٢٨١) . وقد وثق أواصر الصداقة بين « بركه » وبين سلطان مصر عداؤهما المشترك لمغول ايران . وبهذه المناسبة ، استقبل بركه عدة سفارات من قبل سلطان مصر. ولم يكن الخان وحده هو المسلم ، بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين . وكان لكل سيدة ولكل أمير إمام ومؤذن . وكانت مدارس تحفيظ القرآن للصبيان كثيرة .
ومن المعلوم أن « بركه » زوج ابنته للسلطان بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) . ومن هذا الزواج ولد أول ابن لبيبرس ، وهو الملك السعيد خان محمد المسمى في نفس الوقت ناصر الدين بركه خان . أي أن له – كما يتضح – اسماً مغولياً إلى جانب اسمه الإسلامي . (انظر بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص ١٧٦ – ١٧٨) .

على عدوين خطرين : الصليبيين من جهة والمغول من جهة أخرى . ومن هنا أخذت الدول الإسلامية تنظر إلى الدولة المملوكية نظرة كلها إجلال وعطف . وروايات المؤرخين تُقِرُّ بفضل مصر ، وتعترف بالدور الهام الذي قام به حكامها المماليك في الدفاع عن العروبة والإسلام . يروى الخزرجي أن المظفر نور الدين سلطان دولة بني رسول باليمن ، حج بجيش كبير في العام التالي للموقعة أي في سنة ٦٥٩ ﻫ (١٢٦١ م) . وهناك في الحجاز ، طلعت أعلامه الشريفة ، وأعلام سلطان مصر . فقال له أحد الأمراء « هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين ؟ » . فقال له سلطان اليمن : « أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس ، وأقدم أعلامي لحضوري ؟ ! ... »[1] .

وبذلك تكون مصر قد لقنت الشرق العربي مرة أخرى درساً في إخلاصها لوطنها العربي الأكبر ، وأثبتت لأبناء الأمة العربية أن أهلها جزء لا يتجزأ منهم ، وأنها تضحي بكل ما تملك في سبيل إعزازهم ومجدهم[2] .

يقول سيديو : « وجد المغول حينما أغاروا على سورية في النصف الأخير من القرن الثالث عشر في مقاومة المماليك وشجاعتهم حاجزاً يتعذر اقتحامه ، وانضمت عدة قبائل عربية إلى الجيوش المصرية ، فساعدتها على نيل النصر . ولم يتردد بيبرس الذي هو أشهر ملوك المماليك البحرية في الظهور بمظهر المدافع عن الإسلام ، على حين لم يفكر أمير بآسيا في النهوض بهذا العبء . وكان الظاهر سياسياً محنكاً ، كما كان قائداً ممتازاً »[3] .

٨ — بانتصار المماليك في موقعة عين جالوت ، جُنِّبت مصر ويلات

---

(١) الدكتور مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٦٨ نقلا عن كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية للخزرجي .
(٢) الدكتور إبراهيم أحمد العدوي : العرب والتتار ، ص ١٢٤ .
(٣) سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ص ٤٩٧ .

الغزو المغولي الذي عطل سير التطور الثقافي الهادىء في دنيا الإسلام كلها ما خلا الديار المصرية[1] ، فسلمت بذلك من التخريب والتدمير ، ولم تتعرض لما تعرضت له بغداد من قبل على يد الطاغية هولاكو . وبذلك صارت القاهرة مكاناً هادئاً وآمناً ، يهرع إليه العلماء والأدباء حيث يجدون من التشجيع والتكريم ما يحفزهم على التأليف والتدوين . ومن هنا اكتسبت عاصمة الدولة المملوكية مكانة ممتازة من الناحية الأدبية إلى جانب مكانتها السياسية ، وأصبحت مركز إشعاع للثقافة العربية والإسلامية .

ولكن ليس معنى الانتصار على المغول في عين جالوت أن خطرهم قد زال عن الشام نهائياً ، إذ الواقع أنهم ارتدوا ارتداداً مؤقتاً دون أن يفقدوا الأمل في معاودة الهجوم . ولهذا تكررت غاراتهم على بلاد الشام بين حين وآخر طمعاً في امتلاكها . وقد حدث هذا طوال حكم المغول في إيران الذي كانت تقابله فترة حكم المماليك في مصر والشام . ولكن لحسن الحظ استطاعت بلادنا بفضل حكامها من المماليك في عهد بيبرس وخلفائه أن تقف لهذه المحاولات بالمرصاد ، فردت الأعداء المرة تلو المرة خائبين مدحورين .

وهكذا نجحت الأمة العربية على يد المصريين والسوريين في الاحتفاظ بالأراضي المقدسة ، ودرء خطر المغول والصليبيين عنها . ونحن نقول في صراحة : إن مصر وحدها هي التي تحملت العبء الأكبر في الدفاع عن المنطقة العربية ، والقضاء على أخطر عدوين هددا هذه المنطقة أعني بهما الصليبيين والمغول .

ولقد عبر عن هذه الحقيقة أروع تعبير السيد الرئيس جمال عبد الناصر[2] حين قال في الباب الثالث من الميثاق : « وقبل أن ينزل ظلام الغزو العثماني

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) الميثاق ، الباب الثالث ، ص ٢٢ ، طبع مصلحة الاستعلامات بالقاهرة .

على المنطقة بأسرها ، كان شعب مصر قد تحمل ببسالة منقطعة النظير مسئوليات حاسمة لصالح المنطقة كلها » .

« كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية في صد أول موجات الاستعمار الأوربي التي جاءت متسترة وراء صليب المسيح ، وهي أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم » .

« وكان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية في رد غزوات التتار الذين اجتاحوا سهول الشرق ، واجتازوا جباله حاملين الخراب معهم والدمار » .

السنوات الاخيرة من حياة هولاگو

توفي الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) ، فخلفه ابنه الملك الصالح الذي هادن المغول مدة قصيرة ، ولكنه سرعان ما ثار عليهم ، وحرر الموصل من ربقتهم . ثم توجه إلى مصر بناء على دعوة أخيه الذي كان ينزل عند السلطان بيبرس . وفي مصر استقبله السلطان بحفاوة بالغة ، وأرسل معه ألف فارس ليذهب بهم إلى الموصل ، ويجمع خزائنه ، وكل ما يتعلق به ، ويحملها إلى مصر .

وحينما علم هولاگوخان بوصول الملك الصالح ، أرسل جيشاً كبيراً لملاقاته . وكان يقود هذا الجيش القائد المغولي «سنداغو» . ولما كان الملك الصالح يعتمد على معونة السلطان بيبرس ، حارب المغول وانضم إليه أهالي الموصل ، وقاوموا المغول بشجاعة وبسالة ، وأنزلوا بهم خسائر فادحة . وعندما وصلت أنباء المعركة إلى بيبرس وهولاگو ، أسرع كل منهما لنجدة أتباعه . ولكن المغول استطاعوا بمحض الصدفة ، أن يقفوا على الأخبار المتعلقة بخروج نجدة مصر والشام لمساعدة الملك الصالح ، فكمنوا لهم في الطريق ، وانقضوا عليهم فجأة ، وأوقعوا بهم الهزيمة ، وتزيوا بزيهم . ثم ذهبوا إلى الموصل في ملابس جنود الشام . فانخدع أتباع الملك الصالح ،

وحسبوهم جنود السلطان بيبرس ، أتوا لنجدتهم ، فخرجوا من المدينة لاستقبالهم . وفجأة أحدق بهم جنود المغول من كل جانب ، وقضوا عليهم جميعاً .

ولكن على الرغم من هذا ، لم يوفق المغول في الاستيلاء على قلعة الموصل ، فحاصروها مدة ستة أشهر ، حتى نفدت الأقوات ، وحل البلاء بالمدينة ، فأرغم الملك الصالح على التسليم . وبهذا استولى المغول على الموصل في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) ، وأعلنوا فيها القتل العام . ثم وضعوا الملك الصالح في دهن ولباد ، وألقوه في الشمس حتى تحول الدهن إلى ديدان بعد أسبوع ، فشرعت الديدان تأكل جسده حتى مات على تلك الصورة البشعة بعد شهر . ولم ينج من وحشيتهم ابن الملك الصالح الذي كان طفلاً في الثالثة من عمره ، فشقوه نصفين على ساحل نهر دجلة [1] .

وبعد أن فرغ هولاكو من فتح بقية إيران ، وجه همته للقضاء على أعدائه ومناوئيه ، وفي مقدمتهم ابن عمه « بَرَكه بن جوجي » خان القبچاق الذي اعتنق الإسلام ، وصار يدافع عن المسلمين . فلما انتصر هولاگو على بلدان الشرق الإسلامي وفتح بغداد ، وقضى على الخليفة العباسي ، حزن بركه وانزعج ، وتأثر تأثراً شديداً ، وصمم على الانتقام من هولاگو متى سنحت له الفرصة . يقول في هذا الصدد : « لقد جد هولاگو في هلاك المسلمين ، وسوّى البلاد الإسلامية بالأرض ، وقتل خليفة بغداد دون استشارة أحد . فإذا أيدني الله الخالد ، فسوف أطالبه بدماء الأبرياء »[2].

وبهذا العزم الصادق صار « بركه » يتقرب إلى المماليك الذين كانوا يمثلون عنصر المقاومة الحقيقية ضد أعداء الإسلام بوجه عام ، وضد المغول بوجه خاص ، ورحب حاكم مصر في ذلك الوقت السلطان المملوكي الظاهر

---

(١) جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٣٨٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩٢ .

بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٩ هـ) (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) بالتحالف ضد عدوهما المشترك الذي كان يتمثل في أسرة هولا گو بإيران ، لأنه سوف يستفيد من وراء ذلك فائدتين :

الأولى – يستطيع أن يحصل على مماليك جدد من القبچاق ، ليزيد بهم عدد جنوده .

الثانية – عندما يشغل هولا گو بقتال « بركه » على حدود القوقاز الواقعة بينهما ، لن يفكر في توجيه حملات إلى الشام ، ليثأر لهزيمة جيشه في موقعة عين جالوت .

ولقد أعد « بركه » جيشاً تعداده ٣٠٠٠٠ جندي لمحاربة هولا گو ، وسار هذا الجيش من القبچاق قاصداً إيران ، فعبر « دربند » القوقازية التي تمثل الحدود الفاصلة بين المملكتين ، ثم ذهب إلى شروان . فلما سمع هولا گو هذا النبأ ، قدم بجيشه إلى « شماخى » في شوال سنة ٦٦٠ هـ ، والتحم بجيش « بركه » وهزمه . ومن هناك تحرك إلى « دربند » ، وأرسل ابنه « آباقا » على رأس جيش كبير إلى مملكة « بركه » ، فأغاروا على منازل الأهالي ونهبوا أموالهم . ولكن سرعان ما نظم « بركه » صفوفه ، وانقض على جيش آباقا عند نهر ترك Téerk ، وانتصر عليه في جمادى الأولى سنة ٦٦١ هـ . فلما وصلت أخبار هذا الانكسار إلى هولا گوخان ، وكان في تبريز ، تأثر تأثراً شديداً ، وأسرع يستعد لمحو آثار هذه الهزيمة .

وفي ذلك الوقت وصل إلى هولا گو نبأ تنصيبه والياً على الممالك الواقعة بين شاطىء نهر جيحون وبين الشام ومصر من قبل أخيه قوبيلاي الذي كان قد اختير خاناً أعظم للمغول . كما قرر هذا الخان أن يمد أخاه هولا گو بثلاثين ألفاً من شبان المغول المشهورين . فلما علم بذلك خصومه في القبچاق ، خافوا ، وتجنبوا الاصطدام به .

ولى هولا گو أبناءه والمخلصين من أمرائه ولاة على الأقاليم التي فتحها : فاختار ابنه « آباقا » والياً على العراق وخراسان ومازندران ، وولى ابنه

يشموت على أران وأذربيجان . وأما معين الدين پروانه الذي كان يتولى قبل ذلك منصب الوزارة لسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، فقد نصبه هولا گو والياً على بلاد الروم لما أظهره من الإخلاص والطاعة للمغول . كذلك فوض إلى شمس الدين محمد الجويني منصب صاحب الديوان للبلاد كلها ، وأطلق يده في حل الأمور وعقدها ، وعهد بحكم بغداد إلى أخيه المؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني(١) » .

موت هولاگو خان :

كان هولا گوخان قد خرج للصيد في شتاء عام ٦٦٣ ﻫ (١٢٦٥ م) ، وفجأة اعترته نوبة شعر على أثرها بتعب ، فلزم الفراش . وعندما فحصه الأطباء ، أشاروا عليه بتناول مسهل ، ولكنه أصيب بضعف وإغماء . وقد بذل الأطباء قصارى جهدهم في سبيل إنقاذ حياته ، ولكن حُمّ القضاء ، فأسلم الروح عند شاطىء نهر جغاتو (جنوب بحيرة أورمية) في يوم الأحد ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٦٣ ﻫ (١٢٦٥ م) ، وكان وقتئذ في الثامنة والأربعين من عمره .

سياسته :

بالرغم مما يحكيه تاريخ هولا گوخان من قسوة وغلظة ، وتعطش للدماء ، فإن هذا العاهل المغولي ، كان يميل إلى تشييد الأبنية وتشجيع العلماء والحكماء ،

---

(١) هو عطا ملك الجويني بين بهاء الدين محمد . ولد عام ٦٢٣ ﻫ ، والتحق بخدمة المغول منذ الصغر ، وصار من عمال الديوان للأمير أرغون حاكم إيران من قبل المغول . وقد قام بعدة أسفار استطاع خلالها أن يقف على أحوال المغول ونشأتهم ومعرفة أصلهم ، فتيسر له بذلك أن يجمع المواد اللازمة لتأليف كتابه القيم « تاريخ جهانگشاي » (أي تاريخ فاتح العالم والمراد به چنگيزخان) . كتبه باللغة الفارسية في ثلاثة أجزاء . توفي الجويني في سنة ٦٨١ ﻫ .

وحثهم على مواصلة البحث والدرس ؛ إذ كان يخصص لهم الرواتب ، ويغدق عليهم الهبات ، ويزين مجلسه بحضورهم. كما كان شغوفاً بعلوم الحكمة والنجوم والكيمياء ، فلا غرو أن كان يصرف بسخاء في سبيل تقدم هذه العلوم .

وليس أدل على هذا الشغف من أنه عهد إلى العالم الرياضي الفلكي « نصير الدين الطوسي »[1] ببناء مرصد كبير في مدينة مراغة بإقليم أذربيجان ، أعده بأدق الأجهزة المعروفة في زمانه . وقد شرع الطوسي في إقامة هذا المرصد في سنة ٦٥٧ هـ . ومما سهل عليه مهمته ، استيلاؤه على كتب النجوم وآلات الرصد التي كان يحتفظ بها الإسماعيلية في قلاعهم ، واستعانته ببعض العلماء المتخصصين في التنجيم . وكان من نتائج هذا العمل العلمي الكبير أن ألف الخواجه نصير كتاب « الزيج الإيلخاني » الذي يعد أحد الكتب الهامة في هذا الفن . وإلى جانب المهمة الأساسية التي كان يؤديها هذا المرصد ، كان كما قال المقريزي[2] : عبارة عن دار للفقهاء والفلاسفة والأطباء ، بها من كتب بغداد شيء كثير وعليها أوقاف لخدامها. ويقال إن المكتبة التي أنشأها نصيرالدين ، وألحقها بهذا المرصد ، كانت تحوي ما يزيد على أربعمائة ألف مجلد .

وقد عرف عن هولاكو أيضاً أنه كان يعتنق البوذية ، فأقام عدة معابد

---

(١) ولد سنة ٥٩٧ هـ ، ويعد من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، واشتهر خاصة بالاشتغال بالفلك . وله مؤلفات عديدة في شتى المعارف الإنسانية باللغتين العربية والفارسية . وقد قدر لهذا العالم أن يقوم بإنقاذ التراث الإسلامي من أيدي المغول ، فقد التحق بخدمة أمرائهم في إيران والعراق ، واختص بهم ، وصار موضع اعتمادهم ، وفوض إليه أمر أوقاف البلاد ، فقام بضبطها وصرفها على إقامة المدارس والمعاهد العلمية (انظر الدكتور محمد محمدى : الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه ، ص ١٦٥) . وما يؤخذ عليه أنه أقنع هولاكو بفتح بغداد ، وبقتل المستعصم . توفي نصير الدين في سنة ٦٧٢ هـ

(٢) السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢١ .

للأصنام في مدينة «خـُوىْ». ولكن زوجته المفضلة «دوقوز خاتون»، كانت تدين بالمسيحية. ولما كانت تلك المرأة زوجة سابقة لأبيه «تولوى» ثم آلت إليه بعد وفاته، صارت تتمتع عنده بمنزلة سامية، كما كان لها تأثير كبير عليه. ولهذا كان يحرص على إرضائها، فيحترم المسيحيين، ويفضلهم على غيرهم، ويسند إليهم المناصب الهامة. وهو يسلك هذا السلوك تكريماً لزوجته وتعظيماً لشأنها. ولقد حاول المسيحيون في الشام أن يستغلوا هذا الموقف لصالحهم، ولكن منيت محاولاتهم بالفشل.

الفصل الثاني عشر

تقاليد المغول ونظمهم الاجتماعية والحربية

الفصل الثاني عشر

تقاليد المغول ونظمهم الاجتماعية والحربية

كان للمغول رسوم وتقاليد وآداب تتفق وحياتهم الفطرية البسيطة ، الخالية من التكلف والتعقيد . وسرعان ما سرت هذه العادات في المناطق المجاورة للمغول ، وسادت جميع القبائل الأخرى التي انضوت تحت لوائهم ؛ ذلك لأن هذه القبائل جميعها كانت تعيش عيشة بدوية واحدة بسبب اتحادها في الأصل والعنصر . وعلى هذا اتخذت هذه الآداب والتقاليد شكلاً واحداً بين هذه القبائل ، بحيث أنه أصبح من النادر أن تختص طائفة برسوم وآداب لا يعرفها الآخرون ، ولا يعملون بها .

هذه التقاليد تبدو على وجه الخصوص في مأكل المغولي وملبسه ومسكنه ودينه وقوانين مجتمعه البسيطة ، وكلها مسائل تدور حول تكوين أسرته ، وتنظيم جماعته وحمايتها من غضب الطبيعة التي يرهبها ويخشاها ، وإعداد نفسه ليكون جنديا ناجحاً في الغزو والفتح ، عندما يشير عليه الخان الأعظم بذلك .

ونحن الآن نتحدث بالتفصيل عن هذه العادات والنظم :

المأكل :

يتغذى المغول بلحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران. وغذاؤهم قليل ولا سيما في الشتاء ؛ إذ تقسو عليهم الطبيعة ، وتهزل الحيوانات ، فلا يكادون يحصلون على ما يسدون به رمقهم إلا بشق الأنفس. وكانت لهم مهارة في الرماية وصيد الأسماك ورعاية الماشية . وقد يقضون الليالي الطوال سائرين على الثلوج بحثاً عن طعامهم دون أن يوقدوا ناراً للتدفئة ؛ إذ أن عنايتهم بالقوت أكثر من عنايتهم بالدفء . والمغول يستطيعون الصبر على الجوع ، فلا يأكلون طعاماً مطهياً لثلاثة أيام أو أربعة . ولا شك أن هذه القدرة العجيبة قد أفادتهم في الحروب ؛ لأن الجندي في معارك القتال يكون مهتماً بالنزال والطعان ، أكثر من اهتمامه بالطعام وملء البطون .

وبسبب ندرة اللحم في فصل الشتاء ، يستعيض المغول عنه باللبن الرائب ، يتبلغون به حتى يحين الربيع .

فإذا حل الربيع ، فإن أثداء الأفراس وضروع الأبقار ، تدر لبنها ، فيصبح الكل مسروراً قانعاً ، وتسمن الأغنام أيضاً ، ويكثر الصيد والقنص . ثم يطهى الطعام ، ويؤتى به إلى أفراد الأسرة لتلتهمه. وفي هذه الحالة يتقدم الأقوياء البنية ، فيأكلون الوجبة الأولى منه . وبعد ذلك يأتي دور الشيوخ والنساء فيتسلمون ما تبقى. أما الأطفال فعليهم أن يتطاحنوا على العظام وفتات اللحم . وعلى شباب الأسرة أن يقوموا بصيد الأسماك من الجداول والأنهار التي يمرون بها . وهم أيضاً مكلفون بالمحافظة على قطعان الخيل والبحث عن الدواب التي ضلت الطريق ، والتفتيش عن المراعي الجديدة ومراقبة الطرق ، لاتخاذ حذرهم ، حتى لا يباغتهم المغيرون .

ولم يكن هؤلاء البدو الرحل يملكون مالاً ولا مزارع ولا بيوتاً. بل كان عليهم أن يكافحوا من أجل العيش فوق هذه السهول الشاسعة . حتى

إن طعامهم – وهو اللحم واللبن – كانوا يحصلون عليه من حيواناتهم. فمن الصوف كانوا يصنعون أغطية خيامهم التي تشبه خلية النحل لتحميهم إذا ما هبت الريح الثلجية، ومن أوتار عضلات الحيوان، كانوا يجدلون الحبال والقيود. كما كانوا يستخدمون قرون الحيوانات في صنع أقواس قوية(١).

وللمغول طريقة عجيبة في حفظ اللحوم، هي أنه إذا مات عندهم ثور أو حصان قطعوا لحمه إلى شرائح رقيقة، وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها عفونة. وكان أكثر اعتمادهم في هذا الفصل على الألبان، وما يستخرج منها من زبد وجبن. أما ألبان الأفراس. فقد كانوا يستخرجون منها ما يعرف «بالقميز» أو «خمير اللبن». وطريقة صنعه أن توضع ألبان الأفراس في قراب، ثم تخض بشدة. وتترك حتى تخمر فتصبح صالحة للشرب.

ومن عادة المغول الوحشية أنهم كانوا يأكلون لحوم أعدائهم ويشربون دماءهم، خصوصاً أولئك الذين يخونونهم، أو يشتدون في مقاومتهم، ويوقعون بهم الخسائر الفادحة. يروى أنه عندما اتهم «معين الدين پروانه» حاكم بلاد الروم من قبل المغول بالاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس، والتواطؤ معه ضدهم، قبض عليه آباقان خان، وأمر بفصل أعضائه عن جسده عضواً عضواً، ثم وضعت في إناء، وصاروا يغلونها، ولشدة غيظهم وحنقهم لم يتورعوا عن أكل لحمه(٢). ويذكر «هورث» Howorth أن المغول في إحدى غزواتهم في الصين عندما نفد طعامهم،

---

(١) هارولد لام: چنگيز خان وجحافل المغول، الترجمة العربية، ص ٢٤ – ٢٥.

(٢) انظر المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٤٧؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٢٧٣ وما بعدها.

ضحوا بواحد من كل عشرة رجال في الجيش ، ليكون طعاماً للباقين[1] .

الملبس :

كانت ملابس المغول بسيطة ساذجة ، تتفق والبيئة التي يعيشون فيها . وكانت في الغالب مصنوعة من أصواف الغنم ووبر الإبل ، وأحياناً كانوا يصنعونها من جلود الحيوانات . وكان النساء يلبسن الملابس الحريرية التي يحصلن عليها عن طريق المقايضة من التجار المسلمين . على أنه لا يكاد يوجد فرق كبير بين ملابس الرجال وملابس النساء . ولما انساح المغول في أرجاء الأرض ، وكونوا إمبراطورية واسعة ، صاروا يستوردون الحرير من الصين وإيران ، والفراء الثمين من روسيا وغيرها من جهات أوربا التي كانت تدين لهم بالطاعة . وعلى هذا صاروا يصنعون ملابسهم من الحرير والفراء أيضاً . ولكن الذي يدعو إلى العجب حقاً في مسألة الزي ، أنهم كانوا لا يغيرون ملابسهم في الشتاء . أما في الصيف فيكتفون بتغييرها مرة في كل شهر . وقد جرت العادة عند المغول على ألا يغسلوا ثيابهم ، بل يلبسونها حتى تبلى . وفي هذا يقول القلقشندي : « ويقال إنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة ، ولا يميزون بين طاهر ونجس »[2] . وكان المغول يطلون أبدانهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة . ومع هذا فليس من النادر أن نراهم يجمدون بفعل البرد القارس .

المسكن :

في المناطق القريبة من الغابات ، كان المغول يصنعون أكواخهم من الخشب وفروع الأشجار . أما في مناطق السهوب ، فقد كانوا يقيمون

---

(١) Howorth : History of the Mongols, Vol, IV. P. 33.

(٢) صبح الأعشى : ج ٤ ، ص ٣١٢ .

خيامهم من الصوف أو اللباد ، ويراعى فيها أن تكون على شكل القباب متينة محكمة ؛ بحيث تقاوم أعتى الرياح ، وتثبت لأشد الأعاصير . وفي أعلاها فتحة يتصاعد منها الدخان ، وتفيد في تجديد الهواء .

وكان المغول يضربون خيامهم في مناطق الأعشاب التي تكفل لهم الحصول على قوتهم في يسر وسهولة ؛ حتى إذا وجدوا الأرض قد أقفرت ، ولم تعد صالحة للاستغلال ، طووا خيامهم ، وحملوها على عجلات تجرها الثيران . وأحياناً تكون هذه البيوت كبيرة ، يشترك في جرها اثنا عشر ثوراً أو أكثر . وأحياناً تكون صغيرة يكفي لجرها ثور واحد . وقد ينقل المغول هذه البيوت على ظهور الإبل ، ثم يستمرون في رحيلهم ؛ حتى إذا صادفتهم أرض أخصب ، ضربوا فيها خيامهم .

وهكذا كانت حياتهم تقوم على رحلات الشتاء والصيف . وكانت أبواب هذه الخيام تفتح عادة في الجنوب ، وذلك تجنباً للرياح الشديدة ؛ خصوصاً تلك التي تأتي من الشمال ؛ إذ أن مصدر الخطر الأعظم في البراري ، كان يكمن في عواصف الشتاء الثلجية عندما تهب ريح الشمال عبر بحيرة بيكال المتجمدة متكتسحة كل شيء في طريقها .

يقول هارولد لام[1] : « كانت العادة أنه إذا حل فصل الجفاف ، وبدأت الحشائش تذوى ، قام تموچين ومعه الشيوخ ذوو الخبرة والتجربة بمراقبة السماء لبضعة أيام. ثم كان عليهم أن يقرروا أحسن مكان يمكنهم أن يرحلوا إليه جميعاً حيث المراعي الخضراء التي تحتاج إليها القطعان لتعيش ».

« وهكذا كانت النساء في أي يوم على أهبة الاستعداد لحزم كل ما يملكن ، ويشددن رحالهن مرة ثانية. وكان من السهل تعبئة كل ملابس

---

(١) چنگيزخان وجحافل المغول ، الترجمة العربية ، ص ٣٣ .

المغول وأوعيتهم التي يستخدمونها في صناديق من الجلد أو لفيفات أسطوانية . ثم تحمل هذه الأشياء على ظهور الحيوانات ، أو توضع في عربات ذوات عجل يجرها عشرون ثوراً » .

أما نظام هذه البيوت من الداخل فكان أيضاً في غاية البساطة ، فالجدران تستعمل لتعليق الأسلحة والأواني الجلدية . وفي الجزء المواجه للباب يوضع فراش رب البيت ، على حين يخصص الجانب الغربي من البيت للرجال والجانب الشرقي للنساء . كذلك يوجد داخل الخيمة صناديق تحفظ فيها الملابس ، وكل ما يخافون عليه العطب . وهذه الصناديق مصنوعة من نسيج متين مغطى بالصوف ، ومطلي بشحم الحيوانات ، حتى لا ينفذ منه الماء إذا ما نزل المطر ، أو اضطروا إلى عبور الأنهار .

وبالقرب من الخيمة توجد عدة مقاعد يجلس عليها الرجال والفتيان المقاتلون والضيوف . أما النساء فلهن أن يجلسن على بعد في الجانب الأيسر . ويباح للصبيان والبنات الجلوس حيث يتيسر لهم ذلك .

وبعد أن فتح چنگيزخان أقاليم الصين الشمالية ، ارتقت حياة العاهل المغولي ، وطرأ تطور كبير على مسكنه ؛ فلم يعد يتخذ الخيمة المصنوعة من الجلد مقراً له ، بل صار يقيم سرادقاً مرتفعاً ، مصنوعاً من اللباد الأبيض ، ومبطناً بالحرير . وإلى جانب المدخل ، وضع منضدة من الفضة عليها لبن الخيل والفاكهة واللحوم حتى يأكل ويشرب كل من كان يأتي لمقابلته[1] .

الدين :

لم يكن للمغول دين واحد بعينه يعتنقونه ويجمعون عليه ، بل كانت

---

(١) انظر هارولد لام : چنگيزخان وجحافل المغول ، الترجمة العربية ، ص ٩٠ .

طوائفهم تتنازع الديانات المختلفة من شامانية وبوذية ومسيحية وإسلام . وعلى الرغم من هذا ، فإنهم بصفة عامة كانوا بعيدين عن التعصب لمذهب دون آخر .

أما الشامانية فهي نوع من الديانة الوثنية ، كانت تتمثل في عبادة كل شيء يسمو على مدارك المغول ، ويدق على أفهامهم ، كما تتمثل أيضاً في عبادة كل ما يخشونه ويرهبونه ، فلهم آلهة في النهر والجبل والشمس والقمر والبرق الخاطف والرعد القاصف . وإذا كان المغول يتقربون إلى هذه الآلهة ، فإنهم كانوا يفعلون ذلك دفعاً لشرها وأذاها ، وإبعاد غضبها وجلب رضاها ، راجين منها الصحة في أجسامهم وعقولهم ، ملتمسين إليها حماية أبنائهم وحيواناتهم[1] . وفضلاً عن ذلك ، كان أتباع هذه الديانة يعبدون أرواح أجدادهم ، لاعتقادهم أن لهذه الأرواح سلطاناً كبيراً على حياتهم ، كما كانوا يؤمنون بالقوى السحرية ؛ فلا غرو أن كان لكهنة هذا الدين خبرة بالسحر . ولهذا كانوا يعنون عناية كبيرة بالتنجيم ، كما كانوا يدرسون العلاقات بين الأرواح التي يحضرونها ، ويحصلون بواسطتها على كشف الغيب ، والتنبؤ بالمستقبل .

ويقال إن چنگيزخان كان على دين الشامان أسلافه الأقدمين ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يتعصب لدين بعينه ، بل كان يحترم جميع الأديان ، ويحضر الحفلات الدينية التي يقيمها الرعايا كل على مقتضى شريعته[2] . يروى أنه بعد أن سيطر على أقاليم الدولة الخوارزمية ، استدعى بعض العلماء من المسلمين ، وسألهم عن حقيقة الإسلام وأركانه ، فقيل له : إن أولها توحيد الله سبحانه وتعالى . فقال أنا أيضاً أعتقد أن الله واحد . كذلك وافق على بقية أركان الإسلام ما عدا الحج ، إذ قال عنه : إنه لا

---

(١) الدكتور مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، ص ٥٦ .

(٢) عبد الفتاح السرنجاوي : النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ، ص ٢٥٣ .

فائدة منه ؛ لأن الأرض كلها لله ، ولا داعي لتخصيص مكان معيّن[1] .

وأما البوذية فقد حلت محل الشامانية ، وسرعان ما اجتذبت إليها طوائف المغول ، خصوصاً بعد أن استقرت هذه الديانة في هضبة التبت ، وأخذ دعاتها يعملون على نشرها في الجزء الشرقي من آسيا . وعندما اعتنق الخان الأعظم « قوبيلاي » هذه الديانة ، زاد نفوذها زيادة كبيرة .

هذا وقد ذهب الأستاذ الرمزى — أحد الكتاب الأتراك — إلى أن المغول لم يكونوا متدينين بدين من الأديان ، ولم يعبدوا الأوثان والأصنام . ولكن كانوا يعرفون الله سبحانه وتعالى بالفطرة ، ويوحدونه ويتقربون إليه بمقتضى الظنون والأوهام ، وأن ما ذكر في بعض التواريخ من أنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس والأصنام فغير صحيح ، سيما القول بعبادة الأصنام والأوثان ، فإن عقول الأتراك أعلى من أن يعبدوا شيئاً صنعوه بأيديهم[2] . والأمر الذي لا شك فيهأن هذا الكلام يبدو لأول وهلة من قبيل التعصب الأعمى ، الذي يريد أن يثبت جزافاً لهذه الشعوب كل ما هو حسن ، وينفي عنها كل ما فيه نقص حتى ولو كان في ذلك الجرأة على الحقيقة والتاريخ .

كذلك استطاعت المسيحية أن تجد لها مجالاً خصباً بين هؤلاء المغول . وسبق أن علمنا أن قبيلة كرايت كانت تدين بالمسيحية . وقد تزوج چنگيزخان من ابنة رئيس هذه القبيلة بعد أن تم له التغلب عليها . كذلك يروي لنا التاريخ الشيء الكثير عن العلاقات التي قامت بين حكام المغول الأول من أبناء چنگيزخان ، وبين الدول المسيحية على اختلافها[3] .

---

(١) العزاوى : العراق بين احتلالين ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٢) الرمزي : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ، ج ١ ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٣) Browne : The Eclipse of Christianity in Asia, PP. 147 - 149 ; Aziz Surial : The Crusade in The Later Middle Ages , PP. 238-246.

ولما غزا خلفاء چنگيزخان أوربا ، وأوقعوا بالأوربيين كثيراً من النكبات ، هلع المسيحيون هناك ، وأصبحوا ينظرون إلى المغول نظرة خوف وفزع . ولكن أخبار الرحالة المسيحيين في الأراضي المغولية ، وما لاقوه من عطف ورعاية على أيدي المغول ، كانت قد أعادت الثقة والطمأنينة إلى نفوس المسيحيين في أوربا ، فبدأت نظرتهم تتغير إلى المغول ، وفكروا في الاستفادة منهم ، وصاروا يعملون على استمالتهم إلى جانبهم ، واضعين نصب أعينهم أن يدخلوا هؤلاء الغزاة في الدين المسيحي ، وأن يتحالفوا معهم في سبيل القضاء على المسلمين ، والاستيلاء على أراضيهم . ولكن هذه المحاولات منيت جميعها بالفشل ، وتم النصر في النهاية للإسلام فقد اعتنق « بركه » خان القبيلة الذهبية ٦٥٤ — ٦٦٦ هـ (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) الديانة الإسلامية ، فكان هذا أول نصر حقيقي للمسلمين ، لا سيما بعد أن أسلم أغلب رعيته . وقد نتج عن ذلك توطيد العلاقة بين « بركه » و « الظاهر بيبرس » في مصر ، وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذي يتمثل في أسرة هولاگو في إيران[1] .

وفي عهد أبناء هولاگو الذين حكموا إيران ، نرى منهم السلطان « أحمد تكودار » ٦٨١ — ٦٨٣ هـ (١٢٨٢ — ١٢٨٤ م) قد اعتنق الإسلام ، ثم يسلم أيضاً غازان ، ولا يكتفي باتخاذ هذه الخطوة ، بل يعلن الإسلام ديناً رسمياً للدولة[2] . وقد بقي أعقابه الذين حكموا إيران من بعده ، يدينون بهذا الدين . وبذلك قضى نهائياً على آمال المسيحيين . يقول براون : « لم يبق من أثر للبعثات المسيحية التي وصلت إلى المغول في عاصمتهم « قراقورم » إلا السجلات الخالدة لأسفار جماعة من المبشرين والقسيسين ،

---

(١) Arnold : The Preaching of Islam, pp. 225-226.

(٢) انظر رشيد الدين : تأريخ مبارك غازاني (داستان غازان خان) ، ص ١٦٩ ، تصحيح كارل يان Karl Jahn ؛ مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، للمؤلف ، ص ٧٠ وما بعدها .

الذين احتملوا في شجاعة فائقة أهوال السفر العديدة ، ومخاطره الشديدة لعلهم يظفرون بفوز مؤزر للكنيسة المسيحية بجلب المغول إلى حوزتهم ، وكان من بين هؤلاء « جان دى پلان كارپين » ، و « رو بروك » وغيرهما من القسس والرهبان »[1] .

القوانين :

اقتضت حياة المغول رغم بدائيتها وبساطتها أن تكون لهم قبل چنگيزخان مجموعة من الآداب والتقاليد . ولكنها لم تكن مدونة ، لأنهم كانوا يجهلون الكتابة . فلما جاء چنگيزخان ، أعاد النظر في هذه العادات ، ورد بعضها وقَبِلَ معظمها ، وأضاف إليها بعض الأحكام والقواعد ، وجعل لها صبغة رسمية ، وأمر بأن يتعلم الأطفال المغول الخط الأويغورى . كما أمر بأن تدون تلك النظم والأحكام بهذا الخط ، وأن يحتفظ بها في خزائن أمراء المغول[2] . وقد أطلق على كل حكم من هـذه الأحكام والقواعد اسم « ياسا » وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم وقاعدة وقانون . وتكتب بصور مختلفة في الكتب العربية والفارسية فنجد ياسا وياسه ويساق وياساق ويسق . وتطلق على الحكم الذي يصدره الملك أو الأمير . ولما كان كتاب الياسا يشتمل على جزء كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب ، وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب ، صار أحد معاني هذه الكلمة « ياسا » القتل والموت[3] .

---

(١) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ، ص ٥٦٢ .

(٢) انظر الجويني : تاريخ جهانگشاي ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٣) في كتب التاريخ الفارسية التي ألفت في العصر المغـولي ، كثيراً ما يصادفنا هـذان الاصطلاحان : « بياسا رسانيدن » و « بياسا ملحق گردانيدن » . ويأتي اسم المصدر «ياساميشي» من هذه الكلمة بمعنى السياسة والإدارة . وإلى جانب كلمة « ياسا » تستعمل كلمة « يوسون » . وهذه كلمة مغولية أيضاً بمعنى الطريقة أو الرسم .

وأما مجموع هذه الأحكام المكتوبة بالخط الأويغوري والتي أقرها چنگيزخان، فإنه يطلق عليها «كتاب الياسا الكبير» ياسا نامهٔ بزرگ». وقد تعود المغول أن يرجعوا إلى نصوص الياسا يستشيرونها، ويعملون وفق ما تشير به، وذلك في الأحوال الآتية :

١ - عندما يجلس خان جديد على عرش المغول .
٢ - عندما يعقد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة .
٣ - في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال .

وقد أصدر چنگيزخان هذا القانون في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) عقب انتخابه خاناً أعظم ؛ لأنه رأى بثاقب فكره أنه لا يمكن جمع كلمة هؤلاء القبليين المتعطشين للدماء إلا بتشريع قانون يلتفون حوله، وينزلون جميعاً على حكمه . ولا بد أن تكون مواد هذا القانون مشتملة على عقوبات فيها جد وصرامة توقع على المذنبين في غير ما شفقة ولا رحمة، لأن هؤلاء الأتباع إن تركوا وشأنهم يحيون حياتهم القديمة، فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفوضى، وقتل بعضهم البعض، والتطاحن من أجل الأسلاب والمراعي .

ولكن اذا كانت الياسا قد فضّتْ النزاع والخصام بين المغول الذين كانوا يعيشون من قبل كقطعان الذئاب التي لا ضابط لها ولا رابط ؛ فإنها من جهة أخرى قد حولتها إلى جيوش منتظمة، تعرف كيف ترسم خططها بدقة وإحكام . وتغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار المدمر ، أو كأسراب الجراد التي تنزل على الحقول المورقة فتلتهمها التهاماً، وتأتي على كل ما فيها .

أصدر چنگيزخان مجموعة القوانين المعروفة بالياسا، والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في الإستبس، لكي يربط أقاليمه معاً، في ظل حكم موحد . وهذه الياسا التي صدرت مجزأة طوال حكم چنگيزخان

حددت ما لرؤساء العشائر من حقوق وامتيازات ، وما هو مقرر للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات ، وقواعد نظام الضرائب. فضلاً عن مبادىء القانون الجنائي والمدني والتجاري . ومع أن چنگيزخان يعتبر الطاغية الأكبر ، فإنه قصد أن يلتزم هو وأخلافه بالقانون[1] . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول : إن هذا القانون قد نظم علاقة الحاكم بالمحكوم ، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض ، كما حدد علاقة الفرد بالمجتمع . وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة هي : الخضوع لجنگيزخان والاتحاد في قبيلة واحدة ، والعقاب الصارم لكل مخطىء[2] .

يحدثنا المقريزي[3] عن الياسا فيقول : «إن چنگيزخان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق ، لما غلب الملك أونك خان ، وصارت له الدولة ، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسه . ومن الناس من يسميه يسق . والأصل في اسمه ياسه . ولما تم وضعه ، كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه ، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم . وكان چنگيزخان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض ، كما تعرف هذا إن كنتَ أشرفتَ على أخباره ، فصار الياسه حكماً باتاً بقي في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه» .

«وأخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله أبو هاشم أحمد بن البرهان — رحمه الله — أنه رأى نسخة من الياسه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. ومن جملة ما شرعه چنگيزخان في الياسه أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب ، أو سَحَرَ أو تَجَسَّسَ على أحد ، أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان ،

---

(١) انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ص ٤١٦ — ٤١٧ .
(٢) انظر حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٢١٢ .
(٣) المقريزي : الخطط ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها ، فإنه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل ، ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ، ولم يرده على من كان في يده قتل ، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويُمَرَّس قلبه إلى أن يموت ، ثم يؤكل لحمه ، وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع حمله أو قوسه أو أي شيء من متاعه ، وهو يكر أو يفر في حالة القتال ، وكان وراءه أحد ، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه ، فإن لم ينزل، ولم يناوله قتل. وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – مؤنة ولا كلفة، وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة ، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً ، ولو أنه أمير ، ومن يتناوله أسير ، وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه ، بل يشركه معه في أكله ، وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ، ولا يتخطى أحد ناراً ولا مائدة ، ولا الطبق الذي يؤكل عليه ، وأن من مرّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم ، وليس لأحد منعه ، وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء ، ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به ، ومنعهم من غسل ثيابهم ، بل يلبسونها حتى تبلى ومنع أن يقال لشيء إنه نجس ، وقال : جميع الأشياء طاهرة . ولم يفرق بين طاهر ونجس . وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب ، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ، ويدعى باسمه فقط ، وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال ، وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره ، وينظر حتى

الإبرة والخيط ؛ فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه . وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال ، وجعل العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ، ويؤدونها إليه . وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتّب لعساكره أمراء ، وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشراوات . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب ، وبعث إليه الملك أخسّ من عنده حتى يعاقبه ، فإنه يلقي نفسه إلى الأرض بين الرسول ، وهو ذليل خاضع حتّى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ، ولو كانت بذهاب نفسه . وألزمهم ألا يتردد الأمراء لغير الملك ، فمن تردد منهم لغير الملك قتل . ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير إذن قتل . وألزم السلطان بإقامة البريد حتّى يعرف أخبار مملكته بسرعة » .

« وجعل حكم الياسه لولده جغتاى بن چنگزخان . فلما مات *، التزم من بعده أولاده وأتباعهم حكم الياسه ، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن ، وجعلوا ذلك ديناً ، لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه » .

وقبل المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) بما يزيد على قرن ونصف ، كتب المؤرخ الفارسي « عطا ملك الجويني » (ت ٦٨١ هـ) عن الياسا بتفصيل أكثر . ولكن عبارة المقريزي تعتبر في الحقيقة خلاصة وافية لما جاء في الجويني ، على أن الأخير قد زاد في الحديث عن ناحية هامة لها أكبر الأثر في حياة المغول العسكرية هي مباريات الصيد[1] التي كانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال ؛ إذ كانت في الحقيقة هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم ، ولكنهم كانوا يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد ودعوا لحمل السلاح وخوض غمار المعارك ؛ فهم في حلبات الصيد ،

---

(١) الجويني : تاريخ جهانگشاي ، ج ١ ، ص ١٩ – ٢١ .

يدربون أنفسهم على ما سيفعلونه في وقت الحرب ، ويقفون صفوفاً منتظمة كما يقفون في ميادين القتال تماماً ، ويأخذون منهم الآلات والأسلحة اللازمة للتدريب على استعمالها . وهم بالإضافة إلى هذا مكلفون بتسقط أخبار الأعداء والتجسس عليهم . يقول بارتولد : « ومن الوسائل القيمة التي تعمل على حفظ النظام وتدريب الجند واختبارهم ، حملات الصيد التي كانت تعد على نطاق واسع ، وفيها تراعى جميع الأوامر الخاصة بالنظام الحربي بنفس الدقة التي تراعى بها إبان الحرب »(١)

وكان يشرف على ميادين الصيد ، كبار الأمراء الذين يصطحبون معهم الخواتين والسراري ، ويتزودون بمختلف المأكولات والمشروبات . وتمتد هذه المباريات من شهر إلى ثلاثة أشهر . وعلى الجنود المشتركين فيها أن يباشروا الصيد في تأن وحذر ، وأن ينظروا إلى الحيوانات كما ينظرون إلى أعدائهم . فلو فرض وأن جندياً قد أخطأ في إصابة الهدف ، فإنه يعاقب على ذلك بالضرب بالعصا ، وكثيراً ما يكون العقاب بالقتل ، بل إنهم كانوا لا يترددون عن توقيع الجزاء على أي شخص ينسب إليه الإهمال والخطأ مهما كان هذا الخطأ بسيطاً تافهاً . بعد ذلك توفد الرسل إلى الخان وهي تحمل إليه تقارير مفصلة عن كل ما دار في هذه المباريات التي تشبه إلى حد كبير مناورات الجيوش في العصور الحديثة ، وذلك للإبقاء على تدريب الجند . ومن حملات الصيد أيضاً ، يحصل المغول على اللحوم اللازمة لمد الجيش والبلاط . وكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد ، أكلوا أكبر قدر من لحمها يمكنهم أكله ، وذلك حتى يبعدوا عنهم شبح الجوع في الأيام العجاف التي تنتظرهم .

وقد تنبه المؤرخون العرب وكتابهم إلى أهمية الصيد وبيان فوائده في

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ص ١٣٧ ، مادة « جنكيز خان » .

النواحي العسكرية والرياضية والغذائية ؛ فها هو ابن طباطبا[1] يحدثنا في هذا الصدد فيقول : « إن القنص يشتمل على فوائد كثيرة جليلة النفع منها (وهو الغرض الأشرف منه) تمرين العساكر على الركض والكر والعطف، وتعويدهم الفروسية ، وإدمانهم للرمي بالنُّشاب والضرب بالسيف والدَّبوس ، واعتياد القتل والسفك ، وتقليل المبالاة بإراقة الدماء ، وغصب النفوس ، ومنها اختبار الخيول ، ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض ، ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم ، وتحفظ صحة المزاج ، ومنها فضل لحم الصيد على باقي اللحوم ؛ لأنه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية ، فتزيد في حرارة الإنسان » .

والمغول يعتبرون الصيد جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ، ويحرصون على ممارسته منذ الصغر . يروى أن چنگيزخان سقــط ذات يوم من فوق جواده ، وأصيب حين كان يصطاد خنزيراً برياً ، وشاء حسن حظه ألا يهاجمه الخنزير ، وهو ملقى على الأرض ، إذ كان قد انتحى جانبــاً . فقال له الكاهن : « كان ذلك نذيراً لك . لقد فعلت شراً برغبتك في قتل روح حيّ . ولولا رحمة السماء لنطحك الخنزير وقضى عليك » . فرد چنگيزخان عليه قائلاً : « لقد أدركتُ ذلك شخصياً ، وأعلم أن نصيحتك تستهدف الخير . ولكننا نحن المغول قد اعتدنا منذ حداثتنا أعمال الصيد . وليس من السهل علينا أن نغيّر عاداتنا[2] » . وكان للمغول نظم وقواعد يلتزمونها أثناء الصيد ، ويقومون بتنفيذها بكل دقة[3] .

كذلك نصّ چنگيزخان في الياسا على أنه يمقت السرقة والفحش مقتا خاصاً ، وأن عقاب مرتكبيها الإعدام ، وصَرَّح بأنه يغضب إذا علم

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٤٧ ، الطبعة الثانية .
(٢) هارولد لام : چنگيزخان وجحافل المغول ، الترجمة العربية ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٣ وما بعدها .

بولد لا يطيع أبويه ، أو بأخ صغير يخالف أمر أخيه الأكبر ، أو بافتقار الزوج إلى الاعتماد على زوجته ، أو بمخالفة المرأة لزوجها ، أو بتمنع الغني عن إعانة الفقير ، أو بعدم احترام المرءوسين لرؤسائهم . ونهى أتباعه عن الإغراق في شربُ الخمر فقال : « إن الرجل السكران كالرجــل المضروب على أم رأسه ، يفقد عقله وكفاءته ؛ فاشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا أكثر ، والأفضل ألا تشربوا أبــداً ، ولكن من الذي يستطيع الإحجام عن الشرب مطلقاً ؟ ! .. »

وإن المتأمل نصوص الياسا يلاحظ أن بعضها يوافق الشريعة الإسلامية الغراء . ولكن أكثرها مخالف لها . فالشريعة الإسلامية تقوم على احترام حقوق الفرد ، وتمنع الطغيــان والاستبداد ، وتدعو إلى السعي والكفاح لينتفع الإنسان بتجاربه ، ويجد ثمرة عمله . أما الياسا فإنها تقوم على أسس جائرة ظالمة ، تلغي شخصية الفرد ، وتحجر على حريته ،وتكبله بقيود الذل والعبودية .

فإذا كان المغول يعتبرون الكذب جريمة بنص القانون ، فإنهم أحلوه لأنفسهم ، لا سيما في وقت الحروب ، وذلك على سبيل الخديعة والتفرقة بين المتحاربين من الأعداء . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن المغول تحللوا من المواثيق ونكثوا بالعهود لما ركب في نفوسهم من اللؤم والغدر والميل إلى الانتقام .

فمثلاً كان الترك – من بين سائر القوميات – أقرب إلى المغول ، بل كانت منهم كتائب بجيش چنگيزخان . وكانت التقاليد البدوية في آسيا الوسطى ، تزيد الترك قرباً إلى المغول ، ورغم هذا كله لم يحاول المغول الاتحاد مع الترك وإشراكهم معهم في الفتح . ولم تكن المحادثات التي يجرونها أحياناً مع الترك إلا ضرباً من الخدع الحربية المألوفة عندهم ؛ فقد كانوا يحاولون بتأكيداتهم الكاذبة لأواصر الصداقة – أن يفرقوا أعداءهم ،

ثم يجهزوا عليهم واحداً فواحداً. ونحن نعلم أن جنكيزخان أكد صداقته لأم السلطان محمد خوارزمشاه مستغلاً الجفوة التي كانت بينها وبين ابنها، وذلك لكي يحول بينها وبين التدخل في الحرب؛ إذ كان تحت إمرتها عدد من الكتائب. ومع هذا فقد كان مصيرها الأسر والنفي، حيث ماتت في أرض الغربة ذليلة مهانة.

وفي غرب آسيا لعب حفيد جنكيزخان «هولاكو» نفس الدور. ففي وقت ما، كان يجري المحادثات مع الإسماعيلية ومع الخليفة العباسي، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن استأصل شأفتهم جميعاً [1].

وإذا كان المغول ينادون بالتعاون، فإنما يقصدون التعاون الذي يقوم على تفاني الفرد في سبيل المجموع، وعدم الاعتراف بأي حق للمرء في حريته الشخصية. فنصت الياسا على ألا ينفرد أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل عليه أن يشركه معه في أكله، ولا يجوز أن يتمتع أحد بالشبع دون أصحابه، بل يقسم الطعام بالتساوي، ومن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويؤاكلهم من غير إذنهم، وليس لأحد منعه، فمثل هذه النصوص الجائرة تكشف لنا عن روح هذا المجتمع التعاوني الشاذ الذي يحرم الإنسان نتيجة سعيه وكفاحه.

ودعت الياسا إلى الإباحية إذ ألزمت التتار عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه ولأولاده. وفي هذا هدم لكيان الأسرة التي هي عماد الاستقرار [2].

والحقيقة أن كثيراً من عادات المغول وطباعهم، كانت تدعو إلى الاشمئزاز، وتثير في نفوس المسلمين النفور والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم؛

---

(١) انظر بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، الترجمة العربية، ص ١٦٣ – ١٦٤.
(٢) انظر الدكتور إبراهيم أحمد العدوي: العرب والتتار، ص ٣٢ – ٣٣.

فكانوا على استعداد لأن يأكلوا كل ما حرمه الإسلام ، بل إنهم لا يتورعون عن أكل الحيوانات الدنسة ، وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال ، وحرموا غسل الأيدي والثياب في المياه الجارية ، ولذلك كانوا يتركون الثياب حتى تبلى ، ومن خالف هذه التعليمات اعتبر مجرماً خارجاً على القانون وعقوبته الإعدام. كذلك اعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقه من الجرائم التي لا تغتفر أيضاً ، فحرموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقاً للطريقة التي أجازها الشرع ، واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الوحشية الخاصة التي تقوم على تعذيب الحيوان ، دون أن تأخذهم به شفقة ولا رحمة ، فكانوا يشقون بطن الحيوان ، ثم يمدون أيديهم إلى جوفه ، فإذا وصلوا إلى قلبه أمسكوه ونزعوه من مكانه(١) .

يقول القلقشندي : « ثم الذي كان عليه جنكيزخان في التدين ، وجرى عليه أعقابه بعده ، الجري على منهاج ياسه التي قررها ، وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه ، رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية ، وأكثرها مخالف لذلك. سمّاها الياسه الكبرى. وقد اكتتبها ، وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه ، وأن يتعلمها صغار أهل بيته. منها أن من زنى قتل ، ومن أعان أحد الخصمين على الآخر قتل .. إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها مما هم دائنون به الآن ، وربما دان به من تحلّى بحلية الإسلام من ملوكهم(٢) ».

وإن ما صرح به القلقشندي من أنه ربما دان بالياسا من تحلى بحلية الإسلام ، ليطابق الحقائق التاريخية تمام المطابقة ؛ فقد اعتنق الإسلام « بركه » خان القبيلة الذهبية في القبچاق. ولم يكن الخان وحده هو المسلم ، بل كان نساؤه ورجال حاشيته مسلمين. وكان لكل أمير عنده ، ولكل

---

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ، ص ٥٦١ .
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

خاتون مؤذن وإمام . وكانت مدارس تحفيظ القرآن كثيرة . وعلى الرغم من هذا ، فإن هؤلاء المغول المسلمين ، كانوا لا يزالون متمسكين بكثير من عادات التتر وتقاليدهم المتبعة في منغوليا مما تضمنته الياسا . فمن ذلك عادة تتعارض مع تقاليد الإسلام ، وهي عدم استعمال مياه النهر لا للغسل ولا للاغتسال . وقد نُبه على السفراء الذين كان يرسلهم السلطان الظاهر بيبرس إلى بلاط « بركه » لتوثيق الروابط بين الطرفين — بألا يغسلوا ملابسهم في الأوردو . ولكنهم كانوا يغسلونها خفية ، إذا ما اشتدت حاجتهم إلى ذلك[1] .

أما المغول الذين قدموا إلى مصر وعاشوا فيها ، فكانوا متأثرين بالمدنية الإسلامية قبل أي اعتبار آخر . ومع هذا كانوا لا يزالون — في بعض شئونهم — يتبعون نصوص الياسا . يقول المقريزي[2] : « لما كثرت وقائع التتر في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق ، وأسروا كثيراً منهم ، وباعوهم ، تنقلوا في الأقطار ، واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة ، ومنهم من ملك ديار مصر . وأولهم المعز أيبك . ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت ، وهزم التتار ، وأَسَرَ منهم خلقاً كثيراً ، صاروا بمصر والشام . ثم كثرت الوافدية في أيام الملك الظاهر بيبرس ، وملأوا مصر والشام ، وخُطِبَ للملك بركة بن يوشى ابن جنكزخان على منابر مصر والشام ... فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل ، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم . هذا وملوك مصر وأمراؤها وعساكرها قد ملئت قلوبهم رعباً من جنكزخان وبنيه ، وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم . وكانوا إنما رُبُّوا بدار الإسلام .

---

(١) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ١١٦ وما بعدها ؛ بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، الترجمة العربية ، ص ١٧٨ .

(٢) الخطط ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، ص ١٤٧ — ١٤٨ .

ولُقّنُوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الرديء ، وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين وأرباب الديوان ونحو ذلك . واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان والاقتداء بحكم الياسه ؛ فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم ، والأخذ على يد قويهم ، وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسه ، وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان ، وقواعد الحساب . وكانت من أجلّ القواعد وأفضلها » .

والواقع أن نصوص الياسا كانت محترمة جداً لدى المغول إلى درجة تبلغ التقديس ؛ فكانت عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين بحيث أنه لا يجرؤ شخص حتى السلطان نفسه على مخالفة أحكامها . أما إذا خرج عليها أي شخص آخر مهما كانت منزلته ، فإنه يكون عرضة للامتهان والعقاب . يقول ابن بطوطة[1] : « وكان تنكيز (هكذا في النص) ألّف كتاباً في أحكامه يسمى عندهم اليَسَاق ، وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب ، فخلعه واجب . ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوماً في السنة يسمونه « الطُوىْ » ، ومعناه يوم الضيافة ، ويأتي أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد ، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد . وإن كان سلطانهم قد غيّر شيئا من تلك الأحكام ، يقوم إليه كبراؤهم فيقولون له : غيّرْتَ كذا وغيرت كذا ، وفعلت كذا ، وقد وجب خلعك ، ويأخذون بيده ، ويقيمونه عن سرير الملك ، ويقعدون غيره من أبناء تنكيز . وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنباً في بلاده ، حكموا عليه بما يستحقه » .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٧٣ ، نشر دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .

كذلك ظلت أحكام الياسا موضع عناية الأقوام التركية حتى بعد أن زالت دولة الإيلخانيين في إيران ؛ فقد سار عليها التيموريون ، وكانوا يتبعون تعاليمها في إدارة دقة السياسة وشئون الحكم ، وفي الولائم والحفلات[1]. يقول ابن عربشاه : « وكان تيمور معتقداً للقواعد الجنكزخانية ، وهي كفروع الفقه من الملة الإسلامية ، وممشياً لها على الشريعة المحمديـة ، وكذلك كل الجغتاي وأهل الدّشت والخطا وتركستان ، وأولئك الطغام كلهم يمشون قواعد چنگيزخان — لعنه الله — على قواعد الإسلام . ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين محمد البزازي — رحمه الله — ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخارى — أبقاه الله — وغيرهما من العلماء الأعلام وأئمة الإسلام — بكفر تيمور ، وبكفر من يقدم القواعد الجنكيزخانية على الشريعة الإسلامية ، ومن جهات أخر أيضاً . وقيل إن شاه رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيزخانية ، وأمر أن تجري سياستهم على جداول الشريعة الإسلامية ، وما أظن لذلك صحة ؛ فإن ذلك عندهم صار كالملة الصريحة والاعتقادات الصحيحة[2] »

وقد درج المغول على تسجيل أقوال ملوكهم وتعليقها بعد موتهم ، ولكنهم لم يكونوا أحراراً في كتابة كل ما قاله هؤلاء الملوك ؛ فكانوا يدونون فقط ما يجيزه الخان . وهذا القسم من أحاديث المغول كان يقدره رعاياهم ، وينزلونه من أنفسهم منزلة التوقير والاحترام ، وكانوا يطلقون عليه كلمة « بيليك » بمعنى « حكمة » . وقد جمعت حكم چنگيزخان « بيليكهاي چنگيز » ، وصارت مرجعاً لجميع طوائف المغول ، يستشهدون بها ويستشيرونها في مختلف شئون حياتهم كما يستشيرون أحكام الياسا .

---

(١) انظر L. Bouvat : Essai sur La Civilization Timouride, Journal Asiatique, Avril — Juin, 1920 ؛ ديوان كامل جامى ، مقدمة الناشر ، ص ٣٢ ، حاشية ١.

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور ، نشر مانجر Manger ، ج ٢ ، ص ٨٠٠ — ٨٠٢ ، طبع هولندا ، ١٧٧٢ .

من هذه الحكم التي وردت على لسان چنگيز[1].

١ - لا يؤذ بعضكم بعضاً على أمور الدنيا ، فإذا شعر بعضكم بألم من الآخر فليسارع لإزالته حالاً لتكونوا بمأمن من شرور الأعداء .

٢ - إن من يدبر بيته أحسن تدبير ، يتمكن من إدارة المملكة .

٣ - مَنْ تمكن من إدارة عشرة أفراد وأحسن سَوْقهم ، يتيسر له سوق جيش عظيم .

٤ - مَنْ تمكن من نظافة بيته ، يستطيع أن يحرس حكومته منَ السُرّاق وأهل الشقاء .

كان للمغول أيضاً عادات وتقاليد اجتماعية أخرى سار عليها چنگيز وأبناؤه من بعده . ونظراً لغرابتها وطرافتها ، نشير إلى أهمها :

المعروف عن المغول أنهم كانوا يسكنون الخيام كما هو المتبع عند البدو ، وكانوا يسمون أمكنة إقامتهم في المصايف والمشاتي « يورت » أو « أوردو » . وجرياً على هذه العادة كانوا يختارون أماكن معينة يقضون فيها الصيف ، يقال لها « ييلاق » ، وأخرى يمضون فيها الشتاء تسمى « قيشلاق » . واستمروا يسيرون على هذا التقليد حتى بعد أن فتحوا كثيراً من البلاد المتمدينة ، واضطروا إلى سكنى العواصم ، فكانت لهم أمكنة يقيمون فيها صيفاً وأخرى يقيمون فيها شتاء .

هذه الخيام في المصايف والمشاتي ، كانت تتخذ صفة المدينة الكبيرة ؛ إذ أنه بالإضافة إلى كثرة الخيام والأكواخ ، فإن السكان الذين يصحبون الخان ، كانوا يمثلون جميع الطوائف من قواد الجيوش إلى القضاة والكتاب والصناع والتجار وغيرهم . وكان أرباب الحرف والصناعات يزاولون عملية البيع والشراء ، ويمدون هذه المدن المتنقلة بما يلزمها من الحاجيات .

---

(١) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ، ص ١٣١ - ١٣٣ .

وكانت عادة المغول في حالة حدوث أمر هام كتنصيب ملك جديد ، أو القيام بحملة حربية أن يدعى أمراء المغول وأقاربهم إلى الاجتماع بواسطة رسل يقال لهم « ايلچيان » مفرد « ايلچي » أي مبعوث أو سفير ، للتشاور في مختلف المسائل المطروحة على بساط البحث . وهذه المجالس يقال لها بالمغولية « قوريلتاي » .

أما عن الزواج فقد كان للخان أن يتزوج بمن يشاء من النساء . وكان يأخذ بمبدأ تعدد الزوجات . والعادة المتبعة أنه إذا تغلب على ملك أو أمير أو عقد معه اتحاداً أو تحالفاً ، فإنه كان يتزوج من ابنته أو أخته . أما إذا تغلب عليه وقتله ، فكان يتزوج من امرأته . وكان چنگيزخان يسير على تلك الطريقة . ويقال إن عدد زوجاته كان يزيد على ٥٠٠ زوجة(١) . ولما كان المغول يتزوجون من عدة نساء ، فإنهم كانوا يفضلون أبناءهم من الزوجة التي يؤثرونها على غيرها من النساء .

وبعد موت الخان ، كانت تئول جميع نسائه إلى أكبر أبنائه ، وله الحق في أن يتزوج بمن يشاء منهن ، وذلك باستثناء والدته ، كما أن له أن يمنحهن لأصدقائه أو يطلق سراحهن(٢) .

أما مجموع الأبناء والأقارب والأشخاص الذين هم من عشيرة الخان أو الأمير ، فقد كان يطلق عليهم كلمة « أُرُوغ » بمعنى « عشيرة » أو « سلالة » . أما رعايا الخان الذين يخضعون لسيطرته ، فقد كان يطلق عليهم لفظة « أولوس » .

كذلك كان المغول يحرصون أشد الحرص على مزاولة ضروب مختلفة من الرياضة . وقد رأينا كيف كانوا يهتمون بالصيد ، ويعدونه من

(١) انظر خوندمير : حبيب السير ، ج ٣ ، ص ١٧ .
(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، ص ٩٢ ، حاشية ١٤ .

ضروريات الحروب . وبالإضافة إلى ذلك كانوا مغرمين بالمصارعة والمبارزة ، وكانوا يجدون لذه في مشاهدة المباريات التي كانت تقام لهذا الغرض . وأثناء حملاتهم كانوا يصحبون معهم طائفة من هؤلاء المصارعين . وكانوا يستدعون أيضاً مهرة المصارعين من أقاليم الخطا والقبچاق . ولما استولوا على أقاليم ما وراء النهر وإيران ، حملوا معهم إلى منغوليا الممتازين في هذا الفن. يقول هارولد لام [١] : « وحتى ألعابهم كانت جهاداً وكفاحاً ، فسباق الخيل عند هؤلاء القوم الرحل ، كان معناه الجري عشرة أميال فوق البراري ذهابا وإيابا . ومباريات المصارعة عندهم قد تنتهي بدق عظامهم » .

وللفروسية عند المغول مركز ممتاز ، وهم على اختلاف أعمارهم كانوا يقضون أعمارهم على ظهر الحصان ، ولا يكادون ينقلون قدماً على الأرض . ومن لا يرافقه الحصان كان يعرف عنه أنه إما فقير أو عديم الأصدقاء ؛ ذلك لأن المغولي لا يتأخر عن تقديم حصان لآخر يطلبه ، كما تُقَدَّم عود الثقاب لمن يطلبه لإشعال سيجارة . ولم يكن الرجال هم الذين يختصون بهذا الأمر دون النساء . بل إن النساء كن يركبن الخيل كالرجال ، وكن يستعملن الأقواس والسهام ، ويقدرن على البقاء على ظهر الحصان زمناً طويلاً ، ويذهبن مع الرجال إلى القتال [٢] . وبدون الخيل لم يكن في مقدور المغول أن يقودوا قطعان الحيوانات الأخرى ، أو أن يرحلوا بسرعة فائقة إلى أماكن نائية هرباً من الجليد أو الجفاف في الصحراء .

انتشار الخرافات بين المغول :

لما كانت البداوة غالبة على المغول ، والجهل متفشياً بينهم ، فإن ذلك قد رَوَّجَ بينهم سلسلة من الخرافات والعادات السيئة ، فمثلاً كانوا يعتقدون

---

(١) جنگيزخان وجحافل المغول ، الترجمة العربية ، ص ١٠ .
(٢) انظر Howorth : History of the Mongols, Vol, IV, pp. 44 & 62.

أن للشياطين تأثيراً كبيراً على حياتهم ، وكانوا يخشون السحر ويخافونه. وقد تضمنت الياسا أحكاماً شديدة رادعة توقع على كل من يتهم بالسحر والشعوذة بقصد الإضرار بالغير.

وكانوا ينظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين على أنهم وحدهم هم الذين يستطيعون إبطال تأثير السحر ودفع ضرره ، ويعرف كل واحد منهم باسم «بخشى». والساحر الملم بضروب السحر يقال له «قام». ولقد كان هؤلاء الكهان يزعمون أنهم يستطيعون تسخير الشياطين. كما أن ذوي الأرواح الشريرة يألفونهم ويأتمرون بأمرهم ، وأنهم قديرون على التنبؤ بالغيب عن طريق تحضير الشياطين والأرواح ، وجرت عادة المغول على أن يبرموا الأمور وفق ما يشير به هؤلاء الكهان.

وكانوا يلجأون إلى طريقة بدائية يعتقدون أنها تعينهم على التنبؤ بالغيب وكشف الأسرار ، وتتلخص في أنهم كانوا يضعون عظم كتف الخروف مدة في النار حتى يسود ، ثم ينظرون فيه بدقة ، فإذا كان العظم سليماً لم تؤثر فيه النار ، ولم يحدث فيه كسر ، عرفوا أن إبرام هذا الأمر سوف يأتي وفق المرام فيمضون في طريقهم. أما إذا جاءت النتيجة بخلاف ذلك ، وانكسرت العظام أو احترقت ، عرفوا أن ما يقدمون عليه سوف لا تكون عاقبته سليمة ، فيمتنعون عن المضي فيه.

كذلك كان المغول يفزعون من الرعد والبرق ، فعند قصف الرعد أو ظهور البرق ، كانوا يقفون مشدوهين صامتين كأن على رؤوسهم الطير. وإذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصاً ولم يهلك ، فإن أفراد أسرته وقبيلته يطردونه على الفور ، ولا يصرحون له بالعودة إلى الخيمة قبل مضي ثلاث سنوات. والغريب أنهم كانوا يتصورون أنه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف ، أو غسل يده في النهر ، أو وضع الماء في أواني ذهبية أو فضية ، أو ألقى بلباس مغسول في الصحراء ، فإنه

ينتج عن هذا كله رعد وبرق كثير ، وهو أخشى ما يخشاه المغول . وتجنباً لكل هذا، نصت الياسا على عقوبات قاسية تنفذ فوراً فيمن يقترف هذه الخطايا .

وهكذا كان المغول يخشون قوة السماء الأبدية – كما كانوا يسمونها – أكثر من أي شيء آخر . فمن السماء تأتي الأعاصير والرعد والبرق والعواصف الثلجية . ومن السماء أيضاً يأتي دفء الربيع الذي يهب الحياة والأمطار التي تغذي الحشائش .

وفي ليالي الشتاء الباردة كان يخيل إلى المغول أنهم يرون أرواحاً ترقص وتقفز عند بوابة السماء . ولم تكن هذه سوى الأضواء اللامعة التي نسميها نحن الأضواء الشمالية .

وفي بعض الأوقات كان جنكيزخان يتجه بمفرده إلى قمة جبل مرتفع ليتضرع إلى هذه القوة الخفية في السماء قائلاً : « ابعث إليّ بأرواح طبقات الهواء العليا لتصادقني . أما على الأرض ، فابعث إليّ برجال يكونون عوناً لي »[1] .

كذلك وقر في نفوس البعض منهم أنه بدون الأذكار والأوراد والطقوس التي يلجأ إليها الساحر ، لا يمكن أن ينزل المطر والثلج .

وكانت قسوة المغول وصفاتهم تتضح بصفة خاصة في معاملتهم لمرضاهم ، إذ كانوا يتخلون عنهم ، وبهذا يعجلون بموتهم . وكانت العادة المتبعة عندهم أنه عندما يمرض أحد منهم ، يعزل في مرقده ، وتوضع علامة على مسكنه تشير إلى وجود مريض في الداخل ، وإلى عدم دخول أحد عليه . ولا يزور المريض أحد أبداً إلا من يتولى خدمته . وقد توضع حربة خارج خيمة المريض ، تُلَفُّ حولها قطعة من الصوف الأسود ،

---

(١) هارولد لام : جنكيزخان وجحافل المغول، الترجمة العربية ، ص ٤٣ .

وبذلك لا يجرؤ شخص غريب على دخولها . وعندما تشتد علة المريض ، يتركه الجميع ، لأنه ليس مصرحاً لمن يشاهد موته أن يدخل قصر الإمبراطور ، أو مسكن عظيم من العظماء حتى يبزغ القمر الجديد . فكأنهم بسلوكهم هذا ينظرون إلى المريض نظرتهم إلى مُلوَّث نجس[1] .

وهكذ ذاعت تلك الخرافات ، وانتشرت بين أقوام المغول انتشاراً عجيباً . وقد تحدث عنها أغلب المؤرخين والرحالة . يذكر ماركو پولو أنه عندما وصل إلى قصر الإمبراطور « قوبيلاي خان » شاهد مخلوقَيْن عجيبين هما أقرب في منظرهما إلى الحيوان منهما إلى الإنسان . شعورهما طويلة قذرة وملامحهما وحشية . إنهما يستطيعان أن يمدا الخان في ولائمه بأقداح بها خمر ، تنتقل إليه عبر الهواء ، فإذا شربها رجعت إليهما الأقداح عبر الهواء أيضاً دون أن يلمسها أحد . إنهما يخبران الخان بالأيام السعيدة لتقديم الهدايا والضحايا إلى الآلهة . وإنهما يستطيعان وقف المطر عن القصر الإمبراطوري بينما تهطل الأمطار بشدة فوق الأماكن المجاورة للقصر . إن كل شخص يخاف هذين الساحرين فهما لا يغتسلان ، ولا يسيران إلا عاريين تقريباً . ولقد حذروا ماركو پولو منهما ، ونصحوه بالابتعاد عنهما خشية على حياته .

أما عن نظم البلاط وما يتبع في إقامة الولائم والحفلات ، فإن المغول في أول أمرهم لم يعرفوا عن ذلك شيئاً يذكر ، إنما كانت طريقتهم ساذجة بسيطة كحياتهم .

وقد سبق أن عرفنا كيف كان المغول يحتفلون بتنصيب الخان الجديد في القوريلتاي الذي يعقدونه لهذا الغرض ، وكيف كانوا يجلسون للأنس والشراب ، ويهيئون الطعام ، ويقدمون القرابين على روح چنگيزخان . وكان أغرب ما فعلوه في هذا السبيل هو أنهم اختاروا أربعين فتاة عذراء

---

(١) الدكتور مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، ص ٦٩ .

كلهن بارعات في الجمال ، ومن نسل الأمراء والنبلاء . ثم ألبسوهن أفخر الثياب وزينوهن بأقيم أنواع الجياد . ولكنهم قتلوهن في النهاية ، كما قتلوا جيادهن معتقدين أن في ذلك الإجراء إرضاء لروح جنكيز . يذكر براون أن وثنية المغول كانت تظهر في أمور تثير النفوس كاختيارهم للفتيات الحسناوات ، ثم قتلهن وتقديمهن قرباناً لروح الأباطرة ، وكقتل جميع الذين يصيبهم الحظ النكد بأن يصادفوا جنازة الإمبراطور أثناء نقلها إلى مقرها الأخير خشية أن يتسرب نبأ موته قبل إعلانه رسمياً[١]. ويروى « دوسون » D'Ohsson أن الجند الذين رافقوا جثة « منكوخان » إلى مقرها الأخير في جبال آلتاي ، قتلوا أثناء الجنازة ما لا يقل عن ٢٠٠٠ شخص[٢].

وعندما يريد الخان أن يتعطف على أحد من رعاياه ، ويرغب في تكريمه ، فإنه يسلمه بنفسه كأساً من النبيذ أو القميز فيتناول هذا الشخص الشراب ، ويؤدي التحية ؛ وذلك بأن يبرك على إحدى ركبتيه[٣] ، ثم يشرب ما في الكأس دفعة واحدة .

وكان المغول يقدرون الأشخاص الذين يؤدون لهم خدمات جليلة ، أو يقدمون لهم مساعدات قيمة في أوقات المحنة والشدة . واعترافاً بهذه المنّة ، كانوا يعنون بمثل هؤلاء الأشخاص ، ويتعطفون عليهم . وهذا العطف والتقدير يسمى بالمغولية « سيورغاميشى » ، ويهبونهم الأراضي والأملاك ليستغلوها ، ولينتفعوا بما تدره عليهم ، ثم تئول تلك الأملاك

---

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ، ص ٥٦٧ .

(٢) D'Ohsson : Histoire des Mongols, Vol, I. p. 384.

(٣) يعبرون عن ذلك بقولهم « چوك زدن » . يقول النويري : « ضربوا چوك ، وهو الخدمة عندهم ، وكيفيته أن يبرك الرجل منهم على إحدى ركبتيه ، ويشير بمرفقه إلى الأرض . وهذه الخدمة عندهم غاية التعظيم . (انظر كاترمير في حواشي كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين ، نقلا عن كتاب نهاية الأرب للنويري ، ج ٢٦) .

إلى أعقابهم بالوراثة ، ويعرف هذا في المغولية بما يسمى « سيورغال » . وأحياناً كانوا يعطونهم لوحات شبيهة بالميداليات في العصر الحديث ، وهي من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب مقام كل شخص ، ويطلقون على هذه اللوحة اسم « پايزه » ، وهي في حجم كف اليد ، وينقش عليها اسم الله واسم الخان ، وأسمى الأنواع منها ما كانت تزينها صورة الأسد .

أما إذا شك الخان في أحد أتباعه ، فإنه يحيله إلى المحاكمة التي يقال لها « يرغو » ، ويستعد القضاة « يرغوچيان » لمحاكمته . على أن الرحل كانوا في الغالب يعترفون بذنوبهم عند اتهامهم بالجرائم . وكان المغول على وجه الخصوص يحبون الصراحة ويكرهون الكذب . ويبدو أن نزعة الصراحة هذه ظلت ملازمة للمغول وقتاً ما بعد أن كونوا إمبراطوريتهم الواسعة . والياسا لا تعد المرء مذنباً إذا لم يعترف بذنبه ، إلا إذا قبض عليه ، وهو متلبس بالجريمة . ويجب ألا ننسى أن المرء بين المغول — وهم شعب أمي — يؤخذ بقوله ويلزم عليه .

نظم المغول الإدارية والحربية :

بعد أن أخضع چنگيزخان جميع قبائل المغول والتتار ، بدأ ينظم إدارة إمبراطوريته ، فخصص عشرة وظائف لمباشرة شئون البلاد الإدارية والعسكرية . وقد أورد كتاب الحماسة[1] بعض التفصيلات عن هذه الوظائف .

---

(١) يسمى هذا الكتاب « يوان چاه وي شي » يعني التاريخ السري لأسرة يوان . وهذا الكتاب باللغة الصينية ، ويحتوي على الأساطير المغولية . وقد ترجمه إلى الروسية « پالاديوس » Palladius (انظر دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ص ١٤٠ ، مادة چنگيزخان . وقد استفاد المستشرق الروسي بارتولد بالكتاب المذكور عندما تحدث عن هذا الموضوع في كتابه « تركستان حتى الغزو المغولي » . (انظر ص ٣٨٢ وما بعدها) . وقد اقتبسنا منه أهم المعلومات التي ذكرها .

كان يعهد بكل وظيفة إلى شخص أو إلى عدة أشخاص ، وذلك على النحو التالي :

١ ـ أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس . وفيما بعد أطلق على الشخص الذي يقوم بهذه المهمة اسم قورچى » .

٢ ـ ثلاثة أشخاص يقومون بالإشراف على الطعام والشراب . وبعد مدة صار القائم بأعباء هذه الوظيفة يعرف باسم « باورچى » .

٣ ـ شخص واحد يقوم بتهيئة المراعي للأغنام .

٤ ـ شخص واحد لإعداد العجلات الحربية ووسائل الحمل والنقل .

٥ ـ شخص واحد يعهد إليه بالإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان ، ويسمى « چربي » :

٦ ـ أربعة أشخاص لتناوب الحراسة ، وحمل السيوف . وكان « كاسار » أخو جنگيز رئيساً لتلك الطائفة .

٧ ـ اثنان يقومان بالمحافظة على الخيول والعناية بها . ومن ثم صار يطلق على الشخص المكلف بهذا العمل اسم « أختَه چي » . وكان بيلكو تاى أخ آخر لجنگيز هو أحد هذين الشخصين .

٨ ـ ثلاثة أشخاص يكلفون بالمحافظة على مراعي الخيول والمواشي .

٩ ـ أربعة أشخاص يلقبون بالسهام القريبة والبعيدة . وهؤلاء يعهد إليهم بتبليغ أوامر الخان إلى القريب والبعيد .

١٠ ـ اثنان من النبلاء يعهد إليهما بالمحافظة على النظام في اجتماعات المغول .

هذا وقد اختار جنگيزخان جماعة من حرسه الخاص ، كان يطلق على كل منهم اسم « كشيكچي » (كلمة مغولية معناها النوبة) منهم ثمانون شخصاً لنوبة الليل ، وسبعون لنوبة النهار . وكان لإنشاء نظام الحرس الخاص أهمية كبيرة في النجاح الحربي الذي أحرزه المغول . وعندما اكتمل عدد

هؤلاء الحراس ، كانوا يبلغون عشرة آلاف رجل ممن عرفوا بالحذر واليقظة وشدة البأس . وقد وكل إليهم النظر في أدق التفاصيل الخاصة بمعسكر الخان . وكان جنود هذا الحرس يؤلفون في الإمبراطورية المغولية طبقة ارستقراطية ممتازة ؛ لأن الجندي في هذه الكتيبة يكون أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الفرق الأخرى .

وقد اختيرت فرقة خاصة من هؤلاء الحرس ، مكونة من ألف رجل هم نخبة المحاربين ، ويطلق على كل منهم اسم « بَهَادُرْ » أي مبارز وشجاع . وهذا الفريق يقوم على خدمة الخان مباشرة ، ولا يخرج إلى الحرب إلا إذا كان الخان نفسه مع جيشه في ميدان القتال . وكان النظام مرعياً بينهم إلى أقصى حد ؛ فإذا تأخر أحدهم عن الحضور في نوبته ، كان يجلد ثلاث جلدات أول الأمر ، فإذا عاد إلى هذا التقصير مرة ثانية ، فإنه يجلد سبعين جلدة . وأما في المرة الثالثة ، فإنه يفصل بعد أن يجلد سبعين جلدة . ومثل هذه العقوبة توقع أيضاً على الرئيس الذي يغفل مراقبة مرءوسيه . ولم يكن في استطاعة أي ضابط تنفيذ الحكم بالإعدام على من هم أدنى مرتبة منه إلا بعد أن يؤيد الخان هذا الحكم .

وكان معظم قواد جنگيزخان من حرسه الخاص ، فهو يعرفهم جيداً ، ويخضعهم لأحكامه القاسية ، وهم يطيعونه طاعة عمياء . وكذلك كان جنودهم آلة طيعة في يد الخان يوجههم أينما شاء .

وفيما يتعلق برتب الرجال والمقربين إلى جنگيزخان ، يمكننا أن نقول إن طبقة الأمراء من أسرته ، تأتي في المقدمة . ويقال لهؤلاء « نُويَنْ » أو « نويان » . أما أشراف الجند ، فكان يلقب كل منهم بلقب « تُرخان » . وهؤلاء يتمتعون بجملة امتيازات ؛ إذ يعفون من الضرائب ، ولهم الحق في الاستيلاء على الغنائم التي يحصلون عليها في الحروب ، ويباح لهم دخول بلاط الخان دون استئذان ، ويُقَدَّمون في الحفلات . ويتناول كل منهم كأساً من الشراب من يد الخان نفسه .

وكان اهتمام چنگيزخان بالجيش يأتي في المقدمة ، فأضحى لديه جيش ضخم، حرص على تنظيمه تنظيماً دقيقاً. وكان كل أفراد القبيلة الذين يتراوح عمرهم بين الرابعة عشرة سنة والستين يلتزمون بالخدمة العسكرية وفقاً للعرف المغولي التركي[1] .

وفي الحقيقة كان كل مغولي مجنداً في خدمة دولته، ومستعدا لحمل السلاح وخوض غمار القتال إذا ما أشار عليه چنگيزخان بذلك. وكان جهاز الجيش المغولي مقسماً إلى فرق كبيرة، يتكون كل منها من عشرة آلاف رجل (تُومان) ثم يتدرج هذا التقسيم إلى فرق أقل في العدد، فنرى فرقاً من ألف ، وأخرى من مائة ، وفرقاً من عشرة، ويرأس كل فرقة قائد من القواد على أن يأتمر الجميع بأمر چنگيزخان. وقد تعلم القواد والجنود كيف يمسكون ألسنتهم عن الكلام، ويسترشدون في النهار بإشارات البيارق المستطيلة المرفوعة على الرماح، وفي الليل بعلامات المصابيح الملونة . وهكذا كان من النادر أن ترى أو تسمع الواحد منهم، حتى ينقضوا جميعاً على العدو كالإعصار[2].

وكان أساس الترقية من رتبة إلى رتبة أعلى ، هو المقدرة والكفاءة وحدهما دون النظر إلى أي اعتبار آخر. يقول براون : « ربما اقتصرت فضائل المغول على مزاياهم الحربية؛ فقد كانوا يمتازون بالنظام والخضوع وطاعة الرؤساء. وكانت الترقية عندهم قاصرة على من يكون جديراً بها لكفاية أو دراية . وكان الفاشل في أداء الواجب، أو الخارج على النظام ، أو العاجز عن القيام بما وكل إليه، يعاقب بالموت هو وزوجته وأولاده . وإذا غضب إمبراطور المغول لأمر ارتكبه قواده، فإنه كان يأمر بعقابه علناً أمام سائر جنده، وربما وكل أمر عقابه إلى رسول بسيط من رسله »[3].

---

(١) انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، الترجمة العربية ، ج ٣ ، ٤١٧ .
(٢) انظر هارولد لام : چنگيزخان وجحافل المغول، الترجمة العربية ، ص ٤٠ .
(٣) براون: تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ، ص ٥٥٣ .

كذلك كان المغول يقسمون جيوشهم إلى قلب (قُول) وجناحين: أيمن وأيسر. وكانت قوات الوسط تتكون من فرق أمامية وأخرى خلفية. ولما كانت الفرق الأمامية أكثر تعرضاً لهجوم الأعداء، كان جنودها يلبسون دروعاً كاملة، ويحملون السيوف والحراب، ويغطون خيولهم بدروع تناسبها. أما أفراد الفرق الخلفية، فكانوا يكتفون بما يحملون من أسلحة كالقوس والنشاب، ليسهل عليهم التنقل من مكان إلى آخر[1].

ولما كان المغول يعتقدون بأن الجهة الجنوبية هي أحسن الجهات وأكثرها بركة، فإنهم كانوا يولون وجوههم شطر الجنوب عند اصطفافهم. ولا يستطيع أي جندي الانتقال من فرقته إلى فرقة أخرى. وإذا حاول شخص ذلك؛ فإنه يقتل، كما يعاقب الشخص الذي سمح له بالانتقال[2].

وكان أكثر جنود جنگيزخان من الفقراء والمحتاجين، حتى يكونوا أكثر طاعة وأقدر على الكفاح، وأحرص على النصر. ويؤيد الجويني وجهة نظر المغول في اختيار هذه الخطة فيقول: «إن السباع لا تصطاد ولا تقصد أي حيوان، إلا إذا أحست بالجوع. وقد جاء في أمثال العجم: لا يتأتى الصيد من الكلب الشبعان. وقيل أيضاً: أَجِعْ كلبك يَتْبَعْك»[3].

وعند تحرك الجيش، كان جنگيزخان يصدر أوامره إلى الجنود بحمل ما يحتاجون إليه من أسلحة وغذاء، حتى الإبر والخيوط، كانوا يحضرونها لاستعمالها عند الحاجة. ولا تخلو جعبة الجندي المغولي من عدد كبير من أوتار القسي، ومعها إبرة وشمع لإصلاحها، ومبرد لسن أطراف النبال. ويضع المغول أسلحتهم وأمتعتهم في جعبات من الجلد، يمكن نفخها ليستعينوا بها على اجتياز الأنهار. فإذا جاء يوم العرض، واتضح أن أحد

---

(١) حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢١٥.
(٢) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، ج ١، ص ٩٠–٩١.
(٣) الجويني: تاريخ جهانگشاي، ج ١، ص ٢٢.

الجنود قد نسي أن يأخذ شيئاً من هذه الأشياء حتى ولو كانت تبدو تافهة ، فإنه لا ينجو من العقاب .

ويقضي النظام التتري بالطاعة التامة ، وينكر أن يهرب واحد من صفوف الجند ، أو يترك زميلاً عاجزاً أو أسيراً في يد الأعداء دون أن يقدم على إنقاذه . ونساء المغول يتمتعن بحرية كبيرة ، ويحاربن مثلما يحارب الرجال[١] .

ولما كانت ممالك المغول متسعة ، وجيوشهم ورسلهم تزرع البلاد ذهاباً وجيئة ، أعد المغول محطات للبريد (يام) ، فكانت حلقة الاتصال بين الطرق جميعها . وفي كل محط كان يُحْتَفَظُ بقطيع من الخيول الاحتياطية . كما كان يعسكر حراس الطرق المسلحون إلى جوار مراحات المحط ، للمحافظة على الأمن ، وليطهروا الطرق من الأعداء . وكانت تتهادى القوافل التي لا حصر لها عند مرورها بهذه المحطات ، وهي تحمل الفضة والثمين من البضائع إلى مواطن المغول . ومن هذه المراحات تتزود القوافل ، ويستريح فيها المسافرون من عناء السفر حيث يجدون كل ما يلزمهم من أكل وشرب وعلف لدوابهم . كذلك كان يمر بهذه المحطات في الاتجاه المضاد ، الراحلون من فرق الشباب المحاربين المتلهفين على الانضمام إلى الجيش ؛ فقد كانوا يحسدون رجال الحرب المحنكين العائدين إلى الوطن ، وهم محملون بالغنائم من سيوف وجواهر ودروع .

كذلك عند هذه المراحات الملحقة بالمحطات ، كان يتوقف رسل الخان الذين تتدلى من مناطقهم أجراس صغيرة تنذر السامعين بقدومهم . وكان هؤلاء الخيالة المتعجلون يحملون أنابيب من ذهب شدت إلى مناطقهم ، ولفت بداخلها أوراق تحمل أوامر مكتوبة عليها خاتم الخان . وكان من

---

(١) الدكتور أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ١٤٦–١٤٧.

حتى سعاة الخان نفسه ، أن يوقفوا أي مسافر حتى ولو كان قائداً أو ترخانا ليأخذوا جواده لإتمام مهمتهم . وكانوا يقطعون مائة وخمسين ميلاً في اليوم من غير أن يذوقوا للراحة طعماً . وكان على أي راكب آخر أن يفسح لهم الطريق عند مروقهم كالسهم ، وهم يصيحون « في خدمة الخان العظيم » .

الطرق التي يتبعها المغول في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين :

قبل أن يقوم المغول بغزو إقليم من الأقاليم ، كانت تطرح الخطة الحربية — التي سوف يتبعونها — على بساط البحث في جلسة « القوريلتاي » حتى إذا ما استقر الرأي على الغزو ، أطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو ، فيجمعون الأخبار من هنا وهناك ، ويستقصون حالة الجيش ، ويختبرون حصون المدن ، ثم يعودون بهذه المعلومات إلى بلادهم ، ويطلعون قادة الجيش عليها .

بعد ذلك يرسل الخان رسلاً من قبله إلى حكام الأقاليم وسكان المدن يدعونهم إلى التسليم والنزول على طاعته . وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقى الفزع في نفوس سكان البلاد التي يزمعون الإغارة عليها . وكانت قلوبهم تنخلع رعباً وفزعاً حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد : « ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام ، والله وحده هو الذي يعلم ما هو نازل بكم »[1] . فإذا رفضوا التسليم ، وأصروا على المقاومة ، تقدم المغول لمحاربتهم ، حتى إذا ما شارفوا أبواب المدينة ، دعوا الناس للمرة الأخيرة إلى الدخول في طاعتهم ؛ فإذا خرج عظماؤهم وذوو الرأي فيهم ، وحملوا إليهم الهدايا والتحف (ترغو) ، وقبلوا تزويد الجيش المغولي بما يحتاج إليه من مؤن ، فإن المغول لا يتعرضون

---

(١) الجويني : تاريخ جهانكشاي ، ج ١ ، ص ١٨ .

لهم بالأذى ، ويكتفون بأن يرسلوا إلى المدينة حاكماً من قبلهم . ثم يصدر الخان « يرليغا »[1] بذلك حتى يكون لهذا الحاكم الاحترام والمهابة في النفوس . وهذا اليرليغ يكون مختوماً بخاتم الخان « تمغا » ، وهو مكتوب إما بالمداد الأسود « قراتمغا » وإما بماء الذهب « التون تمغا » . والشخص المكلف بختم اليرالغ يقال له « تمغاجي »[2] . وكان التسليم في هذه الحالة معناه التبعية المطلقة ، وتسليم عشر خيرات الإقليم أو المدينة .

أما إذا اتخذ السكان طريق العصيان ، وسلكوا سبيل المقاومة ، وخسر المغول خسارة قليلة أمام المدينة المحاصرة ، فإنهم لا يعقدون مع أهلها صلحاً في حالة عجزهم عن مواصلة القتال واضطرارهم إلى التسليم ، بل يصدر الخان أوامره بقتل جميع السكان ، لا فرق عنده بين صغير وكبير ، ولا بين رجل وامرأة . كذلك يأمر قواته بتخريب المدينة ، وإباحة القتل العام . والطريقة المتبعة في ذلك ، أن يدعو المغول الأهالي للخروج إلى ظاهر المدينة ، ويبقوا على الصناع وأرباب الحرف . وبعد ذلك يرسلونهم إلى تركستان ومنغوليا ، ويختارون من بين الأسرى من يصلح للقتال ، فيكونون منهم قوات غير نظامية ، يطلقون عليها اسم « حَشَر » ، ثم يعملون سيوفهم في الباقين . فإذا أصر أهالي المدينة على المقاومة ، رغم فرض الحصار عليها مدة طويلة ، فإن المغول يهاجمونها ويستولون عليها عنوة . أما إذا التقى المغول بجنود أعدائهم في أرض سهلة ، فإنهم يهاجمونهم ليلاً ونهاراً حتى ينهكوا قواهم ، وتكون النتيجة إما أن يستسلموا لهم ، وإما أن يلوذوا بالفرار . وبعد المعركة كان الخان يعطي كل محارب من جنوده نصيباً عادلاً من الغنائم والأسلاب ، كما كان يترجل عن حصانه ليعطيه من هو في حاجة إليه .

---

(١) اليرليغ : كلمة مغولية معناها المرسوم ، والجمع « يرالغ » يقول القلقشندي : « اليرالغ » هي المراسيم (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٢٣) .

(٢) انظر عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، ج ١ ، ص ٩٢ .

وإذا اضطر المغول إلى عبور الأنهار ، ولم تكن هناك سفن للقيام بهذه المهمة ، فإنهم يلجأون إلى طريقة عجيبة ، استخدموها بالفعل عندما أرادوا أن يعبروا نهر جيحون ؛ إذ صنعوا أحواضاً من الخشب ، كسوا جدرانها بجلود البقر حتى لا ينفذ منها الماء ، ووضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم ، ثم ألقوا خيولهم في الماء ، وأمسكوا بأذنها بعد أن ربطوا الأحواض الخشبية إلى أجسامهم ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة .

وكانت طريقة القتال التي سلكها المغول في جميع البلاد المتحضرة : (الصين ، غرب آسيا ثم في الروسيا من بعد) — واحدة على الدوام ؛ فقد كانوا في كل مكان يسوقون سكان القرى العزل أفواجاً لشد أزرهم في حصارهم للمدن الحصينة . واعتاد المغول عند اقتحام الحصون أن يجعلوا هؤلاء السكان التعساء في المقدمة ، لكي يتلقوا هم السهام المنهالة عليهم ، وليمهدوا الطريق للجيش الذي يتبعهم . وكانت الأعلام في بعض الأحيان توزع عليهم لإيهام العدو بأن الجيش وافر العدد . ويقال إن عدد المغول عند حصار خجند ، كان عشرين ألفاً فقط ، بينما كان عدد الأسرى الذين أجبروا على مصاحبة الجيش خمسين ألف نسمة[1] .

كذلك كان هؤلاء الأسرى يكلفون بحفر الخنادق ، ونصب أدوات الحصار ، وما يراه المغول ضرورياً من الأعمال الحربية العنيفة الشاقة . والأسرى المغلوبون على أمرهم من جراء ذلك معرضون للأخطار الجسيمة ، دون أن يجدوا سبيلاً للفرار ؛ إذ أن أعين المغول من ورائهم ساهرة عليهم . حتى إذا ما أنهك الأسرى قوى أعدائهم ، يجيء دور المغول للإجهاز عليهم . وصدق المؤرخ « ابن الأثير » حين قال : « وكانت عادتهم

---

(١) انظر بارتولد : دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، المجلد السابع ، العدد الرابع ، ص ١٣٧ ، مادة چنگيز خان .

إذا قاتلوا مدينة ، قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم ، يزحفون ويقاتلون ، فإن عادوا قتلوا . فكانوا يقاتلون كرهاً ، وهم المساكين كما قيل كالأشقر ، إن تقدم يُنْحر ، وإن تأخر يعقر ، وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين ، فيكون القتل في المسلمين الأسارى ، وهم بنجوة منه »(١) .

كذلك برع المغول في الالتجاء إلى وسائل الخداع والتمويه ، فكانوا إذا حاصروا مدينة من المدن ، وطال حصارهم لها دون جدوى ، تظاهروا برفع الحصار عنها ، والعودة من حيث أتوا ؛ حتى إذا اطمأن أهالي المدينة إلى رحيل أعدائهم ، وألقوا سلاحهم ، عاد إليهم المغول ، وانقضوا عليهم فجأة قبل أن يستعدوا فتسقط المدينة في أيديهم على الفور .

وبعد !... فإذا كان چنگيزخان قد تنبأ بأن أحفاده سينسون — يوماً ما — حياة البداوة ، وسيحيون حياة أهل الحضر ؛ فإن نبوءته قد تحققت تماماً .

ففي أقصى بلاد الفرس ، لم يشأ « هولاگو » حفيد چنگيزخان الذي يحكم هناك ، أن يترك فخامة بلاطه ، ويرحل عائداً إلى بلاط الخان العظيم في الصحراء . وكان هذا شأن « باتو » أيضاً ، فقد آثر البقاء مع قبيلته الذهبية على ضفاف نهر الفلجا .

وبالرغم من أن الجيوش التي كان يقودها المغول قد أصبحت أعظم من ذي قبل ، فإن أسرة چنگيزخان لم تعد متماسكة . فقد وطن جميع الأحفاد أنفسهم على أن يتخذوا قراراتهم وفق مشيئتهم ، وعلى أن يندمج كل منهم في حضارة الشعب الذي يحكمه .

ولما تولى قوبيلاي منصب الخان الأعظم ، هجر الصحراء ، وذهب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٣٧ .

ليعيش في قلب بلاد الصين . وبعد أن استوطن «خان باليغ» (پكين) حيث القصور الفخمة التي شيدها ، داخل السور العظيم ، أصبح أقرب شبهاً بالصينيين ، غريباً عن أقاربه وأهله .

وهكذا تفرق أمراء المغول ، بعد أن كانوا وحدة متماسكة ، ودب النزاع والقتال بينهم . وأكثر من هذا ارتدوا إلى أديان مختلفة . فاعتنق الديانة البوذية من كانوا في الصين ، والإسلام من كانوا في إيران ، في حين تبع السحرة المشعوذين واللامات من بقوا في الوطن المغولي الأصلي ، كما تفعل سلالتهم الآن .

حقاً لقد أثبتت الحضارات الخارجية أنها أقوى من سلطة المغول الهمجية[1] .

تَمَّ بِعَوْنِ الله

---

(١) هارولد لام : چنگيز خان وجحافل المغول ، الترجمة العربية ، ص ١٥٥ – ١٥٦

مراجع الكتاب

أولاً — المراجع العربيـــة

ابن أبي الفضائل : مفضل (ت ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م) .

(١) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد . نشر بلوشيه ، باريس ١٩١١ ، ١٩٣٠

ابن الأثير الجزري : علي بن أحمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م) .

(٢) الكامل في التاريخ ، طبعة المطبعة الدمشقية والمكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٤٨ — ١٣٥٨ هـ .

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجى (ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) .

(٣) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، نشر دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م .

ابن خلدون : قاضي القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) .

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، يعرف بتاريخ ابن خلدون ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م).

(٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ م.

ابن شاكر الكتبي : فخر الدين محمد بن أحمد الكتبي (ت ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م).

(٦) فوات الوفيات ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥١ م.

ابن طباطبا : محمد بن علي المعروف باسم ابن الطقطقي (ولد في سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م).

(٧) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م.

ابن العبري : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م).

(٨) تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨.

ابن عربشاه :

(٩) عجائب المقدور في أخبار تيمور ، نشر مانجر ، طبع هولندا ، ١٧٧٢ م.

(١٠) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، بولاق ١٢٧٦ هـ.

ابن الفوطي : كمال الدين عبد الرزاق (ت ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م).

(١١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، نشر مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١ هـ.

ابن القلانسي : (ت ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م).

(١٢) ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤ هـ = ١٣٧٢م)
(١٣) البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ١٣٥١ – ١٣٥٨ = ١٩٣٢ – ١٩٣٩ م .
ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م) .
(١٤) تتمة المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٢٥٨ هـ = ١٨٦٨ م .
أبو شامة : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن شهاب الدين المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ ١٢٦٨ م) .
(١٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
(١٦) الذيل على الروضتين ، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان : « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » . القاهرة ١٩٤٧ .
أبو الفدا : إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٢١ م) .
(١٧) المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .
أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ب ٨٧٤ هـ = ١٨٩٦م)
(١٨) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ١٢٢٩هـ = ١٩٤٠ م .
أبو يصير : صالح مسعود .
(١٩) جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، بيروت ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٨ م .
إصفهاني : محمد باقر
(٢٠) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، طهران ١٣٠٦ هـ.
بارتولد : و (ت ١٩٢٧ م).
(٢١) تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، نقله إلى العربية ، الدكتور أحمد السعيد

سليمان ، القاهرة ١٩٥٨ .
براون : ادوارد جرانفيل (ت ١٩٢٦ م) .
(٢٢) تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدى ، ترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ، القاهرة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م.
بروكلمان (كارل) :
(٢٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ١٩٤٩
البنداري :
(٢٤) تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م .
جمال عبد الناصر : الرئيس .
(٢٥) الميثاق الوطني ، طبع مصلحة الاستعلامات بالقاهرة .
حافظ حمدي :
(٢٦) الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ١٩٤٩ .
(٢٧) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، القاهرة ١٩٥٠ .
حسن إبراهيم حسن (دكتور) وعلي إبراهيم حسن (دكتور) :
(٢٨) النظم الإسلامية ، القاهرة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م) .
الديار بكري : (ت٩٦٦ هـ ــ ١٥٥٨ م) .
(٢٩) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، القاهرة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م.
الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م).
(٣٠) دول الإسلام ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد الدكن ١٣٣٧ هـ .

رشيد الدين : فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير ين موفق الدولـــة (ت ٧١٨ هـ = ١٣١٨ م) .

(٣١) تاريخ الغازاني باللغة العربية . صور شمسيه بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٨٨٩ تاريخ .

(٣٢) جامع التواريخ ، تاريخ المغول ، المجلد الثاني – الجزء الأول : تاريخ هولاكو مع مقدمة كاترمير ، نقله عن الفارسية الأستاذ محمد صادق نشأت ، الأستاذ الدكتور محمد موسى هنداوي ، الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسيـــة الدكتور محمد محمد القصاص ، القاهرة ١٩٦٠ .

رنسيمان : ستيفن .

(٣٣) تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، بيروت ١٩٦٩ .

زيدان : جرجي .

(٣٤) تاريخ آداب اللغة العربية ، نشر دار الهلال ، القاهرة ١٩٥٧ م .

السرنجاوي : عبد الفتاح .

(٣٥) النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٥ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور) .

(٣٦) العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .

سيديو :

(٣٧) تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٨ .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ين محمد (ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) .

(٣٨) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميـــد ، القاهرة ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م .

الشواربي : إبراهيم أمين (دكتور) .
(٣٩) العربية في إيران ، بحث نشر في حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس (إبراهيم باشا الكبير سابقاً) المجلد الأول ، سنة ١٩٥١ .

العبادي : أحمد مختار (دكتور) .
(٤٠) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ .

عبد النعيم حسنين : (دكتور) .
(٤١) سلاجقة إيران والعراق ، المكتبة التاريخية ، رقم ٧ ، القاهرة ١٩٥٩.

العدوى : إبراهيم أحمد (دكتور) :
(٤٢) العرب والتتار ، المكتبة الثقافية ، رقم ٨٨ ، القاهرة ١٩٦٣ .

العريني : السيد الباز (دكتور) .
(٤٣) المغول ، بيروت ١٩٦٧ .

العزاوى : عباس .
(٤٤) تاريخ العراق بين احتلالين ، الجزء الأول (حكومة المغول) ، بغداد ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م .

علي إبراهيم حسن : (دكتور) .
(٤٥) دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد ، بوجه خاص ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٨ م .

فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور) :
(٤٦) مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله الهمذاني، القاهرة ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٧ م .

فيليب حتي : (دكتور) ، ادورد جرجي : (دكتور) ، جبرائيل جبور : (دكتور) .

(٤٧) تاريخ العرب (مطول) ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٦٥ .
القزويني : زكريا بن محمد بن محمود .
(٤٨) آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر وستنفلد Wustenfeld ، طبع جوتنجن ١٨٤٨ م .
القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) .
(٤٩) صبح الأعشي في صناعة الإنشا ، القاهرة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ .
لسترانج : ج .
(٥٠) بغداد في عهد الخلافة العباسية ، نقله إلى العربية بشر يوسف فرنسيس ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م .
محمد محمدي : (دكتور) .
(٥١) الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه ، بيروت ١٩٦٧ .
مصطفى طه بدر : (دكتور) .
(٥٢) محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، الجيزة ١٩٤٦ م .
المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) .
(٥٣) الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبع بمطبعة الساحل الجنوبي = الشيّاح ، بيروت ١٩٥٩ .
(٥٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٣٥٣ – ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٤ – ١٩٣٩ م .
كريستنسن : أرثر (ت ١٩٤٥ م) .
(٥٥) إيران في عهد الساسانيين ، نقـــله إلى العربية الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧ .

كوپريلي : محمد فؤاد .
(٥٦) قيام الدولة العثمانية ، ترجمه وقدم له الدكتور أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٦٧ .

النخجواني : هندوشاه بن سنجر بن عبدالله الصاحبي .
(٥٧) تجارب السلف (الخواجه نظام الملك) ، ترجمة الدكتور أحمد ناجي القيسي ، مستل من مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ، العدد الرابع – آب ١٩٦١ .

النسوي : نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي.
(٥٨) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي ، القاهرة ١٩٥٣ .

النظامي العروضي السمرقندي :
(٥٩) چهار مقاله (المقالات الأربع) نقله إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م .

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م).
(٦٠) نهاية الأرب في فنون الأدب ، صور شمسية بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٥٤٩ ، معارف عامة .

هارولد لام :
(٦١) چنگيزخان وجحافل المغول ، ترجمة متري أمين ، القاهرة ١٩٦٢ .

وليم براد فورد هيوى :
(٦٢) طيار هيروشيما ، ترجمة أحمد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٦٩ .

ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩م) .
(٦٣) معجم البلدان ، نشر «وستنفلد» ، ليبزج ١٨٦٦ – ١٨٧٠ م .

ثانياً ــ المراجع الفارسية

إقبال : عباس
(٦٤) تاريخ مفصل إيران ، جلد أول : ازحملهٔ چنگيز تا تشكيل دولت تيمورى ، طهران ١٣١٢ ه.ش.

جامي : نور الدين عبد الرحمن (ت ٨٩٨ ه) .
(٦٥) ديوان كامل ، طهران ١٣٤١ ه.ش. .
(٦٦) نفحات الأنس (ألف سنة ٨٨١ ه) ، لكهنو ١٩١٥ م .

الجوزجاني : أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين (ت ٦٩٨ ه).
(٦٧) طبقات ناصرى (ألف في الفترة ما بين ٦٥٧ ــ ٦٥٨ ه) ، نشر وليم ناسوليس ومولوى خادم حسين ومولوى عبد الحي ، كلكته ١٨٦٤ م .

الجويني : علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت ٦٨١ ه) .
(٦٨) تاريخ جهانگشاي ، نشر وتصحيح العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني ، ليدن ١٣٢٩ ــ ١٣٥٥ ه = ١٩١١ ــ ١٩٣٧ م .

خوندمير : غياث الدين محمد بن همام الدين (ت ٩٤٢ ه) .
(٦٩) حبيب السير في أخبار أفراد البشر (ألف سنة ٩٣٠ ه) ، طهران ١٣٣٣ ه.ش.

رشيد الدين : فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة : (ت ٧١٨ هـ = ١٣١٨ م) .
(٧٠) تأريخ مبارك غازاني (داستان غازان خان) ، نشر كارل يان Karl Jahn ، هرتفورد بانجلترا ، ١٣٥٨ هـ = ١٩٤٠ م .
(٧١) جامع التواريخ ، جلد دوم در تاريخ پاد شاهان مغول از أوگتاي قاآن تاتيمور قاآن ، نشر بلوشيه Blochet ، ليدن ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م .
(٧٢) جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران) ، نشر كاترمير ، پاريس ١٨٣٦ م .
(٧٣) جامع التواريخ : جلداول ، از آغاز پيدايش قبايل مغول تاپايان دورهٔ تيمورقاآن ، نشر الدكتور بهمن كريمى ، طهران ١٣٢٨ هـ.ش = ١٩٥٩ م .

سعدى شيرازي : مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله (ت ٦٩٤ هـ) .
(٧٤) كليات ، نشر محمود علمي ، طهران ١٣٢٨ هـ.ش.

الشبانكارى : محمد بن علي بن الشيخ محمد بن الحسن بن أبي بكر .
(٧٥) مجمع الأنساب ، نسخة خطية بمكتبة الأستاذ سعيد نفيسي الخاصة بطهران ، تم نسخها في سنة ١٠٦٧ هـ.

قاضي ششترى : نور الله بن شريف المرعشى (ت ١١٠٩ هـ) .
(٧٦) مجالس المؤمنين (ألف سنة ١٠١٠ هـ) ، طهران ١٢٩٩ هـ .

قزويني : حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر .
(٧٧) تاريخ گزيده ، نشر الدكتور عبد الحسين نوائي ، طهران ١٣٣٦ — ١٣٣٩ هـ.ش.
(٧٨) نزهة القلوب ، نشر Le Strange ، ليدن ١٣٣١ هـ = ١٩١٣ م .

الكريم الآقسرايي: محمود بن محمد
(٧٩) مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ، نشر عثمان توران ، أنقره ١٩٤٤ .

ماركو پولو :
(٨٠) جهانگردى ماركوپولو ، ترجمة لوى عباسى ، طهران ١٣٣٤ هـ.ش.

ميرخواند : محمد بن خاوندشاه بن محمود (ت ٩٠٣ هـ) .
(٨١) روضة الصفا ، چاپ پنجم ، لكهنو ١٣٣٢ هـ = ١٩١٥ م .

نظام الملك (الخواجه) : أبو علي حسن بن علي .
(٨٢) سياست نامه (ألف سنة ٤٨٥ هـ) ، طهران ١٣٣٤هـ.ش.

وصاف الحضرة : أديب شرف الدين عبدالله بن فضل الله الشيرازي.
(٨٣) تاريخ وصاف ، بمباي ١٢٦٩ هـ .

ثالثاً ـــ المراجع الأوربية

Arnold:T.W.
(84) The Preaching of Islam, London, 1935.

Barthold:
(85) Turkestan Down tho the Mongol Invasion, London, 1928.

Bertold:Spuler.
(86) Die Mongolen In Iran, Leipzig, 1939.

Bretschneider:E.
(87) Mediaeval Researches from Eastern Aaiatic Sources, St Petersbourg, 1887.

Browne:E.G.
(88) A Literary History of Persia, Cambridge,1928.

Browne:Laurence E.
(89) The Eclipse of Christianity in Asia, Cambridge, 1933.

Camb. Med. Hist.
(90) Cambridge Medieval History, Vol, IV,VI.

D'Ohsson:M. Le Baron.
(91)Histoire des Mongols depuis Tchingiuz—Khan jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan, Paris, 1824.

Grousset : René.
(92) L'Empire des Steppees, Paris, 1948.
(93) Histoire des Croisades, T. III , Paris, 1936.

Hitti : Philip.
(94) The History of the Arabs, London, 1934.
(95)History of Syria, London, 1951.

Howorth : H.H.
(96)Hiotory of the Mongols, London, 1876.

Ivanow:
(97)Studies in the Early Persian Ismailism, Leiden, 1948.

Lamb:Harold.
(98)The Crusades, The Flame of Islam, London, 1931.

Lane Poole:Stanely.
(99) History of Egypt in the Middle Ages, London, 1935.

Pauthier :
(100) Le Livre de Marco Polo, Paris, 1865.

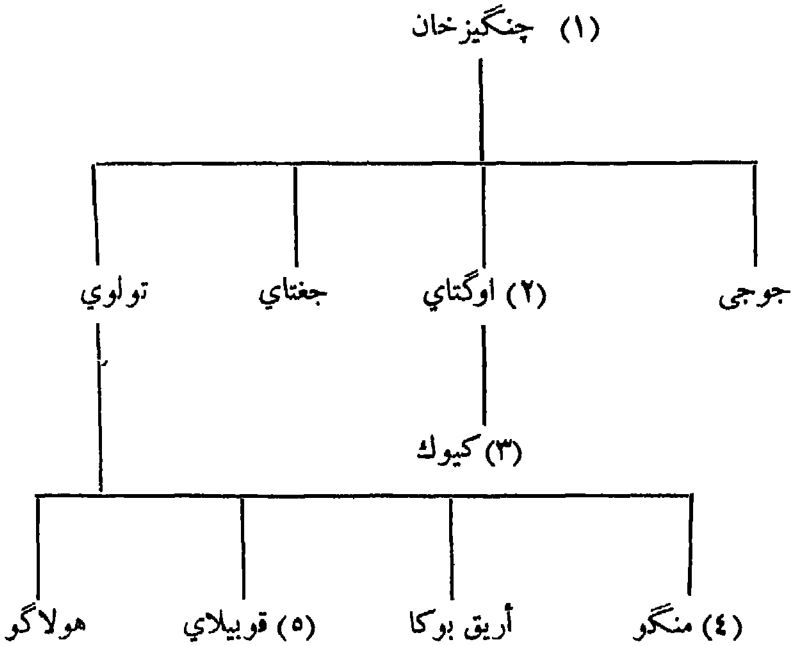
Quatermère:Etienne—Marc.
(101)Histoire des Mongols de la Perse, écrite en Persan par Raschid-ed-dine, traduite en Français, accompagnée des Notes et d'un mémoire sur la vie et les ouvrages de L'auteur, Paris 1836.

Stern:S.M.
(102) The Early Islamic Missionaries in North—West Persia and in Khur—san and Transoxania, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1960.

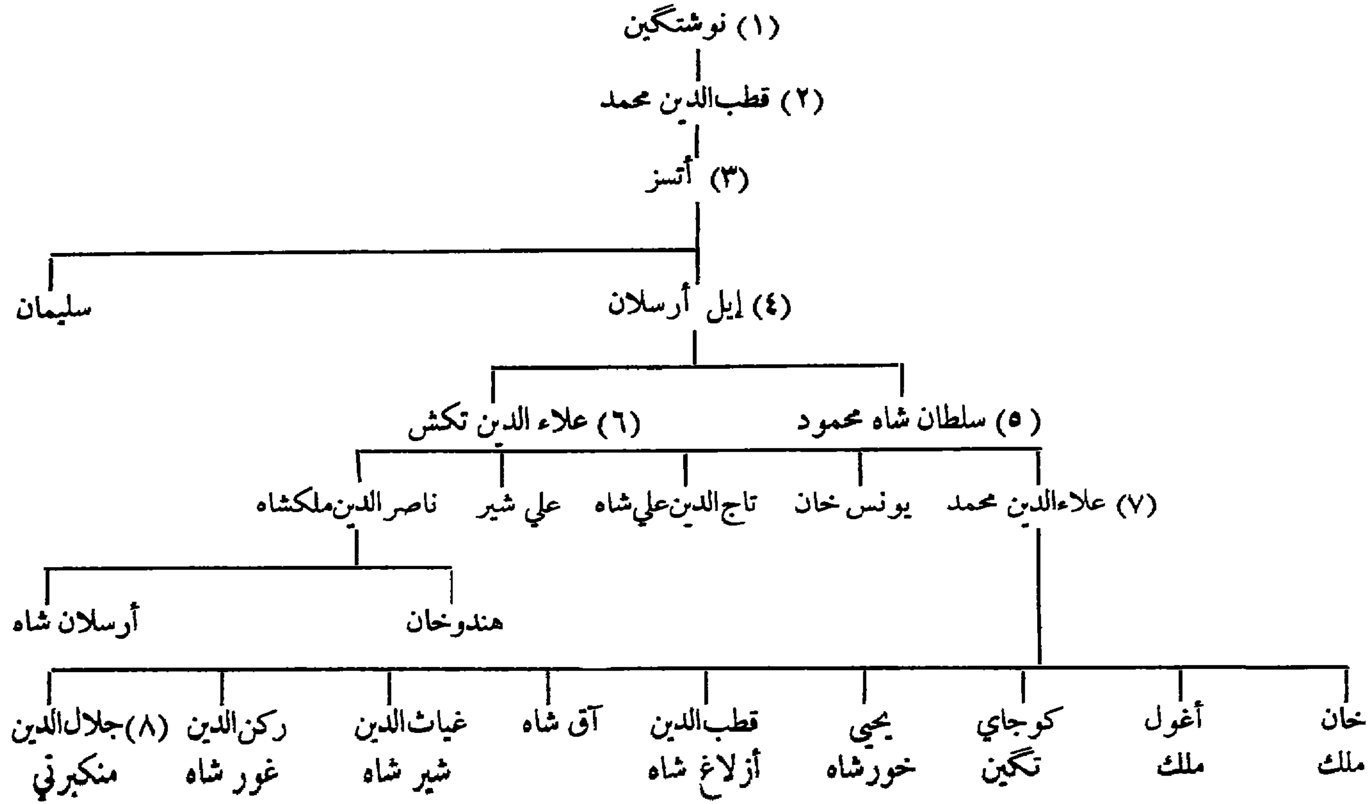
الجداول – الخرائط – الصور

أولاً ــ الجداول

خانات المغول



سلاطين خوارزم



حكام الاسماعيلية في ايران

(١) الحسن بن الصباح

(٢) كيا بزرگ أميد

(٣) محمد بن بزرگ أميد

(٤) الحسن بن محمد

(٥) محمد بن الحسن

(٦) جلال الدين بن محمد
(نو مسلمان)

(٧) علاء الدين محمد بن جلال الدين

إيران شاه — ركن الدين خورشاه — شاهنشاه

الخلفاء العباسيون

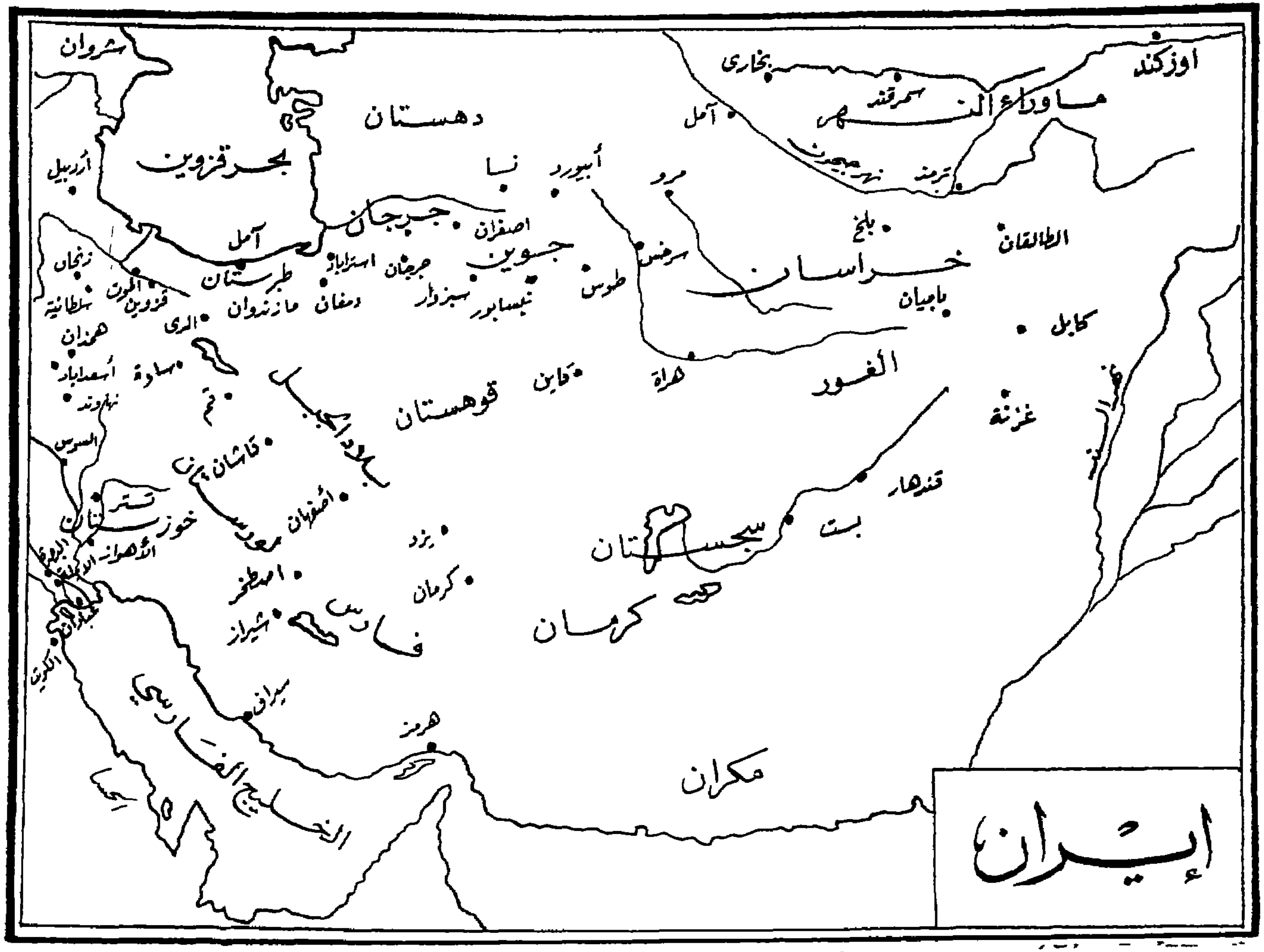
- (١) القائم
  - محمد
    - (٢) المقتدى
      - (٣) المستظهر
        - (٤) المسترشد
          - (٥) الراشد
        - (٦) المقتفي
          - (٧) المستنجد
            - (٨) المستضيء
              - (٩) الناصر
                - (١٠) الظاهر
                  - (١١) المستنصر
                    - (١٢) المستعصم

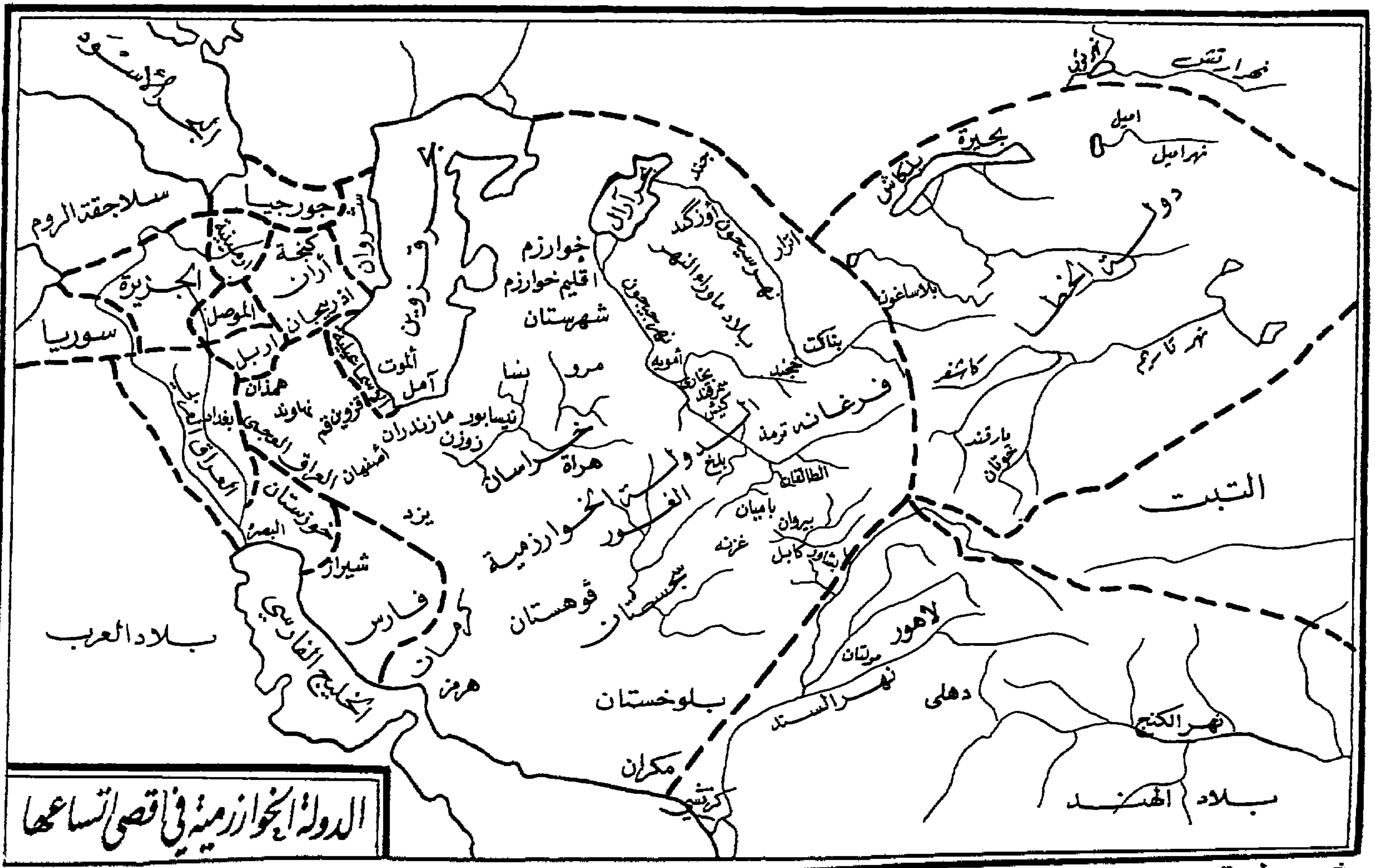
ثانياً — الخرائط

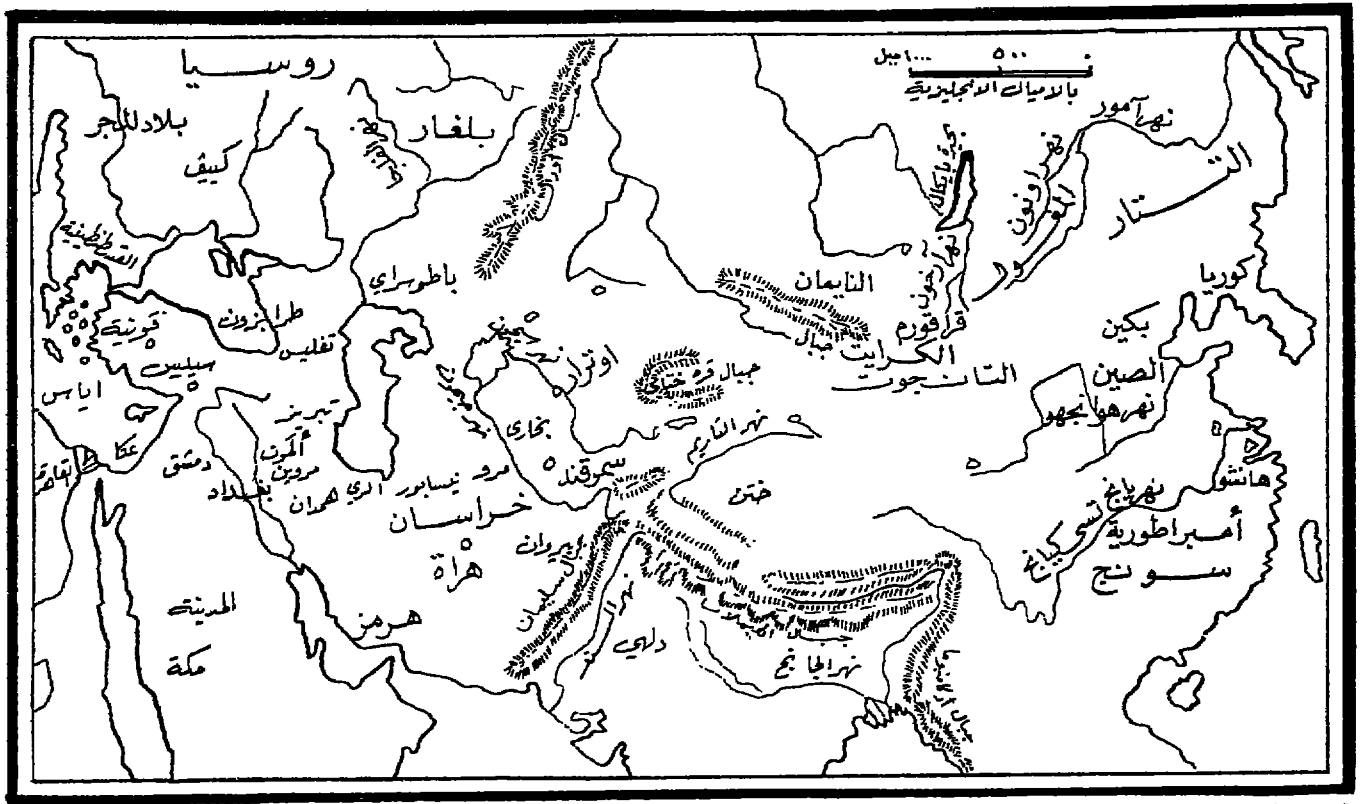
أقاليم الصين في القرن السادس



خريطة (١)


إيران
ما وراء النهر
أوزكند
بخارى
سمرقند
آمل
ترمذ
بلخ
الطالقان
خراسان
باميان
كابل
مرو
سرخس
أبيورد
نسا
دهستان
بحر قزوين
جرجان
أصفران
جوين
طوس
نيسابور
سبزوار
طبرستان
آمل
مازندران
دمغان
أردبيل
زنجان
قزوين
الري
همذان
ساوة
أسعداباذ
نهاوند
قم
قاشان
بلاد الجبل
قوهستان
قاين
هراة
الغور
غزنة
قندهار
بست
سجستان
كرمان
يزد
أصفهان
اصطخر
شيراز
فارس
خوزستان
تستر
السوس
الأهواز
البصرة
عبادان
الكويت
سيراف
هرمز
مكران
الخليج الفارسي
الحسا
شروان


الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها
البحر الأسود
سلاجقة الروم
جورجيا
كنجة
أرمينية
أران
شروان
الجزيرة
الموصل
أذربيجان
سوريا
اربل
همذان
نهاوند
بغداد
العراق العربي
العراق العجمي
أصفهان
خوزستان
البصرة
شيراز
فارس
كرمان
هرمز
الخليج الفارسي
بلاد العرب
قزوين
ألموت
آمل
قم
مازندران
نيسابور
زوزن
نسا
مرو
هراة
خراسان
يزد
خوارزم
اقليم خوارزم
شهرستان
بحر آرال
جند
أترار
بلاد ماوراء النهر
نهر جيحون
أموية
بخارى
سمرقند
كش
خجند
بناكت
فرغانة
ترمذ
بلخ
الطالقان
باميان
بروان
غزنة
كابل
بشاور
الغور
سجستان
قوهستان
بلوخستان
مكران
لاهور
ملتان
نهر السند
دهلي
نهر الكنج
بلاد الهند
التبت
بارقند
ختن
كاشغر
بلاساغون
بحيرة بلكاش
نهر ارتش
أميل
نهر اميل
الخطا



خريطة (٤)
امبراطورية المغول

ثالثاً ـــ الصور



« چنگيزخان » الخان الأعظم للمغول



حفل تولية أوكتاي قا آن
عرش المغول



وفاة السلطان محمد خوارزمشاه في جزيرة آبسكون



محاربة السلطان جلال الدين للكرج



تركان خاتون والدة السلطان محمد خوارزمشاه في أسر المغول



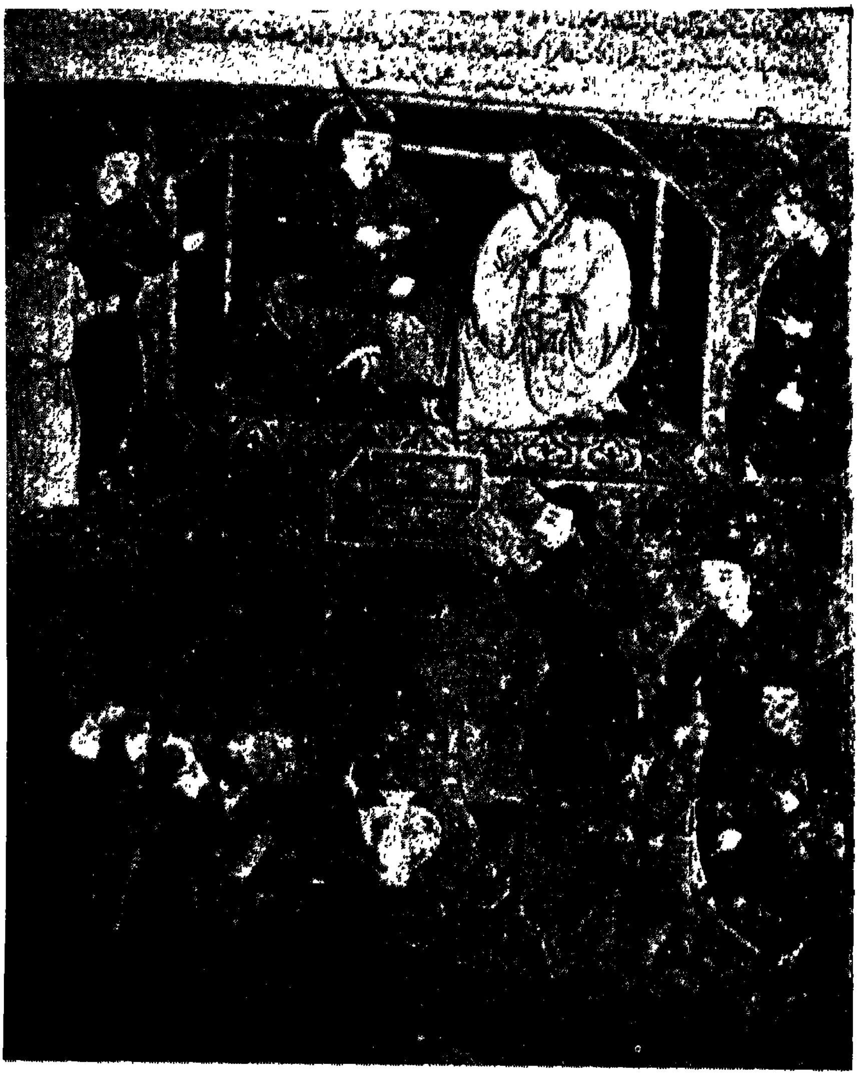
انعقاد القوريتلاى لانتخاب منكو خاناً أعظم للمغول



(أعل الصورة) أبناء تولوي الثلاثة
منكو – قوبيلاي – هولا كو



قوبيلاي قاآن



جلوس هولاگو على العرش



جندي مغولي

فهرس الموضوعات

صفحة

إهداء ٦

تقديم بقلم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ٩

مقدمة المؤلف ١٢

الفصل الأول

(ص ١٩ — ٣٦)

قبائل الترك والمغول في القرن السادس

الصعوبات التي تواجه المؤرخ ١٩

الأتراك الأويغوريون ٢٢

الأتراك القراخطائيون ٢٣

قبائل التتار ٢٥

قوم كرايت ٢٧

قوم مركيت ٢٨

قبائل أويرات — قبيلة نايمان ٢٩

أتراك قرلق — قبائل القرغيز ٣٠

صفحة

المغول ٣١
الصراع بين القبائل التركية والمغولية ٣٣

الفصل الثاني

ظهور چنگيزخان

(ص ٣٩ — ٥٧)

ولادته ٣٩
أسرته ٤٠
حالته بعد وفاة أبيه ٤١
أثر البيئة في تنشئته ٤٤
ظهور قوته وجبروته ٤٥
تموچين وقبيلة كرايت ٤٦
تموچين وقبيلة النايمان ٤٧
دخول الأويغوريين في طاعة چنگيزخان ٤٩
سيطرة چنگيزخان على مناطق الصين الشمالية ٥١
قضاء چنگيزخان على كوچلك خان ومجاورته أملاك الدولة الخوارزمية ٥٤

الفصل الثالث

الشرق الإسلامي إبان غزوات المغول

(ص ٦١ — ٩١)

الخوارزميون ٦١
السلطان محمد والدولة الغورية ٦٣
السلطان محمد والقراخطائيون ٦٥
السلطان محمد والخليفة العباسي ٦٩

صفحة

الإسماعيلية ٧٤
الأيوبيون في الشام ومصر ٨٦
سلاجقة الروم ٨٩
تفكك العالم الإسلامي ٩٠

الفصل الرابع

تطور العلاقات بين الدولة الخوارزمية والمغول قبل هجوم چنگيزخان

(ص ٩٥ — ١٠٧)

المناوشات الحربية بين السلطان محمد والمغول ٩٥
أول سفارة يرسلها السلطان محمد إلى الصين ٩٧
سفارة چنگيزخان إلى السلطان محمد وعقد معاهدة معه ٩٩
وصول قافلة التجار من رعايا چنگيز إلى أترار ١٠٣
مذبحة أترار وحقيقة موقف السلطان محمد ١٠٤
أثر هذه الحادثة في نفس چنگيزخان ١٠٥

الفصل الخامس

حملات چنگيزخان على الدولة الخوارزمية

(ص ١١١ — ١٣٨)

الهجوم على منطقة ما وراء النهر ١١١
عبور المغول نهر جيحون وتعقب خوارزمشاه ١٢٠
نهاية السلطان محمد خوارزمشاه ١٢١
فتح إقليم خوارزم ١٢٣

صفحة

استيلاء المغول على إقليم خراسان ١٢٩
سيطرة المغول على إقليم غزنة ١٣٢
السلطان جلال الدين منكبرتي والمغول ١٣٣
عودة چنگيزخان إلى منغوليا وموته ١٣٦

الفصل السادس

سياسة چنگيزخان وتحليل شخصيته

(ص ١٤١ — ١٥٩)

حكم التاريخ على چنگيزخان ١٤١
هل كان چنگيزخان وحده سفاكاً وطاغية ؟ ١٤٣
تحليل شخصيته ١٤٧
سياسته ١٥٠
مستشاروه ١٥٤

الفصل السابع

خلفاء چنگيزخان من أسرة أوگتاي قا آن

(ص ١٦٣ — ٢٠١)

١ — أوگتاي قا آن

تقسيم ممالك چنگيزخان ١٦٣
انتخاب أوگتاي خاناً أعظم للمغول ١٦٦
حروب المغول في إيران ١٦٧
نهاية السلطان جلال الدين وسقوط الدولة الخوارزمية ١٧١
تحليل شخصية جلال الدين ١٧٣

صفحة

المغول يواصلون فتوحاتهم في البلاد الإسلامية ١٧٩
فتح أقاليم الصين الشمالية ١٨٤
المغول في أوربا ١٨٦
وفاة أوكتاي قا آن ١٨٨
النظم والإصلاحات التي تمت في عهد أوكتاي ١٨٩
صفات أوكتاي وأخلاقه ١٩٢

٢ — كيوك خان

اضطراب أحوال المغول على أثر وفاة أوكتاي ١٩٤
انتخاب «كيوك» خاناً أعظم ١٩٦
سياسته ١٩٨

الفصل الثامن

خلفاء چنگيزخان من أسرة تولوي خان

(ص ٢٠٥ — ٢٢٧)

٣ — منگوقا آن

انتخاب «منگو» خاناً أعظم للمغول ٢٠٥
إصلاحات منگوقا آن الداخلية ٢٠٩
مشروع التحالف بين المغول والمسيحيين ٢١٢
سياسة منگوقا آن الخارجية ٢١٥

٤ — قوبيلاي قا آن

انتخاب «قوبيلاي» خاناً أعظم للمغول ٢١٦

صحيفة

إصلاحاته الإدارية والعمرانية ٢١٨

ماركو پولو في بلاط قوبيلاي ٢٢٤

الفصل التاسع

حملة هولاگو خان على إيران والقضاء على الإسماعيلية

(ص ٢٣١ — ٢٤٥)

تكليف منگوقا آن أخاه هولاگو بقيادة الحملة على إيران ٢٣١

الخطة التي رسمها منگو لهولاگو ٢٣٢

الأسباب التي جعلت المغول يهاجمون طائفة الإسماعيلية ٢٣٣

فتح قلاع الإسماعيلية والاستيلاء عليها ٢٣٦

تسليم خورشاه حاكم الإسماعيلية وسقوط هذه الطائفة ٢٤٢

كيف عامل «هولاگو» خورشاه ، وكيف كانت نهايته ٢٤٣

الفصل العاشر

هولاگو خان وسقوط الخلافة العباسية

(ص ٢٤٩ — ٢٨٦)

الحالة التي كانت عليها الخلافة والخليفة إبان الغزو المغولي ٢٤٩

رسالة هولاگو إلى الخليفة ورده عليها ٢٥٥

سير الحملة ٢٥٨

تسليم الخليفة وسقوط بغداد ٢٦٤

ما أحدثه المغول من تخريب وتدمير في هذه المدينة ٢٦٥

كيف عامل المغول الخليفة ، وعلى أي نحو قتلوه ؟ ٢٦٦

مؤيد الدين بن العلقمي وموقفه من فتح بغداد ٢٧١

صفحة

وفود الملوك والأمراء على هولاكو ٢٧٨
نتائج سقوط بغداد ٢٧٩

الفصل الحادي عشر

حملة هولاكوخان على الشام

(ص ٢٨٩ – ٣٢٦)

السلطات الحاكمة في الشام في ذلك الوقت ٢٨٩
احتدام النزاع بين الأمراء الأيوبيين ٢٩٠
تحالف المغول مع الحكام المسيحيين في غرب آسيا ٢٩١
تحرك الجيش المغولي وفتح سورية الإسلامية ٢٩٢
رحيل هولاكو عن الشام ، وترْك قائده كيتو بوقا لإتمام فتح
فلسطين ومصر ٢٩٨
رسالة هولاكو إلى السلطان قطز وموقف هذا السلطان ٣٠٤
انتصار المصريين في موقعة عين جالوت ٣٠٨
نتائج هذه الموقعة ٣١٣
السنوات الأخيرة من حياة هولاكو ٣٢١
وفاته ٣٢٤
سياسته ٣٢٥

الفصل الثاني عشر

تقاليد المغول ونظمهم الاجتماعية والحربية

(ص ٣٢٩ – ٣٦٨)

تشابه التقاليد والعادات المنتشرة بين القبائل المغولية والتركية ٣٢٩
مأكل المغول ٣٣٠

صفحة

ملبسهم ٣٣٢
مسكنهم ٣٣٣
ديانتهم ٣٣٥
قوانينهم « الياسا » ٣٣٨
نظمهم الاجتماعية ٣٥١
نظمهم الإدارية والحربية ٣٥٨

مراجع الكتـــاب

(ص ٣٧١ – ٣٨٣)

أولاً – المراجع العربية ٣٧١
ثانياً – المراجع الفارسية ٣٧٩
ثالثاً – المراجع الأوربية ٣٨٢

الجداول – الخرائط – الصور

(ص ٣٨٧ – ٤٢١)

أولاً – الجداول ٣٨٧
ثانياً – الخرائط ٣٨٥
ثالثاً – الصور ٤٠٣